

شرح

مَقَامَاتُ الْحَبْرِي

لأبي العباس أحمد بن عبد المومن القيسي الشيبلي

تأليف
محمد عبد الفضل ابراهيم



للكتاب العصرية
مستطاب - بيروت

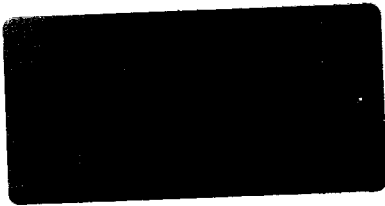
الجزء الثاني

شرح مقامات الحريري

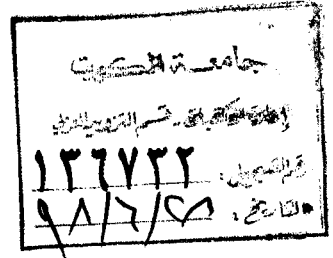
للأبي العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم



المجلد الثاني



المكتبة العصرية
مكتبة

جميع الحقوق محفوظة

١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م

شركة البناء شريف الانصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار البيضاء - المغرب

بكرت - ص.ب. ٨٣٥٥ - تلوكس ٢٠٤٢٢٢ LE

صيدا - ص.ب. ٢٢١ - تلوكس ٢٩١٩٨ LE

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقامة الحادية عشرة وهي السّاوية

حدّث الحارث بن همام ، قال : آتتُ مِنْ قَلْبِي الْقَسَاوَةَ ،
حِينَ حَلَلْتُ سَاوَةَ ، فَأَخَذْتُ بِالْخَبْرِ الْمَأُورِ ، فِي مُدَاوَاتِهَا
بِزِيَارَةِ الْقُبُورِ .

فَلَمَّا صِرْتُ إِلَى مَحَلَّةِ الْأَمْوَاتِ ، وَكَيْفَاتِ الرُّفَاتِ ، رَأَيْتُ
جَمْعًا عَلَى قَبْرِ يُحْفَرُ ، وَتَجْنُوزٍ يُقْبَرُ ، فَاَنْحَزْتُ إِلَيْهِمْ مُتَفَكِّرًا فِي
الْمَالِ ، مُتَذَكِّرًا مِنْ دَرَجٍ مِنَ الْآلِ .

فَلَمَّا أَلْحَدُوا لِلْمَيِّتِ ، وَفَاتَ قَوْلُ لَيْتَ ، أَشْرَفَ شَيْخٌ
مِنْ رِبَاوَةِ ، مُتَخَصِّرًا بِهَرَاوَةِ ، وَقَدْ لَفَعَ وَجْهَهُ بِرِدَائِهِ ، وَنَكَرَ
شَخْصَهُ لِدَهَائِهِ .

* * *

الحادية عشرة ، تبني على الفتح كبناء أحد عشر . آتت : أدركت
وأحسست .

القَسَاوَةُ : غِلَظُ الْقَلْبِ . وَقَلْبٌ قَاسٍ وَقَسِيٌّ ، أَيْ صَلْبٌ ، وَقُلُوبٌ قَاسِيَةٌ
وَقَسِيَّةٌ ؛ وَهِيَ عَنِ الْكَسَائِيِّ وَالْفَرَّاءِ لَفْتَانٌ بِمَعْنَى وَاحِدٍ .

أَبُو عُبَيْدَةَ : الْقَاسِيَةُ مَأْخُودَةٌ مِنَ الْقَسْوَةِ ، وَالْقَسِيَّةُ الَّتِي لَيْسَتْ خَالِصَةً
الْإِيمَانِ ، كَالدَّرَمِ الْقَسِيِّ وَهُوَ الَّذِي خَالِطُهُ غَشٌّ مِنْ نَحَاسٍ أَوْ غَيْرِهِ ، وَقَدْ قَسَا الْقَلْبُ
يَقْسُو قَسَاوَةً وَقَسَاءً : صَلْبٌ .

ساوة : بلد بينه وبين الرّمي اثنان وعشرون فرسخاً ، وهى فى الطريق ما بين همدان والرّمي .

[نبذ من الأقوال الحكيمة فى المواعظ]

الخبر المأثور ، أى الحديث به ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : «عُودُوا الرّضى ، واحضروا المقابر ، فإنّها تزهد فى الدنيا ، وتذكر الآخرة » .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كنتُ نهيتكم عن زيارة القبور ، ثمّ بدأ لي فزُورُوها ، فإنّها ترقق القلب ، وتدمع العين ، وتذكر الآخرة » .

وسأل رجل عائشة رضى الله عنها ، فقال : يا أمّ المؤمنين ، إن لي داء فهل عندك دواؤه ؟ قالت : وما دأؤك ؟ قال : القسوة ، قالت : بئس الداء دأؤك . عدّ الرضى ، واشهد الجنائز ، وتوقع الموت .

وقيل لعلّى رضى الله عنه : ما شأنك جاورت المقبرة ! قال : إني أجدهم خيرَ جيران صدق ، يكفون الألسنة ، ويذكرون الآخرة .

وكانت عجوز فى عبد القيس متعبدة ، فإذا جاء الليل تمخّضت ، ثم قامت إلى الحراب ، فإذا جاء النهار خرجت إلى المقبرة ؛ فعوتبت فى إتيان القبور ، فقالت : إن القلب القاسى إذا جفا لم يلبّنه إلا رسوم البلى ، وإني لآتي القبور ؛ فكأنني أنظر وقد خرجوا من بين أطباقها ، وكأنني أنظر إلى تلك الوجوه المتعفّرة ، وإلى تلك الأجسام المتغيّرة ، وإلى تلك الأكفان الدّسمة .

وقال ميمون بن مهران : خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة ؛ فلما نظر إلى القوم بكى ، ثم أقبل على فقال : يا ميمون ، هذه قبور آبائي بنى أمية ،

كانهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم وعيشهم؛ أما تراهم صرعى قد خلت من قبلهم المثلثات، واستحكم فيهم البلى، وأصابهم الهموم في أبدانهم مقيلاً، ثم بكى وقال: والله لا أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد آمن من عذاب الله.

استنشد المتوكل أبا الحسن علي بن محمد بن موسى بن جعفر بن علي بن الحسين، فقال: إني لقليل الرواية في الشعر، فقال: لا بد، فأنشده:

باتوا على قُللِ الأجيال تحرسُهُم غلب الرجال فلم تنفعهُم القُللُ^(١)
واستنزَلُوا بعد عزٍّ عن معاقِلِهِم وأودِعُوا حُفراً، يابئس ما نزلوا!
ناداهم صارخ من بعد ما دُفِنُوا: أين الأسرَّة والتيجان والحلل؟
أين الوجوه التي كانت منعمَةً من دونها تُضرب الأستار والكُلل!
فأفصح القبر عنهم حين سِيلَ بهم^(٢): تلك الوجوه عليها الدودُ يفتل!
قد طالما أكلوا دهرًا وما شربوا
فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا

قال عمر: لو أنشد شعراً في أو صاف آبائه وبنى عمه ملوك بني أمية وانحطاطهم من عز المملكة إلى ذل المقبرة، لم يكن إلا هذا الشعر.

أبو الحسن اتقلوب كان قد سُمي به إلى المتوكل، وقيل له إن في بيته سلاحاً وكتباً وغير ذلك، فوجه إليه بعدة من الأتراك، فجمعوا عليه على غفلة ممن في داره، فوجدوه في بيت مغلق عليه وحده، وعليه منيح شعير، ولا بساط في البيت إلا الرمل والحصى، وعلى رأسه ملحفة صوف متوجهاً إلى ربه، يترنم بالقرآن، فثل بين يدي المتوكل على حاله، والمتوكل يشرب وفي يده كأس،

(١) المَعْدَى ٤ : ٩٤

(٢) في الأصول : . فأصبح . ، ولأصح ما أثبت من المعوى

فلما رآه عظمه وأجلسه إلى جنبه . وعلم أنه لا يوجد عنده شيء مما قيل ، فتناوله فقال : يا أمير المؤمنين ، ما خمر لمي ولا دمي قط ، فأعفى منه ، فأعفاه ، ثم قال : أنشدني شعراً أستحسنه ، فأنشده الأبيات المتقدمة ، فأشفق من حضر عليه من المتوكل . فوالله لقد بكى المتوكل بكاءً طويلاً ، وبكى من حضر ، وقال : يا أبا الحسن ، أعليك دين ؟ قال : أربعة آلاف درهم ، فدفعت إليه ، وردّ إلى منزله مكرّماً ، وقال له : ما يقول ولد أبيك في العباس بن عبد المطلب ! قال : وما يقولون يا أمير المؤمنين في رجل افترض الله طاعته على بنيه ! فأمر له بمائة ألف درهم ، وإنما أراد طاعة الله على بنيه فعرّض .

وقال سابق البربري^(١) في المعارض :

تعاون على الخيرات تظفروا ولا تكن على الإثم والعدوان ممن يعاون
وداهن إذا ما خفت يوماً مسلطاً عليك ، ولا يخال من لا يداهن
ولا تك ذا لونين بيدي بشاشة وفي صدره صبّ من الغلّ كامن^(٢)

رجعت إلى عرض المقامة .

عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجلس إلى قبر ، وكنت أدنى القوم منه ، فبكى وبكىنا ، فقال : ما يبكيكم ؟ قلنا : بكائك ، قال : هذا قبر أمي آمنة ، استأذنت ربي في زيارتها ، فأذن لي ، فاستأذنته في أن أستغفر لها ، فأبى عليّ ، فأدركني ما يدرك الولد من الرقة .

وكان عثمان إذا وقف على قبر بكى حتى يبلى لحيته ، فسئل عن ذلك ، فقيل

(١) هو أبو سعيد سابق بن عبد الله ، صاحب الأشعار الحسنة في الزهد ، والبربري لقبه .
وليس منسوباً إلى البربر . خزائن : ٤ : ١٦٥ .
(٢) الصب بالفتح : العداوة والنبط .

له :تذكر الجنة والنار ولا تبكى ، وتبكي إذا وقفت على قبر ! فقال : سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : « إنَّ القبر أول منازل الآخرة ، فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد » .

والمقصود من زيارة القبور الاعتبار للزائر والانتفاع بدعائه للمزور ، ولا ينبغي أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت .

وكان رجل يشهد الجنائز ، فإذا أمسى وقف على المقابر ، فقال : آنس الله وحشتكم ، ورحم الله غربتكم ، وتجاوز الله عن سيئاتكم ، وقبل الله حسناتكم ؛ لا يزيد على هذا شيئاً . قال : فأمسيت ليلة ولم أذع ، فبينما أنا نائم إذا خلق كثير قد جاءوني ، فقلت : من أنتم ؟ قالوا نحن أهل المقابر ، قلت : ما حاجتكم ؟ قالوا : إنك كنت عودتنا هدية عند انصرافك إلى أهلك ، قلت : وما هي ؟ قالوا : الدعوات التي كنت تدعو ، قلت : فإني أعود لذلك ؛ فاتركتها بعد ذلك .

قوله : محلة الأموات ، هي المقابر التي يحلون بها . كفات : قبور وأوعية وكفت الشيء : ضمته وقبضته ، وكفات الشيء : ماضيه وستره ، وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴾ أحياء وأمواتا^(١) قيل : كفات الأحياء بيوتهم ، وكفات الأموات قبورهم . والرفات : العظام البالية ، وقال ابن المعتز في مقبرة :

وسكان دارٍ لا تراوَر بينهم على قرب بعضٍ في التجاور من بعضٍ^(٢)
كان خواتماً من الطَّين فوقهم فليس لها حتى القيامة من فضٍّ

وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه :

انظر لنفسك يا مسكين في مهلٍ ما دام ينفعك التَّكبير والنَّظَرُ

(١) سورة المرسلات ٢٥ ، ٢٦ .

(٢) ديوانه ٢ : ١٣٩

قف بالمقابر وانظر إن وقفتَ بها لله درك ماذا تَشْتَرُ الحَنَرُ !
ففيهمُ لك يا مغرور موعظةٌ وفيهمُ لك يا مغترّ معترٌّ برّ !

وقال مالك بن دينار : مررت بالمقابر ، فأنشدت أقول :

أتيتُ القبور فناديتُها فأين المعظمُ والهُجَمَقَرُ ؟
وأين المدلُّ بسلطانهِ وأين المزكى إذا ما افتخر ؟
فنوديت من بينهم : لا أرى شخوصاً لهم ولا من أتر !
تفانوا جميعاً فلا مخبرٌ وماتوا جميعاً ومات الخبرُ
فيا سائلِي عن أناسٍ مضوا أما لك فيما ترى مُعْتَبَرُ !
تروح وتغدو بناتُ الثرى وتمحى محاسنُ تلك الصُور !

ومما وجد على قبر مكتوباً :

تُناجيك أجداثٌ وهنَّ سكوتٌ وسكّانُها تحْتَ الثرابِ خفوتُ
أيا جامعَ الدنيا لغيرِ بلاغةٍ لمن تجمع الدنيا وأنت تموتُ ؟

ومما وجد على قبر مكتوباً :

إن الحبيبَ من الأحبابِ مختلسٌ لا يمنع الموتَ بوابٌ ولا حرسُ
فكيف تفرح بالدُّنيا ولذَّتها يا مَنْ يمدّ عليه اللفظُ والنفسُ ؟
لا يرحمُ الموتُ ذا جاهٍ لعزّته ولا الذى كان منه العلمُ يُقتبسُ
قد كان قصرُك معموراً له شرفٌ فقبرُك اليومَ فى الأجداثِ مُندرسُ

ووجد على قبر مكتوباً :

وقفت على الأحبة حين صُفّت قبورهمُ كأفراسِ الرهّانِ

فلما أن بكيتُ وفاضَ دمي رأيتُ عيناى بيتهُم مكاني

قال أعرابي: مَنْ خاف الموت بادر الفوت ، ومن لم يقمع النفس عن الشهوات
بادرت به إلى الهلكات ، والجنة والنار أمامك .

مرض أعرابيٌ ثقيل له : إنك تموت ، قال : وإذا مت فإلى أين أذهب ؟
قالوا : إلى الله ، قال : فما كراحتى أن أذهب إلى مَنْ لم أر الخير إلا منه !

وقال أعرابيٌ : ما بقاء عمر تقطعه الساعات ، وسلامة بدنٍ معرض للآفات !
ولقد عجبت للمؤمن كيف يسكره الموت وهو ينقله إلى الثواب الذي أحيا له ليله ،
وأظماً له نهاره !

وقال آخر : مَنْ كانت مطيئاه الليل والنهار ، سارا به وإن لم يسِرْ ، وبلغا
به وإن لم يبلغ .

آخر : تصرف الليل والنهار ، لا تبقى معه الأعمار ، ولا لأحدٍ فيه الخيار .
قوله : مجنوز ، أى مَيِّت ؛ وحكى ابن سيده قول بعضهم : جنزت الميت
إذا سترته بالكفن . وقال الحسن - لما أنذر بمجنازة النوار امرأة الفرزدق - للمنذر
بها : إذا جنزتموها فأذنوني بالمجنازة ، والمجنازة من جنزت وهى بالفتح الميت ،
وبالكسر النعش ، وقيل معناها واحد ، وهو الميت ، والمختار الكسر . يُقَبَّرُ :
يدفن . انحزت : ملت . المأل : المرجع . مذكراً : متذكراً . درج : هلك .
الآل : الأهل . ألدوا : دفنوا وألقوه فى اللحد ، وهو حفير فى جانب القبر ،
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المقبرة يقول : « السلام عليكم
دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » .

وكان على رضى الله عنه إذا دخلها يقول : السلام عليكم يا أهل الديار
الموحشة والمنازل المقفرة ، من المؤمنين والمؤمنات . اللهم اغفر لنا ولم ، واعفُ

عنا وعنهم . ثم يقول : الحمد لله الذى جعل الأرض كِفَاتًا ، أحياء وأمواتًا ، منها خَلَقْنَا ، وإليها معادُنَا ، وعليها محشرنا ، طوبى لمن ذكر المعاد ، وقنع بالكفاف ورضى عن الله .

وكان الحسن البصرى رحمه الله إذا دخل قال : اللهم ربّ الأجساد البالية ، والعظام النّخرة ، التى خرجت من الدنيا وهى بك مؤمنة ، أدخل عليها روحًا منك وسلامًا منا .

قوله : «أشرف» : أى طلع . والربّاوة^(١) : الكذبة . متخصّر : أى جاعلها مما يلى خصره . هراوة : عصا . لقع : غطّى . نكّر : غير هيئته . لدهائه : لكرهه .

* * *

فقال : لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ، فاذْكُرُوا أَيُّهَا الْغَافِلُونَ ، وَشَمِّرُوا أَيُّهَا الْمُقَصِّرُونَ ، وَأَحْسِنُوا النَّظَرَ أَيُّهَا الْمُتَبَهِّرُونَ . مَا لَكُمْ لَا يَخْزِيكُمْ دَفْنُ الْأَتْرَابِ ، وَلَا يَهْوِيكُمْ هَيْلُ الثَّرَابِ ، وَلَا تَغْبِثُونَ بِنَوَازِلِ الْأَحْدَاثِ ، وَلَا تَسْتَعِدُّونَ انْزُولِ الْأَجْدَاثِ ، وَلَا تَسْتَعْبِرُونَ لِمَعِينِ تَدْمَعُ ، وَلَا تَغْتَبِرُونَ بِنَهْيِ يُسْمَعُ ، وَلَا تَرْتَاعُونَ لِإِلْفٍ يُفْقَدُ ، وَلَا تَلْتَاعُونَ لِمَنَاحَةِ تُعْقَدُ ، يُشِيعُ أَحَدُكُمْ نَفْسَ الْمَيِّتِ ، وَقَلْبُهُ تِلْقَاءَ الْبَيْتِ ، وَيَشْهَدُ مَوَارَاةَ نَسِيبِهِ ، وَفِكَرُهُ فِي اسْتِخْلَاصِ نَصِيبِهِ ، وَيُخَلِّي بَيْنَ وَدُودِهِ وَدُودِهِ ، ثُمَّ يَخْلُو بِزَمَرِهِ وَعُودِهِ .

* * *

(١) الرباوة ، مثلثة الراء . والكذبة ، بالضم : الأرض الغليظة .

ويقال : قصر فهو مقصر ، إذا ترك الشيء وهو قادر عليه وشمر : اجتهد .
 والمتبصر : الناظر في الشيء على وجه التفتهم ، فقد يصيب وقد يخطئ ،
 ولذلك قالوا : أحسنوا النظر . الأتراب : الأصحاب المتقاربون في الموالد ، كأنهم
 قُطعوا من تربة واحدة ، وأكثر ما يقع للنساء ، وإذا مات للإنسان صاحبٌ
 على سِنِّه كان أوقع لحزنه ، فلذا نَبَّه بالتراب ، قال الألبيري^(١) :

فإن الردى غلّ أهل التقى فلم يبق إلا الفشوم العتيد
 وأودى بكلّ خليل ودودٍ فأين ، ولا أين ، خلّ ودود !
 وكَم من أخى ثقةٍ قد لحدتُ فله ما غيّبته اللُّحودُ
 وأنكأني الأنسَ نكل اللداتِ فصرت كَأنى غريبٍ وحيدُ
 وكَم من شقيّ يُوارى الترابَ وكَم من سعيدٍ يُوارى الصَّعيد !
 قوله : « يهولكم » ، أى يفزعكم ، والهيل : الصب الكثير من أعلى إلى
 أسفل ، فى مثل كدس الرمل ، وعند صبّ التراب على الميت تطير القلوب
 إشفاقاً ، وتسيل العيون رحمة ، قال أبو العتاهية :

بكيْتُكَ يا أخى بدمع عيني فلم يُغنِ البكاء عليك شيئاً^(٢)
 كفى حزنًا بدفئك مُمّ أنى نفضتُ تراب قبرك من بدباً
 وكانت فى حياتك لى عظامٌ وأنت اليوم أوعظُ منك حياً

أبو على الرازى : مررت بصبيان فى طريق الشام يلعبون بالتراب ، وقد
 ارتفع الغبار ، فقلت : مهلا ، قد غبّرتم ، فقال صبيّ منهم : يا شيخ : أين تفر

(١) الكامل للمبرد ٢ : ١١ ، وذكر قبل هذه الأبيات :

طوّنتك خطوبٌ دهرِكَ بعد نشرٍ كذاكَ خطوبُهُ نشرًا وطياً
 فلو نشرتُ فواك لى المنايا شكوتُ إليك ما صنعتُ إلّا

إذا هيل عليك الترابُ في القبر؟ فغُشِيَ علىَّ ، فأفقت والصبيّ قاعد عند رأسي مع الصبيان سيكون ، فقلت له : أعندك حيلة في الفرار من التراب؟ قال : أنا لا أعلم ، ولكن سل غيري ، فقلت : وَمَنْ غيرُك؟ قال : عقلك . تعبتون : تبالون وتمتّمون . والنوازل : جمع نازلة ، وهي المصيبة . الأحداث : ما يحدث على الإنسان من الخير والشر . والأجداث ، بالجمع : القبور ، واحداها جدّث وجدّث . تستعبرون : تبكون . تعتبرون : تتعظون وتروّنه عبرة . والنّعى : ذكر موت الإنسان ، وكانت العرب إذا مات منها سيّد ركب رجلاً فرسه ، ومشى في الأحياء . فيقول : نعاء فلاناً ، والنّاعى : الخبر بموت الرجل ، وقد نَعاهُ نعيّاً . ترتاعون : تخافون . إلف : صاحب ، وهو في الأصل مصدر ألفت الشيء إلفاً ، فسُمّيَ به ، ويقال في معناه : أليف . تلتاعون : تحترقون من الحزن ، واللّوعة : حرقة من الهمّ . المناحة : اجتماع النساء للبكاء على الميت . تعقد : تجمع وتؤلف . وقلبه تلقاء البيت ، أى قلبه مستقبل لبيت الميت ، يفكر فيما ترك ليرثه . مُؤاراة : دفن ، وقد واره ، إذا ستره . استخلاص : تحصيل . ودوده الأول : محبوبه الذى يودّه ، ودوده الثانى : جمع دودة ، والوار للعطف .

وقال سابق البربرى في معنى ما تقدم :

نلهو ونأمل أياماً مُتَعَدِّدَةً لَنَا	سريعة المَرَّةِ تطوِيناً ونطوِينَهَا
كَمْ مِنْ عَزِيزٍ سَيَلَفَنِي بَعْدَ عِزَّتِهِ	ذُلًّا ، وضاحكة يَوْمًا سَبَّحَكِيهَا
وَالْحَتُوفُ تَرْبِي كُلَّ مَرْضَعَةٍ	وَالْحَسَابُ بَرَى الْأَرْوَاحَ بِأَرْيَهَا
لَا تَبْرَحُ النَّفْسُ تَنْقَى وَهِيَ سَالِمَةٌ	حَتَّى يَقُومَ بِنَادَى الْقَوْمِ نَاعِيهَا
وَلَنْ تَزَالَ طَوَالَ الدَّهْرِ ظَاعِنَةٌ	حَتَّى تَقِيمَ بَوَادِي غَيْرِ وَادِيهَا
أَمْوَالَنَا لِذَوَى الْمِيرَاثِ نَجْمُهَا	وَدُورُنَا لْخَرَابِ الدَّهْرِ نَذِيرُهَا

وقال آخر :

اعمل وأنت من الدنيا على حذرٍ واعلم بأنك بعد الموت مبعوثٌ
 واعلم بأنك ما قدمت من عملٍ يُحصى عليك، وما خلفت مَوروثٌ
 وقال الحسن : ابن آدم ! أنت أسير الدنيا ، رضيت من لذاتها بما ينقضى ،
 ومن نعيمها بما يمضي ، ومن مُلكها بما ينفد ، تجمع لنفسك الأوزار ، ولأهلك
 الأموال ، فإذا مِتَّ حملت أوزارك إلى قبرك ، وتركت أموالك لأهلك . أخذه
 أبو العتاهية فقال :

أَبَقَيْتَ مَالَكَ مِيراثًا لَوَارِثِهِ يَأْتِيَتْ شَعْرَى مَا بَقِيَ لَكَ الْمَالُ^(١)
 الْقَوْمَ بَعْدَكَ فِي حَالٍ تَسْرُؤُهُمْ فَكَيْفَ بَعْدَهُمْ دَارَتْ بِكَ الْحَالُ !
 مَلُّوا الْبُكَاءَ فَمَا يَبْكِيكَ مِنْ أَحَدٍ وَاسْتَحْكُمِ الْقَيْلُ فِي الْمِيرَاثِ وَالْقَالَ
 وقال ابن عبد ربه :

أَيَا مَنْ عِنْدَهُ أَمَلٌ طَوِيلٌ يُؤَدِّيهِ إِلَى أَجَلٍ قَصِيرٍ
 أَتَفْرَحُ وَالنِّيَّةُ كُلَّ يَوْمٍ تُرِيكَ مَكَانَ قَبْرِكَ فِي الْقُبُورِ
 هِيَ الدُّنْيَا فَإِنْ سَرَّتْكَ يَوْمًا فَإِنَّ الْحَزْنَ عَاقِبَةُ الشُّرُورِ
 سَتُسَلِّبُ كُلَّ مَا جُمِعَتْ فِيهَا كَعَارِيَةٍ تُرَدُّ إِلَى الْمِيسِرِ
 وقال جبلة بن الحويرث^(٢) :

يَا قَلْبُ إِنَّا فِي الْأَحْيَاءِ مَفْرُورٌ فَادْكُرْ وَهَلْ يَنْفَعُنكَ الْيَوْمَ تَذْكِيرُ^(٣)
 تَرِيدُ أَمْرًا وَلَا تَذَرِي : أَعْاجِلْهُ خَيْرٌ لِنَفْسِكَ أَمْ مَا فِيهِ تَأْخِيرُ !
 فَاسْتَقْدِرِ اللَّهَ خَيْرًا وَارْضَيْنِ بِهِ فَبَيْنَمَا الْعَمْرُ إِذَا دَارَتْ مِيسِيرُ

(١) الأبيات في المصربين ٥٢ ودرة النواص ٢٣ ونزهة الألباء ٢٨ ، وهي في اللسان
 دهر ، قال : « قال ابن بري : هي لعنير بن علي بن المزدري . وقيل : لحريث بن جبلة المزدري »
 (٢) يمدد و المصربين :
 (٣) جئ جرت بك إطلاقاً محاضير

قَدْ بَخَتَ بِالْحُبِّ مَا تُخْفِيهِ مِنْ أَحَدٍ جئ جرت بك إطلاقاً محاضير

وبينا المرء في الأحياء مُغْتَبِطًا إذ صار في الرّمس تغفوه الأعاصيرُ
يبكى الغريب عليه ليس يعرفه وذو قرابته في الحى مَسْرُورُ
حتى كأن لم يكن إلا تذكره والدّهر أَيْتَمًا حين دَهَارِ
وذاك آخر عهدٍ من أخيك إذا بالموت ضمّنه اللاحد الخناسير^(١)

* * *

طالما أُسَيْتُمْ عَلَى انْثِلَامِ الْحَبَةِ ، وَتَنَاسَيْتُمْ احْتِرَامَ الْأَحْيَةِ ،
وَاسْتَكَنْتُمْ لاعتِراضِ الْمُسْرَةِ ، وَاسْتَهَيْتُمْ باقتِراضِ الْأَسْرِقِ ،
وَضَحِكْتُمْ عِنْدَ الدَّفْنِ ، وَلَا ضَحِكْتُمْ سَاعَةَ الزَّفَنِ ، وَتَبَخَّرْتُمْ
خَلْفَ الْجَنَائِزِ ، وَلَا تَبَخَّرْتُمْ يَوْمَ قَبْضِ الْجَوَائِزِ ، وَأَعْرَضْتُمْ
عَنْ تَعْدِيدِ النِّوَادِبِ ، إِلَى إِعْدَادِ الْمَادِبِ ، وَعَنْ تَحْرِيقِ الثَّوَالِ كُلِّ ؛
إِلَى النَّائِقِ فِي الْمَسَاكِلِ ، لَا تَبَالُونَ بِمَنْ هُوَ بِالْ ، وَلَا تُخْطِرُونَ
ذَكَرَ الْمَوْتِ بِيَالِ ، حَتَّى كَأَنَّكُمْ قَدْ عَلِمْتُمْ مِنَ الْحَمَامِ بِزِمَامِ ،
أَوْ حَصَلْتُمْ مِنَ الزَّمَانِ عَلَى أَمَانِ ، أَوْ وَثِقْتُمْ بِسَلَامَةِ الذَّاتِ ،
أَوْ تَحَقَّقْتُمْ مُسَالَمَةَ هَادِمِ اللَّذَاتِ ؛ كَلَّا سَاءَ مَا تَتَوَهَّمُونَ ، ثُمَّ
كَلَّا سَرَفَ تَعْلُمُونَ !

* * *

قوله : « أُسَيْتُمْ » ، أى حزتم . انثلام : انكسار ونقصان . اخترام : هلاك ،
يقول : إذا انتقص لكم من المال أدنى شيء حزتم عليه ، ولا تحزنون على نقص
أحبابكم .

(١) فى الأصول : « المياسير » ، تحريف ، صوابه من المعمرين قال : الخناسير ،
جمع الخنسير - ويقال : الخناسرة - والخناسير : هم الذين يثيغون الميت .

أنس رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : من أصبح حزيناً على الدنيا ، أصبح سaxonاً على الله .

قوله : « استكنتم » ، ذلتم ، واستكان ، استعمل من لفظ الكين ، وهو لحم باطن الفرج . اعتراض العسرة : ظهور الفقر . انقراض الأسرة : موت القرابة الزفن : الرقص .

ضحكتكم عند الدفن ، جاء فى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى كره لكم العبث فى الصلاة ، والرفث فى الصيام ، والضحك فى الجنائز . ورأى ابن مسعود رضى الله عنه رجلاً يضحك فى جنازة ، فقال : تضحك وأنت فى جنازة ! والله لا أكلمك أبداً .

ونظر عبد الله بن ثعلبة إلى رجل يضحك فى جنازة مستغرباً ، فقال : أتضحك ولعلك قد أخذت أكفانك من القصار !

وفى الحديث « كثرة الضحك تميم القلب وتذهب بهاء المؤمن » .

قوله : « تبخرتم » ، أى تعظمت وأظهرتم الإعجاب فى مشيكم . الجوائز : العائلات وهم يظهرون فى أحسن الثياب عند الملوك لىكثر لهم العطاء .

أعرضتم : تعحيتم ، وهو من العرض ، كأنك إذا لقيت من تكره استقبلته بعرضك ، أى بجانبك . النوادب : النوائج اللواتى يندبهن الميت أى يبكينه ، فيقول : أعرضتم عن الباقيات حين عددن خصال الميت المحموده ، ولم تفكر فى تلك الحال . إعداد ، أى استعداد . المآدب : المطاعم للأعراس . تمحرق : توجع . التواكل : الفاقدات لأحبائهن . التأنق : التحسين ، وقد تأنق فى الشئ ، إذا احتفل فيه فأعجب به كل من رآه . بال : دارس متغير ، يريد الميت . ببال : بفكر وخاطر . الحام : الموت ، وأصله القدر . وهو من حم ، أى قدر ، وذات الشئ نفسه وحقيقته . مسالة : متاركة ومصالحة .

أبو هريرة رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أكثروا ذكر هادم اللذات ، قالوا : وما هادم اللذات ؟ قال : الموت » (١) .

وقال الألبيري في معنى ما تقدم :

كم آمنٍ للمنون لاهٍ	عن الردى بات مطمئناً
صَبَّحَهُ وَافِدُ الْمَنَايَا	فعاين الموت حين عَمَّا
حتى إذا ما قضى بَكَاهُ	حُمِيَهُ مَعُولًا مُرِنًا
واروه في لحده وسنوا	عليه قيد التراب سَنَّا
واتهَبُوا ماله وسنوا الـ	سفارات فيما حَوَاهُ سَنَّا
لثل هذا فكُن معدًّا	ما قد أعدَّ المِداة مِنَّا
وارتقب الموت فهو حَتْمٌ	يحترم الطفل والمِسِنَا

قوله : كلا ، زجر ، أى ليس الأمر كما ظننتم .

* * *

ثم أنشد :

أَيَا مَنْ يَدْعَى الْفَهْمَ إِلَى كَمْ يَا أَخَا الْوَهْمِ
مُتَعَبِي الذَّنْبِ وَالذَّمِّ وَتُخْطِى الْخَطَا الْجَمِّ

أَمَّا بَانَ لَكَ الْعَيْبُ ! أَمَّا أَنْذَرَكَ الشَّيْبُ !
وَمَا فِي نَصِيحِهِ رَيْبٌ وَلَا تَسْمَعُكَ قَدْ صَمَّ
أَمَّا نَادَى بِكَ الْمَوْتُ أَمَّا أَنْسَمَكَ الصَّوْتُ !
أَمَّا تَخْشَى مِنَ الْفَوْتِ فَتَحْتَاطَ وَتَهْتَمُّ

(١) نقله في الجامع الصغير ١ : ٩٠ .

فَكَمْ تَسْدُرُ فِي السَّهْوِ وَتَخْتَالُ مِنَ الزَّهْوِ
وَتَنْصَبُّ إِلَى اللَّهْوِ كَأَنَّ الْمَوْتَ مَاعَمَ

* * *

قوله :

أيا من يدعى الفهم إلى كم يا أبا الوهم
يسمى هذا من أنواع الشعر المستط ، أى المفصل ، مأخوذ من السّط وهو
سلك الجوهر المفصل بالزمرود والذهب وغير ذلك . الوهم : الفلّط . الجم : الكثير ،
وعلى قوله : « وتخطىء الخطأ الجم » ، ذكر الحريري في الدرّة^(١) أن قول الخواص :
« أخطأ لمن يأتي بالذنب متممداً تحريف للفظ والمعنى ، ولا يقال : أخطأ إلا لمن
لم يعتمد الفعل ولمن اجتهد » ، فلم يوافق الصواب لقوله صلى الله عليه وسلم :
« إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر » وإنما أوجب له الأجر على اجتهداه في إصابة
الحق الذي هو نوع من أنواع العبادة ، لاعن الخطأ الذي يكفى صاحبه أن يُعذّره فيه
ويرفع مآثمه عنه ، و[اسم] الفاعل من هذا النوع : مخطيء ، والاسم الخطأ ، قال الله
تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ﴾^(٢) ، وأما المتعمد ، فيقال فيه : خطيء
فهو خاطيء ، والمصدر الخطيء ، قال الله تعالى : ﴿ إِنْ قَتَلْتَهُمْ كَانَ خِطْأُ كَبِيرًا ﴾^(٣) ،
والاسم منه الخطيئة ، ويقع على الصغيرة ، قال الله تعالى : ﴿ أَنْ يَغْفِرَ لِي خِطِيئَتِي يَوْمَ
الْدِينِ ﴾^(٤) ، إخباراً عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وعلى الكبيرة كقوله تعالى
﴿ وَأَحَاطَتْ بِهِ خِطْيَتُهُ ... ﴾^(٥) الآية : قال أبو محمد الحريري : ولى في تضمين هاتين
اللفظتين وتخصيص معنيهما المتنافيين :

لَا تَخْطُونَ إِلَى خِطْءٍ وَلَا خَطَأٍ مِنْ بَدَمَا الشَّيْبِ فِي قَوْذَبِكَ قَدْ وَخَطَا
فَأَيَّ عَذْرٍ لَمْ شَابَتْ مَفَارِقُهُ إِذَا جَرَى فِي مِيَادِنِ الْهَوَى وَخَطَا
وهذه التفرقة منه مستحسنة ، وكذا يقع في أكثر كلامهم ، وأما على

(٣) سورة الإسراء ٣١

(٢) سورة النساء ٩٢

(١) درة القواس ٦٩

(٥) سورة البقرة ٨١

(٤) سورة الشعراء ٨٢

(٢ - شرح مقامات الحريري ٢) .

القطع فلا ، لأنه قد حكى الزجاج وقطرب وابن دريد في الجمهرة أن العرب تقول:
 خَطِئْتُ الشيءَ أخطؤه خطأً، وخطئني وأخطأته خطأً في معنى واحد ، قال :
 والناس يلحون الأمير إذا هُمُو خطئوا الصواب ولا يلام المرشدُ
 أما : حرف استفتاح وإخبار . بان : ظهر . أما أنذرك الشيب ،
 شيئاً مستوفياً .

وقال في الشيب الفقيه الزاهد أبو عمران رحمه الله :

ذهب الشبابُ بجهله وبعاره	وأتى المشيبُ بجمله ووقاره
شتان بين مبعده من ربه	بغروره ومبشر بجواره
مازلت أفرح بالشباب جهالة	كالطرف يفرح معجباً بعذاره
وسحبت أنواب البطالة لاهياً	وجررت من بطر فضول إزاره
حتى تقلص ظله فتكشفت	عوراته أوبدا قبيح عواره
لم أحظ منه بطائل غير الأسى	وتندم متى على أوزاره
والآن قد خط المشيب بمفرقي	بمواظي والحق في تذكاره
والنفس تركب غيها لا ترعوى	عنه ولا تُصغى إلى إنذاره
لمنى على عمرٍ يمر مضيئاً	محصى على بليله ونهاره

كان شاباً في بني إسرائيل عبد الله عشرين سنة ، وعصاه عشرين سنة ،
 فنظر يوماً في المرأة ، فرأى الشيب في لحيته ، فساءه ذلك فقال : إلهي أظعتك
 عشرين سنة ، وعصيتك عشرين سنة ، فإن رجعت إليك أتعلمني ؟ فسمع صوتاً
 من زاوية البيت : أحبيتنا فأحبيناك ، وتركتنا فتركناك ، وعصيتنا فأعلمناك ؛
 فإن رجعت إلينا قبلناك .

قال ابن وضاح : إذا باغ الرجل أربعين سنة ولم يقب ، مسح إبليس على وجهه ،
 وقال : بأبي وجه لا يفلح أبداً ! وأنشدوا :

وإذا مضى للمرء من أعوامه تخسّونَ وهو إلى التقى لم ينجح
ركدت عليه الخزيات وقلن قد أرضيتنا فأقم لذا لا تبرح
وإذا رأى إبليس غرة وجهه حيا وقال : فديت من لم يفلح

هو قال آخر :

تلاحظني المنتية من قريب وتلاحظني ملاحظة الرقيب
وتنشر لي كتابا فيه طي بخط الدهر أسطره مشيبي
كتاب في معانيه غموض تلوح لكل أبواب مُنيب
أزال الله يا صاحي شبابي فعوضت البغيض من الحبيب
وبدلت العكاسل من نشاطي ومن حسن النضارة بالشحوب
كذلك الشمس يعلوها اصفرار إذا جنحت ومالت للغروب

وهذا القدر كافٍ هنا في ذكر الشيب .

وقوله : « ريب » ، شك . أما أسمعك الصوت ، الصوت هنا : النياحة على
الميت . والفوت : بُعد الشيء . الاحتياط ، من الحوطة ، وهي الوقاية . تسدر :
تتبخر . تختال : تتكبر . الزهو : الكبر . عمّ : شمل .

ولأبي العتاهية في معناه :

حتى متى ذوالتيه في تيهه أصلحه الله وعافاه !
بتيه أهل التيه من جهلهم وهم يموتون وإن تاهوا
من طلب العز لبقى به فإن عز المرء تقواه
لم يعتصم بالله من خلقه من ليس يرجوه ويخشاه

ولحمد بن حازم :

فيا شامحا أقصر عنانك مقصرا فإن مطايا الدهر تكبو وتعترا
ستقرع سننا أو تعض ندامة يدبك إذا خان الزمان وتبصر
ويلقاك رشد بعد غيبك واعظ ولكنه بقلبك والأمر مدبر

* * *

وَحَتَّامٌ تَجَافِيكَ وإبطاء تَلَايِكَ
طَبَاعًا جَمَعْتَ فِيكَ عِيوبًا شَمَلَهَا انْضَمَّ

إِذَا أَسْخَطْتَ مَوْلَاكَ فَمَا تَقَالِقُ مِنْ ذَلِكَ
وَإِنْ أَخْفَقَ مَسْعَاكَ تَلَطَّيْتَ مِنَ الْهَمِّ

وَإِنْ لَاحَ لَكَ النَّقْشُ مِنَ الْأَصْفَرِ تَهْتَشُ
وَإِنْ مَرَّ بِكَ النُّعْشُ تَغَامَمْتَ وَلَا غَمَّ

تُعَايِي النَّاصِحَ الْبَرَّ وَتَعْتَاصُ وَتَزَوَّرُ
وَتَنْقَادُ لِمَنْ غَرَّ وَمَنْ مَانَ وَمَنْ نَمَّ

* * *

قوله : «تجافيك» ، أى تباعدك من فعل الخير . إبطاء : تأخر . تلافيك : تداركك . طباعا : أخلاقا ؛ يريد أن أخلاقك قد جمعت فيك عيوباً انضم عليك شملها . أخفق : خاب . مسعاك : طلبك ومشيك فى اكتساب الرزق . تلطيت : احترقت واشتعلت ، وهو تفتلت ، من اللظى . الأصفر : الدينار ، وقشه الكتاب

الذى فيه . تهتس : تحف وتهتز طرباً . تنامت : أظهرت الغم . ولا غم ، أى
ليس عندك غم على الحقيقة .

كان أبو الدرداء رضى الله عنه إذا رأى جنازة قال : اغدى فإننا راحمون ،
أو روحى فإننا غادون .

أبو عمرو بن العلاء قال : جلست إلى جرير وهو يملئ على كاتبه :

* ودّع أمانةَ حانَ منكَ رحيلُ *^(١)

ثم طاعت جنازة فأمسك ، وقال شيبقنى هذه الجنازة ، قلت : فلم تُسأَبِ
الناس ؟ قال : يبدوننى ، ثم لا أعفو ، وأعتدى ولا أبتدى . ثم أنشأ يقول :

تروّعنا الجنائزُ مقبلاتٍ ونلّهو حين تذهب مدبراتٍ^(٢)
كروعةٍ هجمةٍ لمغارِ ذئبٍ فلما غاب عادت راتعاتٍ

وقال آخر :

وتعدُّ كثرة من يموت تعجّباً عما قريبٍ سوف تدخلُ في العدِّ
وأراك تحملهم ولست تردّهم وكأنتى بك قد حملت ولا تردّ

قوله : « تعاصى الناصح البر » ، أى تعاصى من ينصحك ويبرّك . تعاقص :
تنصعب ، وهو « تفتعل » من المصيان ، على القلب . تزور : تنقبض . غرّ :
خدع . مان : كذب ، ونمّ : مشى بالنميمة .

* * *

وَتَسْعَى فِي هَوَى النَّفْسِ وَتَحْتَالُ عَلَى الْفَلَسِ
وَتَنْسَى ظُلْمَةَ الرَّأْسِ وَلَا تَذْكُرُ مَا نَسِ

(١) ديوانه ١٧٢ ، وبقيته :

* إن الوداع إلى الحبيب قليل *

(٢) ديوانه ٨٧ .

وَلَوْ لَا حَظَّكَ الْحَظُّ لِمَا طَاحَ بِكَ الْأَخْظُ
وَلَا كُنْتَ إِذَا الْوَعْظُ جَلَا الْأَحْزَانُ تَنْقَمُ
سُتْذِرِي الدَّمَ لَا الدَّمَغَ إِذَا عَايَنْتَ ذَا جَمْعٍ
يَبْقَى فِي عَرَصَةِ الْجَمْعِ وَلَا خَالَ وَلَا عَمَّ
كَأَنِّي بِكَ تَنْحَطُّ إِلَى اللَّحْدِ وَتَنْقَطُّ
وَقَدْ أَسْلَمَكَ الرَّهْطُ إِلَى أَضْيَاقٍ مِنْ سَمِّ

* * *

الرمس : القبر . لاحظك الخط : نظرك السعد . طاح بك : أذهبك وأهلكك ، والخط : النظر بمؤخر العين ، وقد لحظه لحظاً ولاحظته ملاحظة ، وكله من اللحاظ ، وهو طرف العين مما يلي الصدغ . وجلاً : كشف . تُذَرِي : تصب وترسل متفرقاً .

أنس رضي الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَبْكُوا فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فْتَبَاكُوا ، فَإِنَّ أَهْلَ النَّارِ يَبْكُونَ فِي النَّارِ حَتَّى تَسِيلَ دُمُوعُهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ كَأَنَّهَا جِدَاوِلٌ ، حَتَّى تَنْقَطَعَ الدَّمُوعُ فَتَسِيلَ الدِّمَاءُ ، فَلَوْ أَنَّ السَّفْنَ أُجْرِيتَ فِي دُمُوعِهِمْ لَجَرَّتْ » .

لاجتمع ، أى لا قبيل ولا عشير يحملك ولا يمنعك يوم القيامة . يقي : يمنع . عَرَصَةُ الْجَمْعِ : موضع اجتماع الناس في الحشر . تنحط : تنزل . اللَّحْدُ : حفير في جانب القبر . وتنقط : تنضم وتنقبض ، يقال : غططته في الماء إذا أغرقته فيه وغمسته . أسلمك الرهط : تركك قومك . سَمِّ : عين الإبرة ، يريد ضيق القبر

على الميت . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن للقبر ضفطة لو نجا منها أحد لنجا منها سعد بن معاذ » .

وعن أنس رضى الله عنه ، قال : توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتبعها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فساءنا حاله ، فلما انتهينا إلى القبر فدخله ، التمع وجهه صفرة ، فلما خرج أسفر وجهه ، قلنا : يا رسول الله ، رأينا منك شأنًا فميم ذلك ؟ قال : ذكرت ضفطة بنتى وشدة عذاب القبر فأثيت فأخبرت أن الله تعالى قد خفف عنها ، ولقد ضفطت ضفطة سمع صوتها ما بين الخاقين » .

* * *

هُنَاكَ الْجَنَّةُ مَمْدُودٌ لَيْسَتْ كُلُّهُ الدُّودُ
إِلَى أَنْ يَنْخَرَّ الْعُودُ وَيُمْسِي الْعَظْمُ قَدْ رَمَ

وَمِنْ بَعْدُ فَلَا بُدَّ مِنَ الْعَرْضِ إِذَا اعْتُدَّ
صِرَاطُ جِسْرِهِ مَدَّ عَلَى النَّارِ لِمَنْ قَدْ أُمَّ

فَكَمْ مِنْ مُرْشِدٍ ضَلَّ وَمِنْ ذِي عِزٍّ ذَلَّ
وَكَمْ مِنْ عَالِمٍ زَلَّ وَقَالَ الْخُطْبُ قَدْ ظَمَّ

فَبَادِرْ أَيُّهَا الْمُرُّ لِمَا يَخْلُو بِهِ الْعُرُّ
فَقَدْ كَادَ يَهِيَ الْعُرُّ وَمَا أَقْلَعْتَ عَنْ ذَمِّ

* * *

قوله : « يَنْخَرُ » ، أى يبلى ، والعود : تابوت الميت . رم : بلى : قال

الفنجدية: إلى أن ينخر العود ، أى إلى أن يبلى الجسم الناعم الذى هو مثل القضيب ، وقال الأليبرى :

كأنى بنفسي وهى فى السَّكراتِ تعالِجُ أنْ تَرُقَى إلى اللّهُواتِ^(١)
وقد رمّ رحلى واستقلتُ ركائبي وقد آذنتنى بالرحيلِ حُداتي
إلى منزلٍ فيه عذابٌ ورحمةٌ وكم فيه من زجرٍ لنا وعِظَاتِ
ومن أعينٍ سالتْ على وجنّاتها ومن أوجهٍ فى التُّربِ مُنْعَقِرَاتِ
ومنٍ واردٍ فيه على ما يسره ومن واردٍ فيه على الحسراتِ

قوله : «اعتدّ» أى استعدّ ، روى أبو بكر رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « يُحْمَلُ الناسُ يومَ القيامةِ على الصُّراطِ فيتقادع بهم جَنَبَتَا الصُّراطِ تقادُعُ الفراشِ فى النارِ ، فينَجَّى اللهُ برحمته مَنْ يشاء . » التقادع : التّهافت ، كأنَّ كل واحد منهم يقدعُ صاحبه كى يسبقه . والجسر : بناء على النار يُجَاز عليه من جهة إلى أخرى . وأُمّ : قصد . مُرشد : هادٍ . ضلّ : تخيّر . الخطب : الأمر الشديد . طمّ : عظم . الغُمر : الجاهل بالأمور . والذى يحلو به المرّ : هو التوبة والأعمال الصالحة التى يصلح بها ما فسد . يهسى : يضعف . أقلت عن ذمّ ، أى رجعت عن أمر مذموم ، وقال ابن عبد ربه :

بادِرْ إلى التوبة الخُلصاء مجهداً واثبوتُ ونحك لم يبدُ إليك بدّاً^(٢)
وارقب من الله وعداً ليس يُخلفه لا بدّ لله من إنجاز ما وعدّا

* * *

وَلَا تَرْكَنْ إِلَى الدَّهْرِ وَإِنْ لَانَ وَإِنْ سَرَّ
فَتُلْفَى كَمَنْ اغْتَرَّ بِأَفَمَى تَنْفَتْ التَّسَمَّ

وَحَفْضٌ مِنْ تَرَايِكَ فَإِنَّ الْمَوْتَ لَا يَكُ
 وَسَارٍ فِي تَرَايِكَ وَمَا يَنْكُلُ إِنْ هَمَّ
 وَجَانِبَ صَعَرَ الْخَدَّ إِذَا سَاعَدَكَ الْجَدُّ
 وَزُمَّ اللَّفْظَ إِنْ نَدَّ فَمَا أَسْعَدَ مَنْ زَمَّ
 وَنَفْسٌ عَنْ أَخِي الْبَثِّ وَصَدَقَهُ إِذَا نَثَّ
 وَرَمَّ الْعَمَلَ الرَّثِّ فَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَمَّ

* * *

قوله: «لا تركز»: تقول: ركنت إلى فلان، إذا اتخذته ركناً تلجأ إليه،
 تلقى: توجّد. اغترّ: انخدع. تنفث: تبصق عند لدغها. خفض: سكن. تراقبك
 ارتفاعك وتكبرك. سار: ماش. والتراقى: العظمان الموءجان على الصدر.
 ينكل: يضعف وينقطع. إن هم: إن أراذك وهم بك، وفي معنى هذا قول
 أبي نواس - قال غانم الوراق: دخلت عليه قبل وفاته بيوم فقال لي: أملك
 ألواحك؟ قلت: نعم، قال: اكتب:

دَبَّ فِي السَّقَامِ سُفْلاً وَعُلُواً وَأَرَانِي أَمُوتُ عُضُوءاً فَعُضُوءَا
 لَيْسَ نَمَضِي مِنْ لِحْظَةٍ لِي إِلَّا نَمَضْتَنِي بِمَرِّهَا بِي جُرُوءَا
 ذَهَبَتْ جِدَّتِي بِطَاعَةِ نَفْسِي وَتَذَكَّرْتُ طَاعَةَ اللَّهِ نِصُوءَا
 قَدْ أَسَانَا كُلَّ الْإِسَاءَةِ فَالَّا هَمَّ صَفْحَا عَنَّا وَغَفَرَا وَغَفُوءَا

قوله: «نفس»، أي وسّع نفسه، كأنه خنق فضاق نفسه، فأمر بحمله. أخى
 البث: صاحب الحزن. نث: نطق وكشف له سره. رم: أصلح، وقد رمت
 الشيء رمًا أصلحته. الرث: الخلق.

وَرِشٌ مِّنْ رِّيشِهِ أَنْحَصَ بِمَا عَمَّ وَمَا خَصَّ
وَلَا تَأْسَ عَلَى النِّقْصِ وَلَا تَحْزِنْ عَلَى اللَّامِ

وَعَادِ الْخُلُقَ الرَّذْلَ وَعَوِّذْ كَفَّاكَ الْبِذْلَ
وَلَا تَسْتَمِعِ الْعَذْلَ وَانْزَهْهَا عَنِ الضَّمِّ

وَزَوِّدْ نَفْسَكَ الْخَيْرَ وَدَعْ مَا يُعَقِبُ الضَّيْرَ
وَهَيِّئْ مَرْكَبَ السَّيْرِ وَخَفْ مِنْ لُجَّةِ الْيَمِّ

بِذَا أُوصِيَتْ يَا صَاحَ وَقَدْ بُحْتُ كَمَنْ يَبَاحُ
فَطُوبَى لِفَتَى رَاحٍ بِأَدَابِي يَا تَمَّ

* * *

رَشٌ : اجعل له ريشا . انحص : تنف ريشه ، تقول : رشت الرجل ، أى أعنته وأغنيته . بما عمَّ وما خصَّ ، أى بما كثر من العطية وقلَّ . تأس : تحزن : على النقص ، أى على النقصان فى الصدقة والمعروف ، ولا تكن أيضا حريصا على جمعه ومنعه فمن احتاج إليه ، واللهم : جمع المال ، ولدت الشيء لك . الرذل : الردىء ، يريد : عادِ أخلاق البخل ، أو الخلق السوء .

عائشه رضى الله عنها ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مامن مسيء إلا وله توبة ، إلا صاحب سوء الخلق لأنه لا يتوب من ذنب إلا عاد فى شر منه » . والبذل : العطاء ، وبذلت الشيء بذلا ، أى أبحته عن طيب نفس . والعذل : اللوم ، أى .

من لامك على العطاء لاتسمعه، وأعطِ ، وأحسن ما قيل وردّ العذل على كثرتة
قول زهير :

وأبيضَ فياضٍ نداه غمامةً على مُتَتَفِيهِ ما تَغِبَّ فواضِلُهُ^(١)
بكرت إليه غدوةً فرأيتُهُ^(٢) قعوداً إليه بالصَّريِّمِ عَواذِلُهُ^(٣)
يفلّتيه طوراً ، وطورا يلمّنه وأعيّاً فما يدرين أين مخاتِلُهُ^(٤)
فأقصرن فيه عن كريم مرزأٍ
صبورٍ على الأمر الذي هو فاعله^(٥)

قوله « نَزَّهَهَا » ، أي باعدها . عن الضمّ ، أي عن ضمّ الأصابع على مافي الكف .
يقول : ابسطْ كَفَّكَ بالمطية ولا تقبضها على ما فيها سُحْجاً ، قال ابن عبد ربّه :
يا قابضَ الكفِّ لا زالتْ مَقْبُضَةٌ فما أناملُها للناسِ أرزاقُ^(٦)
وغب إذا شئت حق لا ترى أبداً فما لتفقدك في الأحشاء إحراقُ^(٧)
كانّه قَلَبَ بيت ابن دُرَيْدٍ في رجل من أهل البصرة^(٨) :
يا مَنْ يَقْبِلُ كَفَّ كلِّ مَخْرُوقٍ^(٩) هذا إنْ يحْيى ليس بالْمَخْرُوقِ
قَبْلَ أنَا مَلَهُ فَلَسَنَ أنَا مَلَا لَكُنَّهِنَّ مَفَاتِحَ الأَرْزاقِ

(١) ديوانه ١٣٩ ، من قصيدة مدح فيها حصن بن حذيفة بن بدر ، وفي الديوان « يداه عمامة » ، وقال في شرحه : « يقول : تخطر يداه بالإعطاء كما تخطر العمامة » ، وفواصله : عطاياه ؛ لأنها تفضل كل عطاء .

(٢) الديوان : « فوجدته » .

(٣) الصريم : جمع صريعة ؛ وهي القطعة من الرمل تنقطع من معطاه .

(٤) قال في شرح الديوان : « أي لا يدرى أين الأمر الذي يختلف فيه ، أي كيف يخذل عنه » .

(٥) أعرضن : ولين . ومرزأ : بصاب منه الحميم وبرزأ ماله ، وفي الديوان : « جوع على الأمر » ، أي ماض عليه بجميع الرأي .

(٦) المقدم ٢ : ٣٥١

(٧) الديوان : « إفلاق »

(٨) ديوانه ٨٧ .

(٩) الديوان : « مخرق » .

أخذه ابن دُرَيْدٍ من إبراهيم بن العباس الصوليّ يمدح الفضل بن سهل^(١) :

الفضل بن سهل يدُ تقاصرَ عنها المثلُ
فبَسَطَها للغنى وسَطَوُها للأجلِ
وباطنها للندي وظاهرها للقبَلِ

وسرقه ابن الرومي فقال :

أصبحتُ بين خصاصة ومذلةٍ والحرُّ بينهما يموتُ ذليلاً
فامدُدْ إلى يدَا تعودَ بطنُها بذلِ النوالِ وظنُّها التقبيلَ

وقال ابن عبد ربه :

وما خُلِقَتْ كفاهُ إلا لأربعٍ عقائلُ لم يعقلَ لهنَّ نواني
لتقبيلِ أفواهٍ، وإعطاءِ نائلٍ، وتقليبِ هندیٍّ وحَبْسِ عنانٍ

قوله : «ودع ما يعقب الضير» ، أى دع عنك شيئاً يجيئك في أثره ضرر .
للركب هنا : السفينة . واليمّ : البحر . واللجة : معظم الماء، وجعل الميت كالمسافر ،
وضرب له البحر مثلاً لكثرة ما يرى من الأهوال ، فأمره بالاستعداد لذلك .
يا صاح : يا صاحب . بُحْتُ . نطقت ، يريد أن كل ما قدّم من الوصية إنما هو على
وجه النصيح ، كما وصّى هو بها قبل ذلك ، وأراد بقوله : «صاح» كل من يسمع وصيته ،
لا صاحباً معيناً . طوبى : شجرة في الجنة ، وهى ، عندم «فُعَلَى» من الطيب . يأتّم :
يقْتَدَى بها في الظاهر ، يريد أنه من اقتدى بهذه الوصية فطوبى له ، وهو يريد : من
حصل آداب المقامات كلها رأس .

(١) ديوانه ١٣٦ (صن مجموعة الطرائف الأدبية) .

ثُمَّ حَسَرَ رُذْنَهُ عَنْ سَاعِدٍ شَدِيدِ الْأَسْرِ ، قَدْ شَدَّ عَلَيْهِ جَبَازِ
الْمَكْرِ لَا الْكَسْرَ ، مُتَعَرِّضًا لِالِاسْتِمَاحَةِ ، فِي مَعْرِضِ الْوَقَاحَةِ ،
فَاخْتَلَبَ بِهِ أَوْلِيكَ الْأَمَلَاءُ ، حَتَّى أَتْرَعَ كَتَمَهُ وَمَلَأَ ؛ ثُمَّ انْحَدَرَ
مِنَ الرَّبُوبَةِ ، جَذَلًا بِالْخُبُوبَةِ .

قال الراوى : فَجَاذَبْتُهُ مِنْ وَرَائِهِ ، حَاشِيَةً رِدَائِهِ ، فَانْتَفَتَ
إِلَى مُسْتَسْلَمًا ، وَوَجَّهَنِي مُسْلَمًا ، فَإِذَا هُوَ شَيْخُنَا أَبُو زَيْدٍ بِمَعْنَاهِ
وَمَعْنَاهِ ، فَقُلْتُ لَهُ :

إِلَى كَمِّ يَا أَبَا زَيْدٍ أَفَإِنِّيكَ فِي الْكَئِيدِ
لِيَنْحَاشَ لَكَ الصَّيْدُ وَلَا تَتَّبِعَا بَعْنُ ذَمِّ

* * *

قوله : « حسر » ، أى كشف . رذنه : كتمه . الأسر : الخِلقة ، ومنه
قوله تعالى : ﴿ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ (١) ، أى خلَقهم ، وهو من الإِسَارِ ، وهو
القَد الذى يشد به الأسير ، فشَرُّكَ الْجِلْدُ هِىَ الْإِسَارُ - ويراد به فى الخِلقة العَصَبُ -
الذى يشتد بها الجسد وتلتصق بها الأعضاء ، وإليها حُكْمُ حَرَكَةِ الْبَدَنِ مِنَ الْقِيَامِ
وَالْقُعُودِ ، فسبحان الذى أنشأ الخَلِيقَةَ كيف شاء ! الاستِمَاحَةُ : الطَلَبُ ، استِغْفَالَةٌ ،
من مَاحَ الرَّجُلَ يَمِيحُهُ إِذَا أَعْطَاهُ ، وأصل ذلك من المَاضِ ، وهو النَازِلُ فى قَفَرِ
الْبُئْرِ لِيُغْرِفَ مَاءَهَا وَيُفَرِّقَهُ عَلَى دِلَاءِ الْمُسْتَقِينَ ، وقد مَاحَ الْبُئْرَ مِيحًا . الوقَاحَةُ :
تَرَكُّ الْحَيَاءِ وَصَلَابَةُ الْوَجْهِ ، من الحَافِرِ الْوَقَاحِ وهو الصَّئْبُ . ومعرضها : موضع
عَرَضُهَا ونَشَرُهَا ، وإن كسرت الميم وَفَتَحَتْ الرَّاءُ فهو ثوب الْوَقَاحَةِ ، لبسه لأنَّ
الْمِعْرَضِ الثَّوبَ الذى تُعْرَضُ فِيهِ الْجَارِيَةُ لِلْبَيْعِ ، والوقَاحَةُ : إظهار ذراعهِ صَاحِبِهَا

مشدوداً عليه بخرق ، ليوهم مَنْ رآه أنه مكسور. اختلب: خدع، واحتلب بالحاء: حلب ما عندهم كما تُحلب الشاة. الملا: الجماعة. أترع: ملا. انحدر: هبط ، والرَبْوة، لغة في الرَّهاوة التي تقدّمت. جذلاً: مسروراً. الحبوة: العطية. جاذبته: نازعته. مئنه: كذبه. أفانينك: أنواع كذبك وحيلك. ينحاش: ينفضم ويجتمع ، وحُشت الصيد أحوشه، إذا جثته من حواليه لتصرفه إلى الحبالة. لا تعباً ، أى لا تبالي ، من عبأت اللحم للجهل ، والحيل للحزب إذا أعدّته ، وإذا لم يبال بالشيء لم يستعد له .

* * *

فأجاب من غير استحياء ، ولا ارتياء ، وقال :

تبصّر ودّع اللوم وقل لي هل ترى اليوم
قئ لا يقمر القوم متى ما دسّته تمّ

فقلت له: بُعداً لك يا شيخ النار ، وزاملة العار ، فما مثلك في طلاوة علانينك ، وخُبث نيتك ، إلا مثل روث مفضض ، أو كيف مبيض .

ثم تفرّقنا ، فانطلقت ذات اليمين ، وانطلق ذات الشمال ، وناوخت مهب الجنوب ، وناوح مهب الشمال .

* * *

ارتياء: إبطاء، وهو «افتعال» من رؤية القلب، التي معناها التدبّر والتفكير، وأصل بابه همزة ، فنقلها لمكان همزة اللام ؛ يقول : أجب من غير فكرة .

يقمر: يغلب، وتقول: قامرتُ الرجلَ قِماراً فقمَرْتُهُ أَقْمَرُهُ ، أى غلبته . دَسْتُهُ ، أى
 حيلته ، والدَسْتُ: الذى يكون لك فيه الغلب فى الشطرنج ، تقول : الدَسْتُ لى ،
 والدَسْتُ علىَّ . ومن ألفاظ عامّة للمشرق أن يقول الرجل لصاحبه : هلمْ نأخذ
 دسّاً. تمَّ : كل . قوله: « زاملة »، أى حاملة ، والزاملة: الدابة يحمل عليها. طُلاوة
 علانيتك ، أى حسن ظاهرك . خبث تيتك : فساد باطنك ، وفى معنى هذا قال
 لقمان لابنه : احذر واحدة - وهى أهلٌ لا حذرٍ : إِيَّاكَ أن ترى أنك
 تخشى الله وقلبك فاجر ؛ يحذّره من الرياء ، وفى الحديث : « من أصلَحَ سريره
 أصلَحَ الله علانيته » .

وقيل لرجلٍ مُراءٍ : ما أحسن صلاتك ! قال : ومع هذا فإنى صائم !

قال الشاعر :

وإذا أظهرت شيئاً حسناً فليكن أحسن منه ما يَسُرُّ
 مُسِرَّ الخير موسومٌ به ومُسِرَّ الشرِّ موسومٌ بشرِّ

وقال محمود الوراق لابن أخيه :

تصوم كى يقال له أمينٌ وما معنى التصوف والأمانة
 ولم يردِ الإله به ولكن أراد به الطريقَ إلى الخيانة

وقال فيه أيضاً :

شمر ثيابك واستعدّ لقاتلٍ واحكك جبينك للقضاة بشومٍ
 وعليك بالفقوى فاجلس عنده حتى تصيب وديمةً ليتيمٍ

وقال الأبيض الألبيرى :

أهلَ الرياء لبستمُ ناموسكم كالدُّب يُصبح فى الظلام العاتمُ

فلكتُم الدنيا بمذهب مالكٍ وقستمُ الأموالَ بين القاسمِ
وركتُم شُهَبَ البغالِ بأشهبِ وبأصبعٍ صبغت لكم في العالمِ

وقال آخر :

لا شيءٍ أخسرَ صفقةً من عالم لعبت به الدنيا مع الجهَّالِ
فنداً يفرق دينه أيدى سباً ويديله حرصاً لجمع المالِ
لاخير في كسبِ الحرامِ وقلماً يُرجى الخلاص لكاسبٍ لحلالِ
نخذ انكفاف ولا تكن ذا فضلةٍ فالفضل تُسألُ عنه أى سؤالِ

قوله : «مفضض» ، مطلى بالفضة . والكنيف : المستراح . ذات : جهة وناحية .
ناوخت : قابلت . مهب : ناحية هبوبها . الجنوب : الريح القبليّة . والشمال
[مقابل] الجنوبية .

المقامة الثانية عشرة وهي الدمشقية

حكى الحارث بن همام قال : شَخَصْتُ مِنْ الْعِرَاقِ إِلَى الْغُوطَةِ ،
وَأَنَا ذُو جُرْدٍ مَرْبُوطَةٍ ، وَجِدَّةٍ مَعْبُوطَةٍ ، يُلْهِبُنِي خُلُوءُ الدَّرْعِ ،
وَيَزِدُّهُنِي حُقُولُ الضَّرْعِ . فَلَمَّا بَلَغْتُهَا بَعْدَ شِقِّ النَّفْسِ ،
وإِنْضَاءِ الْعَنْسِ ، أَلْفَيْتُهَا كَمَا تَصِفُ الْأُنْسُ ، وَفِيهَا مَا نَشْتَهِي
الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ، فَشَكَرْتُ يَدَ النَّوَى ، وَجَرَيْتُ طَلَقًا مَعَ
الْهَوَى ، وَطَفِقْتُ أَفْضُ فِيهَا خُثُومَ الشَّهَوَاتِ ، وَأَجْتَنِي قُطُوفَ
اللَّذَّاتِ ، إِلَى أَنْ شَرَعَ سَفَرٌ فِي الْإِعْرَاقِ ، وَقَدْ أَشْفَقْتُ مِنَ
الْإِعْرَاقِ ، فَمَادَنِي عَيْدُهُ مِنْ تَذْكَارِ الْوَطَنِ ، وَالْحَنِينِ إِلَى الْعَطَنِ ،
فَقَوَّضْتُ خِيَامَ الْغَيْبَةِ ، وَأَسْرَجْتُ جَوَادَ الْأَوْبَةِ .

[غوطة دمشق]

شَخَصْتُ ، أَي خَرَجْتُ . الْغُوطَةُ : مَوْضِعٌ بِالشَّامِ خَصِيبٌ بِخَارِجِ دِمَشْقٍ ، قَالَ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « سَتَفْتَحُ عَلَيْكُمْ الشَّامَ فَعَلَيْكُمْ بِمَدِينَةِ يُقَالُ لَهَا
دِمَشْقُ ، هِيَ خَيْرُ مَدَائِنِ الشَّامِ وَفَسْطَاطُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَرْضِ مِنْهَا يُقَالُ لَهَا الْغُوطَةُ » .
قَالَ الْأَصْمَعِيُّ : أَحْسَنُ أَنْهَارِ الدُّنْيَا ثَلَاثَةٌ أَنْهَارُ : الْغُوطَةُ ، وَتَمْرَقَنْدُ ، وَنَهْرُ الْأُبَلَّةِ ،
وَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ الْبَصْرَةِ ، وَحَشُوشُهَا ثَلَاثَةٌ : عُمَّانُ ، وَأَرْدَبِيلُ ، وَهَيْتُ .

(٣ - شرح مقامات الحريري ج ٢)

وسُمِّيت دمشق باسم صاحبها الذي بناها ، وهى إرم ذات العماد .
وقال اليعقوبى : مدينة دمشق جليلة المقدار قديمة ، وهى مدينة الشام فى الجاهلية والإسلام ، وليس لها نظير فى جميع بلاد الشام فى أنهارها وبساتينها ، ومبانيها وكثرة عمارتها . وافتُتِحَتْ فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه سنة أربع عشرة .

وقال شيخنا ابن جبير^(١) : مدينة دمشق هى جنة الشرق ، ومطلع حسنة المونق ،^(٢) وعروس المدن^(٣) . قد تحلّت بأزاهير الرياحين ، وتجلّت فى حُلّ سندسية من البساتين ، وحلّت من موضع^(٤) الحسن بمكان مكين ، وتجلّت^(٥) فى منصتها بأجل تزيين ، وتشرفت بأن آوى الله المسيح وأمة منها إلى ربوة ذات قرار ومعين . ظلٌّ ظليل ، وماء سلسبيل ، ينساب أنسياب الأرقام بكل سبيل ، ورياض تُحْيِي النفوس^(٦) بنسيمها العليل ، تبرز^(٧) لناظرها بمجتلّى صقيل ، وتناديهم : ألا هلهؤا إلى معرّس للحسن ومقبل ، وقد سئمت أرضها كثرة المياه حتى اشتاقت إلى الظما ، فتكاد تناديك بها الصمّ الصّلاب : « اركض برجلك هَذَا مُغْتَسِلٌ بارد وشراب^(٨) » . قد أهدقت البساتين بها إحداف الهالة بالقمر ، واكتنفتها اكتناف الأكام للزهر ، وامتدّت بشرقيتها غوطتها الخضراء امتداد البصر ، فكل موقع لحظته بجهاتها الأربع ، نضرتُه اليانعة قيد النظر ، ولقد صدق القائلون عنها :

(١) رحلة ابن جبير ٢٤٠ .

(٢ - ٣) ابن جبير : « وهى خاتمة بلاد الإسلام التى استقريناها ، وعروس المدن التى جتليناها » .

(٣) ب : « وضع » ، ابن جبير : « موضوع » .

(٤) ابن جبير : « وتزيّنت » .

(٥) ب وابن جبير : « يحيى النفوس نسيمها » .

(٦) ابن جبير : « تتبرج » .

(٧) سورة ص ٤٢ .

إن كانت الجنة في الأرض ندمشق لا شك منها ، وإن كانت في السماء فهي
بحيث تُسامِتها وتحاذيها .

وقال فيها البحترى :

إذا أردت ملأت الطرف من بلدٍ مستحسن ، وزمان يُشبهُ البلادَ^(١)

يُمسِي السحاب على أجبالها فرقا

ويُصبحُ النَّبتُ في صحرائها بددا

فلست تبصر إلا واكفا خضلا أو يانعا خضرا ، أو طائرا غردا

كأنما القبط ولّى بعد وفدته^(٢) أو الربيع دنا من بعد ما بعدا

قوله : « جرد » ، أى خيل قصيرة شعر الجسد . جِدَّة : غنى . مغبوبة :

محسودة ، أراد مغبوطا عليها مالكمها ، قلب . يُلهيني : يدعوني إلى اللهو .

خُلُو الذرع : فراغ البال والصدر من الهم ، يزدهيني : يحمانى على الزهو . حُفُولُ

الضرع : كثرة المال ، والضرع للبقرة والشاة بمنزلة الثدى للمرأة ، وحفوله :

امتلاؤه باللبن . شق : مشقة . إنصاء : إهمال . والمدنس : الناقة القوية . ألفتيتها :

وجدتها النوى : البعد والانتقال من بلدٍ إلى بلد ، وأراد أنه شكر سفره .

ويد النوى : النعمة التى أنعم بها عليه ، بأن أوصله إلى القوطة . الهوى : ما تهواه

النفس وتشتهيه . طفقت : أخذت . أفض : أكرس . ختوم : ربوط ؛ يريد

أن شهوته التى كانت قد شددت وربطت أخذ يكسر ختومها ويسرحها فى

المآكل والمشارب واللذات . أجتني : أجمع . جناة قطوف : ما يجنى من الثمار ،

وجعله للذات أنساعا . شرع : أخذ وابتدأ ، من شرعت الدابة فى الماء ، إذا

(١) ديوانه ٧١٠ ، وقوله :

أما دمشق فقدمت أبدت محاسنها وقد وقى لك مطربها بما وعدا

(٢) الديوان : « حيثته » .

دخلته لتشرب سَفَر : مسافرون ، الإغراق : المشى إلى العراق . أشفت : خفت
الإغراق : الفقر من أجل الزاد والمأكل ، وكأنه غرق في ذلك ، فهو يرجع إلى
الغرق والإغراق : المبالغة في الشيء ، يقال : أغرق الرجل في القول والرمي
بالقوس ، إذا بالغ فيهما .

عادنى : زارنى . عيد : شوق ، وكل ما تذكرته واشتقت إليه فهو عيد ،
كأنه عاد إلى قلبه بعد نسيانه ، ونقل لفظ الشاعر :

عاد قلبي من الطويلة عيد^(١) واعتانى من حبها شهيد^(٢)

ابن الأنبارى ، العيد هنا : الوقت الذى يعود فيه الحزن والشوق ، وقال
تأبط شراً :

يا عيد مالك من شوق وإبراق^(٣) ومَرَّ طيف على الأهوال طراق^(٤)

العيد : ما يعتاد من الحزن والشوق ، ومعنى « يالك من شوق » : ما أعظمك
من شوق . الحنين : الشوق . المطن : مبارك الإبل حول الماء ، وأراد به بلده .
قوضت : هدمت . خيام : بيوت . الأوبة : الرجوع ، وأراد قطعت أسباب
الإقامة .

* * *

وَلَمَّا تَاهَبَتِ الرَّفَاقُ ، وَاسْتَتَبَّ الْإِتِّفَاقُ ، أَلْخَلْنَا مِنَ الْمَسِيرِ ،
دُونَ اسْتِصْحَابِ الْخَفِيرِ ، فَرُدْنَاهُ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ ، وَأَعْمَلْنَا فِي تَحْصِيلِهِ
أَلْفَ حِيلَةٍ ، فَأَعْوَزَ وَجَدَانُهُ فِي الْأَحْيَاءِ ، حَتَّى خَلْنَا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ

(١) صدره في اللسان - عود ، من غير نسبة ، قال : أراد بالطويلة روضة الصمان ،
تسكون ثلاثة أبيال في مثلها .

(٢) مطلع قصيدته الفضلية ، وإبراق ، مصدر آرقه بورقه ، من الأرق ، والطراق : الذى
يطرق ليلاً .

الأحياء ، فَحَارَتْ لِعُوزِهِ عُزُومُ السَّيَّارَةِ ، وَاتَّدَوْا بِبَابِ جَيْرُونِ
لِلْإِسْتِخَارَةِ ؛ فَمَا زَالُوا بَيْنَ عَقْدٍ وَحَلٍّ ، وَشَزْرٍ وَسَحْلٍ ، إِلَى أَنْ نَفِدَ
التَّنَاجِي ، وَقَنَطَ الرَّاجِي .

وَكَانَ حَدِيثُهُمْ شَخْصٌ مِبْسَمُهُ مِبْسَمُ الشُّبَّانِ ، وَلِبُوسُهُ لِبُوسُ
الرُّهْبَانِ ، وَبِيَدِهِ سُبْحَةُ النَّسْوَانِ ، وَفِي عَيْنَيْهِ تَرْجَمَةُ النَّشْوَانِ ، وَقَدْ
قَيَّدَ لِحَظَهُ بِالْجُمُعِ ، وَأَرْهَفَ أُذُنَهُ لَاسْتِرَاقِ السَّمْعِ . فَلَمَّا أَنَّى
انْكِفَاؤُهُمْ ، وَقَدْ بَرَحَ لَهُ خَفَاؤُهُمْ ، قَالَ لَهُمْ : يَا قَوْمُ لِيُفْرِخْ كَرْزُكُمْ ،
وَلِيَأْمَنَ سِرُّكُمْ ، فَسَاخَفُوكُم بِمَا يَسْرُو رَوْعَكُمْ ، وَيَبْدُو
طَوَعَكُمْ .

* * *

استنقب : تهيأ وأقام . أُلْحَنَّا : خفنا . الخفير : المجير ، وهو الذي تمشي الرفاق في
ذمته ، وتسميه العامة الفقير . رُدْنَاهُ : طلبناه . أعوز : عدم . الأحياء الأول :
القبائل ، والثاني ضد الموتى . حالت : تغيرت . لعوزه : لفقده . عزوم : جمع
عزم ، وهو الجِدَّة . السَّيَّارَةُ : الرقعة ، وهي قَعَالَةٌ مِنَ السَّيْرِ . اتدوا :
اجتمعوا .

* * *

[باب جيرون]

باب جيرون ، من أبواب جامع دمشق ، وجيرون هذا هو جيرون بن سعد بن عاد ، وهو الذي بنى دمشق ، ونقل إليها الرُّخام ، وسماها إرم ، وعلى هذا نقلة الأخبار ؛ وأن إرم ذات العماد هي دمشق ، يقال : إنه كان فيها أربعمائة ألف عمود . وقد تقدم أيضاً أن دمشق سُميت باسم بانيها ، وهو دماشق بن عمرو بن كنعان ، وقيل : بانيها دمشق بن عامر بن كَمَك بن أرفخشذ بن سام بن نوح . قال اليعقوبي^(١) : جامع دمشق ليس في الإسلام أحسن منه ، بناء الوليد ابن عبد الملك في خلافته بالرُّخام والذهب سنة ثمان وثمانين ، مفروش بالرُّخام الأبيض المحتم بالأزرق ، وسقفه لاختشب فيه ، مذهبٌ كله ، ومناره ثلاث : واحدة في مؤخر المسجد ، مذهبٌ كلها من أعلاها إلى أسفلها .

وذكر شيخنا ابن جُبَيْر في وصف هذا الجامع ووصف دمشق غرائب لا يتسع لها هذا الكتاب ، فلنم هنا ببعض ما وصف في هذا الجامع ؛ لنفني بشرطنا . قال^(٢) : هذا الجامع من أشهر جوامع الإسلام حسناً وإتقان بناء ، وغرابة صنعة ، واحتفال تجميل وتزيين^(٣) ، ومن عجيب شأنه أنه لا يُلْمُ به نسجُ العنكبوت^(٤) ، ولا تُلْمُ به الطير المعروفة بالخطاف ، انتدب لبنائه الوليد^(٥) ، ووجه إلى ملك الروم بالقسطنطينية يأمره بأشخاص أثنى عشر ألف صانع من بلاده ، وتقدم إليه بالوعيد في ذلك إن توقف [عنه]^(٦) ، فامثل أمره مُذْعِنًا ،

(١) اليعقوبي أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح ، صاحب كتاب البلدان والتاريخ المعروف باسمه .

(٢) رحلة ابن جبير ٢٤٠ - ٢٥١ ، بتصرف .

(٣) بعدها في ابن جبير : « وشهرته المتعارفة في ذلك تفني عن استغراق الوصف فيه » .

(٤) ابن جبير : « لا تنسج به العنكبوت » .

(٥) ابن جبير : « الوايد بن عبد الملك » .

(٦) تسكلة من ج وابن جبير .

وشرع في بنائه ، وبلغت الغاية في التأنيق فيه ، وأنزلت جدره كلها بمقصود الذهب المعروفة بالفُسَيْفَسَاء ، وخلطت بها أنواع من الأصبغة الغريبة ، قدمثلت أشجاراً ، وفرت أغصاناً منظومة بالفصوص ببديع الصنعة المعجزة وصف كل واصف ، فجاء يُفَشِي العيون وهيضاً وبصيصاً .^(١) وبلغت النفقة فيه أحد عشر ألف ألف دينار ومائتي ألف دينار^(٢) .

وكان أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه صالح النصارى لما دخلها ، بأن أخذ نصف الكنيسة الشرقى ، فصيّره مسجداً ، وبقي النصف الغربى^(٣) للنصارى . فأخذه الوليد ، وأدخله في الجامع بعد أن رغب إليهم أن يعوّضهم عنه ، فأبوا ، فأخذه قهراً . وكانوا يزعمون أن من يهدم كنيستهم يُجَنّ ، فبادر الوليد ، وقال : أنا أول من يُجَنّ في الله ، وبدأ الهدم بيده ، فبادر المسلمون ، فأكملوا هدمها . ثم أرضاهم عمر بن عبدالعزيز في خلافته عن الكنيسة بمال عظيم .

وطول هذا الجامع من الغرب إلى الشرق : ذرعه مائتاخطوة^(٤) ، وهما^(٥) ثلثمائة ذراع ، وذرعه في السعة من القبلة إلى الشمال مائة وخمس وثلاثون خطوة ، وهى مائتا ذراع ، وتكسيه بالمرجع الغربى أربعة وعشرون مرجعاً ، وهو تكسير مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ؛ غير أن طوله من القبلة إلى الشمال ، وبلاطاته المتصلة بالقبلة ثلاث ، مستطيلة من المشرق إلى المغرب ، سعة كل بلاطة منها ثمان عشرة خطوة ، وقامت البلاطات على ثمانية وستين عموداً ، منها ثمانية أرجل تتخللها

(١-١) ابن جبير : « وكان مبلغ النفقة فيه حسبما ذكره ابن الملقى الأسدى في جزء وصفه في ذكر بنائه - مائة صندوق ، في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار ومائتا ألف دينار ؛ فكان مبلغ الجميع لحدى عشر ألف ألف دينار ومائتا ألف دينار - والوليد هذا هو الذى أخذ نصف الكنيسة الباقية منه في أيدي النصارى وأدخلها فيه ؛ لأنه كان قسمين : قسما للمسلمين وهو الشرقى ، وقسما للنصارى وهو الغربى لأن أبا عبيدة . . .

(٢) ب ، ج : « النصف المصارع عليه » .

(٣) قال ابن جبير : الخطوة : ذراع ونصف .

(٤) ط : « هـ » ، وما أثبتته من ب وابن جبير .

واثنتان مرخمة ملصقة بالجدار الذي يلي الصخرة ، وأربع أرجل مرخمة أبدع ترخيم ، مرصعة بفصوص من الرخام ملونة ، قد نظمت خواتيم ، وصورت محاريب وأشكالاً غريبة قائمة في البلاط الأوسط ، دور كل رجل منها اثنان وسبعون شبرا ، ويستدير بالصحن بلاط من ثلاث جهاته ، سقته عشر خطا ، وعدد قوائمه سبع وأربعون ، منها أربع عشرة رجلا ، والباقي سوار ، وسقف الجامع كله من خارج ألواح رصاص . وأعظم ما فيه قبة الرصاص المتصلة بالحراب ، وهي سامية في الهواء ، عظيمة الاستدارة ، وقد استقل بها هيكل عظيم ، هو عماد لها يتصل من الحراب إلى الصحن والقبة ، قد أغصت بالهواء ، فإذا استقبلتها رأيت مرأى هائلا ، ومن أى جهة استقبلت البلد ترى القبة في الهواء ، كأنها معلقة في الجو ، وعدد شمسيتها الزجاجية المذهبة الملونة أربع وسبعون ، فإذا قابلتها الشمس واتصل شعاعها بها انعكس الشعاع إلى كل لون منها ، واتصل ذلك بالجدار القبلى ، ويتصل بالأبصار منها أشعة ملونة هائلة لا تبلغ العبارة تصورها ، ومحاربه من أعجب المحاريب الإسلامية حسنا وغرابة صنعة يتقد ذهابا كله ، وقد قامت في وسطه محاريب صفار متصلة بجداره ، تحفها سويريات مفقولات فتل الأسورة ، فإنها مخروطة ، بعضها أحمر ، كأنها مرجان لم ير شيئا أجمل منها .

وفيها ثلاث مقاصير : مقصورة معاوية ، وهي أول مقصورة وضعت في الإسلام ، طولها أربعة وأربعون شبرا ، وعرضها نصف الطول . ويليهما بمجه الغرب المقصورة التي أحدثت عند زيادة الكنييسة فيه ، وهي أكبر^(١) . والثالثة بالجانب الغربى ، يجتمع الحنفية فيها للتدريس .

وله أربعة أبواب : باب قبلى يعرف بباب الزيادة ، وباب شمالى يعرف بباب الناطقين ، وباب غربى يعرف بباب البريد ، وباب شرقى يعرف بباب جيرون ، وهو أعظمها .

(١) ابن جبر : « مقصورات » .

وله وللغربي دهاليز متسعة يفضى كل دهليز منها إلى باب عظيم كانت كلها مداخل للكنيسة، فبقيت على حالها .

ثم ذكر في الصحن عجائب من الأبنية والقباب والصوامع الثلاث ولبناه المدبرة فيه ما يطول وصفه واختصاره. قال : وهذا الصحن من أجمل المناظر وأحسنها، وفيه مجتمع أهل البلد ومتفرجهم ومتزهمهم، كل عشية تراهم فيه ذاهبين وراجعين من باب جيرون إلى باب البريد ، لا يزالون على هذه الحالة إلى انقضاء صلاة العشاء الأخيرة، منهم من يتحدث مع صاحبه ، ومنهم من يقرأ. فهذا دأبهم أبداً بالعشي والغداة^(١)، وأكثر الاحتفال بالعشي، [فيخيل لمبصر ذلك أنها ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم لما يرى من احتفال الناس واجتماعهم ، لا يزالون على ذلك كل يوم]^(٢)، وأهل البطالة يسمونهم الخرائين .

وللجامع أربع سقايات في كل جهة سقاية . وأعظمها سقاية باب جيرون . وذكر أن حول باب جيرون من الأبنية القريبة ما يطول وصفه ، وذكر باب جيرون فقال : يخرج من دهليزه إلى بلاط طويل عريض له خمسة أبواب مقوَّسة ، إمام ستة أعمدة في جهة اليسار، منه مشهد كبير كان فيه رأس الحسين رضي الله عنه ، قبل أن يُنقل إلى القاهرة ، وبإزائه مسجد صغير لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وقد انتظمت أمام البلاط أدراج ينحدر عليها إلى الدهليز، وهي كالخندق العظيم تتصل إلى باب عظيم الارتفاع ينحسر^(٣) الطرف دونه سموًا ، قد حفته أعمدة كالجدوع طولاً ، وكالأطواد ضخامة ، وبجانب الدهليز أعمدة قامت عليها شوارع مستديرة ، فيها حوانيت المطَّارين وغيرهم ، وعليها شوارع مستطيلة فيها الحجر والبيوت للكرام مشرفة على الدهاليز، وفوقها سطح بيت فيه سُكَّان الحجر والبيوت ، وفي وسط الدهليز حوض كبير مستدير من الرخام ، عليه قبة تعلوها أعمدة من الرخام . وفي وسط الحوض أبواب صُفْر يزعم

(١) ابن جبير : « وبعضهم بالغداة مثل ذلك » .

(٢) تكملة من ابن جبير .

(٣) كذا في ابن جبير ، وفي ط ، ب : « يتحير » .

الماء بقوة ، فيرتفع في الهواء أزيد من القامة ، وحوله أنابيب صفار ترمى الماء علواً^(١) ، فيخرج منها كقضبان اللجين ، فكأنها أغصان تلك الدوحة المائية ، ومنظرها أبدع من أن يوصف ، وعن يمين الخارج من باب جيرون في جدار البلاط الذي أمامه شبه غرفة ، بها هيئة طاقٍ كبير مستدير ، فيه طيقان من صفر وقد فتحت أبواباً صفراً على عدد ساعات النهار ، ودبرت تديراً هندسياً ، فعند انقضاء ساعة من النهار ، تسقط صنجتان من صُفْر من فئٍ بازيين من صُفْر قائمين على طاستين من صفر مثقوبتين ، فتبهر البازيين بمدانٍ أعناقهما للصنجتين إلى الطاستين ، ويقذفانها بسرعة ، بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحراً ، فعند وقوعهما يُسمع لهما دوىٌ ، فيعودان من الأثقاب إلى داخل الجدار إلى الغرفة ، ويتعلق الباب تلك الساعة بلوحٍ أصفر ، فلا يزال كذلك حتى تنقضي الساعات ، فتعلق الأبواب كلها ، ثم تعود إلى حالاتها الأولى . ولما بالليل تدبير آخر ، وذلك أن في القوس المنعطف على الطيقان المذكورة اثنتى عشرة دائرة من النحاس مخرومة ، في كل دائرة زجاجة . وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة ، فإذا انقضت عم الزجاجة ضوء المصباح ، وأفاض دلي الدائرة شعاعاً ، فلاحت دائرة حمرة ، ثم ينتقل إلى الأخرى ، حتى تنقضي ساعات الليل ، وقد وكل بها مَنْ يدير شأنها ، فيعيد فتح الأبواب ، ويسرح الصنّج إلى موضعه وهي التي تسمى الميقات .

ثم ذكر في باب جيرون ، وفي الجامع وفي خارج البلد عجائب ليست من شرطنا ، وإنما ذكرنا منها مادعت إليه الحاجة من ذكر باب جيرون .

* * *

قوله : «الاستخارة» أى طلب الخيرة ، واستعمرت الله : سألته أن يهبلى الخيرة . شزر : عقد . سَحَل : حلّ ، وشزرت الحبل شزراً شددت قتله ، وسحات النسيج سَحَلًا أفردت سُداء ولم تفتله . نفذ : تم وفرغ . التناجى : التحدث سراً . قنط : يئس

(١) ب • إلى عطا .

الراجي : الطامع . حذتهم : قريبا منهم ، تقول : داري حذوه وحذوته وحذته ، أي حذاه . ميسمه : علامته ، وأصل الميسم الموسم ، لأنه من سمت الشيء ، فقلبت الواو ياء لسكونها وكسر ما قبلها . كبوسه : ثيابه . الزهبان : العباد . والترهب : ترك النساء . سُبحَة : خيط ينظم فيه خرز يمد به التسبيح ، وكانت لأبي هريرة رضى الله عنه سُبحَة من النوى المجزّع ، وهو الذي حُكّ حتى اختلف لونه . وفرغ من سبحته ، أي من صلاته وما يتبعها من الذكر . ترجمة : علامة . اللشوان : السكران . قيد لحظه : ربط نظره ، أي شخص فيهم . أرهف : أهدأ . آن : حان وقرب ، ويروى « ناء » مقلوب « آن » . انكفاؤهم : انقلابهم ورجوعهم . برّح : انكشف . خفاؤهم : سرّهم .

ليفرّخ كركبكم : ليزول ويسكن ، ومثّل العرب : أفرخ رَوْعك ، ومعناه : انجلي وانكشف كما ينكشف مافي البيضة إذا انشق عن الفرخ . وقيل : معنى أفرخ ، ذهب .

وقال الفارسي في التذكرة : معنى أفرخ رَوْعك : صار له فرخ ، وإذا أفرخ الطائر طار ، لأنه فارق الحضن ، وهذا قول حسن .

وقال عروة بن مضر م : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم بجمع قبل أن يصلي الصبح ، فقلت : يا رسول الله ، طويت الجبلين ، ولقيت شدة ، فقال : « أفرخ رَوْعك ، مَنْ أدرك إفاضتنا هذه فقد أدرك الحج » ، وقال الأخطل يصف الثور والكلاب :

حتى إذا ما الثور أفرخ رَوْعَهُ وأفاق أقبل نحوها بتذمّر^(١)
أضما وهز لمن رَوْعِي رأسه^(٢) إذ قد أتيح لمن موت أحرر

(١) ديوانه ٢٣١ .

(٢) الديوان : « رمي رأسه » .

فَقَوْلُهُ : « أَفَاقَ » بَعْدَ « أَفْرَخَ رَوْغَهُ » بَدَلٌ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ ذَهَبَ فَرْعَهُ وَزَالَ .
وَيَتَذَمَّرُ ، يَحْضُ نَفْسَهُ عَلَى الْإِقْدَامِ ، يُقَالُ : ذَمَرْتَهُ إِذَا حَضَضْتُهُ . وَأَضْمًا ، أَيْ غَضْبَانًا ،
وَالْمَوْتُ الْأَحْمَرُ مَذْكُورٌ فِي الْمَقَامَةِ بَعْدَ هَذِهِ . قَوْلُهُ : « كَرَبِكُمْ » أَيْ هَمِّكُمْ .
سَرَبِكُمْ ، أَيْ جَمْعَكُمْ ، أَيْ تَأْمِنُوا فِي نَفُوسِكُمْ . سَأَخْفِرْكُمْ : سَأَجِيرْكُمْ . يَسْرُو :
يَكْشِفُ وَيُزِيلُ . رَوْعَكُمْ : فَرْعَكُمْ . يَبْدُو : يَظْهَرُ . طَوْعَكُمْ : مَتَقَادًا لَكُمْ ، وَأَرَادَ
سَأَجِيرْكُمْ بِشَيْءٍ يَزِيلُ عَنْكُمْ الْفَرْعَ ، وَيَكُونُ مَتَقَادًا لَكُمْ ، وَذَلِكَ الشَّيْءُ هُوَ
الْكَلِمَاتُ الَّتِي بَاتَى بِهَا .

* * *

قَالَ الرَّائِي : فَاسْتَظْلَعْنَا مِنْهُ طِمَعَ الْخِفَارَةِ ، وَأَسْنَيْنًا لَهُ الْجِمَالَةَ
عَنِ السَّفَارَةِ ، فَزَعَمَ أَنَّهَا كَلِمَاتٌ لَقْنَهَا فِي الْمَنَامِ ، لِيَخْتَرِسَ بِهَا مَنْ
كَئِدَ الْإِنَامَ ، فَجَعَلَ بَعْضُنَا يُؤْمِضُ إِلَى بَعْضٍ ، وَيُقَلِّبُ طَرَفَيْهِ
بَيْنَ لَحْظٍ وَغَضٍّ ، وَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّا اسْتَضَعَفْنَا الْخَبَرَ ، وَاسْتَشَعَرْنَا الْخَوَرَ ،
فَقَالَ : مَا بِالْكُمِ اتَّخَذْتُمْ جِدِّي عَبْنًا ؛ وَجَعَلْتُمْ تَبْرِي خَبْنًا ! وَلَطَّأَ لَمَّا
وَاللَّهِ جُبْتُ خَوَافَ الْأَفْطَارِ ، وَلَوَجْتُ مَقَاحِمَ الْأَخْطَارِ ، فَغَنَيْتُ
بِهَا عَنْ مُصَاحَبَةِ خَفِيرٍ ، وَاسْتَصْحَابِ جَفِيرٍ . ثُمَّ لَأْنِي سَأَنِي
مَارَاتِكُمْ ، وَأَسْتَسِيلُ الْخَذَرَ الَّذِي نَابَكُمْ ، بَأْنٍ أَوْافِكُمْ فِي
الْبَدَاوَةِ ، وَأُرَافِكُمْ فِي السَّمَاءِ ، فَإِنْ صَدَقَكُمْ وَعْدِي ، فَأَجِدُوا
سَعْدِي ، وَأَسْعِدُوا جَدِّي . وَإِنْ كَذَبَكُمْ فِئِي ، فَمَزُقُوا أَدْمِي ،
وَأَارِيقُوا دَمِي .

قال الحارث بن همام : فَأَلْهَمْنَا تَصْدِيقَ رُؤْيَاهُ ، وَتَحْقِيقَ مَا رَوَاهُ ،
فَنَزَعْنَا عَنْ مَجَادِلَتِهِ ، وَاسْتَهْمْنَا عَلَى مُعَادَلَتِهِ ، وَفَصَّمْنَا بِقَوْلِهِ عُرَى
الرَّبَائِثِ ، وَالنَّيْنَا اتِّقَاءَ الْعَابِثِ وَالْعَائِثِ .

* * *

استطلعنا منه طُلُعَ الْخِفَارَةِ ، أى استخبرناه عن خبر الإجارة ، قال ابن
الأنباري : معنى السَّفَارَةِ فى كلامهم الإصلاح ، والسفير : المصلح .

قال الشاعر :

وَمَا أَدْعُ السَّفَارَةَ بَيْنَ قَوْمِي وَمَا أَمْشِي بِفَشٍّ إِنْ مَشَيْتُ

وَأُسْنِينَا لَهُ الْجَمَالَةُ عَنِ السَّفَارَةِ ، أى كثرنا له العطاء ليدلنا على الخير ،
وَأَنْ يَكُونَ رَسُولًا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ . ويمكن أن تكون السَّفَارَةُ فِعَالَةً ، من لَفْظِ السَّفِيرِ ،
فِيَكُونُ اسْمًا لِلْجَرَفَةِ كَالْتِّجَارَةِ وَالْخِيَاطَةِ . لُقْنَهَا : حفظها . لِيَحْتَرِسَ ، لِيَمْتَنِعَ .
يَوْمُضُ : يشير . لِحَظَ : نظر بطرف عينيه . غَضَّ : كسر النظر ؛ أى جملوا
يَتَغَامَزُونَ عَلَيْهِ اسْتِضْعَافًا لِحَبْرِهِ . اسْتَشْعَرْنَا الْخَوَرَ ، أى ظهر علينا الفزع والضعف
من كلامه . الْعَبَثُ : اللعب . تَبَرَّى : ذهبى ، والتبر : كل ما لم يصنع من الجواهر
من نُحَاسٍ وَغَيْرِهِ . خَبْنًا : فاسدًا . جُبْتُ : قطعت . مَخَافٍ : مواضع الخوف .
الْأَقْطَارُ : نواحي الأرض . وَلَجْتُ : دخلت . مِهَالِكُ ، وَالْمُخِمْةُ الْأَمْرُ
الْعَظِيمُ لَا يَرْكَبُهُ أَحَدٌ لَهُوْلَهُ . الْأَخْطَارُ : جمع خطر ، وهو الفرر . جَنِيرُ : جُمْعَةُ
السَّهَامِ . رَابِكُ : شَكَّكُمْ ، أُسْتَسِيلُ : أزيل . الْحَذَرُ : الخوف . نَابِكُمْ :
قَصَدَكُمْ . أَوَاقَكُمْ : أَسَاعِدُكُمْ وَأَمْشِي مَعَكُمْ مَصَاحِبًا لَكُمْ . أَرَاقَكُمْ : أَسَافِرُ

معكم ، والرفيق: الصاحب في السفر. السماوة : مفازة بين الشام والعراق، وسماوة كل شيء شخصه ، وبذلك سُميت السماوة لأنها منازل ثمود، وفيها إلى الآن أشخاص منازلهم وآثارهم. أجَدَّوه : ردوه ذاجدًا ، وهو السعد والحظ ، والمعنى أنه يقول : إن كان سعدى قليلًا فأجدَّوه ، أى كثرُوا حظَّه بعطيكم حتى يعود صاحبه كثير السعد ، وكذلك يقدر : أسعدوا جدِّي ، فيريد : إن صدقتم وعدى ، وسلمتم ، فهبوا لى من أموالكم ما يتقوى به سعدى الضعيف ، ويكثر حظُّ القليل . ويقال أيضًا : أجَدَّ الشيء إذا صيَّره جديدًا . مزَّقوا : قَطَّموا . أدَّى : جلدى . أرىقُوا : صُبُّوا .

أُلممنا ، أى ألتى فى قلوبنا . نزعنا : أقلعنا . مُجَادَلته : مخالفته . استهننا : ضربنا السهام وتخططنا على من يركب معه رفيقًا . ومعادلته : الركوب معه فى الحمل ، وهو أن يركب هذا فى الأيمن ، وهذا فى الأيسر ، مأخوذة من المعدل .

ونذكر هنا حكاية مضحكة تزيد المعادلة بيانًا ، كان المعتصم يأنس بعلِّ ابن الجنيد الإسكاف ، وكان عجيب الصورة والحديث ، فقال المعتصم لابن حماد : اذهب إلى ابن الجنيد ، وقل له : يتهمنا ليزاملنى ، فأتاه فقل له : تهياً لمزاملة أمير المؤمنين ، فإن مزاملة الخلفاء كبيرة ، فقال : كيف أتهياً لها ؟ أصيب رأساً غير رأسى ! أشتري لحية غير لحتى ! قال ابن حماد : شروطها الامتناع عن الحديث والمذاكرة والمناذمة ، وألاً تبصق ولا تسعل ولا تمنخط ولا تتنحنج ، وأن تتقدّم فى الركوب إشفافاً عليه من الميل ، وأن يتقدّمك فى النزول ، ففى لم يفعل هذا المعادل كان ومثقلة الرصاص التى تُمدل بها القبة واحداً ، فقال لابن حماد : اذهب قل له ما يزاملك إلا من أمه زانية . فرجع إلى المعتصم وأعلمه ، فضحك وقال : على به ، فلما جاء قال : يا على ، أبعث إليك أن تزامنى فلا تفعل ! فقال له : إن رسولك هذا الأرهن جاءنى بشروط حسان السامى وخالويه الحاكى ،

فقال : لا تبصق ولا تعطس ، وجعل يقرقع بصاداته ، وهذا لا أقدر عليه ؛ فإن رضيت أن أراملك ، فإذا جاءني الفساء والضراط فسوت وضطت ، وإلا فليس بيني وبينك عمل . فضحك المعتصم حتى فخص برجليه ، وقال : نعم زاملني على هذه الشروط ، فسار ساعة فلما توسط البر ، قال : يا أمير المؤمنين ، قد حضر ذلك المتسامح ، قال : ذلك إليك ، قال : يحضر ابن حماد ، فحضر ، فناوله كفه ، وقال أجد في كفي ديب شيء ، فانظر ماهو ، فأدخل رأسه فشم رائحة السكيف ، فقال : ما أرى شيئا ، ولكني أعلم أن في جوف ثيابك كنيفا ، والضحك قد ذهب بالمعتصم كل مذهب ، وابن الجنيد يفسو فساء متصلا ، ويقول لابن حماد : قلت : لي : لا تسعل أو لا تمخط ، فخرت عليك ، ثم قال : قد نصجت القدر ، وأريد أخرى ، فأخرج المعتصم رأسه من العارية حين كثر عليه الضحك ، وصاح : وبلك يا غلام ، الأرض : الساعة أموت !

قوله : «فصمنا» ، أي قطعنا وحللنا والأرا : عيون من شريط أو غيره يشد بها فم الخرج أو المدل ، واحداها عروة . والرباث : العلق ، واحداها ربيثة ، وهو ما يثبت الإنسان ويحبسه عن أمر يريده ، وقد ربثت عن الأمر ربثا ، وتربثت أنا تربثا ، إذا تثببت . ألفينا : أطرحنا . اتقاء : خوف . العابث : الذي يعبت بأموالهم من أهل الشر فيفسدها ، والعاث : المفسد ، ويقال : عاث بفتح الباء عاثا : خلط . وبكسرها عاثا : لعب واستخف ، وعاث عيثا : أفسد .

«وَلَمَّا عُمِّمَتِ الرِّحَالُ ، وَأَزِفَ التَّرْحَالُ ، اسْتَنْزَلْنَا كَلِمَاتِهِ
الرَّائِيَةَ ، لِنَجْمَلَهَا الْوَاقِيَةَ الْبَاقِيَةَ ، فَقَالَ : لِيَقْرَأْ كُلُّكُمْ أُمَّ

القرآن، كُلَّمَا أَظْلَمَ الْمَوَلَانِ . نَمَّ يُبْقِلُ بِلِسَانٍ خَاضِعٍ ، وَصَوْتٍ خَاشِعٍ : اللَّهُمَّ يَا مُجِيبَ الرُّفَاتِ ، وَيَا ذَا فِعْ الْآفَاتِ ، وَيَا وَاقِيَ الْمَخَافَاتِ ، وَيَا كَرِيمَ الْمَكَاافَةِ ، وَيَا مَوْئِلَ الْعُفَاةِ ، وَيَا وَلِيَّ التَّقْوَى وَالْمَعَاافَةِ ، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ خَاتَمِ أَنْبِيَائِكَ ، وَمُبَلِّغِ أَنْبِيَائِكَ ، وَعَلَى مَصَاحِبِهِ أَسْرَتِهِ ، وَمَفَاتِيحِ نَصْرَتِهِ ، وَأَعِزَّنِي مِنْ نَزَغَاتِ الشَّيَاطِينِ ، وَنَزَوَاتِ السَّلَاطِينِ ، وَإِغْنَاتِ الْبَاغِينَ ، وَمَعَانَاةِ الطَّاعِينَ ، وَعُدْوَانِ الْمَعَادِينَ ، وَغَلَبِ الْغَالِبِينَ ، وَمَسَلَبِ السَّالِبِينَ ، وَحِيلِ الْمُحْتَالِينَ ، وَغِيَلِ الْمُغْتَالِينَ ، وَأَجِرْنِي اللَّهُمَّ مِنْ جَوْرِ الْمَجَاوِرِينَ ، ^(١) وَمُجَاوِرَةِ الْجَائِرِينَ ^(٢) ، وَسَطْوَةِ الْجَبَّارِينَ ، وَكُفِّ عَنِّي أَكْفَ الضَّائِمِينَ ، وَأَخْرِجْنِي مِنْ ظُلُمَاتِ الظَّالِمِينَ ، وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ .

عُكِمَتِ الرِّحَالُ ، أَيْ شَدَّتِ الْأَحْمَالُ بِالْعِكَامِ ، وَالْعِكَامُ مَا يَشُدُّ بِهِ فَمُ الْعِكَامِ وَهُوَ الْعِدْلُ . وَقِيلَ : إِنَّ أَصْلَ الْعِكَامِ كَلِمَةٌ تَرْبُطُ عَلَى فَمِ الْبَعِيرِ ، وَمِثْلُهُ اللَّجَامُ ، يُسْتَعَارُ لِمَا يَشُدُّ بِهِ الْمَتَاعُ ، وَيُقَالُ : عَكَمْتُ الْمَتَاعَ عَكْمًا شَدَّدْتَهُ فِي الْعِكَامِ ، أَوْ شَدَّدْتَهُ بِالْعِكَامِ ، وَعَكَمْتُ الْبَعِيرَ شَدَّدْتُ عَلَيْهِ الْعِكَامَ . أَوْ رَبَطْتُ الْعِكَامَ عَلَى فَمِهِ ، وَأَعَكَمْتُكَ أَعَكَمْتُكَ . أَرْفَ : دَنَا وَقَرَّبَ . اسْتَغْنَيْنَا : طَلَبْنَا مِنْهُ أَنْزَالَهَا ، أَيْ تَلَطَّفْنَا بِهِ لِيَذْكُرَهَا . الرَّاقِيَةُ : الرِّفِيعَةُ ، مِنْ رَقَى فِي الدَّرَجَةِ ، أَوْ الْمَوْذُودَةُ لَنَا ، مِنْ رَقَيْتُ الْمَرِيضَ ، وَهُوَ أَشْبَهَ لِمَوَاقِفَتِهَا لِمَعْنَى الْوَاقِيَةِ ، وَهِيَ الْكَافِيَةُ ، لِمَا يَخَافُ مِنَ الشَّرِّ . أَظْلَمُ الْأَمْرُ :

(١ - ١) ساقط من نسخة المقامات المخطوطة .

قرب ودنا وكأنه ألقي عليك ظله . المألون : الليل والنهار ، والخاضع : الدليل ،
وخضع خُضوعاً : أقتر بالذل . والخاشع : المتواضع ، وخشع خُشوعاً : خفض
صوته ، ورمى ببصره إلى الأرض ، والخضوع قريب منه ، إلا أن أكثر
ما يستعمل الخشوع في الصّوت والخضوع في الأعناق . الرّفات : العظام البالية .
الآفات : المضّرات . المكافأة : المجازاة . موئل : ملجأ . العفاة : جمع عافٍ ،
وهو سائل العفو ولّى العفو : صاحب المغفرة . والمعافاة . المباعدة من الضّرر ،
وقد عافاه ممّا يكره وأعفاه . أنبائك : أخبارك ، والنبأ الخبر . أمرته : رهطه ،
وأراد بالمصاييح المهاجرين ، وبالغاتيح الأنصار . أعذني : أجرني . التزغات :
الإفساد ، نزع الشيطان بين القوم ، أى أفسد ذات بينهم . والشيطان : البعيد
من الخير ، من قولهم : دار شطون ، أى بعيدة ، ونوى شطون .

قال النابغة :

* نأت بسعاد عنك نوى شطون^(١) *

وقال نابغة بنى شيبان :

فأضحت بعد ما وصلت بدار شطون لا تُماد ولا تُعود^(٢)
نزوات : وثوب ، وقد نزا نزواً ونزواً ، إذا وثب ، ونزا على الشيء ،
ارتفع . إعنات : مشقة . الباغين : المتعدين ، وقد بغى عليه بغياً : تعدى عليه .
معاناة : معالجة ومقاساة . الطاغين : المترفين في الظلم والمعاصي ، والعادين :
للتجاوزين الحد في الظلم . غيل : جمع غيلة ، وهى الهلاك . والمقتال : المهلك .
أجرني : أمّني . سطوة : بطش وتهديد . الضائمين : المذلين .

* * *

(١) اللسان - شطن ، وعجزه :

* فبانة ، والنواد بها رهين *

(٢) ديوانه ٣٤ .

(٤ - شرح مقامات الحريري ج ٢)

اللَّهُمَّ حُطِّي فِي تُرْبَتِي ، وَغُرْبَتِي وَغَيْبَتِي ، وَأُزْبَتِي وَنَجْمَتِي ،
 وَرَجْمَتِي ، وَتَصَرُّفِي وَمُنْصَرَفِي ، وَتَقْلَبِي وَمُنْقَلَبِي . وَاحْفَظْنِي فِي
 نَفْسِي ، وَنَفَاسِي ، وَعِرْضِي وَعَرَضِي ، وَعُدَدِي وَعُدْدِي ،
 وَمَسْكَنِي وَمَسْكَنِي ، وَحَوْلِي وَحَالِي ، وَمَالِي وَمَالِي ، وَلَا
 تُلْحِقْ بِي تَغْيِيرًا ، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيَّ مُغَيِّرًا ، وَاجْعَلْ لِي مِنْكَ
 سُلْطَانًا نَصِيرًا . اللَّهُمَّ اخْرِسْنِي بِعَيْنِكَ وَعَوْنِكَ ، وَاخْصُصْنِي
 بِأَمْنِكَ وَمَنْكَ ، وَتَوَلَّيْنِي بِاخْتِيَارِكَ وَخَيْرِكَ . وَلَا تَكِلْنِي إِلَى
 كَلَاءَةٍ غَيْرِكَ ، وَهَبْ لِي عَافِيَةً غَيْرَ عَافِيَةٍ ، وَارْزُقْنِي رِفَافِيَةً غَيْرَ
 وَاهِيَةٍ . وَارْزُقْنِي غَيْرَكَ ، وَارْزُقْنِي بِغَوَاشِيِ الْآلَاءِ ، وَلَا
 تُظْفِرْ بِي الْأَعْدَاءَ ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ .

* * *

قوله : « اللَّهُمَّ حُطِّي فِي تُرْبَتِي » ، أى احفظني في بلدتي . أوتبتى : رجعتى .
 نَجْمَتِي : سفرى في طلب الرزق . نَفَاسِي : كرائم مالى . عِرْضِي : نفسى .
 وَعَرَضِي : مالى . عُدْدِي : أهلى . عُدْدِي : آلاتى ، وما أستعده . سَكْنِي :
 أهلى . حَوْلِي : قوتي . حَالِي : بالى . مَالِي : مرجعى . مَنْكَ : إحسانك .
 تَوَلَّيْنِي : كن لى وليًا . تَكِلْنِي : تُخَوِّجُنِي . كَلَاءَةٌ : حفظ وحراسة . وعافية :
 عيش سالم من الآفات .

قال أبو الدرداء رضى الله عنه : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم البلاء
 وما أعد الله لصاحبه من الثواب إذا صبر، وذَكَرَ العافية وما أعد الله لصاحبها من
 الثواب إذا شكر ، فقلت : يا رسول الله ، أعافى فأشكر ، أحبُّ إلى من أن

أُتْبِلَى فَأَصْبِر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نَحْبُ مَعَكَ الْعَافِيَةَ . غَيْرَ
عَافِيَةٍ ، أَى غَيْرِ دِرَاسَةٍ . رِفَافِيَةٍ : غَنَى مَتَّعَ . وَاهِيَةٍ : نَاقِصَةٌ ضَعِيفَةٌ . مَخَاشِي :
مَا يُخْشَى وَيَخَافُ . اللَّأْوَاءُ : الشَّدَّةُ . اكْتَفَنِي : اسْتُرَّنِي . غَوَاشِي : أَى مَا يَتَغَشَّى
بِهِ ، أَى يَتَغَطَّى . الْآلَاءُ : النِّعَمُ .

* * *

ثُمَّ أَطْرَقَ لَا يُدِيرُ لِحْظًا ، وَلَا يُحِيرُ لَفْظًا ، حَتَّى قُلْنَا : قَدْ
أَبْلَسَتْهُ خَشْيَةٌ ، أَوْ أَخْرَسَتْهُ غَشْيَةٌ . ثُمَّ أَقْنَعَ رَأْسَهُ ، وَصَعَّدَ
أَنْفَاسَهُ وَقَالَ :

أَقْسِمُ بِالسَّمَاءِ ذَاتِ الْأَبْرَاجِ ، وَالْأَرْضِ ذَاتِ الْفِجَاجِ ، وَالْمَاءِ
النَّجَّاجِ ، وَالسَّرَّاجِ الْوَهَّاجِ ، وَالْبَحْرِ الْفَجَّاجِ ، وَالْهَوَاءِ وَالْعَجَّاجِ ،
لَهَا لِمَنْ أَيْمَنَ الْعُودِ ، وَأَغْنَى عَنْكُمْ مِنْ لَبِئْسِ الْخُودِ ، مَنْ دَرَسَهَا
عِنْدَ ابْتِسَامِ الْفَلَقِ ، لَمْ يُشْفِقْ مِنْ خُطْبٍ إِلَى الشَّفَقِ ، وَمَنْ نَاجَى
بِهَا طَلِيعةَ الْفَسَقِ ، أَمِنْ لَيْلَتِهِ مِنَ السَّرَقِ .

قال : فَتَلَقَّيْنَاهَا حَتَّى اتَّقَنَّاهَا ، وَتَدَارَسْنَاهَا ، لَكَيْلًا لَا نَنْسَاهَا .

* * *

أَطْرَقَ ، أَى نَظَرَ إِلَى الْأَرْضِ سَاكِنًا ، وَقَدْ فُسِّرَ قَوْلُهُ « أَطْرَقَ » بِقَوْلِهِ :
« لَا يُدِيرُ لِحْظًا ، وَلَا يُحِيرُ لَفْظًا » ، فَيُدِيرُ لِحْظًا يُحِيلُ نَظْرَهُ فِي الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ ،
وَيُحِيرُ لَفْظًا : يَرُدُّ كَلَامًا ، وَالْفَشْيَةُ : أَنْ يُغَشَّى عَلَى عَقْلِهِ . أَقْنَعَ : رَفَعَ . صَعَّدَ :
جَعَلَهَا تَصَعَّدَ ، أَى تَرْتَفِعُ . الْأَبْرَاجُ ، أَى مَنَازِلُ الْقَمَرِ . الْفِجَاجُ ، أَى الْمَسَالِكُ ،
وَاحِدُهَا : فِجْ ، وَالْفَجْ الطَّرِيقُ الْوَاسِعُ فِي الْجَبَلِ ، وَقِيلَ : هُوَ الْمَتَّعُ بَيْنَ مَرْتَفِعَيْنِ ،

وقيل : هو الفتح بين الشئيين : الشَّجَّاج : السَّيَّال الكثير الصَّب . السراج : الشمس . الوَهَّاج : الوَفَاد المتلألئ ، وهو من وَهَج النار ، وهو اتقادها وحرَّها ، العَجَّاج : المصوت لاضطراب أمواجه . الهواء : ما بين السماء والأرض . والعجَّاج : الغبار . والمُعَوِّذ : الرُّقَى . أغْنَى : أجزأ وأكفى ، والغنى الكفاية ، وأغنى فلان معنى فلان ، أى كفاه الحضور وقام مقامه . والحُوْذ ، بالحاء المهملة الدَّرْع ، وينقط الحاء بيض السلاح . ابتسام الفلق : ظهور الفجر . يشفق : يخاف . خطب : أمر شديد . الشَّفَق : الحمرة بعد غروب الشمس . ناجى : تكلم بها مرّاً . طليعة الفسق ، أول طلوع الظلام . تلقَّناها ، أى فهمناها . أتقناها : أحكمتناها . تدارسناها ، الدَّرْس فى كلامهم الرِّياضة والتذليل ، وطريق مدروس : كثر مشى الناس فيه ، فذلُّوه وأثروا فيه ، فعنى دَرَس القرآن أو الدعاء ، ذلَّل لسانه وراضه .

[ضروب من الأدعية المأثورة]

ونصل هذا الدعاء الذى ذكر أنه مستجاب وصدق إذا صحب الدعاء به الإخلاص ، والتضرُّع بأدعية يُنتفع بها إن شاء الله تعالى .
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرًا قال : « اللهم أنت صاحبُ في السَّفر ، والخليفة في الحَضَر . اللهم إني أعوذ بك من وَعْثاء السفر ، وكآبة المنقَاب ، ومن الحُوز^(١) بعد الكُوز ، ومن سوء المنظر في الأهل والمال والولد » .

وقالت أم سلمة رضى الله عنها : مَنْ خرج في طاعة الله تعالى فقال : اللهم إني لم أخرجُ أشيرًا ولا بَطْرًا ، ولا رياء ، ولا سمعة ، ولكنى خرجت ابتغاء

(١) في اللسان : الحوز : الرجوع ؛ يقال : حار بعدما كار ، والحوز : نقصان بعد الزيادة ، لأنه رجوع من حال إلى حال ؛ وفي الحديث : « نعوذ بالله من الحوز بعد الكور » معناه من نقصان بعد الزيادة . وقبل : معناه من فساد أمورنا بعد صلاحها ، وأصله من نقض العمامة بعد لفها ، مأخوذ من كور العمامة إذا انتقض ليها ، وبعضه يقرب من بعض .

مرضاتك ، واتقاء سَخَطِكَ ، فأسألك بحقك على جميع خَلْقِكَ أن ترزقني من
الخير أكثر مما أرجو ، وتَصْرِفَ عَنِّي من الشرِّ أكثر مما أخاف ... استجيب
له بإذن الله تعالى .

وقالوا : كلمات الفرج عند الكرب : لا إله إلا الله الحليم الكريم ، وسبحان
الله رب العرش العظيم ، والحمد لله رب العالمين .

قال جعفر بن محمد لسفيان الثوري : إذا كثرتُ هومُك فأكثر من قول :
لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وإذا درت عليك النعم فأكثر من
الحمد لله العالمين ، وإذا أبطأ عليك الرزق فأكثر من الاستغفار .

ومن قال في ليل أو نهار : اللهم ربّي لا إله إلا أنت عليك توكلت وأنت
رب العرش العظيم ماشاء الله كان ، وما لم يشألم يكن ، أعلم أن الله على كل شيء
قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ، اللهم إني أعوذ بك من شرِّ نفسي
ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها . إن ربّي على صراط مستقيم ... لم يضره شيء .
ومن قال : بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو
السميع العليم ، ليلاً أو نهاراً أمن مما يخاف .

ومن قال : سبحان الله وبحمده ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ثلاث مرات
بعد صلاة الصبح أمن من كلّ غمّ وجُذام وبرص وفالج .

ومن قال : باسم الله ماشاء الله لا قوة إلا بالله ، ماشاء الله كل نعمة من الله ،
ماشاء الله الخير كله بيد الله ، ماشاء الله لا يصرف السوء إلا الله ، من قالها إذا
أصبح أمن من الحرق والفرق .

ومن دخل على سلطان يخاف سطوته فقال : الله أعزّ وأكبر مما أخاف وأحذر ،
اللهم رب السموات السبع وربّ العرش العظيم ، كن لي جاراً من عبدك فلان ،
وجوره وأشياعه وأتباعه . تبارك اسمك وجلّ ثناؤك ، وعزّ جارك ، ولا إله
غيرك ثلاث مرّات أمن من شره .

وقال المنصور للربيع :علىّ بجعفر ، قتلى الله إن لم أقتله ! فلما مثل بين يديه
حرّك شفتيه ، ثم قرب وسلم فقال ، : لاسلم الله عليك يا عدو الله ، تعمل علىّ
الفوائل في مُلكي قتلى الله إن لم أقتلك ! فقال : يا أمير المؤمنين إن سُلَيّانَ
أعطى فشكر ، وإن أيوب ابتلى فصبر ، وإن يوسف ظُلم فففر ، عليهم السلام ،
وأنت على أثر منهم ، وأحقّ من تأسى بهم . فنكس المنصور رأسه ملياً ثم
رفع رأسه ، وقال : إلىّ أبا عبد الله ، فانت القريب القرابة ، وأنت ذو الرحم
الواشحة . والسلام الناحية ، القليل الغائلة . ثم صالحه بيمينه ، وعانقه بشماله ،
وأجلسه معه على فراشه ، وأقبل يسأله ويحادثه ، ثم قال : عَجَلُوا لأبي عبد الله
إذنه وجأزته وكسوته . فلما خرج أمسكه الربيع وقال له : رأيتك قد حرّكت
شفتيك فأنجى الأمر ، وأنا خادم السلطان ، ولا غنى لى عنه ، فعلمنى إياه ، فقال :
نعم ، قلت : اللهم احرسنى بعينك التى لاتنام ، واكفنى بحفظك الذى لا يرام .
لا أهلك وأنت رجائى ، فكم من نعمة أنعمتها علىّ قلّ عندها شكرى فلم تحرمنى .
وكم من بليّة ابتليت بها قلّ عندها صبرى فلم تحذلنى . اللهم بك أدرك فى نحره ،
وأعوذ بك من شره .

ومن قال إذا سمع المؤذن :رضيتُ بالله ربّاً ،وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله
عليه وسلم نبياً ، غفرت له ذنوبه .

ومن دعاء الأعراب :قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه :ما من قوم أشبه
بالسلف من الأعراب لولا جفاء فيهم .

وقال : غَيِّلَان إذا أردت أن تسمع الدعاء فاسمع دعاء الأعراب .

وقال الأصمعي :سمعتُ أعرابياً بفلاة من الأرض يقول :اللهم إن استغفارى
إياك مع كثرة ذنوبى لأؤم ، وإن تركى الاستغفار مع معرفتى سعة رحمتك أمجز ،
إلى كم تتحبّب إلىّ برحمتك وأنت غنى عنى ، وكم أتبغض إليك بذنوبى وأنت

فقد إليك : يا من إذا وعد وفى ، وإذا أوعد عفا ، أدخل عظيم جُرمي في عظيم عفوك ، يا أرحم الراحمين .

قال : وسمعتُ آخر يقول في دعائه : اللهم إني أسألك عمل الخائفين ، وخوف العاملين ، حتى أنتنم بترك النعيم طمعاً فيما وعدت ، وخوفاً مما أوعدت . اللهم أعذني من سطواتك ، وأجرني من نقماتك .

قال : ودعتُ أعرابية لابن لها خرج مسافراً ، فقالت : كان الله صاحبك في السفر ، وخليفتك في أهلك ، وأنجح طمبتك ، امش مصاحباً مكلوفاً ، لا أشت الله بك عدواً ، ولا أرى فيك لحبك سوءاً .

وهذا الباب كثير ، وإنما ذكرنا من الأدعية ما جُرب واستحسن ، والله ينفع بها آمين . قال أعرابي يصف دعوة :

وسارية لم تسر في الليل تبتني	محلاً ولم يقطع بها البید قاطع
سرت حيث لم تسر الركاب ولم تنخ	لوردي ولم يقصر لها القيد مانع
تحل وراء الليل والليل ساقط	بأوراقه فيه سمير وهاجع
تفتح أبواب السماء لوفدها	إذا قرع الأبواب منهن قارع
إذا وفدت لم يرد الله وفدها	على أهلها ، والله راء وسامع
وإني لأرجو الله حتى كائنني	أرى بجميل الظن ما الله صانع

* * *

ثم سرنا نُرْجِي الحُمُولَاتِ ، بالدُّعُوتِ ، لا بالْخُدَاةِ ، وَنَحْمِي الحُمُولَاتِ ، بالكلماتِ لا بالكُمَاةِ ، وَصَاحِبُنَا يَتَعَهَّدُنَا بِالْعَشِيِّ وَالْمَدَاةِ ، وَلَا يَسْتَنْجِزُ مِنَّا الْعِدَاتِ ، حَتَّى إِذَا عَلَيْنَا أَطْلَالَ عَانَةَ ، قَالَ

لَنَا : الإِعَانَةُ الْإِعَانَةُ ، فَأَحْضَرْنَاهُ الْمَعْلُومَ وَالْمَكْتُومَ ، وَأَرَيْنَاهُ
الْمَعْكُومَ وَالْمَحْتُومَ ، وَقُلْنَا لَهُ : أَقِضْ مَا أَنْتَ قَاضٍ ، فَمَا تَجِدُ فِينَا
غَيْرَ رَاضٍ ، فَمَا اسْتَخَفَّهُ سِوَى الْخَفِّ وَالْهَيْنِ ، وَلَا حِلِّيَ بَيْنِهِ
غَيْرُ الْحَلِيِّ وَالْمَيْنِ . فَاحْتَمَلَ مِنْهُمَا وَقَرَهُ ، وَنَاءَ بِمَا يَسُدُّ قَفَرَهُ ،
ثُمَّ خَالَسْنَا مُحَاسِنَةَ الطَّرَارِ ، وَانْصَلَتْ مِنَّا انْصِلَاتِ الْفُرَارِ ،
فَأَوْحَشْنَا قِرَاقَهُ ، وَأَذْهَشْنَا امْتِرَاقَهُ ، وَلَمْ نَزَلْ نَنْشُدُهُ بِكُلِّ نَادٍ ،
وَنَسْتَجِبِرُ عَنْهُ كُلَّ مُنْغَوٍ وَهَادٍ ، إِلَى أَنْ قِيلَ : إِنَّهُ مُذْ دَخَلَ عَانَةَ ،
مَا زَايَلَ الْحَانَةَ .

قوله : « نزجى » ، أى نسوق . الْحَوْلَاتُ ، بفتح الحاء : الإِبِلُ ، وبضمها
الأَحْمَالُ . الْحِدَاةُ : خِدْمَةُ الْإِبِلِ ، بِمَنْزِلَةِ الْمَسْكِينِ لِلدَّوَابِّ . نَحْمَى : نَمْنَعُ .
الْكِبَاةُ : الشَّجَمَانُ . يَتَعَهَّدُنَا : يَتَفَقَّدُنَا . يَسْتَنْجِزُ : يَطْلُبُ إِحْضَارَ مَا وَعَدَ بِهِ .
عَانَةَ ، بِمَعْنَى غَيْرِ مَنْقُوطَةٍ : قَرْيَةٌ بِالْجَزِيرَةِ كَثِيرَةُ الْأَعْنَابِ .

وقال امرؤ القيس :

* مِنْ سَخِرَ عَانَةَ أَوْ كُرُومٍ شِبَامٌ *^(١)

وَأُطْلَاهَا : آثَارَهَا ، يُرِيدُ أَنَّهُ لَمَّا أَشْرَفَ عَلَى عَانَةَ ، قَالَ لَهُمْ : أَعْطُونِي
مَا أَسْتَعِينُ بِهِ . الْمَعْلُومُ : الظَّاهِرُ . وَالْمَكْتُومُ : الْمُسْتَوْر . وَالْمَعْكُومُ : الْجَمْعُ فِي
عَيْكُمُ ، قَالَ يَعْقُوبُ : الْعَيْكُمُ : نَمَطٌ يُجْعَلُ فِيهِ الْمَرْأَةُ ذَخِيرَتَهَا ، أَوْ يَكُونُ الْمَعْكُومُ

(١) ديوانه ١١٥ ، وصدره

* أَنْفٌ كُلُّونَ دَمِ الْفَزَالِ مَعْتَقٌ *

المشدود بالعِصام ، وقد تقدّم آنفا . والمختوم : المطبوع عليه ، يريد : أربناه
أنواع أموالنا . استخفّ : استحقّر . الخِيف : الخفيف . الهَيْن : الهين . حَلَى :
حَسُن . الحَلَى : ما يتحلّى به النساء . والعين : الذهب والفضة ، يريد أنه
استحقّر الخفيف القدر الهين القيمة ، مثل الإمتاع ، وشبهها فتركها ، وأعجبه
الحلى والذهب فحملها ، أو يكون مبنى « استخفّ » وجده خفيفاً ، والخِيف
والهين ، يريد الخفيف عليه حمله ، الهين عليه ثقله ؛ يريد الذهب والجوهر ، ويكون
قوله « حَلَى بعينه » وما بعده مفسّراً ومؤكداً لاستخفّ وما بعده ، وهذا أشبه
من الأول .

وقره : حمله . ناء : نهض بثقل . خالشنا : سارقنا وتسلسل عنا . الطّارار :
الذى يشقّ الجيوب ويستخرج ما فيها ، والطّار : القطع ، وقد طرّطراً ، وطّرة
الشعر منه ، لأنها مقطوعة من جلته ، مفصولة عنه . والمنتهز الذى يخطف من
يدك الشيء بسرعة . انصلّت : انسلّ ولم يشعر به . والانصلات : سقوط السيف
من الغمد . والفرّار ، هو الزّأووق ، ويسمى الزئبق ، سمى فراراً لأنه سريع السّيلان
لا يستقرّ في موضع ، والفرّار من كثر فراره . أوحشنا : أذهب أنسنا .
أدهشنا : حيرنا . امترّقه : خروجه مسرعاً ، ومرّق السهم : خوج من القوس ،
ومن الرمية . نشده : نطلبه . مغوٍ وهادٍ : مضلّ ومرشد . الحانة : بغير نقط :
بيت الخمار أو حانوته ، والحان والحانة هى الدسكرة التى ذكر ، وقال
ابن شهيد فيه :

يا رب حانٍ قد أدت بديره نحر الصّبّا مَزَجَتْ بصفو حُورِهِ^(١)
في فتيمة جعلوا الزّفاق تكاءهُم متصارعين تحشّما لكثيره
يُهدى إلينا الراح كُلُّ معصفرٍ^(٢) كالخِشف خقره التّماحُ خفيره

(١) ديوانه ١١٠ .

(٢) الديوان : إلينا الراح كُلُّ معصفرٍ

وَالِي عَلَى بِطَرْفِهِ وَبِكَفِّهِ فَأَمَالَ مِنْ رَأْيِي لَعَبٌ كَبِيرُهُ
وَتَرْتَمِ النَّاقُوسُ عِنْدَ صَلَاتِهِمْ فَفَتَحْتُ مِنْ عَيْنِي لِرَجْعِ هَدِيرِهِ
زَايِلٌ : فَارَقَ .

* * *

فَأَغْرَانِي خُبْنُ هَذَا الْقَوْلِ بِسَبْكِهِ ، وَالْإِنْسِلَالِ فِيمَا لَسْتُ
مِنْ سِلْكِهِ ، فَأَذِلْتُ إِلَى الدَّسْكَرَةِ ، فِي هَيْئَةٍ مُنْكَرَةٍ ، فَإِذَا
الشَّيْخُ فِي حُلَّةٍ مُمَصَّرَةٍ ، بَيْنَ دِنَانٍ وَمِعْصَرَةٍ ، وَحَوْلَهُ سُقَاةٌ تَهْرُ ،
وَشُمُوعٌ تَزْهَرُ ، وَأَسْوَءُ وَعْبَهَرٍ ، وَمِزْمَارٌ وَمِزْهَرٌ ، وَهُوَ تَارَةً يَسْتَبْدِلُ
الدَّنَانَ ، وَطَوْرًا يَسْتَنْطِقُ الْأَمِيدَانَ ، وَدَفْعَةً يَسْتَنْشِقُ الرِّيحَانَ ،
وَأُخْرَى يُفَازِلُ الْغِزْلَانَ . فَلَمَّا عَثَرْتُ عَلَى لَبْسِهِ ، وَتَفَاوَتْ بَيْنَ
يَوْمِهِ مِنْ أَمْسِهِ ، قُلْتُ لَهُ : أَوْلَى لَكَ يَا مَلْعُونٌ ، أَنْ نَسِيتَ يَوْمَ
جَيْرُونَ أَفْضَحَكَ مُسْتَغْرِبًا ثُمَّ أَنْشَدَ مُطْرِبًا :

* * *

أَغْرَانِي : حَتْنِي . سَبْكِهِ : تَجْرِيهِهِ . الْإِنْسِلَالُ : الدَّخُولُ . سِلْكِهِ :
شَكْلُهُ ، وَانْسَلَكْتُ حَبَّةَ اللَّوْلُؤِ : جَرْتُ فِي السَّلَكِ ، وَهُوَ خِيطُ النِّظَامِ . أَذِلْتُ :
مَشَيْتُ بِاللَّيْلِ . الدَّسْكَرَةُ ، بِنَاءٌ كَالْقَصْرِ حَوْلَهُ بِيوتٌ يَسْكُنُهَا الْخَمَارُ وَالْحَشَمُ ،
قَالَ الْجَعْدِيُّ :

وَدَسْكَرَةٍ صَوْتُ أَبْوَابِهَا كَصَوْتِ الْمَوَاتِحِ بِالْحَوَائِبِ^(١)

(١) ديوانه ١٤ . الدسكرة : من بيوت الأعاجم يكون فيها العمراب والملاحى .

سبقتُ صياح فرار يجمها ، صوت نواقيس لم تضرَب
برنة ذى عتبٍ شارفٍ وصهباء كالسك لم تقطَب
المواتح : البكرات ، والحوأب : اسم ماء الفراريج : الديوك عتب : أوتار .
وشارف : اسم العود ، شبهه بالشارف من الإبل ، لأنها أغنّ صوتاً وأطربه ،
قال متمم :

إذا شارف منهن قامت فرجعت حينئذ فأبكي شجوها البرك أجمعاً^(١)
محصرة : مصبوغة بالمصرة ، وهى العصفرة قبل أن يوضع فيه الخل ، فلونها
أصفر ، فإذا وُضع فيها الخل احمر ما يصنع به وسمى معصفراً . والحلة : ثوبان :
إزار ورداء ، وسميت حلة ، لأنها تجعل على لابسها كما يجعل الرجل على الأرض .
دنان : جمع دن ، وهو نوع من الخوابي طويل الأسفل ضيقه ، ويسمى الراقود .
وهذه الحالة التى وجد عليها الحريرى الشرّ وجى بعد ذلك الترهّب الذى كان عليه
فى أول المقامة لها نظائر لرجال مشاهير بالعلم والفصل .

* * *

[وصف بعض مجالس الشراب]

حكى الثعالبى فى يقيمه^(٢) ، وقد ذكر القاضى التنوخى فقال : هو أبو القاسم
على بن محمد بن داود بن فهم ، من أعيان أهل العلم والأدب ، وأفراد ذوى الكرم
وحسن الشيم ، وكان كما قرأت فى فصل للصاحب : إن أردت فإنى سُبجة
ناسك ، أو أحببت فإنى تفاحة فاتك ، أو اقترحت فإنى مدرعة راهب ، أو اخترت
فإنى نخبة شارب .

وكان تقلد قضاء البصرة والأهواز بضع سنين ، وكان المهلبى وغيره من
وزراء العراق يميلون إليه جداً ، ويعُدُّونه ريحانة الندماء ، وتاريخ الظرفاء ،
يعاشرون منه مَنْ تطيب عشرته ، وتلين قشرته ، وتكرم أخلاقه ، وتحسن

(١) المفضليات ٢٧٠ . البرك : الألف من الإبل .

(٢) البتية ٢ : ٣٠٩ .

أخباره ، وتسير أشعاره ؛ ناظمة حاشيتي البر والبحر ، وناحيتي الشرق والغرب .
 وكان من جملة القضاة الذين ينادمون الوزير المهلب ، ويحتمعون إليه في الأسبوع
 ليلتين ، على أطراح الحشمة والتبسط في القصف والخلاعة ، منهم ابن قريعة
 وابن معروف والقاضي التنفوشي ^(١) وغيرهم ، وما منهم إلا أبيض اللحية
 طويلها ، وكذلك كان المهلب ، وإذا تكلم الأنس ، وطاب المجلس ، ولقد
 السماع ، وأخذ الطرب فيهم مأخذه . وهبوا ثوب الوقار للمقامر ، وتقلبوا في أعطاف
 العيش ، بين الخفة والطيش ، ووضع بين يدي كل واحد منهم طست من
 ذهب من ألف مثال مملوء شرابا ، فيغمس فيه لحيته ، بل ينقعها حتى تشرب
 أكثره ، ويرش بعضهم بعضا ، ويرقصون بأجمعهم ، وعليهم مصبغات الثياب ،
 ومخائق البرم ، ويقولون كلما يكثر شربهم هرهر ، وفيهم يقول السري :

مجالس ترقص القضاة بها إذا انتشوا في مخائق البرم ^(٢)

وإذا أصبحوا عادوا لعادتهم في الترهّب والتوقّر والتحفّظ وأبهة القضاة
 وحشمة المشايخ الكبراء .

وقال في ابن معروف ^(٣) : كان كما قرأته في فصل للصاحب : شجرة فضل
 عودها أدب ، وأغصانها علم ، وثمرها عقل ، وعروقها شرف ؛ تسقيها سماء
 الحرّية ، وتغذوها أرض المروّة ، وفيه يقول الصابي :

(١) في الأصول : « الأندرجي » ، وما أثبتته من البيتة .

(٢) البرم : نوع من الثياب ، وبعده في البيتة والديوان ٢ : ٣١٠ .

وصاحب يخطط الجون لنا بشيمة حلوة من الشيم
 تخضب بالراح شيبه عبثا أنامل مثل حمرة العنم
 حتى نخال العيون شيبته شبة عثمان ضرت بدم

(٣) هو عبيد الله بن أحمد بن معروف ، ترجم له في البيتة ٣ : ٩٤ - ٩٦ .

أقسمت بالله ما يرجى لمعروفٍ في الحادثات سوى القاضى ابن معروفٍ

ومن شعر ابن معروف :

لو كنت تدري ما الذى صنع الهوى والشوق في الجسم التحيل البالي^(١)
لهجرت هجرى واجتنبت تجنبي ووصلت من بعد النعيم وصالي

وقال القاضى التنوخى في غلام جسيم :

له في كل عضو دِغصٌ رَمَلٍ ثَقِيل الجسم ذو روحٍ خَفِيفٍ^(٢)
أُعشِق لا عَشَقْتُ أَخَا نَحْوِلٍ كَأَنى لست ذا الخلق الطَّارِفِ
إذا لَمَسْتُهُ كَفَى لَمْ تَلَامَسِ سِوَى جِلْدِهِ عَلَى عَظْمٍ ضَعِيفِ

شرب^(٣) المأمون وعبد الله بن طاهر ، ويحيى بن أكرم القاضى ، فتماعل^(٤)
المأمون وابن طاهر على سُكْرٍ يحيى ففغمزاً به الساقى ، فأسكره ، وكان بين
أيديهم رِزَمٌ من ورد وريحان ، فأمر المأمون ، فشق له قبرٌ في الرِّزَمِ وصُيِّرَ
فيه . وعمل بيتى شعر ، ودعا قُبَيْنة فجلست عند رأسه ، وغنّت بهما وهما :

ناديته وهو حى لا حراكَ به مكفَنٌ في ثيابٍ من رياحينٍ
فقلت : قم ، قال : رجلى لا تطاوعنى فقلت : خذ ، قال : كفى لاتواتينى

فانتبه يحيى لربة العود فقال :

يا سيِّدى وأميرَ الناس كلِّهمُ قد جَارَ في حكمه مَنْ كان يَسْقِينِى
إِنى غَفَلْتُ عن السَّاقِى فصَيَّرَنِى كما ترانى سَلِيبَ العقل والدينِ
لا أَسْتَطِيعُ نهوضاً قَدْ وَهَى قَدَمِى ولا أُجِيبُ لداعٍ حين يدعُونِى

(١) البيهية ٣ : ٩٦ . (٢) البيهية ٢ : ٣١٨ .

(٣) الخبر في المقد ٦ : ٣٥٤ ، ونهاية الأرب ٤ : ٩٣ .

(٤) كذا في الأصول ونهاية الأرب ، وو المقد : فتناظر .

(٥) في الأصول : « ردم » ، وصوابه من المقد . والرزم : جمع رزمة ، بالكسر ،
هي بها الطافات .

فانظر لنفسك في قاضٍ يكون لكم . إني غدوتُ دفيناً في الترياحين

* * *

والحالة التي وصف بها أبو زيد خَلَعَتِ الأُمَيْنَ عن الملك، ونقلته إلى المأمون . قال الربيع : قعد الأمين يوماً للناس وعليه طيلسان أزرق ، وتحته لبند أبيض ، فوقع على ثمانمائة قصّة ، فلقد أصاب فما أخطأ ، وأسرع فما أبطأ ، ثم قال : ياربُّعُ أتراني لا أحسن التدبير والسياسة ، ولكنني وجدتُ شَمِّ الآس ، وشرب الكاس ، والاستلقاء من غير نعاس ، أشهى إليّ . وكذلك خلعت قبله الوليد بن يزيد ، وبعده المتوكل وغيرهم من الخلفاء والأمراء ، ممن أتر راحة النفس على تعب السياسة .

قوله : « تبهر » ، أي تسقيه بالبهار ، وهو شبه الإبريق ، وقيل : تبهر ، تغلب العقول بحسنها ، يقال : بهر بهراً ، إذا غلبه ، وبهر القمر السماء : ملاًها بنوره . تزه : تضيء . شموع : مصابيح الشمع . آس : ريحان . عبهر : نرجس ، وقيل : ياسمين ، قال عليّ رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شَمُّوا التَّرجس ولو في اليوم مرّة واحدة ، ولو في الشهر مرّة واحدة ، ولو في الدهر مرّة واحدة ، فإن في القلب حَبَّةً من الجنون والجذام والبرص ، لا يقلمها إلا شم التَّرجس » .

وقال عليّ رضي الله عنه : حبّاني النبي صلى الله عليه وسلم بالورد ، وقال : « أما إنه سيّد ريحان الجنّة بعد الآس » .

وقال أردشير بن بابك : الورد دُرٌّ أبيض ، وياقوت أحمر ، على كراميّ زبرجد أخضر ، بوسطه شذور من ذهب أصفر ، له رقة الخمر ، ونفحات العطر .

[مما قيل من الشعر في وصف الأزهار]

ونذكر هنا طرفاً من المنظوم في الأزهار يليق الموضع بحول الله تعالى ،
خال محمد بن عبد الله بن طاهر ملماً بقول أردشير :

كأنهن يواقيتُ بِطَيفِهَا زُمُرد وسطه شذر من الذهب
فاشرب على منظرٍ مستظرفٍ حَسَنٍ من خرةٍ مُزجتُ كالجرى اللَّهبِ

وللمعتمد بن عباد :

كأنما يسميُنَا الفضُّ كواكبٌ في السماء تبيضُ^(١)
والطرُقُ الحمرُ في جوانبه كنهدي عذراء مَسَّه عَضُّ

ولأبي الفضل الميكالي :

وما ضَمَّ شَمْلَ الأنسِ يوماً كَنرجسٍ يقوم بعذر اللهو عن خالِعِ المُنذرِ
فأحداقه أحداق تهرٍ وساقه كقامة ساقٍ في غلالله الخضرِ

ولمضد الدولة :

يا طيبَ رائحةٍ من نفحة الخيرِ إذا تمزق جِلْبَابُ الدياجيرِ
كأنمارشَ بالماورد واعتبقتُ به دواخن نَدَى عند تبخيرِ
كأن أوراقه في القدِّ أجنحةٌ حمرٌ وصفرٌ وبيضٌ من زنايرِ

ولعلي بن بسام :

أما ترى الوردَ يدعو للورود على حمراء صافيةٍ في لونها صَهَبُ^(٢)
مداهنٌ من يواقيتِ مركبةٍ على الزبرجدِ في أفواها ذهبُ

وقال آخر :

نرجسة عينها محبرةٌ لم تكتحل قط آفة النمضِ

(١) نهاية الأرب ١١ : ٢٣٧ ، وانظر ديوان الماتى ٢ : ٢٣

(٢) نهاية الأرب ١١ : ١٨٩ ، ونسبها إلى ابن طاهر ، وفيه : د إلى خر مدققة ،

باكرها الطَّلَ فهى باهتة تنظر فعل السماء فى الأرض
وللأسعد بن بليط :

بنفسجٍ باتت أ كَف الصبا تنثره فى زرقية لا تُحدِّث
كأنما قُطَّ بمنشوره رءوس أفلام من اللازورد

وقال آخر فى نَوْر الباقِلَا :

نَوَّارَةَ البَاقِلَا إِذْ لَارَاقَ مَنْظَرُهَا تَحْكِي الفَرَّاشَةَ تَنْقِيطاً وَتُرَيْشاً
كأنما هى ما حول الذبالة إِذْ مَدَّتْ جَنَاحَها مَكَانَ الكَفِّ مَرْقُوشاً
والباب كثير .

* * *

قوله : « مزهر » عود الفناء . يَسْتَبْزِل : يستسقى منها شراباً ، والمَبْزَلُ الثقب
فى جانب الخابية تجرى منه الخمر صافية ، ويبقى المكر فى قعرها ، قال الأخطل :
لما أَتَوْها بِمَصْبَاحٍ وَمِيزَانٍ سارتْ إِلَيْهِمْ سَئُورَ الأَبْجَلِ الضَّارِي^(١)
تدمى إِذا طَعَنُوا فِيها بِجَانْفَةٍ وفى الزَّجَاحِ عَتِيقٌ غَيْرُ مَسْطَارٍ^(٢)
أراد أن الخمر خرجت خروج الدم من الأبجل ، وهو عرق .
وقال ابن حصين :

حجبتُ عنها الدَّنَ فاستعبرت جرياً كما قوَّس لإحليل

(١) ديوانه ١١٨ ، وشارت : سمت لإيهم والضارى : العرق الذى بدأ منه الدم ، والأبجل :
عرق يكون فى الدواب ، وفى الناس يسمى الأكل .
(٢) الجانفة : الطعنة التى تصل إلى الجوف . والعتيق الخالص . والسطار : الحديث .

كأنها في الكأس منصبةً خيط من الفضة مفتولٌ
وقال آخر في قمع الشراب :

ولما رأى الناس فضل اللدائم وخافوا على جرمتها أن يسبلاً
تواخوا إلى شربها بينهم سبيلَ حفاظ فكنت السبلاً

قوله: « يستنطق » ، يأمر بضرها ليُسمع صوتها يستنشق: يشتم . يغازل :
يلعب . عثرت : اطلعت ، وأعثرت في معناه . لبسه : تخليطه . تفاوت :
تباعد . أولى لك : كلمة تهديد معناها : قد وائيك الشر فاحذر . وللمعون :
المطرد ، ولعنه الله : طرده ، والاستغراب : الضحك الكثير .
ومما يوافق شعره وحاله قول البيهقي (١) :

غادني بالصَّبُوح قبل الصَّبَاح واجر في حلبة الصَّبَا والمِرَاج (٢)
عاصنيها كالجلندار إذا ما كَلَّتْ من حبابها بالأفَاح
في اختصاص التفاح بالطيب والخُمرة لا في كثافة التفاح
خَدَمَتْها الأجسام بالطبع لما شاهدت قُرْبَها من الأرواح
فتدارك بها حُشاشة نفسى أو فحَرَكَ بها سكون ارتياحى
بين وردين من بَنَانٍ وخَدَرٍ وشرابين من رُضَابٍ وراج
ونشيد مُسْتَنْبِطٍ من حديثٍ وغناء يُغْفَى عن الإِفْترَاح
فألَدَ الحياة ما خالط للعَا قُلُ فيها فسادَه بصلاح
وله أيضا في مثله :

زَمَنُ الورد أشرف الأزمانِ وَأَوَانُ الربيع خير أوانٍ (٣)

(١) هو عبد الواحد بن نصر ، المعروف بأبي الفرج البيهقي ، وذكره وشعره في البيهقي

٢٠٠ : ٢٣٤ .

(٢) البيهقي ١ : ٢٢٦ .

(٣) البيهقي ١ : ٢٢٨ .

(٥) - شرح مقامات الحريري ج ٢)

أشرفُ الزهر زارَ في أشرفِ الدهرِ فصلٌ فيه أشرفُ الإخوان
وأدراها عذراءُ وانتهز الـ إمكان من قبل عائقِ الإمكان
في كتوسٍ كأنها زهر الخشخاشِ ضمت شقائق النعمان
واختدعها^(١) عند الزلزالِ بألفاظِ المثنائِ ومطربات الأغانى

وقال [ابن]^(٢) وكيع في الخشخاش :

وخشخاشٍ كأننا منه نفرى قميص زبرجدٍ عن جسمٍ دُرٍّ^(١)
كأفداحٍ من البلورِ صينتُ بأغشيةٍ من الديباجِ خضرٍ
وقال آخر في شقائق النعمان :

كأنَّ الشقائقِ إذ برزت غلالةٌ دُرٌّ وثوباً أحمرُّ
قصاعٍ من الجمرِ مشبوبةٌ بأوساطها لُعمٌ من مُحَمِّ

* * *

لَزِمْتُ السَّفَارَ وَجِبْتُ الْقَفَارَ
وَعِفْتُ النَّفَارَ لِأَجْنِي الْفَرَحَ
وَحُضْتُ السُّيُولَ وَرَضْتُ الْخِيُولَ
لَجَرٍّ ذِيُولِ الصَّبِّبِ وَالْمَرَحَ
وَمِطْتُ الْوَقَارَ وَبِعْتُ الْعَقَارَ
لِحَسَوِ الْعُقَارِ وَرَشَفِ الْقَدَحَ

(١) كذا في أ، ب، وهو يوافق ما في البيتية، وفي ط: « اجترعها ». وفي اللسان :
يزاله الحر وغيرها بيزلا : ثقب لئلا ينامها ، واسم ذلك البزال .
(٢) تكمله من ا ونهاية الأرب ١١ : ٢٦ .

وَلَوْلَا الطَّمَّاحُ إِلَى شُرْبِ رَاحٍ
لَمَا كَانَ بَاحٌ فِى الْمُلْحِ

قوله: «السفار»: مصدر سافرت. جُئْتُ: قطعت. عَفْتُ: كرهت. خضت: جزت ومشيت فيها. رُمِضْتُ: ذَلَلْتُ وركبت. المَرَّحُ: النشاط والمعجب. مِطَّتْ: فَحَّيْتُ وأزلت، ويقال: ماط وأماط: باعد، وأيضاً باعد غيره، والأصمعي يقول: ماط هو، وأماط غيره. التَّمَّارُ: المال الثابت الذى لا يُنقل. حَسُو: شرب. التُّعَّارُ: الخمر. رَشَفَ: مَصَّ. الطَّمَّاحُ: ارتفاع النظر. باح: تكلم. والمُلْحُ: الكلام الحلو، يريد أنه فعل ما ذكر ليرتاح ويشرب الخمر.

[مما ورد فى الخمر والشراب من للشعر والحكايات]

ذكر أبو محمد الحريرى فى هذا الموضع من المقامات أوصاف الخمر وفضلها ومنافعها، وذهابها بالهموم والأسقام، وذكر أنها من أفضل الأشياء وأن بيع أشرف الأعلاق فيها سداد، وأن ترك الإصغاء فيها إلى التذلل رشاد؛ وأن كمال لذتها مع السقاة الحسان، والتطريب بأنواع الغناء والألحان، إلى غير ذلك مما أشار إليه، ونبه عليه، وأنا أسوق هنا فى وصف الخمر فصلاً من كلام الحكماء والأدباء وسائر الأفاضل من الملوك ومهرة الشعراء، جربا معه فى أغراضه، حسبما فعلناه فى العاشرة فى أوصاف العلمان، وفى الحادية عشرة فى فضائل أهل الأديان، وأكثر اعتمادى فى هذا للفصل على اختيارات انتقيتها من كتاب قطب السرور^(١)، وصممت إليها ما يلائمها من غيره، وهو فصل بديع فى بابيه.

ذكر مؤلفه فى منافع الخمر وفضائلها قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ مِّمَّا تَخْتَلِى وَالأَغْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾^(٢) وقال تعالى فى الجنة: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ

(١) قطب السرور لأحمد بن القاسم المعروف بالنديم، ذكره صاحب كشف الظنون، وقال: كان حياً فى السنة ٣٤٠.

من ماء غير آسن وأنهار من كبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين *
 وأنهار من عسل مصفى^(١) فلم يذكر الماء والابن إلا بالسلامة من التغير، والعسل
 إلا بأنه مصفى، وجعل الخمر لذة للشاربين، فسكان هذا من التفضيل. وقال
 تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ بأكواب وأباريق وكاس من مدين *
 لا يصدعون عنها ولا ينزفون^(٢)، فنفى عنها عيوب خمر الدنيا، وهى ذهاب
 العقل بالسكر والصداع بالخمار وذهاب المال، كما قال تعالى فى فاكهتها: ﴿لَا مَقْطُوعَةَ
 وَلَا مَمْنُوعَةَ﴾^(٣)، فنفى عنها عيوب فاكهة الدنيا التى تأتى فى وقت وتقطع فى آخر
 وتمنع إلا باليمن، وقال تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾^(٤).

وأما ما ذكره تعالى من أن فيها منافع للناس، فإن منافعها لا تحصى كثرة،
 فمن منافعها ما يصيب الناس من أثمانها، ولو لم تصر الأعناب لبارت على أهلها.
 ومنها صلاح الجسم لأنها تروق الدم وتفتق اللسان، وتزيد فى الهمة، وتهون
 الرزية، وتمتد فى الأمنية، قال جالينوس: الخمر تدر الدم وتصفى اللون،
 وتقوى المنة، وتبعث النشاط. وقال أفلاطون: إنما كان النبيذ يشمر السرور،
 ويولد الضحك، ويطيب النفس لشبهه بالدم، وأنه يفعل فى الجسد إذا اعتدل
 فعله، لأنه أحر حار رطب والدم أحر حار رطب، فإذا صح جوهره، وتمت
 أجزاؤه ولد فى النفس السرور والضحك والنشاط.

الحارث بن كلثة. طبيب العرب: الطلاء^(٥) مصالحة للبدن ومطوية للنفس،
 تفتح له للعروق أفواهاها، كما تفتح الفراخ أفواهاها للطعام.

(١) سورة محمد ١٥، ١٦.

(٢) سورة الواقعة ١٨، ١٩.

(٣) سورة الواقعة ٣٢، ٣٣.

(٤) سورة الإنسان ١٧.

(٥) الطلاء، من أسماء الخمر.

بعث قيصر إلى قُسَّ بن ساعدة ، فسأله : أى الأشرية أفضل ؟ فقال :
 ما صافى العين ، ولد على الذوق ، وطابت رائحته فى الأنف من شراب الكرم ، قال :
 ما تقول فى مطبوخه ؟ قال : مرعى ولا كالسمدان ، قال : فما تقول فى نبيذ
 الزبيب ؟ قال : مَيِّتٌ أَحْيَى ، وفيه بعض المنفعة ^(٢) ، وما يكاد يَخِيَّامَن مات مرة ، قال :
 ما تقول فى نبيذ العسل ؟ قال : نَعَمَ شراب للشيخ للإبردة ^(٣) والمعدة الفاسدة ^(٤) .
 قال : فنبذ التمر ؟ قال : أوساخ تدعو إليها ضرورات تُدَمِّمُ عاقبتها فى الأبدان ،
 قال : فما الذى يذهب بالهموم عند الشراب ؟ قال : جوهر فيه لا تبلغه عقول
 العباد ، قال : فما أصلح أوقات الشراب ؟ قال : أوَّلُ النهار ، ألا ترى أن الدواء
 يَبْكُرُ به ، والمسافر يُدْلِجُ لحاجته ! لأنَّ العقول أول النهار أذكى والنفط أصح ،
 قال : فمن أى شيء يكون الخمار ؟ قال : من ضعف قوة الجوارح عن جذب
 ما يصعد إلى الدماغ من البخار حتى يشبه الهواء قليلا قليلا ، قال : فالصرف أفضل
 أم المزوج ؟ قال : الصرف سلطان جائر ، والمزوج سلطان عادل ، والعادل
 مصباح ، والجائر مفسد ، قال : أفنشر به أنت ؟ قال : نعم ، ولا أبلغ ما يغيّر عقله ،
 قال : ولم ؟ قال : أصونه لسؤال مثلك ^(١) .

أصر الوليد بن يزيد بمحمل ابن شريعة من الكوفة ، فلما قدم عليه ، قال :
 يا ابن شريعة ، والله ما أرسلت إليك ، أسألك عن كتاب الله ولا عن سنة نبيه ،
 قال : يا أمير المؤمنين لو سألتني عنهما لوجدتني حارًا ، قال : أرسلت إليك
 أسألك عن القهوة ، قال : دَهْنَانِهَا الحكيم وطبيبها الرقيق العليم ، فاسأل عما
 بدا لك ، قال : فأخبرني عن الماء ، قال : لا بد لي منه والكلب والخمار شركائي فيه ،
 قال : فماتقول فى اللبن ، قال : ما رأيته إلا استحييت من أمي لطول ما أرضعتني إياه ،

(١) ط : « أحيا » ، وصوابه من ١ والمقد .

(٢) المقد : « المتعة » .

(٣) الإبردة ، بكسر الهمزة والراء : علة من غلبة البرد والرطوبة .

(٤) إلى هنا ما أورده فى المقد ٦ : ٣٣٦ .

قال : فالسويق ؟ قال : شراب الحرور والمجلان والسافر ، قال : فنبيد التمر ؟ قال : سريع الامتلاء ، سريع الانفشاش ، قال : فما تقول في نبيد الزبيب ؟ قال : حومة حاموا بها على الشراب ، فلم يصيبوه ، قال : فما تقول في الخمر ؟ قال : تلك صديقة رُوحى ، جلت عن الثل ، تلك التي تزيد النفس إشراقاً ، قال : فأنت يا ابن شراطة صديق ، اجلس ، أى الطعام أحب إليك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، ليس لصاحب الشراب على الطعام حكم ، غير أن أنفقه أدسمه وأشياه أمرؤه ، قال : فأى المجالس أحب إليك أن يكون شربنا فيه ؟ قال : ما لم تخف الشمس أن تحرقه ، أو السماء أن تفرقه ، ولا تشرب إلا على وجه السماء ، فوالله يا أمير المؤمنين ما نادى الناس أصبح من وجهها ، قال : فابرز بنا . فلم يُرَ بعد ذلك يشرب إلا تحت السماء ^(١) .

كان أبو السائب فقيهاً ورِعاً ظريفاً فسأله بعض المجان ، قال : يا أبا السائب ما تقول في نبيد الجُر ؟ ^(٢) قال : اشربه حتى تجر . قال : فنبيد الدن ، قال : اشربه حتى تجن ، قال : فالداذى ^(٣) ؟ قال : أحلى من العسل الماذى ، قال : فنبيد الزبيب والعسل ؟ فرفع يديه ، وقال : العظام لله ، قال : فما تقول في الخمر ؟ قال : لا أشربها قال : ولم ؟ قال : أخاف ألا أودى شكرها فتززع منى .

قيل لأبى نواس : صف لنا الأثرية ، قال : أما الماء فيعظم خطرُه بقدر تعززه ، وأما السويق فبلغة للمجلان ، وروى الظمان ، وأما العسل فنبيل المنظر ، سخيف الخبر ، وأما الخمر فهي شقيقة الرُوح وصديقة النفس ما ارتضعت ممزوجة ، وصيرفها غير مأمون على نهك البدن وغرس السقم المؤدى إلى اللعطب .

قالت الهند : إن الشراب مبارك ، يزيد في الدم بحرارة ، ويكسر الباقم

(١) الخبر في نهاية الأرب ٤ : ٩٣ ، والعقد ٦ : ٣٣٦ .

(٢) الجر ٣٠ جم جرة ، وهى الإناء من الخرف .

(٣) الداذى : شراب معروف بكثرة إسكاره ، وفى العقد : أحسن من النساء .

بمحدثه ، ويشهى الطعام بلطافته ، وأما السكر فحرم في كل ملة ، وسبيل من سبيل الضلالة ، واسم من أسماء الوسوسة ، قبيح الأفعال ، مذموم الأحوال .

وقالت الحكماء : من فضائل الشراب ؛ أن كل مشروب وإن راق وصفه وحلا وعذب ، فأوله طيب ، ثم يعود في نقصان حتى يعود مكروها إلا الشراب ، فإنك كلما ازددت منه ازددت فيه رغبة وحبا ، وكان أوسطه إليك أعجب ، وآخره أطرب ، حتى إذا سرا في العروق برقته ، وعمّ البدن بلطافته ، ودبّ في الأعضاء والمفاصل ديب المل في نقا الرمل ، وخادع عقلك فامتلاّت بهجة وسرورا ، وعدت ملسا محبوبا ، تضرب في الخلافة بأوفر سهم ، ثم أسلك إلى النّوم الذي هو حياتك وصحتك ، فاجتذبت النفس ما شاكلها من لطيفه ، وأخذ كل عضو قوته من كثيفه ، ثم لا يزال الهواء يخرج بالأنفاس متصفاً ببخاره ، ويجذب ما تحت الدماغ من أسقاره ، فحينئذ تهبّ بجذال ونشاط ، كأنما أنشطت من رباط ، وذلك تقدير العزيز العليم .

وقالوا : الشراب مصباح الظلام ، وشفاء الأسقام ، وإذا تمتلئ في عظامك جملك خالى الذرع ؛ فسيمح الباع ، رخيّ البال ، قليل الاشتغال ، رَحْبُ الهمة ، واسع النّمة ، فهو أخو الصبوة ، وقسيم الشهوة ، ولو لم يكن من مننه عليك إلا أنه إذا مزجته بروحك ، وخلطه بدمك ، بنض إليك الحرص ونصبه ، والشّرة وتعبه ، وحجب إليك المروءة والسماح ، وحسن الك الفكاهة والمزاح .

وقالوا : الشراب يلذ لك في السفر كملذته في الحضر ، وبطيّب استعماله في الصحو ، كما يطيب في المطر ؛ فهو أصل اللذات الذي عليه تنفّر ، وعنصرها الذي عنه تنبع ، وبه تتصل ، وإليه ترجع ، يردّ الشيوخ في طبع الشبان ، ويدعو الشبان إلى نشاط النشوان ، وقال أبو نواس في ذلك :

ما العيش إلا في جُنون الصِّبَا فإن تَوَلَّى فجَنونُ المِدامِ
 راحَ إذا ما الشيخ والى بها خمساً تردى برداء الفلام
 فله درٌّ مَنْ استنبطه ودلّ عليه ، وسقياً لمن بحث عنه واهتدى إليه ، ماذا
 أثار وأتى شيء أظهر !

قالوا: ومدار قوامه على اثني عشر شيئاً: المواد الثلاث ، والقوى الأربع ،
 والحواس الخمس . فالثلاث : هي نسيم الهواء ، وعذوبة الماء ، ومألوف الأهواء .
 والأربع هي القوة الجاذبة التي تطيب الطعام وتبرّده ، والماسكة التي تمسكه وتجذبه ،
 والهاضمة التي تهديه وتنضجه ، والدافعة التي تدفع إلى كلّ عضو سهمه من
 جوهره ، فتخرج عنه ثقله ، والحواس الخمس : البصر والسمع والشم والذوق
 واللمس . وكلّ شيء من ذلك تدخله الزيادة والنقص فلا يستغنى عما يقويه في
 حال ضعفه ، ويصغّيه من أوساخه ، فلم يجد أهل التجارب الماضون لذلك سبباً أمّين
 أثراً ، ولا أخفّ محملاً ، ولا أطف ديباً في الأبدان من ماء السكرم ، فاستعملوه
 لذلك استعمالاً دائماً ، فهم وريحانة النفس وترياقها ، فيُشرب في كل حين ، وينفع كل حاسة ،
 وتحميد عنه النوازل والأحزان ، وحقّ للنفس^(١) أن تألفه ، وللطبيعة أن تلائمه ؛ إذ كان
 حبيبها وشقيق روحها ، فتراها يحدث في النفس الشجاعة والتكرم والأناة والتحلّم .
 ومن علامات الكريم إذا أخذ فيه الشراب الاستحياء والتودّد واللهمو
 والسرور والبذل لما في يديه ، وكسوة جليسه من أنفاس ثيابه ، وإذا بلغ المدى
 في شربها توسّد يسارّه ، ونام حميداً كريماً .

ومن علامات اللئيم الماراة والسّقه ، وقتل الشارب والفلقت إلى العربة
 وشدة الغضب ، وربما بكى وعوى عواء الذئب ، ونَبَح نُبّاح الكلاب ، فشرّب
 الماء محرّم مع مثل هذا ، فكيف الشراب !

(١) ط : « النفس » ، وما أثبتته من أ ، ب .

ومن فضائله أنه يلائم الطبائع المعتادة في كل زمان من فصول السنة ، يشربه المحرور ممزوجاً فيبرده ، والمقرور صِرْفاً فيسخّنه ، واليابس معتدلاً فيرطّبه ، والمرطوب صِرْفاً فيجفّفه ، فمن شربه في الصيف فيستحب له أن يشربه على خضرة الجنان وتحت للظلال ، وعلى المياه وعلى الورد والياسمين والبنفسج والآس والسفرجل والتفاح . وإن كان في الشتاء ، فبخلاف ذلك ، من الجلوس في الأكنان واستعمال الكوانين ، ولبس الأحمر والممشق^(١) وشتم فتيت للمسك والعنبر وللرزنجوش^(٢) .

وأما الربيع والخريف فبين ذلك ، لأخذها من رطوبة الشتاء وحرارة الصيف . وإذا اجتمع مع الشراب نغم وألحان على صنوف الملاحى والعيدان ، تعاونا على إذهاب النعوم والأحزان ، فله دَرٌّ من استنبطه ، ماذا أثار وعلى أى شيء دلّ ! ولولم يكن الشراب أغلب شيء على العقول ، وأقربه للقلوب ، وألطف محلا في النفوس ، وأشدّ ملازمة للأجسام ، وأجمعه لممود الخلال حتى لا تقاربه لذة ، ولا تساويه شهوة ، ولا تعدله خصلة من خصال السرّات - لما سحلت الأشراف وذوى العقول أنفسهم على معاقرة ، لا يردّهم ما ينالهم فيه عن معاودته ، من شنيع الأقوال ولوم العدّال ، فيما أنفقوا عليه من الذخائر ، وبذلوا من الأموال .

كان بالبصرة رجل ذو ضياع فأنفق ماله في الشراب ، فباع ضيعته ، فلما تمّ البيع قال له المشتري : تأتيني بالعشي ، أدفع لك المال ، وأشاهدك ، فقال : لو كنت ممن يرى بالعشي ما بعت للضيعة .

قال محمود بن الحسن الكاتب : بعت دارى فأصابني مثل هذا ، فقلت :

(١) الممشق : المصبوغ ، وفي : « الممثل » ، وما أجهته من ا ، ب .

(٢) الرزنجوش - ويقال المردقوش ، معرب « مردكوش » : الزعفران .

أَتَلَقْتُ مَالِي فِي الْعُقَارِ وَخَرَجْتُ فِيهَا عَنْ وَقَارِي^(١)
 حَتَّى إِذَا كُتِبَ الْكِتَابُ بَ وَجَاءَنِي رَسُلُ التَّجَارِ
 قَالُوا : الشَّهَادَةُ بِالْعَشِيِّ وَنَحْنُ فِي صَدْرِ النَّهَارِ
 فَأَجِبْتَهُمْ رُدُّوا الْكِتَابَ بَ وَلَا تُعَنَّوْا بَانْتِظَارِي
 لَوْ كُنْتُ أَظْهَرُ بِالْعَشِيِّ لِمَا سَمِعْتُ بِبَيْعِ دَارِي

وقال ابن الرومي :

أَنَا أَهْوَى ذَاتَ الْخَمَارِ عَلَى الْجَنِّيبِ وَذَاتَ الْوِشَاحِ وَالذَّمُّ لِمُجَنِّبِي^(٢)
 وَأَرَى فِي النَّبِيذِ رَأْيَ صَوَابٍ لَشَيْوِخِ الْعِرَاقِ وَالْكَوْفَيْنِ
 وَإِذَا مَا الْغِنَاءِ خَاضَ ذُوو الْأَلْبَابِ فِيهِ اعْتَصَمَتْ بِالْحَرَمَيْنِ
 كُلَّمَا جَاءَتِ الرَّخَائِصُ فِيهِ^(٣) كَانَ أَخَذِي لَهُ بِكِلْتَا الْيَدَيْنِ

وقال العَطَوِيُّ :

جَارَةٌ لِي أَجَارَهَا الْحَسَنُ مِنْ كُلِّ غَائِبٍ^(٤)
 فَهِيَ بَيْنَ النِّسَاءِ كَالْبَدْرِ بَيْنَ الْكَوَاكِبِ
 سَأَلْتَنِي هَلْ النَّبِيذُ حَلَالٌ لِشَارِبٍ ؟
 قُلْتُ : إِي وَالَّذِي يُرِيكَ دُونَ الرِّقَابِ
 فَاشْرَبِيهِ فَإِنَّ فِيهِ لِأَحَدِي الْعَجَائِبِ
 يُنَبِّئُ الْوَرْدَ فِي رِيَا ضِخْدُودِ الْكَوَاعِبِ

(١) ط : « عقاري » ، تصحيف .

(٢) الدمليج : المعصد .

(٣) الرخصة : ترخيص الله للعبد فيما يخففه عليه .

(٤) ١ : « غائب » .

ولبعض المتقدمين :

من ذا يحرم ماء المزن خالطه في جوف خابية ماء العنقايد^(١)
إلى لأكره تشديد الرواة لنا فيها ويمعبنى قول ابن مسعود

وقال ابن الرومي :

أحلّ العراقى النبيذ وشربه وقال: الحرامان المدامة والشكر^(٢)
وقال الحجازى الشرابان واحد فحلت لنا بين اختلافهما الخمر^(٣)
سأخذ من قوليهما طرفيهما وأشربها حلاً وللاوزير اوزر^(٤)

خرج^(٥) الحسن بن هانىء ، ومعه مُطيط صاحبه ، حتى أتيا دَيْرَ
تَخَار ، فقال الحسن لمطيط : ادخل بنا نتماجن على هذا^(٦) الخمار ، فدخلنا فسلمنا ،
فردّ عليهما السلام ، فقال له الحسن : أعندك خمر عتيقة [ياخار]^(٧)

قال : عندي منها أجناس ، فأى جنس تريد؟ قال : التى يقول فيها الشاعر :

حُجِبَتْ خَيْفَةً وَصِيَدَتْ فَجَاءَتْ كَجِلَاءِ الْعُرُوسِ بَعْدَ الصَّيَانِ
وَكَانَ الْأَكْفُ تَصْبِغُ مِنْ ضَوْءِ سَنَاهَا بِالْتُّورْسِ وَالزُّعْفَرَانِ
فَلَا لَهُ الْخَمَارُ قَدَحًا مِنْ خَمْرَةِ صَفَرَاءَ ، كَأَنَّهَا ذَهَبٌ مَحْلُولٌ ، فَشَرِبَهُ

(١) العقد ٦ : ٣٦٨ ، الأثرية ٤٩ .

(٢) مختارات البارودى ٣ : ٦٨ العراقى : يعنى به الإمام أباحنيفة . والنبيذ : ما يذ من
عصير ونحوه .

(٣) الحجازى : المنسوب إلى الحجاز ، ويعنى بذلك الإمامين مالكا والشافعى .

(٤) مختارات البارودى . « وأشربها لأقارن »

(٥) الخبر والشعر فى نهاية الأرب ٤ : ٩٨ ، ٩٩ .

(٦) نهاية الأرب : نخرج بهذا الخمار .

(٧) من نهاية الأرب .

الحسن ، وقال : أحسن من هذا أريد ، فقال له الخمار : من أى جنس تريد ؟ قال :
التي يقول فيها الشاعر :

رَقَّقْتُهَا أَيْدَى الْهَوَاجِرِ حَتَّى صَيَّرْتُ جَسَمَهَا كَجِسْمِ الْهَوَاءِ
فَمِثْلِي كَالْفُورِ فِي الْإِنَاءِ وَكَالْنَارِ إِذَا مَا تَصَوَّرَ فِي الْأَحْشَاءِ

فلا له الخمار قدحاً من خمرة كأنها العقيق ، فشربه ، وقال : أرفع من
هذا أريد ، قال : أى نوع تريد ؟ قال : التي يقول فيها الشاعر :

فَإِذَا حَسَا مِنْهَا الْوُضِيعُ ثَلَاثَةً تَمُحُّ الْوُضِيعُ كَفَعْلِ ذِي الْقَدْرِ
فِي لَوْنٍ مَاءِ الْمِزْنِ ^(١) إِلَّا أَنَّهَا بَيْنَ الضُّلُوعِ كَوَاقِدِ الْجَمْرِ

فلا له الخمار قدحاً من خمرة بيضاء ، كأنها ماء الميزن ، فشرب الحسن ،
وقال للخمار : أتعرفني ؟ قال : إى والله ياسيدي ، أنا أعرفُ للناس بك ،
قال : فمن أنا ؟ قال : أنت الذي يَشْكُرُ ^(٢) من غير وزن ، فضحك
الحسن ، وقال لطيط : ادفع إليّ ما معك من التَّفَقَّة ، فأعطاه مائة درهم
وانصرف ^(١) .

وقال أبو عثمان الناجم : دخلتُ على أبي العباس عبد الله بن المعتز ، وهو
مخمور طيب النفس ، فقال : يا أبا عثمان ، أنشدني ما شئت حتى أعارضك
بأحسن منه أو مثله ، فأنشدته لأبي نواس :

وَدَاشِقْ دَنْفٍ نَبْهَتْهُ سَحَرًا قِصَامُ لِلرَّاحِ وَالتَّذْكَارِ مَصْطَبَحًا
وَدَارَتْ الْخَمْرُ مِنْ صَهْبَاءِ صَافِيَةٍ فَمَا احْتَسَى قَدْحًا حَتَّى بَكَى فَرَحًا

(١) نهاية الأرب : « ماء الفيث » .

(٢) كذا في نهاية الأرب . وفي الأصول : « سكر » .

فـفـكـر ساعة ، وضحك وقال :

وقهوة كشعاع الشمس صافية مثل الشراب ترى في قعره شبحا
إذا تماطيتها لم تذّر من لطفٍ راحا بلا قدحٍ أعطيت أم قدحا

وقالوا: مادراً ربيع الخبز والشمور بأدقاً من الشراب للمصرور والمقرور^(١).

وقال بعضهم: كنت في منزلة لي، وإذا شيخ منبغ على علوة معه صبي في يوم بارد، فكنت أسمع الصبي يقول للشيخ: أعطني قروتي، فيناوله شيئاً لا أتبينه، فبعثت غلامي ينظر إليه. فإذا عدد الشيخ قنينة، كلما طلب الصبي قروته سقاه قدحاً.

قال: وأنشدوا للهدد الأصبهاني:

إنّا أناسٌ حسنٌ ديننا لبيعنا الآجلَ بالعاجلِ
إذا شربنا خمسةً خمسةً فقد لبسنا القرو من داخلِ

وقال عمرو الضبابي:

أعددتُ لليل إذا الليل برَدُ خائبتين من طلاء قد ركدُ
* فتطرد الهم وتكفيك العرَدُ *

وقال آخر:

إذا هبت الأرواح فاجعل دثارها إذا التحف الأثوام دُكن المطارفِ
ثلاثة أرتالٍ شراباً معتقاً تكن آمنة منها ولست بخائفِ
فإن دثار المراء من تحت جلده أخف وأذنى من دثار الملاحِفِ

(١) المصرور، من الصر، بالكسر، وهو شدة البرد والمقرور، من القر، بالضم وهو البرد أيضاً.

قال الجاحظ : جَاسَتْ عَجُورٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلَى فُتَيَانٍ يَشْرَبُونَ ، فَسَقَوْهَا قَدْحًا فَطَابَتْ نَفْسُهَا ، ثُمَّ سَقَوْهَا آخَرَ فَاحْمَرَّتْ وَجْهَهَا وَضَحَكَتْ ، ثُمَّ سَقَوْهَا قَدْحًا ثَالِثًا ، فَقَالَتْ : خَبِرُونِي عَنْ نِسَائِكُمْ بِالْعِرَاقِ ، أَيُشْرَبُ مِنْ هَذَا الشَّرَابِ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَتْ : زَيْنٌ وَرَبُّ السَّكَمَةِ ، وَاللَّهِ لَا يَدْرِي أَحَدُكُمْ مَنْ أَبَوْهُ ^(١) .

وَسُقِيَ أَعْرَابِيٌّ قَدْحًا مِنْ شَرَابٍ ، وَلَمْ يَكُن يَعْرِفُهُ ، فَخَرَكْتَهُ الْأَرِيحِيَّةُ ، فَسَأَلُوهُ عَنْهَا ، فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا هِيَ ! غَيْرَ أَنِّي أَرَاكُمْ تُحِبُّونَ إِلَيَّ وَأَرَانِي أَسْرًا بِكُمْ ، وَمَا وَهَبَ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا .

وَمَرَّ أَعْرَابِيٌّ بِقَوْمٍ يَشْرَبُونَ ، فَدَعَاوَهُ ، فَزَلَّ وَعَقَلَ بِعَيْرِهِ . وَشَرَبَ مَعَهُمْ ، فَلَمَّا أَخَذَ مِنْهُ الشَّرَابَ ، قَامَ إِلَى بَعِيرِهِ فَفَتَحَهُ ، وَشَوَى لَهُمْ مِنْ كَبِدِهِ وَسَنَامِهِ ، ثُمَّ رَفَعَ عَقِيرَتَهُ يَقَعِّي :

عَلَّلَانِي إِنَّمَا الدُّنْيَا عِلَالٌ وَاسْقِيَانِي ، عَلَلًّا بَعْدَ نَهْلٍ
بَادِرًا بِاللَّهِ يَوْمًا صَالِحًا وَدَعَانِي مِنْ عِتَابٍ وَعَدَلٍ
وَانْشَلَا مَا اغْتَبَرْنَا مِنْ قَدَرِنَا وَاسْقِيَانِي أَبْعَدَ اللَّهِ الْجَلَّ

وَقَالَ إِسْحَاقُ الْمَوْصِلِيُّ : سَقَيْتُ أَعْرَابِيًّا نَبِيذًا ، فَقَالَ : مَا عَلَى هَذَا شَيْءٍ ، يُطَيِّبُ النَّفْسَ ، وَيَطْرُدُ الْحُزْنَ ، وَيَمْنِي الْخَيْرَ ، وَيَعْدِي الْغَنَى ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

أَلَا خُذْهَا كَأَنَّ الزَّعْفَرَانَ رَمَتْهَا بِالنَّحُولِ يَدُ الزَّمَانِ
تَصُوغُ إِذَا عَلَاهَا الْمَاءُ طَوْنًا مِنَ الْيَاقُوتِ فُصَّلَ بِالْجَمَانِ
وَتَتْرَكُ مَنْ أَرَادَ الشَّرْبَ مِنْهَا صَحِيحَ الْجِسْمِ مُذْكَسِرَ اللِّسَانِ
كَأَنَّ الشَّمْسَ طَالِمَةً بِكَفِّي إِذَا أَخَذْتَ زَجَاجَتَهَا بِنَافِ

وَمَرَّ الْفَرَزْدَقُ بِالْحَكَمِ بْنِ الْمُنْذِرِ بْنِ الْجَارُودِ ؛ فَاسْتَسْقَاهُ مَاءً ، فَقَالَ : هَلَّا

(١) حلبة السكيت ١٢

لَبَقًا يَا أَبَا فِرَاسٍ؟ قَالَ : ذَلِكَ إِلَيْكَ ، فَمَلَأْ لَهُ عُسًا مِنْ خَمْرٍ ، وَأَمَرَ فَجُلِبَتَ عَلَيْهِ
لَقْعَةً ، فَصَمِدَتِ الرَّغْوَةُ فَوْقَ الشَّرَابِ ، وَأَتَاهُ بِهِ ، فَشَرِبَهُ حَتَّى صَكَ بِالْعُسِّ جَبْهَتَهُ ،
وَانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ ، وَاحْمَرَّتْ عَيْنَاهُ ، فَسَحَّ سَبِيلَهُ ، وَقَالَ : جِزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا ،
فَإِنَّكَ مَازَلْتَ تُخْفِي الصَّدَقَاتِ وَنِعْمًا هِيَ !

وَدَخَلَ الْأَخْطَلُ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَقَالَ : لَيْتَ شِعْرِي ، مَا يَعْجِبُكَ مِنْ إِدْمَانَ
الْخَمْرِ ، وَأَوَّلَهَا التَّطْطِيبَ وَاللَّسْكَرَاهَةَ ، وَآخِرُهَا الشُّكْرَ وَالسَّفَاهَةَ ! فَقَالَ : وَلَسَكُنْ
بَيْنَهُمَا حَالَةٌ مَا يَسُرُّنِي بِهَا مُلْكُكَ ، هَذَا نَظْمُهُ الشَّاعِرُ ، فَقَالَ :

إِنْ يَكُنْ أَوَّلُ الْمَدَامِ كَرِيهًا وَيَكُنْ آخِرُ الْمَدَامِ صُدَاعًا
فَلَهَا بَيْنَ ذَا وَذَاكَ هِنَاةٌ وَصُنْفُهَا بِالسَّرُورِ أَنْ يُسْتَطَاعَا

وَأُنْشَدَ ابْنُ قَتَيْبَةَ لِأَبِي مَحْجَنٍ النَّقْفَى :

إِذَا مِتُّ فَادْفَنْنِي إِلَى جَنْبِ كَرَمَةٍ تَرَوُّى عِظَامِي بَعْدَ مَوْتِي عَرُوقَهَا^(١)
وَلَا تَدْفَنْنِي بِالْفَلَاةِ فَإِنِّي أَخَافُ إِذَا مَاتَ أَلَّا أَذُوقَهَا

قَالَ : فَأَخْبَرَنِي مَنْ رَأَى قَبْرَهُ بِأَرْمِينِيَّةَ ، أَنَّهُ بَيْنَ شَجَرَاتِ الْكُرُومِ ، وَالْفَتَيَانِ
يَشْرَبُونَ عِنْدَهَا ، وَيَنْشُدُونَ شِعْرَهُ ، وَإِذَا جَاءَ قَدَحُهُ صَبَّوْهُ عَلَى قَبْرِهِ .

وَمَنْعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَهْلَ الشَّامِ شَرْبَ الْخَمْرِ . فَقَالَ شَاعِرُهُم :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدَّهْرَ يَمْزُجُ بِالْفَتَى وَلَا يَمْلِكُ الْإِنْسَانُ صَرْفَ الْمَقَادِرِ
صَبْرًا وَلَمْ أَجْزَعْ وَقَدَمَاتِ إِخْوَتِي وَمَا أَنَا عَنْ شَرْبِ الْمُدَامِ بِصَارٍ
رَمَاهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَحْتَفِهَا فَخِلَانُهَا يَبْكُونَ حَوْلَ الْمَعَاصِرِ

وَرَأَى ذُوَيْبُ بْنُ أَسْلَى خَمْرًا أَهْرَاقَهَا السُّلْطَانُ ، فَقَالَ :

يَا لِقَوْمِي لِمَا أَتَى السُّلْطَانُ لَا يَكُنْ لِلَّذِي أَهَانُوا هَوَانُ

(١) نَهَايَةُ الْأَرْبَعِ : ٤ : ٩١ ، وَالْمَقَامَةُ : ٦ : ٣٥٠ وَالْأَشْعَرِيَّةُ : ٢٤ .

سكبوا في التراب من حَلَبِ الكُرُو م عَقَاراً كَأَنَّهُا الزعفران
 سكبت في مكان نحسٍ لقد صا دف سَعْدَ السُّعُودِ ذاك المكان
 كيف صبري عن بعض نفسي وهل يصبر عن بعض نفسه إنسان !

ولما أنهمك الوائد بن يزيد في الشراب والتبذل مع القدماء ، اجتمع وجوه
 بنى أمية ، فلاموه وعَنَّفُوهُ ، فقال لهم اسمعوا ما عندي :

أشهد الله والملائكة الأبرار والماعدين أهل الصَّلاح
 أنني أشتى السماع وشرب الرِّاح والعض في الحدود الملاح
 والنديم الكريم والخادم الفار رة يسعى على الأقداح
 وظريف الحديث والكاعب للطفلة ترعج في مُسَوِّط الوِشاح

انصرفوا ، فيفسدوا منه ، فدبروا في إفساد دولته .

ودخل على المأمون عمرو بن مسعدة ورجل من الفقهاء ، وبين يديه جام
 زجاج فيه رطل شراب ، فدَّ به يده المأمون إلى الرجل ، فقال : يا أمير المؤمنين ،
 والله ما شربتها ناشئاً فلا تسقنيها شيخاً ، فردَّ يده إلى عمرو ، فأخذها منه ، وقال :
 الله الله يا أمير المؤمنين ، إني آليتُ في الكعبة ألاَّ أشربها ؛ ففكر طويلاً
 والكأس في يد عمرو ، ثم قال :

رُدَّا على الكأس إنكما لا تعلمان الكأس ما تُجدي
 لو ذُقتما ما ذقتُ ما مزجتُ إلا بدمعكم من التَّوَجْدِ
 ما مثل نعماء إذا اشتعلتُ إلا اشتعال فهم على خدِّ
 خوفاً تمانى الله ربَّكما وكخيفتيه رجاؤه عندِي
 إن كتما لا تشربان معي خوف العقاب شرَّتها وحدي

وقال الحسن بن هاني وهو الإمام في الخمريات :

ساع بكأسٍ إلى ناسٍ على طربٍ كلاهما عجبٌ في منظرٍ عجب^(١)
قامت ترينى ، وأمر الليل مجتمعٌ صبحاً تولد بين الماء والعنب
كأن صغرى وكبرى من فواقها حصباء درّ على أرض من الذهب
وله أيضاً :

قال ابغني الصباح قلت له اتشد حسبي وحسبك ضوءها مصباحاً^(٢)
فسكبت منها في الزجاجة شربةً كانت له حتى الصباح صباحاً
من قهوة جاءتك قبل مزاجها عطلاً فأبسها المزاج وشاحاً
شقّ البزال^(٣) فؤادها فكأنها أهدت إليك بريهما تفاحاً
فأنتك في صور تداوها البلى فأزالهن وأثبت الأرواحاً

وقال ابن المعتز :

ونارٍ قد حنّاها سراعاً بسُحرةٍ متى ما يُرقّ ماء عليها توقد^(٤)
يجول حباب الماء في جنباتها كما جال دمع فوق خذ مورّد

وقال ابن وكيع :

وصفراء من ماء الكروم كأنها فراق عدوّ أو لقاء صديق^(٥)
كأن الحباب المستدير بطوقها كواعب درّ في سماء عقيق
الطوق : حاشية الكأس .

وقال ابن المعتز في الحباب وتشبيهه له أحسن من تشبيهه بجميعة :

- (١) ديوانه ٢٤٣
(٢) ديوانه ٢٥١ .
(٣) بزل الخمر : ثقب لإناءها ، وذلك الموضع اسمه البزال .
(٤) ديوانه ٢ : ٣٧ .
(٥) يتيمة النهر ١ : ٣٣٩ .

(٦ - شرح مقامات الحريري ج ٢)

أُسْقِي مَخْدَرَةَ الدِّنَا نِ سُلَافِ خَمِرٍ قَرَقَنًا^(١)
رَاحًا تَحَالِ حَبَابِهَا دُرًّا يَحُولُ مَجْوَفًا

وقال الحسن :

بنت عشر لم تعانٍ غيرَ نارِ الشمسِ نارًا^(٢)
ثم سَحَّتْ فَأَدَارَتْ فوقها طَوْقًا فَدَارَا
كَاقْتِرَانِ الدَّرِّ بِالْدَرِّ صَفَارًا وَكِبَارَا
فَإِذَا مَا ابْغْتَرَضْتَهُ الـمـعِينُ مِنْ حَيْثُ اسْتَدَارَا
خَلَقَتْهُ فِي جَنَبَاتِ الْكَأْسِ وَأَوَاتٍ صَفَارَا

وله أيضًا في مثل ذلك :

وَالْكَأْسُ أَهْوَاهَا وَإِنْ رُزِثَتْ بَلَغَ الْمَعَاشَ وَقَلَّتْ فَضْلِي^(٣)
ذَخِرَتْ لِأَدَمَ قَبْلَ خَلْقَتِهِ فَتَقَدَّمَتْهُ بِمَخْطُوءَةِ الْقَبْلِ
فَأَتَاكَ شَيْءٌ لَا تَلَامِسُهُ إِلَّا بِحَسَنِ غَرِيزَةِ الْعَقْلِ
فَإِذَا عَلَاهَا الْمَاءُ أَلْبَسَهَا تَمَشًّا كَمَثَلِ خِلَافِ الْحَجْلِ
حَتَّى إِذَا سَكَنْتَ جَوَانِحُهَا كَتَبْتَ بِمَثَلِ أُكَارِعِ النَّمْلِ
خَطِينَ^(٤) مِنْ شَتَّى وَمَجْتَمَعٍ غُفْلٍ مِنَ الْإِعْجَامِ وَالشَّكْلِ

وقال ابن المعتز :

كَانَ فِي كَأْسِهَا وَلِلْمَاءِ يَقْرَعُهَا أُكَارِعُ النَّمْلِ أَوْ نَفْسُ الْخَوَاتِمِ^(٥)

(١) ديوانه ٢ : ٨٧

(٢) هو الحسن بن هاني ، ديوانه ٢٧٤

(٣) ديوانه ٣١١ ، وفيه : « والراح أهواها » .

(٤) الديوان : « سطرين » .

(٥) ديوانه ٢ : ٦٢

وقال حبيب :

صُعِبَتْ وِراضُ الْمَرْجُ سَيِّئُ خَلْقِهَا	فَتَمَلَّتْ مِنْ حُسْنِ خُلُقِ الْمَاءِ ^(١)
خَرْقَاءُ يَلْعَبُ بِالْمَقُولِ حَبَابِهَا	كَتْلَاعِبِ الْأَفْئَالِ بِالْأَسْمَاءِ
وَضَعِيفَةٌ ، فَإِذَا أَصَابَتْ فُرْصَةً	قَتَلَتْ ، كَذَلِكَ قُدْرَةُ الضُّعْفَاءِ
وَكُنْ بَهْجَتِهَا وَبَهْجَةُ كَأْسِهَا	نَارُ وَنُورُ قَيْدَا بُوعَاءِ
أَوْ دُرَّةُ بَيْضَاءٍ بَكَرٌ أَطْبَقَتْ	حَبْلًا عَلَى يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءِ

وقال ابن لبّال :

وَمَدَامَةٌ لِبَسَتْ غِلَالَةَ نَرْجِسٍ	وَتَنَفَّسَتْ فِي الْكَأْسِ أَيْ تَنَفَّسِ
بَاكِرَتُهَا وَالْوَرْدُ يُوقِظُهُ النَّدَى	وَتَبَلَّ خَدَّيْهِ عَيُونُ النَّرْجِسِ
وَالشَّمْسُ تَنْظُرُ مِنْ وَرَاءِ غَمَامَةٍ	لِبَسَتْ مِنَ الْكَافُورِ أَحْسَنَ مَلْبَسِ
نَبْهَتَهَا بِيَدِ الْمَزَاجِ فَأَصْبَحَتْ	تَرْنُو إِلَى بَاعِينَ لَمْ تَنْفَسِ
وَتَوَرَّدَتْ حَتَّى تَوْقَدَ كَأْسُهَا	لِحَسْبَتِهَا فِي السَّكْفِ جَذْوَةٌ مَقْبَسِ

* * *

وَلَا كَانَ سَاقِ	دَهَائِي الرَّفَاقِ
لَأَرْضِ الْعِرَاقِ	بِحَمْلِ السَّبَّاحِ

فَلَا تَغْضَبِينَ	وَلَا تَعْجَبِينَ
وَلَا تَغْتَبِينَ	فَعُذْرِي وَصَحِّ

(١) ديوانه ٣٨

وَلَا تَعْجَبِينَ لِشَيْخِ أَبْنٍ
بِعَفْنَى أَغْنَى وَدَنْ طَفَعِ

فَأَبْ الْمَدَامُ تُقَوِّ الْعِظَامُ
وَتَشْفِي السَّقَامُ وَتَنْفِي التَّرَحُّ

قوله : « دَهَانِي » ، أى تشيطنى ومكرى . الشيخ : جمع سبعة ، وقد تقدّمت .
تصخبين : ترفعن صوتك بالصياح . تعتبين : تلومن . وضع : ظهر . أبن : أقام .
معنى : منزل : أغن : كثير الأشجار ، فإذا هبّت الريح فيها سمعت لها غفّة ،
ومن هذا قولهم : روضة غناء ، لأن صوت الريح يخرج من بين أشجارها ،
وعشبا أغن .

ومن فسرها بأن الذباب يغنى فيها ، فهو صحيح فى المعنى فاسد فى التصريف ،
لأن يغنى أصله (غ ن ي) وأغن أصله (غ ن ن) فيريد بالمعنى الأغن منزلا
كثير الأشجار .

وفسره بعضهم كثير الأهل ، والأوّل أولى .

طفع : امتلا خجراً ، المدام : الخمر . وقوله : « تقوى العظام ، وتشفى السقام »
قد تجاوز هنا قوم حتى جملوها من العاهات ؛ قال الأقيشير — ويروى
لأبى نواس :

وَمَقْدَرِ قَوْمٍ قَدْ مَشَى مِنْ شَرِّ ابْنَا وَأَعْمَى سَقِينَاهُ ثَلَاثًا فَأَبْصَرَا

كُتِبَتْ كَانَ الْعَنْبَرُ الْوَرْدَ رِيحُهَا إِذَا شَمَّهَا الْحَانِي مِنَ الدَّنِ كَبَّرَا
تَوَقَّدُ فِي أَبْدَى السَّقَاةِ كَثُوسَهَا إِذَا مَا رَأَاهَا صَائِمٌ الْقَوْمَ أَفْطَرَا

وقال آخر :

أبا هاشمٍ هل لي سبيل إلى التي أرى شربةً منها قواماً لأحْدَبِ
قوله : « وتنفي الترح » ، أي تزيل الحزن .

وقال الحسن بن هانيء في أن الغمر تزيل الحزن والهم :

دَغْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللُّومَ إِغْرَاءُ وَدَاوُنِي بِأَلْتِي مِنْهَا بَيَ الدَّاءِ^(١)
صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها لو مسَّها حجرٌ مَسَّتْهُ سَرَّاءُ
قامت بإبريقها والليل معتسكراً فظلَّ من وجهها في البيت لألاءُ
وأرسلت من فم الإبريق صافيةً كأنما أخذها بالعقل إغفاءُ
رَقَّتْ عن الماء حتى لا يلائمها لطافة وجفاً عن شكلها الماءُ
فلو مَزَجْتَ بها نوراً لَمَزَجَهَا حتى تولد أنوارٌ وأضواءُ

وقال البحرى :

فاشرب على زهر الرياض يشوبُهُ زهر الخلدودِ وَزَهْرَةُ الصَّهْبَاءِ^(٢)
من قهوة تنسى الموم وتبعت الشَّوْقَ الَّذِي قَدْ ظَلَّ فِي الْأَحْشَاءِ
يخفى الزجاجة لونُها ، فكأنها في الكأس قائمة بغير إناء

وقال حبيب :

بمدامة يقدو الفتى لكثوسها حَوْلًا عَلَى الدَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ^(٣)

(١) ديوانه ٢٣٤ ، وروايته « وداونى بالتي كانت هى الداء »

(٢) ديوانه ٦

(٣) ديوانه ٣ .

راح إذا ما الراح كُنْ مطيها كانت مطايا الشوق في الأحشاء
عنبيّة ذهبية سبكت لها ذهب العاني صاعاً الشمرأ

* * *

وَأَصْنَى السُّرُوزِ إِذَا مَا الْوُقُورِ

أَمَاطَ سُتُورِ أَلْ حَيَا وَأَطْرَحَ

وَأَخْلَى الْغَرَامِ إِذَا الْمُسْتَهَامِ

أَزَالَ اكْتِتَامِ أَلْ هَوَى وَافْتَضَحَ

فَمُحْ بِهَوَاكَ وَبَرِّدْ حَشَاكَ

فَزَنْدُ أَسَاكَ بِه قَدْ قَدَحَ

وَدَاوِ الْكَلُومِ وَسَلِّ الْهُمُومِ

بَيِّنْتَ الْكُرُومِ مِ الْآتِي تُفْتَرَحَ

وَحُصَّ الْعَبُوقِ بِسَاقِ يَسُوقِ

بَلَاءِ الْمَشُوقِ إِذَا مَا طَمَحَ

* * *

قوله : «أماط» ، أى أزال . أطرح : رمى بها ، وهذا منتزع من قول عليّ

ابن الخليل :

لَا تَكْمُلُ اللَّذَاتُ إِلَّا بِالْقِيَانِ وَبِالْمَحُورِ

هَتَكَ السُّتُورَ فَإِنَّمَا أَلْ لِّذَاتِ فِي هَتَكَ السُّتُورِ

فدعِ العواذل لا يقفَنَّ عَلَيْكَ مِنْ دُونِ الصَّدُورِ
واعلم بأنك راجعٌ حَقًّا إِلَى رَبِّ غُفُورٍ

قوله : «الغرام» ، شدة الحب . المستهام : الذي حله الحب على أن يهيم ، أى يذهب ولا يدري أين يتوجه . افتضح : اشتهر ، يقول : أصفى ما يكون السرور إذا أزال الوقور ثياب الحياء وأطرحها عنه ، وأحلى ما يكون العشق إذا أزال العاشق الكتم وشهر نفسه به ، ومن هذا قول أبي نواس :

ألا فاسقنى سَخْرًا وَقُلْ لِي هِيَ الْخَمْرُ
وَلَا تَسْقِنِي سِرًّا إِذَا أَمَكَنَّ الْجَهْرُ^(١)
وَبُحْ بِاسْمِ مَنْ تَهْوَى وَدَعْنِي مِنَ الْكِنَى
فَلَا خَيْرَ فِي اللَّذَاتِ مِنْ دُونِهَا سَتْرُ

قوله : «زند أساك» ، الزند : الذى يقدح به النار ، والأسى : الحزن ، يقول : برّد قلبك بذكر مَنْ تهوى ، فإنك إن رمت كتمه قدح به زند حزنك . ونحو هذا ما يحكى أن أبا الفضل الدارمي ، كان له هوى بغلام ، فإذا رآه أنكر حبه ، والغلام يعرف شدة وجدّه به ، فدمعت يومًا عينها أبي الفضل ، فقال له الغلام : دمعك شاهد عليك ، فقال :

وَهَبْنِي قَدْ أَنْكَرْتُ حُبَّكَ جُمْلَةً وَآلَيْتُ أَنِّي لَا أُرُومُ مَحْطَهَا
فَنَ أَيْنَ لِي فِي الْحَبِّ جَرَحَ شَهَادَةٍ سَقَامِي أَمْلَاهَا ، وَدَمْعِي خَطَهَا !

(١) ديوانه ٢٧٣ ، بعده هناك :

فَمِيشَ الْفَتَى فِي سَكْرَةٍ بَعْدَ سَكْرَةٍ فَإِنْ طَالَ هَذَا عِنْدَهُ قَصَرَ الدَّهْرُ
وَمَا النَّعْنُ إِلَّا أَنْ تَرَانِي صَاحِبًا وَمَا النِّعَمُ إِلَّا أَنْ يُتَقَمَّعَنِي الشُّكْرُ

وقال المتنبي :

وكاتم الحب يوم البين منتهك^(١) وصاحب الدمع لا تحفى سرايره^(٢)
والشعر فى هذا كثير ، وكله تبع لقول العباس بن الأحنف :

لا جَزَى الله دمع عَيْنِي خَيْرًا وجزى الله كلَّ خير لسانِي^(٣)
نَمَّ دمعى فليس يَكْتُمُ شَيْئًا ورأيت اللسانَ ذا كتمان
كنت مثل الكتاب أخفاه طيًّا فاستدلّوا عليه بالعنوان

أما الاشهار الذى ذكر فإنما يأخذ به أهل التماجن ومن لا بال له ، وأما
أهل المروءات والتصاؤون ، فغايتهم إعلام المحبوب بشأنهم ، وكتّمه عن الناس ،
وذلك شديد ، ولا يقوم به إلا من كمل عقله ، وأما أن يكتمه عن محبوبه
كحكاية أبى الفضل ، فأشدّ أحوال هذا الباب أن يكون لمحبوبك أصحاب يألفهم
ويألفونه ، فيعلمون بشأنك كما فعل أبو الأصبع بن رشيد المرتكى ، أنشدنيه
الفقيه أبو الحسن بن زرقون :

أبا قاسم إن قَسَمْتُ الهوى كُتُوسًا خَطِيَّ أَوْفَى الكُتُوسِ
وبين جُفُونِكَ يا قَاتِلِي وبين فُؤادِي حَرْبُ البُسُوسِ
وبَيْنَ الجِوَانِحِ نارُ الجوى كما قد سمعت بنار الجُوسِ
أَسَارَقَكَ اللحظ في خِفْيَةٍ كما يتناول قَيْدُ الشُّمُوسِ
فهما بَدَوْتُ ومهما رنَوْتُ فشغل العيون وشغل النفوسِ
مُمررت به بين أصحابه فخذوا اللحاظ وهزّوا الرؤوسِ
وهذا على خطرة فَذَّةٍ فكيف لو أنى نويت الجلوسِ

(١) ديوانه ٢ : ١١٥

(٢) ديوانه ٢٨٢ ، نهاية الأرب ٨ : ١٤٤ .

قوله: « داو الكلوم » ، يريد جراح قلبه من أنسكاد الدهر ، ولذلك اتبعه .
 بـ « سلّ الهموم » ، لأنه في معنى « داو الكلوم » ، وهذا كقول العطوى :
 أعجبتن أن أناخ بي الدهر فخاصمته إلى الأفداج
 لا تذاد الهموم أنشـ بن أظفا رّا حداداً بشرب ماء قراج
 أحمدا لله صارت الكأس تأسو دون إخواني الثقات جراجي
 قوله : « تقترح » تتمي . الغبوق : شرب العشي ، والسوق : الحب .
 وطمح : ارتفع بالنظر ، يقول : خُصّ شرابك بالعشي مع غلام حسن يسقيك
 ويبيت معك على شرابك ، ويكون لإفراط حسنه ، يجلب عذاب العاشق
 إذا نظره .

ومما قيل في السقاة ووصف الخمر من الشعر المستحسن قول أبي نواس :
 إذا عَبَّ فيها شارب القوم خلته يقبل في داج من الليل كوه كبا^(١)
 ترى حينما كانت من البيت مشرقاً وما لم تكن فيه من البيت مغرباً
 يدور^(٢) بها ساق أغن ترى له على مُستدار الخلة صدفا معقرباً
 سقاني ومثاني بعينه منية فكانت إلى نفسي الذّ وأعجباً
 وقال ابن الرومي فأحسن :

ومنهف كملت محاسنه حتى تجاوز مُنيّة النفس
 تصبوا الكئوس إلى مراشفه وتضج في يده من الحبس
 أبصرته والكأس بين قم منه وبين أنامل خمس
 فسكاتها وكان شاربها قر يقبل عارض الشمس

(١) ديوانه ٢٤٤

(٢) الديوان : « يدور » .

وقال ابن المعتز :

ظبيٌ مُخْلِى من الأحزان أودعنى ما يعلم الله من حُزنٍ ومن قلقٍ^(١)
كأنه وكأن الكأس في يده هلال أوّل شهر غاب في شفقٍ^(٢)

وقال أيضاً :

ياحسن أحمد غادياً أمسٍ بدمامة صفراء كالورس^(٣)
وكان كفيه تقسم في أقدا حنكاً قطعاً من الشمس
ولأبى طالب الرّقاء في معنى آخر :
لها في كفّ شاربها شعاعٌ تطرف منه مبيضُ البنانِ

ولأبى بكر الخالدي :

تومي إليك بأطراف مطرقة فيها خضابان للعُنب والعنب
فهذا في انتقال مُخَرَّتِها لأصابع حابسها ، فإذا انتقلت لحدّ شاربها حدث للشعراء
في ذلك معنى بديع من صنع البديع يستوي المطابقة ، وهو الوصف بالغروب والطلوع ،
وقال في ذلك الطليق المرواني :

أصبحت شمساً وفوه مغرباً ويدُ الساق الحبيّ مشرقاً
فإذا ما غربت في فوه أطلعت في الحدّ منه شفقاً

ولأبى مطروح بن فتوح :

صهبا تغرب إن بدت من كفه في فيه ثم تلوح في وجناتِهِ
وقال غيره :

بذرٌ بدا يشرب شمساً بدت وجدّها في الحسن من جدّه
تغرب في فيه ولكنها من بعد ذا تطلع في خدّه

(١) ديوانه ٢ : ٥٥ .

(٢) ديوانه ١٨

(٣) الديوان : « هلال نيمٍ ونجم غاب في شفقٍ » .

وقال آخر :

أقول والكأس على فيه وقد صوبها كالكوكب الصائب
ذا كوكب يغرب في كوكب ويلى على الطالع والغارب !

* * *

رجعنا إلى ذكر السقاء - قال ابن المعتز :

تدور علينا الكأس من كف شادن له لحظ عين يشكى السقم مدنف^(١)
كأن سلاف النحر من ماء خده وعنقودها من شعره الجمد يقطف
وقال أبو بكر الخالدي :

أهلاً بشمس مُدام من يدي قمر تكامل الحسن فيه فهو نبياه
كأن حمرتها إذ قام يمزجها من خده اعتصرت أو من ثناياه
في وجه فلّ وريحان تراح له منّا قلوب وأبصار تهوّه
النرجس الفض عيناه وطرته بنفسج ، وجنى الورد خده

ولابن الزقاق :

وساق يحث الكأس وهي كأنما تلالاً منها مثل ضوء جبينه^(٢)
سقاني بها صرف الخيما عشية وثني بأخرى من رحيق جفونه
هضم الحشا ذو وجنة عذمية تربك قطاف الورد في غير جينه
فأشرب من يمينه ما فوق خده وألثم من خديه ما في يمينه

وقال الخوارزمي :

وصفراء كالدينار بنت ثلاثة شمال وأنهار ودهر محرم^(٣)
مصرة محزون وعذر معزبد وكنز مجوسى وفنة مسلم
بدور بها ظبي تدور عيوننا على عينه من شرط يحيى بن أكرم

(٢) ديوانه ٢٧٤

(١) ديوانه ٢ : ٥٤

(٣) يتيمة الدهر ٢ : ١٣

وقال ابن المعتز :

وندامى فى شباب وشيب أتلقت مالههم نفوس كرام^(١)
 بين أقداهم حديث نصير وهو سحر وما سواه كلام
 وغناء يستعجل الرّاح بالرا ح كاتاح فى الفُصون الحام
 وكان السّقاء بين الندامى ألفت بين الشّطور قيام

* * *

وشّاد يشيد بصوت تيمد
 جبال الحديد له إن صدح
 وعاص النّصيح الذى لا يبيع
 وصال المليح إذا ما سمح
 وجلّ فى المحال ولو بالمحال
 ودغ ما يقال وخذ ما صلح
 وفارق أباك إذا ما أباك
 ومُدّ الشّباك وصد من سنح
 وصاف الخليل وناف البخيل
 وأول الجميل ووال المنح
 ولذ بالمتاب أمام الذّهاب
 فننّ دقّ باب كريم فتح

* * *

(١) ديوانه ١٨

قوله : « شاذٍ » ، أى مغنٍ . يُشيد : يتقن غناءه ويحكمه . تميل : صدح : رفع صوته بالغناء ، والصداح : الصوت الشديد ، يقول : وأحضر الخمر مغنياً تميل الجبال لحسن غنائه ، وهذا مثل ما حكى النجيم ، قال : حكى لى أن إبراهيم بن المهدي ، كان أحسن الناس غناء ببرهان ، وذلك أنى كنت أراه فى مجالس الخلفاء مثل المأمون والمعتصم يُغنى الغنون ، فإذا ابتداء هو لم يبق أحد من الفنان والمتصرفين وأصحاب الصناعات والمهن الصغار والكبار ، إلا وقد ترك ما فى يده ، وصار بأقرب موضع يمكنه أن يسمعه ، فلا يزال مصفياً إليه ، لاهياً عما كان فيه ما دام يغنى ، فإذا أمسك وغنى غيره رجعوا إلى أشغالهم ، ولا برهان أقوى من شهادة الفطرة ، واتفاق الطبائع على الميل إليه مع اختلافها فى غير ذلك .

وقال منصور بن المهدي : غنى أخى إبراهيم الأمين يوماً فقال :

وكأسٍ شربتُ على لذةٍ وأخرى تداويتُ منها بها
لكى يعلم الناس أنى امرؤ أتيت الفتوة من بابها

وكان الأمين مشرفاً على حمر الوحش ، وهو خمور ، وكان من عادته ألا يشرب وهو خمور ، فاستوى جالساً وطرب ، وقال : أحسنت والله يا عم ، وأحييت لى طرباً . وغنى بومثذ على أشد طبقة ينتهى إليها ، وما سمعت مثله قط ، وقد رأيت منه شيئاً عجيباً ، لو حدثتُ به ماصدقته ، كان إذا ابتداء يغنى أصغت الوحش ، ومدت أعناقها ، ولم تزل تدنو منه ، حتى تضع رءوسها على الذئب الذى كنا عليه ، فإذا سكت نفرعنا ، حتى تنتهى إلى أبعد غاية يمكنها التباعد فيها عنا ، وجعل الأمين يعجب من ذلك .

قوله : « يبيح » ، أى يجعله له مباحاً ، يقول : اعص من بعد ذلك فى وصل المليلح متى سمح بوصله .

وكان أعرابي قد طال تعمّقه لجارية ، فقيل له : ما كنت صانعاً لو ظفرتَ بها ، ولا يرا كما غير الله ؟ قال : إذاً والله لا أجعله أهون الناظرين ، لكنني كنت أفعل بها ما كنتُ أفعله بمحضرة أهلها ، شكوى وحديث عذب ، وإعراض عما يسخط الربّ ، ويقطع الحبّ ، فإن تَلَقَّى وصال المليح ، إذا سمح بمثل هذا فعصيان النصيح واجب ، وأكثر الناس يرى أن الظفر بالمعشوق يُسقط نصف عشقه ، وأن الفكاح يُفسد الحب :

وقال المأمون :

ما الحبُّ إلا قُبْلَةٌ وغز كَفَّ وَعَضُدُ
وكتبَ فيها رُقَى أنفذُ من نَفَثِ العُفْدِ
مَنْ لم يكن ذا حَبِّه فإنما يبغى الولدُ
ما الحبُّ إلا هكذا إن نُكِّحَ الحبَّ فَسَدَ

وقال حبيب في تقيضه وأجاد :

وقالت نكاحُ الحبِّ يفسد شكله وكم نكحوا حبّاً وليس بفسادٍ (١)
وقالت أمّ الضحّاك المحاربيّة :

شفاء الحب تقبيل وَصَمُّ وجَرّ بالبطون على البُطونِ
ورَهْرَهْز تَهْمَلُ العينان منه وأخذنّ بالمناكب والقُرُونِ

وقال الحسن :

إذا هجع النّيام نخلٌ عني وعمن كان يصلح للدّيب (٢)

(١) ديوانه ١٣

(٢) ديوانه ٢٥

فإني عالم فطنٌ أريبٌ ولم يخبرك مثلُ فتى أريبٍ
ألدُّ الفعل تأخذه سروراً بمنح الحب أو منع الرقيبِ
وبعد هذا ما يقبح ذكره ، وشعر الحسن يكثر في هذا الباب .

وقال ابن الأبار رحمه الله - وذكر أنه فعل بمحبوبه وبرقيقه :

فوثبنا على الغزال وثوباً وديننا على الرقيب ديناً
فهل أبصرت أو سمعت بصبٍ ناك محبوبه وذاك الرقيباً !

وقال ابن بسام : لقد ظرّف ابن الأبار ، واستهتر ما شاء وقدر ، وأظنه
لو قدر على أبلّيس الذي تولى له هذا المذهب لدبّ عليه .

وابن المعتز كفى ولم يصرح ، فقال :

فكان ما كان مما لست أذكره فظنّ خيراً ولا تسأل عن الخبر^(١)
أين ما قدّمناه لابن الأبار من قول الآخر في ضده :

ومنعمٍ غض الفطافِ عذبٌ أمّاه للارتشافِ
فوردتُ جنة نحره ونعيمها دون اقتطافِ
وعصيتُ سلطان الهوى وأطعت سلطان العفافِ

وقال ابن الأبار أيضاً :

ومعرض بالنفس في حركاته تسلُّ القلوب العفو من لحظاته
عاطيته كأساً كأنّ لآفها من ريقه المعسول أو وجناته
وأطعت سلطان العفاف تكرماً والمرء مجبول على عاداته

وقال الشريف الرضى فأحسن :

بَيْنَنَا ضَجِيعِينَ فِي ثُوبِي هَوًى وَتَقَى
وَبَات بَارِقَ ذَاكَ الشَّعْرِ يُوْضِحُ لِي
وَبَات الرِّيحُ كَالْفَيْزَى تَجَاذِبُنَا
وَأَكْتَم الصَّبْحُ عَنْهَا وَهِيَ غَافِلَةٌ
فَقَمْتُ أَنْفَضُ بُرْدًا مَا تَعْلَقُهُ
غَيْرُ الْعَقَافِ وَرَاءَ الْعَيْبِ وَالْكَرَمِ

وقال ابن فرج الجبائي :

وَمَا الشَّيْطَانُ فِيهَا بِالْمُطَاعِ
دَيَّاجِي اللَّيْلِ سَافِرَةٌ الْقِنَاعِ
إِلَى فِتْنِ الْقُلُوبِ لَنَا دَوَاعِ
لَأَجْرِي فِي الْعَقَافِ عَلَى طِبَاعِي
سَوَى نَظَرٍ وَشَمٍّ مِنْ مَتَاعِ
فَاتَّخَذَ الرِّيَاضَ مِنَ الْمَرَاغِي
وَطَائِعَةِ الْوَصَالِ صَدَدَتْ عَنْهَا
بَدَتْ بِاللَّيْلِ سَافِرَةٌ فَبَاتِ
وَمَا مِنْ لِحْظَةٍ إِلَّا فِيهَا
فَلَمَّكَتُ الْهَوَى جَمَحَاتِ شَوْقِي
كَذَاكَ الرُّوضُ مَا فِيهِ لِمَثَلِي
وَلَسْتُ مِنَ السَّوْأَمِ مَهْمَلَاتِ

وقال أيضا فأحسن :

بِأَيُّهَا أَنَا فِي الشُّكْرِ بَادِي
سَرَى لِي فَازْدَهَى أَمَلِي، وَلَكِنْ
وَمَا فِي النَّوْمِ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ
كَأَنَّهُ لَمَّا عَفَّ فِي الْيَقِظَةِ جَرَى عَلَى عَادَتِهِ فِي النَّوْمِ، وَهَذَا مِنْ قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :
يَرُدُّ يَدَا عَنْ ثُوبِهَا وَهُوَ قَادِرٌ
وَيَعْمَى الْهَوَى فِي طَائِفِهَا وَهُوَ رَاقِدٌ

وهذا أملك شهوة من التهامي ، وإن كان قد أحسن حيث يقول :

إني لأصرفُ طَرْفِي عن محاسِنِها تَكْرِمَاوَأَكْفُ الكَفِّ عَنْ لَتمِ^(١)
ولا أهتمُ ولى نفسٍ تَنَازَعُنِي أَسْتَغْفِرُ اللهَ إِلَّا سَاعَةَ الحُلمِ

وقال ابن طباطبا :

بِقَظَاتِهِ وَمَنَامُهُ شَرَّعٌ كُلُّ بَكلٍ مِنْهُ مُشْتَبِهٌ
إِنْ هَمَّ فِي حُلمٍ بِفَاحِشَةٍ زَجَرَتْهُ عَفَّتُهُ فَيَنْتَبِهُ

أخذه السرى^(٢) ، فكتب إلى صديق له ، وكان اتهمه بعلام بعثه إليه :

أَبَا بَكْرٍ أَسَأْتَ الظَّنَّ فِيمَنْ سَجِيَّتُهُ التَّمَنُّعُ وَالْخِلَافُ
وَحَفَّتْ عَلَيْهِ فِي الْخَلَوَاتِ مَنَى وَلَمْ يَكُ يَبْنِئُنَا حَالٌ تُخَافُ
جَفَوْتُ مِنَ الصَّبَا مَا لَيْسَ يُجَفَى وَعَفْتُ مِنَ الهَوَى مَا لَا يَبَاغُ
فَلَوْ أَنِّي هَمَمْتُ بِقَبِيحٍ فَعَلٍ لَدَى الْإِغْفَاءِ أُقِظُنِي التَّغَفُّ

قوله : «جُل» ، تصرف . المِجَال : السكر . لُذْ : تعلق وتستر . المِجَال :
الباطل ، وما لا يمكن ثبوته . ودع ما يقال ، أى لا تلتفت إلى مَنْ ينفصلك
بِاتِّبَاعٍ لَذَانِكَ ، وخذ ما يوافقك ويصلح بك .

وهذا رأى من اشتهر بالجون كالخسن في قوله :

دَعَّ عَنْكَ مَا جَدَّوَا بِهِ وَتَبَطَّلِ وَإِذَا لَقِيتَ أَخَا الْحَقِيقَةِ فَاهْزِلِ^(٣)
لَا تَرَكِبَنَّ مِنَ الذُّنُوبِ خَسِيسَهَا وَاعْمَدِ إِذَا قَارَبْتَهَا لِلْأَنْبِلِ
وخطيئة تغلو على مُسْتَاهِمِها يَأْتِيكَ آخِرُهَا بِطَعْمِ الْأَوَّلِ

(١) هو السرى الرفاء ديوانه ٢ .

(٢) ديوانه ١٨٣

(٣) - شرح مقامات الحريري ج ٢)

حَلَّاتُ لَاحِرَجٍ عَلَى حَرَامِهَا وَلَرَبَّمَا حَلَّتْ غَيْرَ مُحَلَّلٍ

وقال ابن وكيع:

لَا تَهْلِكُ مِنَ الرِّشِيدِ كَلَامُهُ وَإِذَا دَعَاكَ أَخُو الْغَوَايَةِ فَأَقْبِلْ^(١)
وَدَعِ التَّرَهُّبَ وَالتَّجَمُّلَ لِلوَرَى فَالْعَيْشُ لَيْسَ بِطَيِّبٍ لِلْمُتَجَمِّلِ

وقال أيضاً:

فَارَقْتُ بِمَدِّكَ عَيْتِي وَوَقَارِي وَخَلَعْتُ فِي طَرِيقِ الْمَجُونِ عِذَارِي^(٢)
لَا تَأْمُرْنِي بِالتَّسْتَرِّ فِي الْمَوَى فَالْعَيْشُ أَجْمَعُ فِي رُكُوبِ الْعَارِ
لَا تَكْثُرَنَّ عَلَيَّ إِنْ أَخَا الْحِجَا بَرِّمْ يَقْرَبُ الصَّاحِبَ الْمُسْكِنَا

قوله: «أباك»، أي تمتع منك. سَنَح: تَيْسَّر، يقال: سَنَحَ الشَّيْءُ سَنُوحًا، إِذَا تَيْسَّرَ. صَافٍ الْخَلِيل، أي أخلص الود لصاحب. نَاف: بَاعَد. أَوَّلُ الْجِيل: أَلْصَقُ الْمَعْرُوفُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّهُ، وَقَدْ أَوْلَانِي فَلَانُ الْمَعْرُوف: أَلْصَقَهُ بِي، وَجَعَلَهُ بَيْنَهُ وَيَنِي. وَقِيلَ مَعْنَى «أَوْلَانِي» مَلَكَنِي، مِنْ قَوْلِهِمْ: هَذَا وَلِي الْمَرْأَةُ، أَيْ مَالِكُ أَمْرِهَا. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ عَضَدَنِي بِهِ وَقَوَانِي، مِنْ قَوْلِهِمْ: بَنُو فَلَانٍ وَلَاةٌ عَلَى بَنِي فَلَانٍ، أَيْ يُعِينُونَهُمْ وَيَعْضِدُونَهُمْ، وَقِيلَ: أَوْلَانِي: أَنْعَمَ عَلَيَّ، مِنَ الْأَلَاءِ، وَهِيَ التَّعْمُّ، وَاحِدُهَا إِلَيَّ وَأَلَيَّ، وَالْأَصْلُ وَلِيَّ وَوَلِيَّ، أَبْدَلَ مِنَ الْوَاوِ الْمَكْسُورَةِ هَمْزَةً، عَلَى حَدِّ «إِسَاد»، وَأَبْدَلَ مِنَ الْوَاوِ الْمَفْتُوحَةِ هَمْزَةً عَلَى حَدِّ أَحَدٍ وَامْرَأَةٍ أُنَاةً. وَاللِّمْنَحُ: تَابِعُ الْعَطَايَا. أَمَامَ الذَّهَابِ: قَدَامَ الْمَوْتِ، يَقُولُ: إِذَا شَخْتُ وَأَيَّنتُ الْمَوْتَ، فَاضْرِبْ بَابَ التَّوْبَةِ، فَإِنَّهُ يُفْتَحُ لَكَ إِذْ كُلَّ كَرِيمٍ بَابُهُ يَفْتَحُ.

(٢) الْيَتِيمَةُ ١: ٣٣٤.

(١) الْيَتِيمَةُ ١: ٣٤٢.

(٣) الْيَتِيمَةُ: «الْهَذَايِر».

ابن عباس، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن المصلّي يقرع بابَ الملك، وإنه من يداوم قرع الباب يوشك أن يفتح له»، والله تعالى أكرم الكرماء، وبابه باب النوبة. وقال الألبيري:

فلازم قرعَ باب التوب دأباً فإن لزومه سبب الدخول^(١)

فقلتُ له: بَخْرٍ بَخْرٍ لِرِوَايَتِكَ، وَأُفٍّ وَتُفٍّ لِنَوَايَتِكَ،
فباللهِ مِنْ أَىِّ الْأَغْيَاصِ عَيْمُكَ، فَقَدْ أَفْضَلَنِي عَوِيصُكَ؟ فقال:
مِمَّا أَحَبُّ أَنْ أَفْصِحَ عَنِّي، وَلَكِنْ سَأَكُنِّي..

أَنَا أَطْرُوفَةُ الزَّيْمَا نِ وَأَعْجُوبَةُ الْأَمَمِ
وَأَنَا الْحَوْلُ الَّذِي اخْتَالَ فِي الْعُرْبِ وَالْعَجَمِ
غَيْرَ أَنِّي ابْنُ حَاجَةٍ هَاضِمَةُ الدَّهْرِ فَاهْتَضَمَ
وَأَبُو صَبِيئةٍ بَدَوَا مِثْلَ لَحْمٍ عَلَى وَضَمٍ
وَأَخُو الْعَيْلَةِ الْمُعِيلُ إِذَا اخْتَالَ كَمْ يُعِيلُ

قوله: «بَخْرٍ بَخْرٍ»، أى عجب عجب وتثقل وتخفف، وهى كلمة تتقال عند الإعجاب بالشيء.

أُفٍّ وَتُفٍّ، الأصمى: الأفّ وَسَخَ الآذان، والثف: وسخ الأظفار، ثم استعمل ذلك عند كل شيء يضرّج منه.

(١) ديوانه ١٤.

وقال غيره : الأف : القلّة ، مأخوذ من الأفّ وهو القلّة ثم نُسِقَ الثّف عليه ، ومعناه كعناه ، ويقال : لمن يُدْعَى عليه بالخبيّة : أفّ وتُفّ لك . وقال ابن الأنباري : إذا أفردت أفّ ، ففيها عشرة أوجه : ففتح الفاء ، وكسرهما وضمهما على قياس مُدّ ؛ وثلاثُها بالتثنية على قياس وِيل ، فنصبه على الدّعاء ، ورفعها بالابتداء ، وخفضه على التشبيه بالأصوات كمّه وصّه ، وأفّ كعدّ ، وأفّى بضم الهمة منصوب على الدّعاء ، وأفّى بإضافته إلى نفسه ، وأفّ بضم الهمة وسكون الفاء تشبيهاً بالأدوات ، نحو : هل وبل .

غوايتك : ضلالتك . الأعياص : الأصول ، والعيص : بيت الأسد ، يريد : من أيّ القبائل والبلاد . أعضاني : صُعبَ عليّ . عويصك : صُعبَ أمرُك ومشكله . أفصح : أبين . أكنى : أوزى ، أي أدلّ على نفسي بكلامٍ خفيّ . أطروفة : غريبة . الحَوْل : الكثير الحيلة . هاضه : كسره . اهتضم : ظلم ونقص . الوضم : خشبة الجزار التي يقطع عليها اللحم . والعيلة : الفقر ، وعال الرجل يَعِيلُ عيلةً ، إذا افتقر ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ .

وقال الشاعر :

وما يدرى الفقير متى غناه وما يدرى الغنى متى يَعْمَلُ
والمَعْمِلُ : الكثير العيال ، وقد أعال يَعْمِلُ .

[مما قيل في الخضاب]

قوله : «الريب» ، أي لريبة . مسودوجه الشيب ، تبه به على قوله في أوّل اللقمة : «ميسمه ميسم الشبان» يريد أنّه خَصَبَ شيبه وتشبّه بالفتيان ، والخضاب مباح والتدليس مكروه . قال النبي صلى الله عليه وسلم : «غيروا هذا الشيب» .

وكان أبو بكر رضى الله عنه يَحْضِبُ بِالْحِنَاءِ وَالْكُتْمِ ، وجاء النهى عن الخضاب بالسواد . وروى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يكون في آخر الزمان قوم يَحْضِبُونَ بهذا السواد كحواصل الحمام ، لا يربحون رائحة الجنة » .

ومن كلام المولدين : الخِضَابُ تَذَكُّرَةُ الشَّبَابِ .
الخضاب أحد الشبَابَيْنِ .

وقال مالك بن أسماء بن خارجة لجاريه له : قومي اخضبي رأسي ولحيتي ،
فقال : دعني ، فقد عييت مما أرقمك ، فقال :

عَيَّرْتَنِي خَلْقًا أَبْلَيْتُ جِدَّتَهُ وهل رأيتِ جديداً لم يَمُدْ خَلَقًا !

وقال آخر :

أليس عندك شكرٌ لَلَّتِي جعلت

ما أبيض من قَادِمَاتِ الرُّؤْسِ كَالْحَمَمِ -

وجددت منك ما قد كان أخلقه طول الزمان وصرف الدهر والقَدَمِ -

وقال آخر :

وقائلة تقولُ وقد رأيتني ترقع عَارِضَايَ من القَعِيرِ

عليك الخضِبُ علَّك أن تُدَايِنِي لِمِ بَيضٍ تَرَى مِنْهُنَّ حُورِ

فقلت لها : المشيبُ نَذِيرٌ عُمُرِي ولستُ مسوداً وجه النَّذِيرِ

وقال عبدان الأصبهاني :

في مشيبي شماتةٌ لِمِدَاتِي وهو ناعٍ منغصٌ لِحَيَاتِي

وبعيبُ الخِضَابِ قومٌ وفيهِ
لا وَمَنْ يَعْلَمُ السَّرَائِرَ مِنِّي
لِي أَنَسِي إِلَى حُضُورِ وَقَاتِي
مَا تَطَلَّيْتُ خَلَّةَ الْغَانِيَاتِ
مَاتَرِينِيهِ كُلَّ يَوْمٍ مَرَاتِي
سِرَّهُ أَنْ يَرَى وَجْهَهُ النِّعْمَةَ !
هُوَ نَاعٍ إِلَى نَفْسِي وَمَنْ ذَا

وقال آخر :

بكرت تحسِّنُ لِي -وَادَ خِضَابِي
وإذا أَدِيمُ الْوَجْهَ أَخْلَقَهُ الْبَلَى
لو كان ذاك يَعِيدُنِي لَشَبَابِي
لم يُنْتَفِعْ فِيهِ بِمَحْسَنِ خِضَابِ
وخلاف ما يَرْضِيكَ فِي الْأَثْوَابِ !
ماذا الَّذِي يَبْدَى عَلَيْكَ خِضَابِهِ

وقال ابن عبدربه :

إذا فصل الخِضَابُ بِكَيِّ عَلَيْهِ
كَانَ حَامَةً بِيضَاءَ ظَلَّتْ
ويفرح كلما وصل الخِضَابُ
تقاتل في مفارقة غُرَابُ

وقال ابن الرومي :

يَأْيَاهُ الرَّجُلُ الْمَسْوَدُ شَعْرَهُ
أَقْصَرَ فَلَوْ سَوَدَتْ كُلُّ حَامَةٍ
كَيْمَا يَعْدُو بِهِ مِنَ الشَّبَابِ
بِيضَاءَ مَا عَدَّتْ مِنَ الْفَرِيَانِ

وأملح منه قول الآخر :

قالت خَضَبَتُ الشَّيْبَ ثُمَّ أَتَيْتُنَا
فَأَجَبْتُهَا لَمْ أَخْضَبْ لَكَ إِنَّمَا
تَبَغْيِي لَدَيْنَا بِالْخِضَابِ وَدَادَا
شَيْبِي صَبَغْتُ عَلَى الشَّبَابِ حَدَادَا

وما أحسن ما قال ابن هانئ الأندلسي :

بنتم فلولا أن أغيرَ لمتي
عَبْنَا وَأَلْقَاكُمْ عَلَى غُضَابِ^(١)

لخضبتُ شيباً في مفارقٍ لَمَتِي^(١) ومحوتُ محو النفسِ مِنْهُ كِتَاباً^(٢)
 وخضبتُ مبيض^(٣) الحدادِ عليكمُ لو أنني أجدُ البياضَ خِضَاباً
 وإذا أردتَ على المشيبِ وفادَةً فاجعلِ مطيِّكَ دونه الأحقاباً
 فلتأخذنَّ من الزَّمانِ حاميةً ولتدفعنَّ إلى الزَّمانِ غُرَاباً

قال الرَّاوِي: فَعَرَفْتُ حِينَئِذٍ أَنَّهُ أَبُو زَيْدٍ ذُو الرِّيبِ وَالْغَيْبِ،
 وَمُسَوِّدَ وَجْهِ الشَّيْبِ، وَسَاءَ نِي عَظُمُ تَمَرُّدِهِ، وَقُبْحُ تَوَرُّدِهِ، فَقُلْتُ
 لَهُ بِلِسَانِ الْآنَفَةِ، وَإِذْلالِ الْمَعْرِفَةِ: أَلَمْ يَأْنِ لَكَ يَا شَيْخَنَا أَنْ تُقْلِعَ
 عَنِ الْخُلَا! فَتَضَجَّرَ وَزَمَجَرَ، وَتَنكَرَّ وَفَكَرَّرَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّهَا لَيْلَةٌ
 مِرَاحٍ لَا تِلَاحٍ، وَنَهْزَةٌ شُرْبِ رَاحٍ لَا كِفَاحٍ. فَعَدَّ عَمَّا بَدَأَ،
 إِلَى أَنْ تَتَلَاقَى غَدَا، فَفَارَقْتُهُ فَرَقًا مِنْ عَرَبَدَتِهِ، لَا تَعْلُقَا بَعْدَتِهِ،
 وَبِتُّ لَيْلَتِي لَا بِسَا حِدَادِ النَّدَمِ، عَلَى ثَقَلِي خُطَا الْقَدَمِ، إِلَى ابْنَةِ
 الْكَرَمِ لَا الْكَرَمِ، وَعَاهَدْتُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَلَّا أُخْضِرَ بَعْدَهَا
 حَانَةَ تَبَازٍ، وَلَوْ أُعْطِيتُ مُلْكَ بَغْدَادٍ، وَأَلَّا أَشْهَدَ مِعْصَرَةَ الشَّرَابِ،
 وَلَوْ رُدَّ عَلَيَّ عَصْرُ الشَّبَابِ.

ثُمَّ إِنَّا رَحَلْنَا الْعَيْسَ، وَقَتَّ التَّغْلِيْسَ، وَخَلَيْنَا بَيْنَ
 الشَّيْخَيْنِ وَإِبْلِيسَ.

(٢) الديوان: «شباباً».

(١) الديوان: «في عذارى كاهبا».

(٣) الديوان: «مسود».

قوله : « تمرد » ، تشيطنه ، وتمرد إذا كثر شره ، والمريد : الخبيث الذى لا يطاق مكره تورده : إنيانه بما لا يحل ، وأصل التور : دقصد الماء . الأنفة : الغضب . بأن : يحين ويقرب . الخنا : الفساد . تضجّر . اشتد غضبه . زجر : تكلم بما لا يفهم . تنكر : تغير على ، ونكر نفسه كأنه لا يعرفنى . مراح : طرب ونشاط . تلاح : مشاة . نهزة : فرصة وغنيمة . كفاح : قتال . فمّد : اصرف واترك . فرقا : فرعا . عز بدته : شره وشغبه . الحداد : ثياب الحزن . الخطأ : جمع خطوة ، وهى ما بين القدمين . ثبّاذ : خمار . عصر : زمان . رحلنا العيس : جعلنا على الإبل رحالها . التقليل : الخروج فى العّاس ، وهى الظلمة التى بين طلوع الفجر والشمس .

وأظن أنه بنى هذه المقامة على حكاية لأبى دلامة ، حكى الأصهباني^(١) أن موسى بن داود الهاشمي^(٢) عزم على الحج ، فقال لأبى دلامة : اخجّ معى ولك عشرة آلاف درهم ، فقال : هاتها ، فدفعها إليه ، فأخذها وهرب إلى السواد ، وجعل ينفقها هنالك فى شرب الخمر ، فطلبه موسى فلم يقدر عليه ، وخشى فوت الحج ، وخرج . فلما شارف القادسية إذا هو بأبى دلامة خارج من قرية إلى أخرى وهو سكران ، فأمر بأخذه وتقييده ، وطرح فى محمل بين يديه ، فلما سار غير بعيد أقبل على موسى ونادى :

يا أيها الناس قولوا أجمعون معا :	صلى الإله على موسى بن داود
كان ديباجتي خذيه من ذهب	إذا بدا لك فى أثوابه السود
إني أعوذ بداود وأعظمه	من أن أكلف حجّا يابن داود
خبرت أن طريق الحج معطشة	من الشراب وما شربى بتصر يد ^(٣)
والله ما فى من أجر فطلبه	ولا الثناء على دبنى بمحمود

(١) الأغاني ١٠ : ٢٤٦ .

(٢) هو ابن عم أبى العباس السفاح ، وكان واليا على المدينة .

(٣) صرد شربه : قطعه .

فقال موسى : ألقوه عن الحمل ، لعنه الله ، فألقى وعاد إلى موضعه بالسَّواد حتى أنفق المال .

وقال آخر :

ألم ترني وبشاراً حَجَجْنَا وكان الحج من خير التَّجَارَةِ
خرجنا طالبي سفرٍ بعيدٍ فما لبنا الطريق إلى زُرَّارَةِ
فأب الناس قد حجوا وبرؤوا وأبنا موقرين من الخسَارَةِ

وقال أبو نواس في الحج :

وقائل : هل تريد الحج قلت له : نعم ، إذا فَنَيْتَ لَدَاتُ بِفِداذِ
وكيف بالحج لي مادمتُ مُنْفَـمَسًا في يَنْتِ قَوَادَةِ أَوْ بَيْتِ نَبَاذِ !

قوله : « وخلفنا بين الشيخين أبي زيد وإبليس » من قول الحسن :

بت وإبليس إلى الصبح في كل الذي يؤتمنى خَصَمِي

وانظر هذا في الثامنة والأربعين ، والله أعلم .

المقامة الثالثة عشرة وتعرف بالبغدادية

حدث الحارث بن همام ، قال : ندوت بضواحي الزوراء ،
مع مشيخة من الشعراء ، لا يعلق لهم مبارٍ بفبار ، ولا يجري معهم
مبارٍ في مضمار ، فألفضنا في حديث يفضح الأزهار ، إلى أن نصفنا
النهار . فلما غاض دُرُّ الأفكار ، وصبت النفوس إلى الأوكار ،
لمخنا عجوزاً تُقبلي من البعد ، وتحضري إحصار الجرد ،
وقد استملت صبية أنحف من المغازل ، وأضعف من
الجوازل ، فما كذبت إذ رأتنا ، أن عرتنا ، حتى إذا
ما حضرتنا قالت :

* * *

ندوت ، أي خرجت ، ويقال : ندت الإبل تند وإذا خرجت من المشرب .
ترعى فيما قرب منه ، وهو الذي قصد ، لأنه أراد أنه خرج مع أصحابه خارج
البلد يستريحون ثم يرجعون . والضواحي : المواضع البارزة للشمس .

* * *

[الزوراء]

والزوراء ، هي في الجانب الشرقي من بغداد ، وسميت زوراء لازورار قبلتها ،
أي لانحرافها . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول : « تكون مدينة بين الفرات ودجلة يكون فيها ملك

بنى العباس ، وهى الزوراء يكون فيها حرب مُفِظَةٌ تُسَجَّى فيها النساء ، وتَذْبَح فيها الرجال كما يُذبح الغنم .

والزوراء هى بغداد ، ويقال لها الزوراء ، ومدينة السلام ، ومدينة المنصور ، وبغداد وبغداد وبغدان وبغدان وبغدام وبغدام وبغداد - عن الفراء .

وبعضهم يقول : تفسيره بستان رجل ، فَبَغْ بستان ، ودَاد رجل . وقيل : بَغْ صنم ، وداد عطية . وإنما اختلفت العرب فى لفظها إذ لم تكن من كلامها ، ولا اشتقاق لها من لغتها ، وأشهر لغاتها بغداد ، بدالين وبغدان ، بالنون . وكان الأصمعى رحمه الله لا يقول بغداد ، وإنما يقول مدينة السلام ، لأن بَغْ عندهم اسم صنم ، وداد عطية بالفارسية فكأنها عطية الصنم . وبنائها المنصور ، وبعث رجالا يطلبون له موضعاً يبني فيه مدينة ، فطلبوا فلم يجدوا ، حتى جاء ينزل فنزل على البرّة الذى فى الصّراة ، فقال : هذا موضع أَرْضاه ، تأتيه الميرة من الفُرات ودجلة والصّراة ، فوجه حينئذ الصناع من الشام والموصل والكوفة وواسط والبصرة ، فابتدئت سنة خمس وأربعين ومائة .

وقال محمد بن أبى سهل : لما أراد المنصور بناء بغداد ، أمرنى أن آخذ الطالع ، فأخذنا طالعها ، فكان المشتري ، فأخبرته بما تدلّ عليه النجوم من طول بنائها وكثرة عمارتها ، ثم قلت : وخلة أخرى يا أمير المؤمنين ، نجدها على ما تدلّ عليه النجوم ... لا يموت فيها خليفة ، فرأيت به يتبسّم ، وقال : الحمد لله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وقيل لرجل : كيف رأيت بغداد ؟ فقال : الأرض كلها بادية وبغداد حاضرتها .

ابن جبير^(١) : بغداد هى المدينة العميقة ، ولم تزل حضرة الخلافة العباسية

(١) رحلة ابن جبير ١١٦ ، مع تصرف واختصار .

وقد ذهب رسمها^(١) ووسمها ، وهى بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل إخماء
المواد عليها ، والتفات أعين النواصب إليها كالطلل الدارس ، والأثر الطامس ،
أو تمثال^(٢) الخيال الشاخص ، فلا حسن فيها يستوقف البصر ، ويستندى من
المستوفز الغفلة والنظر ، لإدراجها التى بين الشرقىة والغربىة منها كمرآة المجلوة
بين صفحتين ، أو العقد^(٣) المنتظم بلبتين ، فهى تردها فلا تظماً ، وتطلع [منها]^(٤)
فى مرآة صقيلة فلا تصدأ . والهواء المنتظم يتولد بين هوائها ومائها ، فهى معروفة
بفتن الهوى ، إلا أن يحصم الله منها . وكنا سمعنا أن هواء بغداد يُنبِت
السرو فى النفس ، ويبعث دائماً على الانبساط والأنس ، فلا تسكاد تجد فيها
إلا جذلان ظرباً ، وإن كان نازح الدار مغترباً ، حتى حلت بقرية وزيران ،
وهى على مرحلة منها ، فلما نفختنا نوافح هوائها ، ونقعنا الغلة ببرد مائها ، أحسنا
من أنفسنا على حال وحشة الانفراد دواعى من الإطراب ، واستدعينا بواعث
فرح كأنه فرحه القباب بالإياب ، وهفت بنا محركات من الأنس ذكرتنا معاها
الأحباب فى عصر الشباب ، هذا للغريب النازح الوطن ، فكيف الوافد فيها
على أهل وسكن !

سقى الله باب الطاق صوب غمامة ورد إلى الأوطان كل غريب

وبغداد جانبان : شرقى وغربى ودجلة بينهما . فأما الجانب الغربى فقد عه
الخراب ، واستولى عليه ، وهو كان المعمور أولاً ، ولكنه مع خرابه يحتوى
على سبع عشرة محلة ، كل واحدة منها مدينة مستقلة ، لها الحمامان والثلاثة ، وصلاة

(١) ابن جبير « ولم يبق إلا شهير رسمها » .

(٢) ط : « النال » وما أثبتته من ابن جبير .

(٣) ط : « والعقد » وما أثبتته من ابن جبير .

(٤) من ابن جبير .

الجمعة في ثمان منها ، وأكبرها القرية ، وهي على شطّ دجلة ومقرّبة من الجسر ، ثم الكرخ ، وهي مدينة مشهورة ، ثم محلة باب البصرة ، وهي مدينة بها جامع المنصور ، وهو كبير عتيق البنيان ، ثم الشارع وهي مدينة ، وهذه الأربع أكبر المحلات ، والوسيلة بين دجلة وبين نهر يتفرّع من الفرات ، وينصب في دجلة ، يجمّع فيها جميع المداين التي يسبقها الفرات . وعلى بابها نهر آخر منه ينصب في دجلة .

ومنها العتّابية ، وهي مدينة يصنع فيها الثياب العتّابية ، وهي حرير وقطن مختلفات الألوان ، وأسماء سائر المحلات يطول ذكرها ، وأمّا الشرقية فهي محدثة وهي حفيلة الأسوار ، عظيمة الترتيب ، تشمل من الخلق على بشر كثير لا يحصيهم ، إلا الذي أحصى كل شيء عدداً ، وبالشرقيّ محلة الرضاقة ، وسها كان باب الطاق المشهور على الشطّ ، وبازائها محلة كبيرة تعرف بقبر أبي حنيفة رحمه الله ، فيها قبة سامية في الهواء بيضاء ، فيها قبر الإمام أبي حنيفة ، وبالقرب منها قبر الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله .

وحمامات بغداد لا تحصى ، أخبرني بعض أسيّاحها ، أن فيها اليوم ألفي حمام ، وأكثرها مطايّة بالقار ، مسطحة به ، فيخيّل للناظر فيها أنها رخام أسود صقيل ، وأكثر حمامات هذه الجهة على هذه الصفة ، لكثرة القار عندهم ، وشأنه عجيب ، لأنه منبتع عين بين البصرة والكوفة ، يصير القار في جوانبها كالصلصال ، فيجرف ويحلب ، وقد انعقد فسبحان خالقه !

وبغداد من المدارس نحو الثلاثين ، ما منها مدرسة إلا كالقصر العظيم ، وأعظمها النظاميّة . وبساتين بغداد وحدائقها بالعربيّة ، ومنها تجلب الفواكه للشرقيّة ، والعادة أبدأ أن يكون بين الشرقيّة والغربية جسران لجواز الناس ، ومع ذلك فمن يعبر بينهما من الناس في الزوارق لا يحصى ، وذلك لكثرة الناس ،

(١) القرية ذكرها ياقوت ، وقال : محله بغداد .

وزوارقها لا تحصى ، والناس ليلاً ونهاراً من معاينة العبور فيها في نزهة متصلة
رجالاً ونساء .

وبالجملة فشان هذه البلدة أعظم من أن يُوصف ، وأين هي اليوم مما كانت
عليه ! هي اليوم داخلة تحت قول حبيب :

* لا أنتِ أنتِ ولا الديارُ ديارٌ ^(١) *

ثم ذكر ابن جبير أهلها فذمهم بكلّ عيب ؛ من الكبرياء وبيع الربا ، ثم
استثنى فقهاءها ووعاظها .

* * *

[وصف الشعراء]

قوله : « مع مشيخه من الشعراء » ، قال الخليل في مدح الشعراء : هم أمراء
الكلام بصرفونه أنى شاءوا وجائز لهم ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى ،
وتقييده ومدّ مقصوره وقصر ممدوده ، والجمع بين لفاته والتفريق بين صفاته .
وسئل غيرهم عنهم ، فقال : ما ظنك بقوم الاقتصاد محمود إلا منهم ،
والكذب مذموم إلا بينهم !

وقال آخر : إياكم والشاعر ، فإنه يطلب على الكذب مثوبة ، ويقرع جليسه
بأدنى كله .

وقال بعض الظرفاء يذمهم :

الكذبُ والشاعر في رتبةٍ	بالت أنى لم أكن شاعراً !
هل هو إلا باسطٌ كفه	يستمر الوارد والصادراً
والله لولا حُرقاتُ الهوى	ما كنتُ إلا رجلاً تاجراً

وقال ابن الرومي :

يقولونَ ما لا يفعلونَ مستبّةً من الله مسبوبةٌ بها الشعراء

(١) ديوانه ١٤٤ ، وبقيّة :

* خَفَّ الهَوَى وتَوَنَّتِ الأوطارُ *

هو قال أيضاً :

للناس فيما يكلفون مغارمٌ عند الكرام لها قضاء ذمام-
ومغارم الشعراء في أشعارهم إنفاق أعمارٍ وهجرٌ منام
وجفاء لذاتٍ ، وهجر مكاسبٍ لوخولت حُرست من الإعدام
ونشأغلٌ عن ذكر ربٍّ لم يزل حسن الصنائع ، سابغ الإنعام
قوله : « مبار » ، أى معارض . مضمار : طلق . ممار : مجادل . أفضنا :
اندفعنا . يفضح : يكشف عيوبها . شبه الجماعات في الآداب بالخليل الجِباد
في الطلق لا يلحق غبارها مَنْ يجارِها ، وجمل حديثهم بحسن تفننه يفضح
الأزهار متى قرن بها .

* * *

[مجلس للشعراء]

ونجعل تفسيراً لهذا المجلس الموصوف باجتماع الشعراء ما حدث به دِغبل^(١)
أنه اجتمع هو ومسلم بن الوليد وأبو الشَّيص وأبو نُوَّاس ، وهؤلاء مشيخة شعراء
عصرهم ، فقال لهم أبو نواس : إنَّ مجلسنا هذا قد اشتهر باجتماعنا فيه ، ولهذا اليوم
ما بعده فلياتٍ كلُّ امرئٍ منكم بأحسن ما قال فلينشده ، فأنشد أبو الشَّيص :

وَقَفَ الهوى بى حيثُ أنتِ فليس لي متأخراً عنه ولا مقدماً
أجدُ اللامة في هواكٍ لذبةً حُباً لذكرِكِ فليكني اللومُ
أشبهتِ أعدائى ، فصرت أحبهم إذ كان حظى منك حظى منهم
وأهنتِ فأهنتُ نفسى صاغراً مآمنٌ يهونُ عليكِ من بكرمِ
فجلى أبو نواس يعجب من حسن الشعر ، حتى ما كاد ينقضى عجه .

(١) المقد ٥ : ٣٧٣ .

ثم أنشد مسلم أبياتاً منها :

فأقسم أنسى الداعيات إلى الصبا فقد خفاتها العين والستر واقع^(١)
فقطت بأيديها ثمارَ نخورِها كأيدي الأَسارى أقتلتها الجوامعُ

قال دعبل : فقال لي أبو نواس : هات أبا عليّ وكأنني بك قد جئت بأمّ
القلادة .. لاتعجبى يا سلم ، فأنشده :

أين الشبابُ وأيةَ سلكا أم أين يُطلب؛ ضلّ أم هلكا^(٢)
لاتعجبى يا سلم من رجلٍ ضحك المشيبُ برأسه فبكي
يأليت شعري كيف صبرُكا يا صاحبيّ إذا دمي سُفكا^(٣)
لا تطلبا بظلامتي أحداً قلبي وطرفي في دمي اشتراكا
ثم سأله أن ينشدنا فأنشد :

لاتَبِكِ كَيْلِي وَلَا تَرْكِنِي إِلَى هِنْدٍ
واشربْ على الوردِ من حمراء كالوردِ^(٤)
كأساً إذا انحدرت في حلقِ شارِها وجدت مُحَرَّتْها في العين والحدّ
فاخترْ يا قوتةً ، والكأس لؤلؤة في كفٍّ جاريةٍ ممشوقة القدّ

(١) ديوانه ٢٧٣ ، وفيه : « فأقسم أنسى » .

(٢) ديوانه : ١١٧

(٣) بعده في الديوان .

يا سلم ما بالشيب منقصةٌ لاسوقه يُبقي ولا مَلِكاً
قَصَرَ الفَوَايَة عَنْ هَوَى قَمَرٍ وَجَدَ السَّبِيلَ إِلَيْهِ مُشْتَرِكاً
وَعَدَا بِأُخْرَى عَنْ تَطْلُبِهَا صَبَا يُطْلَمِنْ دُونَهَا الْحَسَكَ

تَسْقِيكَ مِنْ عَيْنِهَا خَرًّا وَمِنْ يَدِهَا
خَرًّا ، فَالِكَ مِنْ سُكْرَيْنِ مِنْ بُدِّ
لِي سَكْرَتَانِ وَلِلنَّدَمَانِ وَاحِدَةٌ
شَيْءٌ خُصِّصْتُ بِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ وَخُدِي

فلما بلغ هذا البيت، قاموا فسجدوا له ، فقال: أفعلتموها والله لا أكلّم
ثلاثاً ولا ثلاثاً ولا ثلاثاً اثم قال : تسعة في هجر الإخوان كثير ، وفي بعضها
استصلاح للفساد ، وعقوبة على المفوضة . ثم التفت إلينا وقال : أعلمتم أن حكيمًا
عُقب على حكيم ، فكتب المعتوبُ عليه إلى العاتب : يا أخى ، إن أيام العمر أقلُّ
من تمحلّ الهجر ، نظمَ ذلك الشاعر فقال :

العمرُ أقصرُ مدَّةً من أن يحقَّ بالعتابِ
أو أن يكدرَ ماصفاً منه بهجرٍ واجتنابِ

وقال ابن طاهر :

إلى كمَّ يكون الصَّدُّ في كلِّ ساعةٍ ولمْ لا تملّين القطيعةَ والهجرة !
رويدك إنَّ الدَّهرَ فيه بقيةٌ لتفريقِ ذاتِ البينِ فانتظري الدهرَا

وقال آخر :

ولقد علمت فلا تكن متجنِّياً أن الصدود هو الفراقُ الأوَّلُ
حَسْبُ الأُحْبَةِ أن يفرِّقَ بينهم ريبُ الزمانِ فإلنا نستمعجلُ !

وقال القاضي عبد الوهاب :

لا تَمَجِّلْ قطيعتي فكفى يوماً بهذا الدَّهرِ بيننا مقطعاً^(١)
(٨ - شرح مقامات المري - ٢)

عَمَّا قَرِيبٍ تَجِيءُ فُرْقَتَنَا نَمَتْ لَا مُلْتَقَى وَلَا مَجْمَعٌ
وَأُخِذَ الْكُلُّ مِنْ جَمِيلٍ: (١)

وَلَمَّا أَيْامَ الْحَيَاةِ قَلِيلَةٌ فَعَلَامَ يَكْثُرُ عَقْبُنَا وَيَطُولُ!

قوله: « نصفنا » ، أى بلفظنا نصفه . غاض : جَفَّ . در : الأفكار : كلامها ،
والدَّر : اللَّبَن ، استعارة لما يتولد من الذهن . صَبَتْ : مالت . الأوْكار : البيوت
هنا . لحنا : أبصرنا . تُخْضِر : تجرى . الجُرْد : الخيل الفصيرة الشعر . استتلت :
جملتهم تلوها يتبعونها . أنحف : أقلّ لحماً . الجوازل : فراخ الحمام ، واحدها
جَوْزَل . عزتنا : قصدتنا .

* * *

حَيَّا اللَّهُ الْمَعَارِفَ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَارِفٌ ؛ اَعْلَمُوا يَا مَالِ
الْأَمَلِ ، وَنِمَالَ الْأَرَامِلِ ، أَنِّي مِنْ سَرَوَاتِ الْقَبَائِلِ ، وَسَرِيَّاتِ
الْعَقَائِلِ ، لَمْ يَزَلْ أَهْلِي وَبَعْلِي يَحْلُونَ الصُّدْرَ ، وَيَسِيرُونَ الْقَلْبَ ،
وَيُمِطُونَ الظَّهْرَ ، وَيُولُونَ الْيَدَ . فَلَمَّا أُرْدَى الدَّهْرُ الْأَعْضَادَ ، وَفَجَعَ
بِالْجَوَارِحِ الْأَكْبَادَ ، وَانْقَلَبَ ظَهْرًا لِبَطْنِي ، نَبَا النَّاضِرُ ، وَجَفَا
الْحَاجِبُ ، وَذَهَبَتِ الْعَيْنُ ، وَفُقِدَتِ الرَّاحَةُ ، وَصَلَدَ الزُّنْدُ ،
وَوَهَنَتِ الْيَمِينُ ، وَضَاعَ الْيَسَارُ ، وَبَانَتِ الْمَرَافِقُ ، وَلَمْ يَبْقَ لَهَا
ثَنِيَّةٌ وَلَا نَابٌ ، فَمَدَّ اغْبَرَّ الْعَيْشُ الْأَخْضَرَ ، وَازْوَرَّ الْمَحْبُوبُ

(١) البيت لسعيد بن حميد ، من قصيدة له في زهر الآداب ٥٦٣ ، ٥٦٤ .

الأصفر ؛ وأسودَّ يومي الأبيض ، وأبيضَ فودي الأسود ، حتى
 رمى لنا العدوُّ الأزرقُ ، فحبَّذا الموتُ الأحمر . وتلوى من
 ترونَ عينه فراره ، وترجائه اصفراره ، فصوى بُنية أحدهم
 نردة ، وقصارى أمنيته برودة . وكنتُ آليتُ ألاَّ أبدلَ الحرَّ
 إلاَّ للحرِّ ، ولو أتى ميت من الضرِّ . وقد ناجتني القرونة ، بأن تُوجد
 عندكم المونة ، وآذتني فراصةُ الحوباءِ ، بأنكم يبيعُ الحباءُ ،
 فنصر اللهُ أمراً أبرقسي ، وصدَّقَ توسمي ، ونظرَ إليَّ بعينٍ يقذِّها
 الجود ، ويُقذِّها الجود .

• • •

للمعارف الأول : الوجوه ، واحدها معروف . قال الشاعر :

متلثمين على معارفنا ثنى لمن حواشي المصـب

وإن لم يكن معارف ، أى وإن كنت لا أعرفهم . مآل : مرجع ، وقد
 آل يؤل أولاً ومآلاً ، إذا رجع . والآمل : الراجى . وثيال : غياث وملجأ .
 الأرامل : المساكين ، يعقوب : هن جماعة الرجال والنساء ، ويقال لهم : أرامل ، وإن
 لم يكن فيهم نساء . ويقال : جاءت أرملة من رجال ونساء محتاجين ، ويقال للرجال
 الضعفاء المحتاجين : أرملة ، وإن لم يكن فيهم نساء . وأرمل القوم : فنى زادهم ، وواحد
 الأرامل أرمَل وأرملة ، وإنما قيل للفاقة زوجها : أرملة ، لأنَّ أمرها يشول إلى
 الضيعة والحاجة . سرَّوات : سادات ، واحدها سرة ، والسرى : السيد الكبير

ذو المروءة ، والسرور : المروءة ، وقد سرى سروراً وسروراً : جمع السخا
والفضل ، قال امرؤ القيس :

* وأما عليه سرّاءُ الفضل * (١)

وأنشد يعقوب :

إن السرى هو السرى بنفسه وابن السرى إذا سرى أمرهما (٢)

قال نعلب : السرى فى كلامهم : الرفيع ، مأخوذ من السّراء ، وسراء
كلّ شيء : أعلاه ، ومريات : سيدات . العقائل : كرائم النساء ، تريد أن أباهها
وأما من السّادات . البعل : الزوج ، وبعل الرجل بَعُولَة : تزوّج . الصدر :
مقدم المجلس . القلب : قلب العسكر ، والعسكر خمسة أقسام : مقدّمة ، وساقة ،
وميمنة ، وميسرة ، وقلب ، وهو محلّ الملوك ، أرادت أن قرباتها منهم . يُمَطُون :
يهيئون . الظّهر : الإبل بأوقارها ، وأمطاء : أعطاه دابة يركب مطاها ، أى ظهرها .
يُؤُونُ التّيد : يهيئون النعمة . أردى : أهلك . الأعضاء : جمع عَضُد وهو غليظ
الذراع الذى بين المرفق والمنكب . فجع : أحزن ، وجاء بفجعية ، وهى الرزية
يتفجّع عليها الجوارح : عوامل الجسد كاليد والرجل والعين ، تريد أن الدهر
إذا أهلك أهلها فكأنه قطع جوارحها فتعطّلت منفعتها . انقلب : تحول . ظهر
البطن : كناية عن الخلف ، أى بعد أن كان مستقيماً انقلب . نبا : ارتفع ولم
يستقرّ . الناظر : مَنْ ينظرُ عليها . الحاجب : من يحجبها ويسترها . والعين :
الذهب . الراحة : الدّعة والسكون . صلّد : لم يورنارا ، وأرادت انقطاع الخير
عنها . وهنت : استرخت . اليمين : التّوبة . بانت : ذهبت وبُذت . المرافقة :

(١) ديوانه : ٢٢٨ ، صدره :

* فلما مقلدوها ومقلتها *

(٢) السان - سرى .

مَنْ كَانَ يَرْتَفِقُ بِحَيَاتِهِ وَمَنْعَمَتِهِ ، وَالْمَرِاقِقُ : كُلٌّ مَا ارْتَفَقَتْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَغَيْرِهِ .
ثَنِيَّةٌ : صَغِيرَةٌ مِنَ الْإِبِلِ . وَنَابٌ : مُسْنَّةٌ .

وهذا الكلام كله استعارة كما تقدم في الإبرة والمرود ، لكنه كنى هنا بالجوارح والأعضاء عمن كان يستعين به من القرابة على الدهر ، ومعاني الأعضاء بيذة إلا الراحة ، فإنها بطن الكف : والزند : طرف عظم الساعد ، والثنية والناب صريحتان ، ونبا الناظر : لم ينم ، وجفا الحاجب : لم يرسل الجفن على العين فتنام ، كما قال بشار :

نَبَيْتُ عَيْنِي عَنِ التَّغْمِيزِ حَتَّى كَأَنَّ جَفُونَهَا عَنْهَا قِصَارٌ^(١)

وقال التهامي :

قَصُرَتْ جَفُونِي أَمْ تَبَاعَدَ بَيْنَهَا أَمْ صَوَّرَتْ عَيْنِي بِلَا أَشْفَارٍ^(٢)
قوله : « أَغْبَرَتْ » ، أى علته غُبْرَةٌ . والأخضر : الناعم . أزور : أقبض .
الأصفر ، هو الدينار . الفؤد : ناحية الرأس بين الأذن والجبهة ، وهذا من قول أعرابي ذكر مصيبتة فقال : مصيبة والله تركت سود الرأس وبيضا ، وبيض الوجه سودا ، وهونت المصائب بعدها .

وقال عبد الله بن الزبير الأسدي :

رَمَى الْخُدَّانِ نَسْوَةَ آلِ حَرْبٍ بِمَقْدَارِ تَمْدُنِ لَهُ مُمُودَا
فَرَدَّ شَعُوزَهُنَّ السُّودَ بِيضًا وَرَدَّ وَجُوهَهُنَّ الْبَيْضَ سَوْدَا

وقال التهامي :

تَسْوَدُ الشَّمْسُ مِنَّا بِيضًا أَوْجِهَنَا وَلَا تَسْوَدُ بِيضَ الْمَذَرِ وَاللَّعْمِ

(١) المختار من شعر بشار ٨ (٢) ديوانه : ٣٠

وكانَ حالمًا في الحكمِ واحدَةً لو احتسبنا من الدنيا إلى حَكَمِ
قوله : « رنى » بكى وأشفق . العدوُّ الأزرق : أراد الروم وهم أعداء
العرب . والموت الأحمر : الشديد ، ومنه الحسنُ أحمر ، أى مَنْ أَحَبَّ الحُسْنَ
احتمل للشقة . وفي الحديث : كنّا إذا احمرَّ البأس اتقينا برسول الله صلى الله
عليه وسلم ، فلم يكن أحدٌ أقربَ إلى العدوِّ منه ، فعمناه اشتدَّ ، وقيل : معنى
الموت الأحمر : القتل ، وقد قال الأخطل :

* أن قد أتيتُ لمن مَوْتٌ أحمرُّ * (١)

يريد قتل الثور الكلاب ، وتقدّم في المقامة قبل هذه ، فلما فيه من الدم
سُمِّيَ أحمر ، وهو الأظهر من مقصد الحريرى ، لأنه علّق غيره من الصفات
باللون مثل العدوُّ الأزرق ، والروم زرق العيون ، فكذلك الموت الأحمر .

أبو عبيدة : الموت الأحمر أن يتغيّر بَصَرُ الرجل من الهول ، فيرى الدنيا
في عينيه حمراء ورداء ، والموت الأغبر : هو الموت جوعاً ، لأنه يغيّر في عينيه كلَّ
شئ ، والموت الأسود هو الموت في غُمة الماء ، والموت الأبيض هو موت العافية .
قال الخطابي : الموت الأبيض ، أى فجأة ، لأنه يأخذ الإنسان بيباض لونه .
قوله : « تَلَوَى » ، أى خَلَقَ وإلى جانبى . عينه : شخصه . فراره : معرفته ،
أى شخصه يعرفكم بحاله ، والعرب تقول : عينه فراره للشئ تعرفه إذا أبصرته ،
والفرّ في البهائم . كشف أسنانها حتى يعرف ما لها من السن . ووقع في المقامات
فراره بضم الفاء ، وكذا في نوادر أبي على ، ووقع في النسخ العتاق من الأمثال
لأبي عبيد : فراره ، بكسر الفاء ، وأنشد أبو على :

* هو الحبيب عينه فراره *

(١) ديوانه ٢٣١ ، وصدره :

* أَضِيًّا وَهَزَّ لَهُنَّ رُمَحَى رَأْسِهِ *

وفسره فقال : نظرك إليه يُفنيك عن قرره لتجبره ، وهما لغتان : مُفراره وفِراره .

قوله : « ترجمانه » المتكلم عنه ، يريد أن صفة لونه تحبّرك أنه جائع .
 قصوى : غاية . بُغية : طلب . وقصارى أمنيته ، أى منتهى ما يتمناه وغايته .
 بُردة : ثوب ، أى أقصى ما يُطلب ما يأكل وغاية ما يمتنى ما يلبس . آليت :
 حلفت . أبذل الحرّ : أهين الخلد ، الحرّ : الكثير الروة : ناجتني : حدثني .
 القرونة : النفس . المونة : ما يستعان به ، أذنتى : أعلمتى . فِراسة الحوباء :
 فطنة للنفس . الينايع : جمع يَنْبُوع ، وهو ما يخرج من الماء وينبع . الحباء :
 العطاء . أبرّ : راعى وأكرم . توشى : نظرى وظنى . يُقذّئها : يجعل فيها
 القذى ، والجود : الشحّ .

وقال بضمهم فى ذم التشكى إلى الخلق :

لأشكى ضرّى إلى التنا من وهم من أعلم
 إن إلهاً مَرَّ بالضرّ جوادٌ مُنعمٌ
 أشكو الذى يرحمنى إلى الذى لا يرحم

الكستجى ، قال : أملتُ حتى لم يبق فى منزلى إلا جارية ، فدخلت دار
 المتوكل ، فلم أزل متفكراً ، فحضرني بيتان ، فأخذت قصبةً ، وكتبت على
 الحائط الذى كنت إلى جانبه :

الرزقُ مقسومٌ فأَجِلْ فى التَّلبُّ يأتى بأسبابٍ ومن غير سَبَبٍ
 فاستَرْزِقِ الله فى الله غنى الله خير لك من أبٍ حَدِبٍ

فركب المتوكل فى ذلك اليوم ، وجعل يطوف على الحجر ، ومعه الفتح
 ابن خاقان ، حتّى وقف على البيتين ، وقال : مَنْ كتب هذا ؟ وقرأها الفتح له ،

فاستحسبهما ، وقال : مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ الْحَجَرَةِ ؟ قَتِيلٌ : الْكَسْتَجِيُّ ، فَقَالَ :
أَغْلَنَّا وَأَسَانَا إِلَيْهِ ، فَأَمَرَنِي بِبَذْرَتَيْنِ .

وقال محمد بن مخلد الكاتب : لَزِمْتُ أَبَا الْحَسَنِ عَلِيَّ بْنَ مُحَمَّدٍ بْنِ الْفَرَاتِ .
أَعْدُو وَأَرْوَحُ إِلَى بَابِهِ ، لَا أَحْظِي بِطَائِلٍ ، وَلَا أَصِلُ إِلَى تَصْرِيفٍ وَلَا نَائِلٍ ،
حَتَّى كَرِهْتُ نَفْسِي ، فَرَأَيْتُ هَاتِفًا فِي الْمَنَامِ يَقُولُ لِي :

بِأَيِّهَا الْمَكْتُورُ فِي الْمَطَالِبِ : أَهَجَزَ تَصَارِيفَ أَمْنَى الْكَوَاذِبِ
إِذَا أَتَى وَقْتُ الْقَضَاءِ الْغَالِبِ بِأَدْرَتِ الْحَاجَةِ كَفَ الطَّالِبِ
فَتَرَكْتُ الْمَسِيرَ إِلَيْهِ ، فَلَمْ يَمْضِ لِي أُسْبُوعٌ حَتَّى تَقَلَّدَ حَامِدُ بْنُ الْعَبَّاسِ الْوِزَارَةَ ،
فَقَلَّدَنِي كِتَابَتَهُ ، فَثَابَتَ حَالِي .

* * *

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ : فِيهِ مَنَّا لِيَرَاعَةَ عِبَارَتِهَا ، وَمُلَحَّحَ اسْتِعَارَتِهَا ،
وَقُلْنَا لَهَا : قَدْ فَتَنَ كَلَامُكَ ، فَكَيْفَ إِحْلَامُكَ ! فَقَالَتْ : أَفَجَّرَ الصَّخْرَ ،
وَلَا فَخْرَ ، فَقُلْنَا : إِنْ جَعَلْتَنَا مِنْ رُؤَاةِكَ ، لَمْ نَبْخَلْ بِمَوَاسِنِكَ ،
فَقَالَتْ : لِأَرِيَنِيكُمْ أَوَّلًا شِعَارِي ، ثُمَّ لِأَرُوِيَنَّكُمْ أَشْعَارِي .
فَأَبْرَزَتْ رُذْنَ دِرْعِ دَرِيْسٍ ، وَكَبَرَزَتْ بَرَزَةَ عَجُوزٍ دَرْدَيسٍ ،
وَأَنشَدَتْ تَقُولُ :

أَشْكُو إِلَى اللَّهِ اشْتِكَاءَ الْمَرِيضِ رَيْبَ الزَّمَانِ الْمُتَعَدِّي الْبَغِيضِ
يَا قَوْمُ إِنِّي مِنْ أَنَاسٍ غَنَوَا دَهْرًا وَجَفَنُ الدَّهْرِ عَنْهُمْ غَضِيضُ
فَخَارَهُمْ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ وَصِيَّتُهُمْ بَيْنَ الْوَرَى مُسْتَفِيضُ

كانوا إذا ما نجمةً أَعَوَزَتْ في السَّنةِ الشَّهْبَاءِ رَوْضًا أَرِيضُنْ
تُشَبُّ للَسَّارِينِ نِيرَانُهُمْ وَيُطْعَمُونَ الضَّيْفَ لِحْمًا غَرِيضُنْ
مَا بَاتَ جَارٌ لَهُمْ سَاعِيًا وَلَا لِرَوْعٍ قَالَ: حال الجريضُنْ

قوله « هَمْنَا » ، أى تَحْيَرْنَا . البراعة : الفصاحة . عبارتها : سياق كلامها .
مَلَحَ استعارتها ، يريد ما استعارته من تسمية الأشخاص بأسماء الأعضاء . إلحاحك :
نسجك الشعر . يَفْجَرُ الصَّخْرَ ، أى يُخْرِجُ من الحجر الماء ، ومن البخيل العطاء .
مواساتك : صِلَتِكَ ، وأصلها أن تجعل صاحبك أُنوَّةَ نفسك . شعارى : ثوبى
اللاصق بحسى ، سُمِّيَ شعاراً لأنه يلى شعر الجسد ، والظُّهَارُ : الثوب الذى يظهر
للعيون ، والدُّنَارُ : الثوب الذى بينهما . رُدُنْ : كم . درع : قميص . دريس . خلق
برزت : ظهرت . دَرَدَيْس : داهية . ريب : جور . غَنُوا : أقاموا . غَضِيض :
منكسر . صَيْتَهُمْ : ذكركم الحسن ، وهو من الصوت ، فلما كسرت الصاد أُصِيرَ
على وزن الذَّكَرِ ومعناه ، وانقلبت واوهُ ياء . مستفيض : متحدث به مشهور .
نُجْمَةٌ : مرعى . أعوزت : فقدت . الشهباء : التى أجذبت فلا مطر فيها ، ولا
عُشْبَ . والرَّوْض : الموضع الكثير العشب . أَرِيض : متنوع . تشب : توقد .
للسارين : للمشاة بالليل : غَرِيض : طرى . ساعياً : جائعاً . الرَّوْع : الفزع .
الجريض : الغنص بالريق عند الموت . حال : منع ، أى لا يقول جارهم حال الموت
دون الأمن .

[أصل المثل : حال الجريض دون القريض]

ووفد عبید بن الأبرص على النعمان الأكبر ، وهو ابن الشقيقة وبانى

الخورنق ، فامتدحه فوصله وأكرمه ، وكان له يوم نعيم ويوم بؤس في السنة ،
فورد عليه في يوم بؤسه ، فقال له : ما أخرجك ، ثكلتك أمك ! فقال : حضور
أجلى ، وانقطاع أمل ؛ وكان مَنْ لقيه يوم بؤسه لم يخلصه من الموت شيء .
فاستنشده :

• أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبٌ • ^(١)

فقال له : حال الجربىض دون التريض ، فعزم عليه أن ينشد ، فأنشده :
أَقْفَرُ مِنْ أَهْلِي عَيْبِدُ فَاَلْيَوْمَ لَا يُبْدِي وَلَا يُعِيدُ
ثم قال له : اختر ، إن شئت أخرجت نفسك من الأكحل ، وإن شئت من
الأبجل ، وإن شئت من الوريد ، فقال عبيد :
خَيْرَتْنِي بَيْنَ سَحَابَاتٍ عَادَ فِرْدْتُ مِنْ بؤسِكَ شَرَّ الْمَرَادِ
وكان قتل النعمان لمبيد سبب قطعه يوم بؤسه ، فلم يفعله بعد ^(٢) .

• • •

فَقِيضَتْ مِنْهُمْ صُرُوفُ الرَّدَى	بَحَارَ جُودٍ لَمْ نَخْلُهَا تَفِيضَ
وَأَوْدَعَتْ مِنْهُمْ بَطُونُ الثَّرَى	أَسَدَ التَّحَامِي وَأَسَاةَ الْمَرِيضِ
فَحَمَلَى بَعْدَ الْمَطَايَا الْمَطَا	وَمَوْطَنِي بَعْدَ الْبِقَاعِ الْحَضِيضِ
وَأَفْرَخَى مَا تَأْتَلَى تَشْتَسْكِي	بؤسَا لَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَمِيضِ

(١) ديوانه : ١٠ وبقيته :

• فَالْمُطَبَّيَاتُ فَالذُّنُوبُ •

(٢) ديوانه ٤٥ ، وبعده هناك :

عَمَتْ لَهُ مَنِيَّةٌ نَكَدُ وَحَانَ مِنْهَا لَهُ وَرُودُ

إذا دَعَا القَانَتُ فِي لَيْلِهِ مَوْلَاهُ نَادَوهُ بِدَمْعٍ يَفِيضُ
يَارَازِقَ النَّعَابِ فِي عُمْشِهِ وَجَابِرَ الْعَظَمِ الْكَسِيرِ الْمَهِيضِ
أَتَيْحْ لَنَا اللَّهُمَّ مَنْ عَرَضُهُ مِنْ دَنَسِ الدَّمِ نَقِيٌّ رَحِيضُ
يَطْفِي نَارَ الْجُوعِ عَنَّا وَلَوْ بِمَذْقَةٍ مِنْ حَازِرٍ أَوْ تَخِيضِ
فَهَلْ فَتَى يَكْشِفُ مَا نَابَهُمْ وَيَنْغَنِّمُ الشُّكْرَ الطَّوِيلَ الْمَرِيضِ
فَوَالَّذِي تَعْنُو النَّوَاصِي لَهُ يَوْمَ وَجْوهُ الْجَمْعِ سَوْدٌ وَبَيْضُ
لَوْلَاهُمْ لَمْ تَبْدُ إِلَى صَفْحَةٍ وَلَا تَصْدَيْتُ لِنَظْمِ الْقَرِيضِ

* * *

قوله : « غِيضَتْ » ، أى أذهبت . والصروف : الطوارى تصرفك من حال إلى حال . لم أخلها : لم أحسبها . أودعت : ضمنت . الثرى : التراب . التحامى : الحماية والمنعة ، وتحاميته : تباعدت منه وتمتمت عليه . أساة : أطباء : المطايا : الإبل . المطا : الظهر . تحملى : ما أحمل عليه أقالى . تقول : صرتُ أحملُ على ظهري بعد أن كان محملى ظهور الإبل . اليفاع : الارتفاع من الأرض . الحضيض : أسفل الجبل . ما تأتلى : تقصر . بؤساً : ضراً . وميض : لمعان . القانت : للعابد ، والقنوت . طول القيام : يفيض : يملأ العين حتى تفيض بالدمع . النعاب : فرخ الغراب ، اختصه من الطير لأنهم يزعمون أنه يخرج من بيضته أبيض الزغب ، فيراه الذكور فيستريب فيضرب أثنائه ، وينقرها حتى تقر طائفة فيطير خلفها ويتركه ، فيقيض الله له ذباباً يطير حول عينيه ، فيفتح منقاره ليشردها ، فتدخل في حلقة ، فيتفدى بها حتى يسود ريشه ، فحينئذ يرجع إليها أبواه ، فيكملان تربيته . ويارازق النعاب ، من دعاء داود عليه السلام . المهيض :

الذى انكسر بهما الجبر . أُنخ : قدّر . رحيض : مفسول . مَذَقَة : جُرعة .
 حازِر . لبن حامض شديد الحموضة . والحَيْض : اللبن يُمزَج بالماء ، ويحرك ،
 والمخض التحريك ليخرج زبدّه ، وإذا طال مكث الحَيْض واشتدّت حموضته
 سمى حازراً . نابههم : نزل بهم . العريض : الواسع العرض . تعنو : تَذَل .
 التواصى : شعر مقدّم الرأس . صفحة : ناحية العنق . تصدّيت : تعرّضت .
 القريض : الشعر .

قال الراوى : فوالله لقد صدّعتُ بأبياتها أعشار القلوب ،
 واستخرجتُ خبايا الجيوب ، حتى ماحها من دينه الامتياع ، وارتاح
 لرفدِها من لم نخله . يرتاح . فلما افعو عمّ جيها تبرا ، وأولاهها كل
 منّا برا ، تولّت يتلوها الأصاغر ، وفوها بالشكر فاغر ، فاشرا بّت
 الجماعة بعمد ممرّها ، إلى سبرها ، لتبلو مواقع برّها . فكفّلت لهم
 باستنباط السرّ الرموز ، ونهضت أفقوا أثر المعجوز ، حتى انتهيت
 إلى سوق منتصّة بالأنام ، مختصّة بالزحام ، فانغمست في النمار ،
 واملست من الصبيّة الأعمار ، ثم عاجت بخلو بال ، إلى مسجد
 خال ، فأماطت الجلباب ، ونفضت النقاب ، وأنا ألمحها من خصاص
 الباب ، وأرقب ما مستبدي من المعجاب .

قوله : « صدعت » : شقت : أعشار : قَطَعَ : خبايا : ما خبيء فيها من الدراهم .
 ماحها : أعطها . دينه : عاداته . الامتياح : طلب المعروف ، يريد مشيخة الشعراء
 الذين قد مر ذكرهم ، وعيش الشعراء إنما هو من الاستجداء والطلب ، ومعلوم
 أنه من كانت عاداته أن يأخذ لا يعطى في الغالب شيئاً ، ولذلك قال : من لم نخله
 يرتاح ، أى من لم نحسب أنه يهتز للمطاء ، وقد ارتاح ، إذا اهتز للكرم
 والمطاء ولذلك قال حبيب :

لَمْ يَخْلُقِ الرَّحْمَنُ أَحْمَقَ لَحِيَّةً مِنْ سَائِلٍ يَرْجُو النَّدى مِنْ سَائِلٍ
 وقال آخر :

لَمَوْتُ الْفَقِي خَيْرٌ مِنَ الْفَقْرِ لِلْفَقِي وَلِلْمَوْتِ خَيْرٌ مِنْ سُؤَالِ الْبَخِيلِ
 لعمرك ما شئء لوجهك قيمة فَلَا تَلَقَ مَخْلُوقًا بِوَجْهِ ذَلِيلِ
 وَلَا تَسْأَلَنَّ مَنْ كَانَ يَسْأَلُ مَرَّةً فَلِلْمَوْتِ خَيْرٌ مِنْ سُؤَالِ سَتُولِ

وحدث عيسى بن عمر النحوى ، قال : قدمت من سفر ، فدخل على
 ذو الرمة الشاعر ، فعرضت عليه أن أعطيه شيئاً ، فقال : أنا وأنت تأخذ
 ولا تعطى .

ومدح أبو الشمقم مروان بن أبي حفصة فقال له : يا أبا الشمة ، أنت
 شاعر وأنا شاعر ، وغابتنا جميعاً السؤال .

وكان بشار يعطيه في كل سنة مائتى درهم ، فأتاه مرة ، فقال : هلم الجزية
 يا أبا معاذ ، فقال : وَيَحْكُ ! أجزية هي ؟ قال : هو ما تسمع ، فقال له بشار
 يمازحه : أنت أفصح مني ؟ قال : لا ، قال : فأعلم ؟ قال : لا ، قال : فأشعر ؟ قال :
 لا ، قال : فلم أعطيك ؟ قال : لئلا أهجوك ، قال : إن هجوتنى هجوتك ،
 قال أبو الشمقم : أو كذا هو ؟ اسمع :

إني إذا ما شاعرٌ هجائيٌّ أدخلت في إستم أمه علائقيَّة
 بشار يا بشار وأراد أن يقول : يا بن الزانية ، فأمسك بشار بجمه ،
 وقال : أراد والله أن يشتمي . ثم دفع إليه مائتي درهم ، وقال : لا تسمعن منك
 هذا الصبيان .

ولقيتُ بسجلمامة شاعرَها وعينها الحاج أمدحتر ، وكان له شعر رائق ،
 فحدثت عنه أنه قصده يوماً فنى شاعر يستعديه بشعر ، فوقع الحاج تحت شعره :

نحنُ بزاةُ الناسِ لا نصادُ مَنْ كان ذا فهمٍ بنا يصطادُ

ثم كتب له ، قطعة من شعره ، وقال له : اقصد بها فلانا فإنه يصطك
 بما يرضيك ، فلم المقصود بالشعر بنية الحاج ، فوصله بما أَرْضاه .

وعد أبو نواس أبا الطفيل الشاعر وعداً فألح عليه ، فقال :

وأخرسَ ولاجٍ وغادٍ ورائحٍ رجاءَ نَوَالٍ لو يُمانُ بجودٍ

وإني وإياه كمریانَ يصطلي من الطَّلِّ ناراً غير ذات وقودٍ

زَوَيْتُ له وجهاً قَطُوباً عن الندى وألبسته من وعده بوعيدٍ

فإن كنت لاعن سوء فعلك مُقِلِّماً فدونك فاستظهر بنعل حديدٍ

فعدني مَطْلٌ لا يطير غرابُه مطير ولا يدعى له بوليِد

قوله : « افموم » ، امتلاً ، وافموم علُ بنيت للمبالغة . تبرأ : ذهباً . أولاهها :
 أعطاهها . البر : الإكرام . فاغر : منفتح . اشْرأبت : تطلعت ، وتقول :
 اشْرأب الرجل ، إذا مدَّ عنقه لينظر . سَبَرها : اختبارها . تبكُو : تحتبر ، يريد
 أن الجماعة أرادت أن تعرف : هل أوقعتُ إكرامها فيمن يستحقه أم لا . كفلت
 خَمِنت . استنباط : استخراج . للرموز : الخفي . نهضت : تقدّمت للشئ
 أقفُو : اتبع . مفعمة : ممتلئة . انغمست : غابت ودخلت . الفُمار : كثرة الخلق

وجماعتهم التي تفر الأرض ، أي تغطيها ، وردّه ابن الأنباري وجعله من خطأ العامة ، وقال : إنما تقول العرب دخل في ثمار الناس ، بالخاء ، وهو جمعهم ، إذا استتر بهم ، ومنه الثمار لتغطية الرأس ، ومنه الحجر . وقال يعقوب : هو كل ما استتر به الإنسان من شجر أو غيره ، فإن كان من شجر خاصة فهو الصّراء ، وحكى بعضهم ثماراً ، جملة من غمر الماء الشيء ، إذا غطاه . قوله : املت : انفلتت بسهولة ، والاملاس : أن يسقط الشيء من يدك ولا تشعر به . الأغمار : الجهال . عاجت : مالت . بخلوّ بال ، أي خالية منفردة . أماطت : أزال . الجلباب : ثوب أوسع من الثمار يتجلبب به ، أي يلتف فيه ، والجلباب كاللحفة للمرأة ، والرداء للرجل . نصّت : نحتت وجردت : النقاب : ما يغطي به الوجه . ألحها : أنظرها . خصاص : فرج ، يريد به من شقوق الباب .

فلما انسرت أهبة الخفر ، ورأيتُ محمياً أبي زيدٍ قد سَفَر ،
 غهمتُ بأن أهماج عليه ، على ما أجرى إليه ، فاسلمتني اسلئقاء
 بالتمردين . ثم رفع عقيرة المغردين ، واندفع يُنشدُ :

يا ليت شعري أدهري	أحاط علماً بقذري
وهل دري كنه غوري	في الخدع أم ليس يذري
كم قد قمرتُ بينه	بحيلتي وبـكـري
وكم برزتُ بعرف	عليهم وبـكـري
أصطاد قوماً بوعظ	وآخرين بشـفر
وأستفزُ بخـل	عقلاً وعقلاً يحتر
وتارة أنا صخر	وتارة أخت صخر

ولو سَأَلْتُ سَبِيلًا مَأْلُوفَةً طُولَ عَمْرِي
نَحَابَ قِدْحِي وَقَدْحِي وِدَامَ عُسْرِي وَخُسْرِي
فَقُلْ لِمَنْ لَأَمْ : هَذَا عُذْرِي فِدْوَنِكَ عُذْرِي

• • •

انسَرَّتْ : زالت ، ويروى : بفصل سرت عن إن ، ومعناه إن أزالته بالهمزة -
والمنفصل فعل المجوز ، والمتصل فعل الأهبة ، وهى العُدَّة ؛ يريد لما أن أزالته
عنها هيئة لباسها التى استترت بها عنا كان الخَفَر وهو الحياء يمنعها أن تكشف
وجهها حتى نعرفها . محيّا : وجه . سفر : انكشف . أهجم : آخذه على غفلة .
أعنفه : أفتّح فعله . اسلنقى : صار على ظهره . المتمردين : الشياطين ومن لا يرحى
صلاحه . عقيرة : صوت . المفرّدين : المطربين بالغناء ، والعقيرة بمعنى معقورة ،
أى جارحة مقطوعة . كان رجل قطعت إحدى رجلتيه فرفعها ووضعها على
الأخرى ، ورفع صوته قفيل لكلّ مَنْ رفع صوته : قد رفع عقيرته .

قوله : « يا ليت شعري » معناه : ليت درأيتى وفطنتى ، ومعنى الشاعر فى
كلامهم الفطن العالم ، وسُمّي شاعراً ، لأنه يفطن لما لا يفطن له غيره . وأجاز
القرّاء : ليت شعري أبالك ما صنع ، على معنى : ليتنى أعلم أبالك ما صنع ، وأنشد :
ليت شعري مسافر بن أبى عمرو وليت يقولها الحزون

ومعناه ليتنى أعلم مسافراً .

وقال آخر :

تَحَرَّ الشَّيْبُ بِإِحْتِي تَحْمِيْرًا وَحَدَا بِي إِلَى الْقُبُورِ الْبَعِيْرَا
ليت شعري إذا القيامة قامت ودُعِى بالحساب أين المَصِيْرَا

قال ثعلب : المصير منصوب بشعري ، أى ليتنى أعلم المصير أين هو ، والبعير منصوب بمحدا ، أى وحدا الشيب للبعير إلى القبور بى . كنه : حقيقة . غورى : آخر أمرى ، وأصل الغور : قعر الحرجة والمنخفض من الأرض . قمرت : غلبت وخدعت . مكرى : خداعى . أستفز : أستخف وأخدع ، واستفزه من كذا : أخرجه منه ، والخل كناية عن الشر ، والخمر كناية عن الخير ، هذا على مذهب العرب . وكانت الخمر أجلاً ما عندهم ، ويقولون : ما عنده خل ولا خمر ، أى ما عنده شر ولا خير ، وإذا فسدت الخمر عندهم صارت خلاً ، وقد قال فى ألفاظه :

وما شئ إذا فسدًا تحول غييه رشدًا

يريد أن الخمر إذا فسدت ، صارت خلاً ، فبعد أن كانت حراماً رجعت حلالاً ، وزال تأثيرها فى العقول .

صخر : هو ابن الشريد ، وأخته الخنساء ، فأراد أنه مرة رجل ، ومرة أخرى امرأة .

ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أربعة لعنوا فى السماء : رجل خلقه الله ذكراً فتأنث ، وامرأة خلقها الله أنثى فتذكرت ، تشبّه بالرجال . والذى يضل الأعمى ، ورجل حصور ؛ ولم يجعل الله حصوراً إلا يحيى بن زكريا عليهما السلام .

وأما صخر ، فهو ابن عمرو بن الحارث بن الشريد بن رباح^(١) ، من بني سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان . وكان فى جماله أجل رجل فى العرب ، وسند ذكر لعة من أخبار صخر وأخته الخنساء فى المقامة الأربعين إن شاء الله تعالى .

(١) ابن : « رباح » .

(٩ - شرح مقامات الحريري - ٢)

سلكت سبيلاً : دخلت طريقاً . مألوفة : مكروبة ملتزمة . قذحي : سهي .
قذحي : ضربني بالزند . عسري : قري . خسري : ضد رنجي ، والخسر :
النقص ، يريد : لو مشيت على طريقة واحدة أبدا لخسرت وخبث . دونك ، أى خذ .

* * *

قال الحارثُ بن همام : فلمّا ظَهَرْتُ على جَلِيَّةِ أمرِهِ ، وبديعةِ
إمرِهِ ، ومّا زخرفَ في شِعْرِهِ مِنْ عُذْرِهِ ، علمْتُ أن شيطانَهُ
المريد ، لا يسمعُ التّفنيدَ ، ولا يفعلُ إلّا ما يريد . فنُثِيتُ إلى
أصحابي عِنائِي ، وأبثّتهمْ ما أثبتّه عِائِي ، فوجّحوا لضيعةِ
الجوائز ، وتعاهدوا على محرّمةِ المعاجز .

* * *

جلية : ظاهرة . بديعة : غريبة . إمره : دهائه وعجبه . زخرف : زين .
المريد : العارى من الخير إنما هو شرّ كله . التّفنيد : اللوم ، وفندت فعله ، إذا
عبته . نثيت : عطفت ، وتقول : جاء ثانياً عنانه ، إذا بلغ مراده ولم يجهد نفسه .
أبثّتهم : أخبرتهم . أثبتّه : حققه . عِائِي : معاينتي . وجّحوا : غضبوا . الجوائز :
المطايا . تعاهدوا : تحالفوا . محرّمة : منع وحرمان .

المقامة الرابعة عشرة وهي المكيّة

حكى الحارث بن تمام ، قال : نهضتُ مِنْ مَدِينَةِ السَّلَامِ ، لِحَجَّةِ
الإِسْلَامِ ، فَلَمَّا قَضَيْتُ بِعَوْنِ اللَّهِ التَّفَتَ ، وَاسْتَبَحْتُ الطَّيِّبَ
وَالرَّفْتَ ، صَادَفَ مُوسِمُ الْخَيْفِ ، مَعْمَانُ الصَّيْفِ ، فَاسْتَظْهَرْتُ
لِلضَّرُورَةِ ؛ بِمَا يَبْقَى حَرَّ الظَّهْرِ ، فَبَيْنَا أَنَا تَحْتَ طِرَافٍ ، مَعَ
رُقَّةِ طِرَافٍ ، وَقَدْ حَمَى وَطِيسُ الْحَصْبَاءِ ، وَأَعَشَى الْمَجِيرُ عَيْنَ
الْحِزْبَاءِ ، إِذْ هَجَمَ عَلَيْنَا شَيْخٌ مُتَسَمِّعٌ ، يَتْلُوهُ فَنَّى مُتَرَعِّعٌ ،
فَسَلَّمَ الشَّيْخُ تَسْلِيمَ أَدِيبٍ أَرِيبٍ ، وَحَاوَرَ مَحَاوِرَ قَرِيبٍ لَا غَرِيبٍ ،
فَأَعْجَبْنَا بِمَا تَنَزَّلَ مِنْ سَمَطِهِ ؛ وَعَجَبْنَا مِنْ انْبَسَاطِهِ قَبْلَ بَسْطِهِ ،
وَقُلْنَا لَهُ : مَا أَنْتَ أَكَيْفَ وَلَاجَتْ وَمَا اسْتَأَذَنْتَ !

نهضت ، أى تقدّمت ، وسمّى النهوض تقدّماً لسرعة الحركة ، وسمّى
المنصور بغداداً مدينة السلام ، لأنّ دجلة يقال لها وادى السلام ، ونهر السلام ،
وأضاف الحجة إلى الإسلام لأنها أحد أركانها ، قال النّبى صلى الله عليه وسلم :
« بنى الإسلام على خمس » ، والحجّ أحدها . التّفَتَ : ما يلزم الحاجّ من ترك
الطّيب وحلّاق الشعر . والرّفَتَ : الفكاح . استباحت : استطلعت . الموسم :
الموضع الذى يجتمع فيه النّاس من عيد أو سوق . الخيف : موضع بمكة .
معمان : شدّة الحرّ . استظهرت : استهددت ، تقول : قد استظهر لشيء

بكذا إذا استمدّه ، وقد تقدّم أنّنا للحسن :

* فدونك فاستظمر بنعل حديد *

بقي : يمنع . الظهيرة : حرّ نصف النهار ، فيقول : بسبب ضرورة الحرّ جعلت على نفسى سِتْرًا يمنع عنى حرّ الشمس . طِراف : قُبّة من جلد . ظراف : جمع ظريف ، وهو الثّبيب المهبذب . حمى وطيس الحصباء : اشتدّ حرّ الجنادل لمن وطئها ، وأصل الوطيس التنور يحمى فيطبخ فيه . أعشى : أعمى . المهجير : حرّ نصف النهار . الحزبألا : دويبة تستقبل الشمس وتدور معها ، وانظرها في المقامة السادسة والثلاثين ، وقال المعرى :

وهجيرة كالهجر موجُ سَراها كالبحر ليس لمائه من طُحلب^(١)
أوفى بها الحزباء عودى منبر للظُّهر إلا أنه لم يخطب
فكانه رام الكلام ومسه عى فأسعده لسانُ الجندب
وقال أيضاً في نحوه :

وساحرة الأقطار يحنى سراها فتصلب حزباء برياً على جذع^(٢)

قوله : « هجم » أى دخل على غفلة . متسع : هَرِم متقارب الخطو . مترعرع : شاب متزايد ، وترعرع الغلام ، أى أخذ في الزيادة في طوله وخِلافته ، والترعرع : الشباب . أريب : عاقل . حاور : راجع الكلام . نثر من سمطه ، أبدى من كلامه ، وأصل السَّمَط خيط الجوهر . انبساطه : دالته ، وهذا للكلام أصله في البساط ، تقول : بسطته فانبسط ، فلا يكون الانبساط مطاوعاً إلا بعد الشروع في البسط ، يقول : فهذا الشيخ انبسط علينا قبل أن نبسطه ،

(١) سقط الزند ١١٣٢ .

(٢) سقط الزند ١٣٥١ .

أى دلّ علينا قبل أن نجعل له السبيل في ذلك . ومما يستحسن من المنظوم هنا قول ابن كناسة :

فِي أَتْقَبِـاضٍ وَحَشْمَةٍ فَإِذَا لَاقَيْتُ أَهْلَ الْوَفَاءِ وَالْكَرَمِ^(١)

أُرْسَلْتُ نَفْسِي عَلَى سَجِيَّتِهَا فَقُلْتُ مَا قُلْتُ غَيْرَ مُحْتَشَمٍ

قال إسحاق الموصلي : أنشدني ابنُ كُنَاسَة هذين البيتين ، فقلت له :
وددت أني سبقتك إليهما وينقص من عمري سنتان .
ولجت : دخلت .

* * *

فَقَالَ : أَمَا أَنَا فَعَافٍ ، وَطَالِبُ إِسْعَافٍ ، وَسِرٌّ ضُرِّيْ غَيْرِ
خَافٍ ، وَالنَّظَرُ إِلَى شَفِيعٍ لِي كَافٍ ، وَأَمَا الْإِنْسِيَابُ ، الَّذِي عُلِقَ بِهِ
الْإِرْتِيَابُ ، فَمَا هُوَ بِمُجَابٍ ، إِذْ مَا عَلَى الْكَرْمَاءِ مِنْ حِجَابٍ ،
فَسَأَلْنَاهُ : أَنْبَى اهْتَدَى إِلَيْنَا ، وَمِ اسْتَدَلَّ عَلَيْنَا ؟ فَقَالَ : إِنَّ
الْكَرَامَ نَشَرْنَا نَمُّهُ بِهَفَاحَاتِهِ ، وَتُرْشِدُهُ إِلَى رَوْضِهِ فَوْحَاتِهِ ، فَاسْتَدَلَّتْ
بِتَارِجِ عَزِّفِكُمْ ، عَلَى تَبْلُجِ عُرْفِكُمْ ، وَبَشَرَانِي تَضَوُّعِ رَنَدِكُمْ ،
بِحَسَنِ الْمُنْقَلَبِ مِنْ عِنْدِكُمْ . فَاسْتَخْبَرْنَاهُ حِينَئِذٍ عَنْ لُبِّائِهِ ، لِنَتَكَفَّلَ
بِإِعَانَتِهِ .

* * *

عاف : طالب معروف . إسعاف : قضاء حاجتي . الشفيع : الطالب لغيره ،

(١) الأغاني ٤ : ٣٦ .

يقول : لست أحتاج إليكم مع ظهور سرّي لشفيع ، لأن نظركم إلىّ يغني عن
عن الشفيع . كافٍ : مغني عن غيره . الانسياب : الدخول بسهولة ، وقد تقدّم
أصله في الأولى . الارتياب : الشكّ والإنكار . عجاب : مبالغة في عجب .
أتى : كيف . نشرّا تيمّم به نفعاته : طيبا تفوح روائحه وأنفاسه . ترشد :
تدلّ وتهدي . فوّحاته : روائحه العطرة . والعرف : الرائحة الطيبة ، وتأرجحها :
تحرّكها ، وتأرجح الطيب : فاح . تبلّج : ظهور . عرفكم : معروفكم ؛ ولاحظ
الحريرى في هذا قول للمعرجي :

يوم يقول الرسول قد أذنت فأت على غير رقبة فلج^(١)
أقبلت أهوى إلى رحالم أهدى إليها بريحها الأريج

قالوا : ويستدل بالطيب على الملوكة في المواطن التي يكون الناس فيها غير
معروفين ؛ فن ذلك الحتام ومعرك الحرب ، ومثل هذا الوطن الذي ذكر
الحريرى في الحج إذا حلّ ، قالوا : والطيب دليل لا يكذب ونمّام لا يفسد ،
والطيب : غذاء الروح ، والنفحات الذكية : نشاط النفس ، فهو طاب وطيب ،
وقال ابن البوّاب :

إذا أبصرتك العين من بُعد غاية فأوقعتُ شكا فيك أثبتك القلبُ
ولو أنّ ركبا يَمْوُك لقادهم نسيْمُك حتى يستدلّ بك الركب
وقال السرى الموصلى :

حُلِيَّهْ ونَباياه وعنبرُه كلُّ ينم عليه أو يراقبه
فلست أدري إذا ما سار في أفق شائل الأفق أذكى أم جنابته

(١) الشعر والشعراء ٥٥٨ ، قال : « ويقال : إن الجعفر بن الزبير » .

وقال ابن سكرة :

أهلاً وسهلاً بمن زارت بلا عِدَّةٍ تحت الظلام ولم تحذر من العَسَسِ^(١)
تسترت بالدجى عمداً فما استقرت وناب إشراقها ليلاً عن القَبَسِ
ولو طواها الدجى عني لأظهرها برق اللثات وعطر النعر والنفس
وأخذه المعتمد بن عباد فقال :

ثلاثة منعقاً من زيارتها خوف الوشاة، وخوف الحاسد الخنق
ضوء الجبين ووسواس الحلي وما تحوى معاطفها من عنبر عبق
هب الجبين بفضل الكم تستره والحلي تنزعه ، ما حيلة العرق !

فقال : إن لي مارباً ، ولفتاى مطلباً ، فقلنا : كلاً المرامين
سيقتضى ، وكلاً كما سوف يرضى ، ولكن الكبر الكبر ، قلنا :
أجل ، ومن دحى السبع الثبر ، ثم وثب للمقال ، كالمشط من
العقال ، وأنشد :

إني امرؤ أبدع بي بعد الوجى والتعب
وشقتي شامة يقصر عنها خبي
وما مبي خردلة مطبوعة من ذهب

(١) بنية الدهر ٢ : ٢٣

فحِيلَتِي مُنْسَدَّةٌ وَحَيْرَتِي تَلْعَبُ بِي
 إِنِ ارْتَحَلْتُ رَاجِلًا خِفْتُ دَوَاعِيَ الْعَطَبِ
 وَإِنْ تَخَلَّفْتُ عَنِ الرُّفْقَةِ ضَاقَ مَذْهَبِي
 فزَفَرْتَنِي فِي صُغُرٍ وَعَبَّرْتَنِي فِي صَبَبِ
 وَأَنْتُمْ مُتَجَمِّعُونَ الرَّاجِى وَمَرْمَى الطَّلَبِ
 لَكُمْ مِنْهُلَّةٌ وَلَا انْهِيَ لَالِ السُّحُبِ
 وَجَارَكُمْ فِي حَرَمٍ وَوَفَرَكُمْ فِي حَرَبِ
 مَا لَازِمُ مُرْتَاعٍ بِكُمْ فَخَافَ نَابَ النُّوبِ

• • •

قوله : « مَارِبًا » ، أى حاجة . المرامين : المطلبين . الكُزْبُ الكُزْبُ ، أى
 قَدَّمُوا الأَكْبَر .

ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم : أمرنى جبريل عليه
 السلام أن أقدم الأَكْبَر .

أجل : نعم . دحا : بسط . السبع الغبر : الأرضين . المذشط :
 المحلول . عقال : قيد البعير ، وعَقْدَتُهُ بَأَنْشُوطَةٍ ، أى عقدته عقدة تنحلُّ
 بجذبة أو يجذبتين ، وقولهم : بئر نُشُوطٍ ، إذا كان دلوها يخرج بجذبة أو
 جذبتين ، وتسمى عامتنا عقدة الأنشوطه اللخ . أبدع بى : أى عَطِيتْ نَاقَتِي ،
 يقال : أَبْدَعَ بِالرَّجُلِ إِذْ كَلَّتْ إِبْلُهُ أَوْ عَطِيتْ . وفى الحديث : إِنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : احْمِلْنِي فَإِنِّي أَبْدِعُ بِي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :
 « ما عندى ما أحملك عليه ولكن اذهب إلى فلان فقل له يحملك » ، فاتاه فحملة

فرجع إليه فأخبره ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ أَجْرٌ فَاعِلِهِ » . قوله : « الوجي » : وجع الحافر من الحَفَى . شَقَّتِي شاسعة : سَهَرَتِي بهيعة . خَبَيْي : مِشِيَّتِي ، وخَبَبُ الفرس خَبِيًّا ، وهو ضرب من العدْوِ دون الإسراع . الخردل : حبّ معروف في نهاية الصَّغَر . مطبوعة : مصنوعة . منسلّة : منغلقة . المطب : الملاك . تخلّفت : تأخرت . مذهبي : طريق . زفرتي في صُمُد : نفسي في ارتفاع . عبرتي في صَبَب : دمعي في انحدار . المنتجع : الموضع الخصب الذي يُنتَجِعُ للمرعى ، يقول : موضعكم خصب وأنتم كرام فمن طلب منكم رزقه وجده . لهاكم : عطاياكم . منهلة : منصبة . لازم : تسرّ ولجأ . مرتاع : خائف . الثوب : جمع نائبة على غير قياس ، وهي الداهية ، وجعل لها نابا مجازا وجنس به ، وأصل الناب للسبع .

* * *

ولا استدرّ أملٌ	حباكم فما حُبِي
فانمطفؤا في قصّتي	وأحسنوا مُنْقَلَبِي
فلو بلوتم عيشتي	في مطعمي ومشرّبي
لساءكم ضرّي الذي	أسلمني للكرّبي
ولو خبرتم حسبي	ونسبي ومذهبي
وما حوت معرفتي	من العلوم النخب
لما اعترتكم شبهةٌ	في أنّ دأبي أدبي
فليت أني لم أكن	أرضعت مُتَذَيّ الأدب

فقد دهاني شؤمه وَعَقْنِي فِيهِ أَبِي

* * *

استدّرّ : طلب الدّرّ وهو اللين . آمل : راج . حياءكم : عطاءكم . انعطفوا : ميلوا . منقلبي : مرجعي ، يقول : عساكم أن تشفقوا عليّ وتميل قلوبكم بالرحمة إليّ حتى يحسن منقلبي من عندكم . بلوتم : جرّبتم . أسلمني : تركني . الكرب : المهوم . خبرتم : اختبرتم . حسبي : شرفي . والحسب آباء أشراف بحسب أو أفعال كريمة . مذهبي : طريقي . خوت : جمعت . النخب المختارة . اعترتكم : قصدتكم . شبهة : شكّ وحيرة . دهاني : أهلكني وضررتني . شؤمه : نحسة . عقني : قطعني وأساء إليّ بتعليمه ، فهو يتطأّر بأدبه .

[حِرقة الأدب]

والمتطأّر بالأدب مذهب قديم متداول ، وقد أشار إليه ابن قتيبة في صدر أدبه :

وقال عمرو بن شبة : من أعجب المجب ثلاثة مقارنة لثلاثة : الحُرقة للأدباء ، وتباعد المال عن الظرفاء ، وإقبال الدنيا على النّوكي .
وقيل للحسن البصري رحمه الله : لِمَ صارت الحُرقة مقرونة مع العلم ، والثروة مقرونة مع الجهل ؟ فقال : ليس كما قلتم ، ولكن طلبتم قليلا في قليل فأعجزكم ، طلبتم المال وهو قليل في أهل العلم وهم قليل ، ولو نظرتم إلى مَنْ تحارّف من أهل الجهل لوجدتمهم أكثر ؛ وقال الحمدوني :

ما زددت من أدبي حرفاً أسرّ به إلاّ تزيّدت حرفاً تحته شومُ
كذا المقدم في حذق بصنعتي أني توجّه فيها فهو محرومُ

وقال أبو إسحاق الصّابي .

إذا جمت بين امرأين صناعةً فأحببت أن تدري الذي هو أحذقُ
فلا تفقد منهما غيرَ ما جرتُ به لهما الأرزاق حين تفرقُ
فحيث يكون النقص فالرزق واسعٌ وحيث يكون الفضل فالرزق ضيقُ

أخذه عبد الملك بن وهبون ، فقال :

يمزّ على العلياء أنّي خاملٌ وإن أبصرت مني خودَ شهابٍ
وحيث ترى زند النّجاة واريّاً فثمّ ترى زند السّعادة كابي

وقال أبو إسحاق الصّابي :

قد كنت أعجب من مالي وكثرته وكيف تغفل عنه حرقةُ الأدب^(١)
حتى اثننت وهي كالفضيّ تلا حظّي شزراً فلم تبق لي شيئاً من النّشبِ
واسقيقت أنها كانت على غلطٍ فاستدرّكته وأفضت بي إلى الحربِ
الضّب والنون قد يُرجى اجتماعهما وليس يُرجى اجتماع المال والأدبِ

وقال علي بن بسام يرنى عبد الله بن المعتز ، على ما كان بينهما من العداوة :

لله درك من مئيت بمضيعةٍ ناهيك في العلم والآداب والحسبِ^(٢)
ما فيه «لَوْ» ولا «ليت» فتقصّه وإلما أدركته حرقةُ الأدبِ

(١) ينسمة الدهر ١ : ٢٤

(٢) غمار القلوب ١٩٢

وكان ابن المعتز قام على المقتدر ، فلما ظفر به أَمَرَ فَرَمِيَّ في صهريج فيه ماء في شدة البرد فمات . ومن عجائب الدنيا أَنَّ أباه المعتز لما خلع عن الملك أدخل حماماً ، وأغلق عليه فمات من حره .

وكما نفَّوا أَنَّ يجتمع المال والفهم في الغالب ، كذلك نفَّوا أَنَّ يجتمع النجابة في الولد والوالد في الغالب ، قال الشاعر .

إذا أطلع الدهر حُرّاً لبيداً فكُنْ في ابنه سيئ الاعتقادِ
فلست ترى مِنْ نَجِيبٍ نَجِيباً وهل تلد النار غير الرمادِ !
ولما أوجع الفقر والحرمان القاضي عبد الوهاب ^(١) لأجل أدبه على ما شرطوا في الأدب ، تَمَيَّ الكفاف ولزوم العلم إلى الممات ، فقال :

يألَهفَ نفسي على شيئين لو مُجِعا عندى لكنت إذاً من أفضل البشر
كفاف عيش كفاني ذلّ مسألة وخدمة العلم حتى ينقضي عمرى
فلما فتّح عليه باب الرزق مات ، على ما يأتي ذكره ، فسبحان من أنفذ حكمه في خلقه كيف شاء !

* * *

فقلنا له : أما أنت فقد صرَّحتَ أحياتك بفاقتك ، وعطبتَ
اقتك ، وسنمطيك ما يوصلك إلى بلدك ، فما مأربة ولديك ؟
فقال له : قُمْ يا بُنَيَّ كما قام أمبوك ، وفهُ بما في نفسك لا فضُّ
فوك . فهض نهوض البطل للبراز ، وأصلت لساننا كالمغضب
الجزاز ، وأنشأ يقول :

يا سادة في المعالي لهم مبانٍ مشيدة

(١) هو عبد الوهاب بن نصر بن أحمد الفقيه المالكي ، ذكره في المرقبة العليا ٤٠-٤٣ .

وَمَنْ إِذَا نَابَ خَطْبُ
وَمَنْ يَهُونَ عَلَيْهِمْ
أُرِيدُ مِنْكُمْ شَوَاءٌ
فَإِنْ غَلَا فِرْقَاؤُ
أَوْ لَمْ يَكُنْ ذَا وَلَا وَذَا
فَإِنْ تَمَذَّنَ طَرًّا
فَأَحْضِرُوا مَا تَسْنَى
وَرَوْجُوهُ فَنَفْسِي
وَالزَّادُ لَا بَدَّ مِنْهُ
وَأَنْتُمْ خَيْرُ رَهْطٍ
أَيْدِيكُمْ كُلَّ يَوْمٍ
وَرَأَحُكُمْ وَأَعْيَلَتْ
وَبُنَيْتِي فِي مَطَاوِي
وَفِي أَجْرٍ وَعُقْبَى
وَلِي نَتَائِجُ فِكْرِ

قَامُوا أَبَدَفَمِ الْمَكِيدَةِ
بَذَلُ الْكُنُوزِ الْعَتِيدَةِ
وَجَزْدَقًا وَعَصِيدَةِ
بِهِ تُوَارَى الشَّهِيدَةِ
فَشَبَعَةً مِنْ تَرِيدَةِ
فَعَجُوهُ وَنَهْيِدَةِ
وَلَوْ شَظَى مِنْ قَدِيدَةِ
لَمَّا يَرْوِجُ مُرِيدَةِ
لِحَالَةٍ لِي بَعِيدَةِ
تُدْعَوْنَ عِنْدَ الشَّدِيدَةِ
لَهَا أَيْادٍ جَدِيدَةِ
شَمَلِ الصَّلَاتِ الْمَفِيدَةِ
مَا تَرَفِدُونَ زَهِيدَةِ
تَنْفِيسِ كَرْبِي حَمِيدَةِ
يَفْضَحْنَ كُلَّ قَصِيدَةِ

* * *

قوله : « صرحت » : بينت . فافقتك : ففكرت ، وتصريح أبياته بعطب ناقته هو قوله ، « أبداع بي » المتقدم ، وفي معناه : أن أعرابية خرجت إلى الحج ، فلما كانت ببعض الطريق عطبت ناقته ، فرفعت يديها إلى السماء وقالت :

بَارِبٌ أَخْرَجْتَنِي مِنْ بَيْتِي إِلَى بَيْتِكَ ، فَلَا يَبْقَى وَلَا يَبْقَى ! قَوْلُهُ : « نَمَطِيكَ »
 نَمَطِيكَ مَطِيَّةٌ . مَأْرَبَةٌ : حَاجَةٌ . فُهُ : تَكَلُّمٌ . فَضٌّ : كَسْرٌ . نَهَضٌ : تَقَدُّمٌ .
 أَصْلَتْ : جَرَّدَ . الْعَضْبُ الْجَرَّازُ : السِّيفُ الْقَاطِعُ . مَشِيدَةٌ : مَرْتَفَعَةٌ . نَابُ خُطْبٍ :
 قَصْدٌ أَمْرٌ شَدِيدٌ . وَالْمَكِيدَةُ ، هِيَ الْكَيْدُ ، وَكُلُّ مَا يَكَادُ بِهِ فَهُوَ مَكِيدَةٌ .
 وَقَامُوا بِدَفْعِهَا : اقْتَدَرُوا عَلَيْهَا ، يَقُولُ : إِذَا قَصِدُوا بِأَمْرٍ عَظِيمٍ وَكِيدُوا بِهِ
 اقْتَدَرُوا عَلَى دَفْعِ الْكَيْدِ وَاسْتَفْتَوْا بَيْنَ يَدَيْهِمْ . الْعَتِيدَةُ : الْحَاضِرَةُ
 الْمَذْخُورَةُ . رُقَاقٌ : خَبْزٌ رَقِيقٌ . تَوَارَى : تَغَطَّى . الشَّهِيدَةُ : الشَّاةُ الْمَشْوِيَّةُ ،
 وَقَلَّمَا يُؤْكَلُ لَحْمُهَا إِلَّا بِالرُّقَاقِ ، وَرَبَّمَا سَمَّوْا الْمَرْيَسَةَ شَهِيدَةً ، وَأَنشَدُوا
 فِي ذَلِكَ :

هَلَمُوا إِلَى مَنْ عُدَّتْ طَوْلَ لَيْلِهَا بِأَضْيَقِ سَجْنٍ فِي الْجَحِيمِ تَسْقُرُ
 وَقَدْ جَلَدُوهَا الْحَدَّ وَهِيَ بَرِيَّةٌ فَسَيَرُوا إِلَى دَفْنِ الشَّهِيدَةِ تُؤْجَرُوا

وَقِيلَ : الشَّهِيدَةُ الدُّجَاجَةُ الْمَحْشُوتَةُ ، وَقِيلَ : السَّمَكَةُ الْمَحْشُوتَةُ . طَرًّا : جَمِيعًا .
 عَجْوَةٌ : نَوْعٌ مِنَ التَّمْرِ الطَّيِّبِ . وَالنَّهْيَةُ : الزُّبْدَةُ ، وَالتَّمْرُ بِالزُّبْدِ شَيْءٌ يَلْدُ
 عِنْدَهُمْ أَكْلَهُ . تَسْتَى : حَضَرَ . شَطَى : قَطَعَهُ . رَوَّجُوهُ : عَجَّلُوهُ . وَلَا بَدَّ مِنْهُ ،
 أَيْ قَدْ وَجِبَ عَلَيْهِمْ فَالْتَزَمُوهُ لِي ، تَقُولُ : لَا بَدَّ مِنْ كَذَا ، مَعْنَاهُ قَدْ أُلْزِمْتُمْ
 نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ وَاجِبًا عَلَيَّ ، مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ : قَدْ أَبَدَّ الرَّجُلُ الْفُومَ ، وَأَبَدَّ
 الرَّاحِي الْوَحْشَ ، إِذَا أُلْزِمَهُنَّ الْحَتْفَ ، قَالَ أَبُو ذُوَيْبٍ :

فَأَبْدَهُنَّ حَتُوفَهُنَّ فَهَارِبٌ بِذَمَائِهِ أَوْ بَارِكٌ مُتَجَمِّعٌ^(١)

قَوْلُهُ : « أَيَادٍ » : أَيْ نَعَمٌ . رَاحِكُمْ : أَكْمَكُمْ . وَأَصْلَاتُ شَمْلُ الصَّلَاتِ :
 أَيْ تُؤَلَّفُ وَتُصَلُّ مَتَفَرِّقَ الْعَطَايَا وَالنَّوَائِدِ . بَغِيَّتِي : إِيرَادَتِي . مَطَاوِي

(١) ديوان الهذليين ١ : ٩ الذماء : بقية الروح : متجمع : لاصق بالأرض قد صرغ .

ما ترفعون . مطاوى الثوب : معاطفه وما يطوى منه . وترفعون : تعطون ، وتقدير البيت : بقيت زهيدة أى قليلة فى مطاوى عطاياكم ، أى ما طلبتكم منكم قليل فى أثناء ما تهبون . قوله : « وفى أجر » : عن أنس رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَطْعَمَ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ طَعَامًا وَافَقَ بِهِ شَهْوَتَهُ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ » . وفى حديث عبد الله بن عمرو بن العاص « مَنْ أَطْعَمَ أَخَاهُ خَبْزًا حَتَّى يَشْبِعَهُ وَسَقَاهُ مَاءً يَرُوهُ أَبْعَدَهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ سَمِيعُ خَنَاقٍ » . تنفيس : تفرج وترويح ، يقول : عاقبة تفرج هى لمن فرجه محمودة الأجر الذى فيها ، والثناء بشعرى عليه ، وعلى هذا رتب : « ولى نتائج فكر » : وهى أشعاره الحسان . يفضح : يشهرن عُيوبها ، يقول : إذا أنشدت شعرى اففضحت قصائد الشعراء وتنقصت .

* * *

قال الحارث بن همام : فلهما رأينا الشَّبلَ يُشْبِهُ الْأَسَدَ ، أَرْحَلْنَا الْوَالِدَ وَزَوْدَنَا الْوَلَدَ ، فَقَابَلَا الصَّنْعَ بِشُكْرِ نَشْرَا أُرْدِيَّتَهُ ، وَأَدْيَا بِهِ دِيَّتَهُ . وَلَمَّا عَزَمَا عَلَى الْإِنْطِلَاقِ ، وَعَقَدَا لِلرَّحْلَةِ حُبُكَ النُّطَاقِ ، قُلْتُ لِلشَّيْخِ : هَلْ ضَاهَتْ عِدْتُنَا عِدَّةَ يَعْقُوبَ ، أَوْ هَلْ بَقِيَتْ حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ ! فَقَالَ : حَاشَ لِلَّهِ وَكَلَّا ، بَلْ جَلَّ مَعْرُوفُكُمْ وَجَلَّى ، فَقَاتَ لَهُ : فِدِنَا كَمَا دِنَّاكَ ، وَأَفِدِنَا كَمَا أَفَدْنَاكَ أَيْنَ الدُّوَيْرَةِ ، فَمَتَدَّ مَلَكْتُنَا الْخَيْرَةَ !

* * *

الشَّبل : ولد الأسد . أرحلناه : أعطيناه راحلة يركبها . الصنع : الفعل الجليل . نشرا أرديته : ، استمارة لنشر الشكر . أديا : أعطيا . ديقه : ، حقه ، يقول : جملا شكرهما حقاً لبرتنا ومكافأة لصلتنا ، وكان المال للوهوب قد استهلكه الآخذ له ، فإن شكر عليه فالشكر للواهب هو دية ماله المالك . وإنما أراد

قول النبي صلى الله عليه وسلم « مَنْ نَشَرَ مَعْرُوفًا فَقَدْ شَكَرَهُ ، وَمَنْ سَتَرَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ » .

[من الأقوال حكيمة في الشكر]

وفي حديث جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ أَعْطَى شَيْئًا فوجد فليَجِرْ ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيُتِنْ بِهِ ، فَإِنْ أَتَيْتَ عَلَيْهِ فَقَدْ شَكَرَهُ ، وَإِنْ كَتَمْتَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ » .

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : « مَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ ، وَمَنْ أَتَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافُوهُ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ أَحَدًا فَمَلِئْ دُخْلَكُمْ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّهُ قَدْ كَافَاهُ » .
وقالوا : إِذَا قَصَرَتْ يَدَاكَ عَنِ الْمَكَافَاهِ فَلْيُطِلْ لِسَانَكَ بِالشُّكْرِ .

وما أحسن قول حبيب في نشر الشكر وذم ستره .

لنَّارُ نَارِ الشُّوقِ فِي كَيْدِ الْفَتَى	وَالْبَيْنُ يُوقِدُهُ هَوًى مَسْمُومٌ ^(١)
خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَخَامِرَ قَلْبَهُ ^(٢)	وَهَوَاهُ مَعْرُوفٌ أَمْرٌ مَكْتُومٌ
سَرَقَ الصَّنِيعَةَ فَاسْتَمَرَّ مُلْعَنًا ^(٣)	يَدْعُو عَلَيْهِ النَّائِلُ الْمَظْلُومُ
أَوْ قَنَعَ الْمَعْرُوفَ وَهُوَ كَأَنَّهُ	قَرُّ الدَّجَى إِلَى إِذَا لِلنِّيمِ
مُثْرٍ مِنَ الْمَالِ الَّذِي مَلَكَتْنِي	أَعْنَاهُ وَمَنْ الْوَفَاءُ عَدِيمٌ ^(٤)
فَارُوحُ فِي بُرْدَيْنِ لَمْ يَسْحَبْهُمَا	قَبْلِي فَتَى وَهِيَ الْغَنَى وَاللُّومُ

(١) ديوانه ٣٠٦ ، وفيه : « لَنَارُ »

(٢) الديوان : « صدره » .

(٣) الديوان : « بلعنة » .

(٤) مثر : دوماً .

ومن ملح الأعراب ؛ أن أعربياً لصاً أخذ الحجاج ، فضر به سبعمائة سوط ، وهو يقول عند كل سوط : شكراً يارب ، ف قيل له : والله ما يمنع الحجاج من تركك إلا كثرة شكرك ، أما سمعت الله يقول : ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾^(١) ! فأنشأ الأعرابي يقول :

* يارب لا شكر فلا تزدني أسأت في شكرك فاعف عني *

* باعد ثواب الشاكرين مني *

ومرّ بشار برجل قد رحته بقلّة فسقطه مكسوراً ، وهو يقول : الحمد لله والشكر لله ، فقال : استزده يزدك من هذه النعم .

وسياى نوع آخر من الشعر في الشكر بحول الله تعالى .

* * *

قوله : «حُبُّكَ النِّطَاق» : النِّطَاق وَلِلنِّطَاقِ : ما يُشَدُّ على وسطك كالخزام . والحُبُّك : خيوط أو شَرَك يُشَدُّ بها النِّطَاق ، وأراد أنهما تحزّما للارتحال ، ويقال : حبكت الشيء حَبْكا : شدّدته ، واحتبكت إزارى : شدّدته . والحَبُوك : المقتول ، وحبكته : شدّدت قتله ، والحُبُّك : الطرائق في السماء من أثر الغيم ، والحُبُّك أيضا : العكس الذي يكون في الرمل والشعر والماء .

ضاهت : شابهت . عدتنا : ما وعدناك به من الرّاحة ، ولا بنك من الزاد .

* * *

[عرقوب المضروب به المثل]

عرقوب : رجل^(٢) من العماليق يضرب به المثل في إخلاف الوعد ، وقصته أنه أتاه أخ له يسأله شيئا ، فقال له : إذا أطلعت هذه النخلة فلك طلعا ، فلما أطلعت أتاه فقال له : دعها حتى تصير بلحا ، فلما أبلحت أتاه ، فقال له : دعها حتى تصير زهوا^(٣) ، فلما أزهت قال له : دعها حتى تصير رطبا ، فلما أرطبت قال له :

(١) سورة إبراهيم ٧ (٢) مجمع الأمثال ٢ : ٣١١

(٣) الزهو : البسر الملون .

(١٠ - شرح مقامات الحريري - ٢)

دَعَا حَتَّى تَصِيرَ تَمَرًا ، فَلَمَّا أَتَمَرَتْ عَمِدَ إِلَيْهَا عَرْقُوبٌ مِنَ اللَّيْلِ فَجَدَّهَا ،
وَلَمْ يَعْطِهِ شَيْئًا .

وقيل : عرقوب هو ابن سعد بن زيد مناة بن تميم ، ويقول بنو سعد : هو ممّا .
وقيل : هو من الأوس والخزرج ، قال علقمة :

وَقَدْ وَعَدْتُكَ مَوْعِدًا لَوْ وَفَّتْ بِهِ كَمَا وَعَدَ عَرْقُوبُ أَخَاهُ يَيْثَرُ^(١)
وَقَالَ كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ :

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عَرْقُوبٍ لَهَا مِثْلًا وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا الْأَبَاطِيلُ^(٢)

* * *

وقال عبد الله بن عمر : خَلَفَ الْوَعْدُ ثَلَاثَ الْفَنَاقِ . وَحَاجَةُ نَفْسٍ يَمْقُوبُ :
خَشْيَةُ الْعَيْنِ عَلَى بَنِيهِ حِينَ أَمَرَهُمْ أَنْ يَتَفَرَّقُوا عَلَى الْأَبْوَابِ ، وَلَا يَدْخُلُوا مِنْ
بَابٍ وَاحِدٍ ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي غَايَةِ الْجَمَالِ وَكَمَالِ الْخُلُقِ ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى :
(مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَمْقُوبٍ قَضَاهَا)^(٣) ،
وَأَرَادَ الْحَرِيرِيُّ : هَلْ بَقِيَتْ لَكَ حَاجَةٌ لَمْ تَقْضِهَا ؟ فَقَالَ : حَاشَ اللَّهُ ، أَيْ
مَعَاذَ اللَّهِ .

ابن الأنباريّ قولهم : حاشى فلانا ، معناه أَسْتَنْثِيهِ ، وَأَخْرَجَهُ مِنَ الْمَذْكُورِينَ .
الْقُرَاءُ : هُوَ مَنْ حَاشَيْتَ أَحَاشِي ، وَيُقَالُ : قَامَ الْقَوْمُ حَاشَى عَبْدَ اللَّهِ
بِالنَّصَبِ وَالْخَفِضِ ، وَحَاشَى لِعَبْدِ اللَّهِ ، وَحَاشَ وَحَشَى ، وَخَفَضَ مَا بَعْدَهَا
بِإِضْمَارِ اللَّامِ لِمُكْتَرَةِ مَحَبَّتِهَا حَاشَى ، كَأَنَّهَا ظَاهِرَةٌ ، أَوْ تَقُولُ : أَضْيِفْتَ حَاشِي
إِلَى عَبْدِ اللَّهِ ، لِأَنَّهُ أَشْبَهَ الْأَسْمَ لَمَّا يَأْتِ مَعَهُ فَاعِلٌ .

كَلًّا : مَعْنَاهَا الزَّجَرُ ، أَيْ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَظُنُّ . جُلَّ : عَظُمَ ، وَهُوَ مِنْ

(٢) ديوانه ٨ .

(١) ديوانه ١٣٣ .

(٣) سورة يوسف ٦٨ .

الجلل ، والجليل هو العظيم ويـكون في غير هذا اليسير وهو من الأضداد .
جلى : سبق معروفكم كل معروف ، والمجلى من الخيل : السابق .

دنا : جازنا . أين الدويرة ؟ سأله أين تسكن من البلاد . ملكتنا :
غلبتنا ، يقول : قد التبس علينا أمرك وتخيرنا فيه .

* * *

فَتَنَفَّسَ تَنَفَّسَ مِنْ إِذْ كَرَّ أَوْطَانُهُ ، وَأَنشَدَ وَالشَّهيقُ
يَلْعَمُ لِسَانُهُ :

سَرُوجِ دَارِي وَلَكِنْ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَيْهَا
وَقَدْ أَنَاخَ الْأَعَادِي بِهَا وَأَخْنَوْا عَلَيْهَا
فَوَالَّتِي سِرْتُ أَبْنِي حَطَّ الذُّنُوبِ لَدَيْهَا
مَارَاقَ طَرَفِي شَيْءٌ مِذْ غَبْتُ عَنْ طَرَفِهَا

نم غرورقت عيناه بالدموع ، وأذنت مدايمه بالهموع ،
فكره أن يستو كفيها ، ولم يملك أن يكفكفها ، فقطع إنشاده
المستحلى ، وأوجز في الوداع وولى .

* * *

تَنَفَّسَ : ردّد النفس إلى الجوف بصوتٍ ورفعهُ إلى صدره ، والتَنَفَّسُ :
خذّ الشهيق ، وهو ردّ النفس إلى الجوف بصوت . يلعم : يلوى ويعقل ، ويقال :
سأله عن كذا فالتعم ، أى ما توقّف ولا تلبّث ولا أبطأ ، فإذا ذكرت للغريب
بلده وهو على بعد منه تنفّس وتلفّ . أناخ : أقام ونزل . أخنوا : أفسدوا

وَأَتَوْا عَلَى خَرَابِهَا . وَالتَّى يَبْنِي حَطَّ الذَّنُوبِ إِلَيْهَا هِيَ مَكَّةُ . حَطَّ : إِتْقَاءٌ وَإِنْزَالٌ .
لَدِيهَا : عِنْدَهَا ، أَيْ إِذَا حَجَّ وَدَعَا اللَّهَ حَطَّ ذَنْبُهُ عَنْهُ .
وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
« مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ خَرَجَ مِنْ ذَنْبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ » .
رَاقٍ : أَعْجَبَ . طَرَفَيْهَا : جِهَتَيْهَا . اغْرُورَقَتْ : امْتَلَأَتْ . آذَنْتْ : أَعْلَمَتْ .
الْمَمْرُوعُ : السَّيْلَانُ . يَسْتَوْكِفُهَا : يَسْتَدْرِهَا وَيَجْرِهَا . يَكْفُكِفُهَا : يَرُدُّهَا .
الْمُسْتَعْلَى : الْمُسْتَعَذَّبُ . أَوْجَزَ : اخْتَصَرَ .

* * *

[مِنْ أَقْوَالِهِمْ فِي الْحَزَنِ إِلَى الْأَوْطَانِ]

وَمَا يَنْتَظِمُ بِهَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ ذِكْرِ الْأَوْطَانِ وَالتَّشَوُّقِ إِلَيْهَا قَوْلُ رِفَاعَةَ بْنِ
عَاصِمِ النُّقَعْمِيِّ ، وَأَنْشَدَهَا الْبَكْرِيُّ لَامْرَأَةٍ مِنْ طَيْئٍ :

أَلَمْ تَعْلَمِي يَا دَارَ بَلَجَاءٍ أَنِّي إِذَا أَخَصَبْتُ أَوْ كَانَ جَدْبًا جَنَابُهَا^(١)
أَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ مَا بَيْنَ مَنْعَجٍ إِلَى وَسْلَى أَنْ يَصُوبَ سَجَابُهَا
بِلَادٌ بِهَا نَيْطَتْ عَلَيَّ تَمَائِي وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِلْدِي تَرَابُهَا

قَالَ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الْكَرِيمِ النَّصِيبِيُّ : أَتَانِي ابْنُ الرُّومِيِّ بِقَصِيدَتِهِ الَّتِي يَمْدَحُ
فِيهَا سُلَيْمَانَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ ، وَقَالَ لِي : أَنْصِفْنِي وَقُلِ الْحَقَّ : أَيْمًا أَحْسَنُ ،
قَوْلِي فِي الْوَطَنِ :

وَلِي وَطَنٌ آلَيْتُ أَلَا أُبَيِّعَهُ وَلَا أَرَى غَيْرِي لَهُ الدَّهْرَ مَالِكًا^(٢)
عَهَدْتُ بِهِ شَرَنْخَ الشَّبَابِ وَنِعْمَةً كَنِعْمَةِ قَوْمٍ أَصْبَحُوا فِي ظِلَالِكَا
وَحَبَّبَ أَوْطَانُ الرِّجَالِ إِلَيْهِمْ مَا رُبُّ قَضَاهَا الشَّبَابُ هُنَاكَ
إِذَا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ ذَكَرْتَهُمْ عَهْدَ الصَّبَا فِيهَا فَخَنُوا لَذَلِكَ

(١) زهر الآداب ٦٨٢ ، اللالي ٢٧٢ ، السكامل ٢ : ٢٨٠ .

(٢) ديوان المعاني ١٨٩ زهر الآداب ٦٨٢ .

أو قول الأعرابي : أحب بلاد الله ... الأبيات ، قلت : بل قولك لأنه
ذكر الوطن ومحبه ، وأنت ذكرت حب الوطن والملة في ذلك .

وقال ابن الرومي يتشوق إلى بغداد :

بلدٌ صحت به الشيبه والصبا ولبستُ ثوب العيش وهو جديد^(١)

فإذا تمثّل في الضمير رأيتُه وعليه أغصان الشباب تميد

أخذه من قول أعرابي يتشوق إلى بلده :

ذكرتُ بلادى فاستهلتُ مدايمي بشوقٍ إلى عهد الصبا المتقادم

حننتُ إلى ربع به اخضر شاربي وقطعتُ عني قبل عقد التمام

وقال إسحاق الموصلي :

أتبكي على بغدادٍ وهي قريبة فكيف إذا ما ازددت عنها غدا بعدا

لعمرك ما فارتُ بغداد عن قلبي لو أنا وجدنا من فراق لها بدا

كفى حزنا أن رحت لم أستطع لها وداعا ولم أحدث لساكنها عهدا

وأنشدني شيخنا أبو بكر السلامي ، وكان يزعم أنهما لأخي الحريري ،

وقد أحسن قائلهما كائنًا من كان :

طيب الهواء ببغدادٍ يورقي شوقا إليها وإن عاقت مقاديرُ

فكيف أصبر عنها اليوم إذ جمعت طيب الهواءين : ممدود ومقصورُ

(١) ديوان الماعاني ٢ : ١٨٩ ، وزهر الآداب ٦٨٣ .

المقامة الخامسة عشرة وهي الفرضية

أخبر الحارث بن همام قال : أرقت ذات ليلة حالكة الجباب .
هامية الرباب ، ولا أرق صب طرد عن الباب ، ومني بصد
الأجباب ، فلم تزل الأفكار يهجن هني ، ويجلن في الوسوس
وهني ، حتى تمنيت لمضض ماء انيت ، أن أرزق سميراً من
الفضلاء ، ليقتصر طول ليلتي اللياء ، فما انقضت منيتي ، ولا
أغضت مقلتي ، حتى قرع الباب قارع ، له صوت خاشع ، فقلت
في نفسي : لعل غرس التمني قد أنمر ، وليل الحظ قد أقدر ،
فنهضت إليه عجلان ، وقلت من الطارق الآن ! فقال : غريب
أجنه الليل ، وغشيه السيل ، ويبتني الإيواء لاغير ، وإذا أسحر
قدّم السير .

* * *

أرقت : سهرت ولم أنم ، وفي حديث زيد بن ثابت : شكوت إلى رسول
الله صلى الله عليه وسلم أرقاً أصابني ، فقال : « قل اللهم غارت النجوم ، وهدأت
العيون ، وأنت حي قيوم ، لا تأخذك سنة ولا نوم ، يا حي يا قيوم ، أهدني
ليلي ، وأنم عيني » . فقلتها فأذهب الله عني ما كنت أجده .

حالكة الجباب : سوداء الثوب . هامية الرباب : سائلة السحاب ؛ يريد

أن الليلة مظلمة مطرة . صب : عاشق . طرد : نفى . مئى : ابتلى . صد : هجر .
الأنكار : أحاديث النفس . يهجن : يحتركن . ويجلن : يصرفن ، والوساوس
الفسكر المقلقة . ونهى : بالى وخاطرى ، وقال ابن شهيد فى نحو هذه الليلة :

ولرب ليل للهوم تسدلت أستارُه فحما الضياء بستوره^(١)
كالبحر يضرب موجُه فى موجِه^(٢) صب على العبَّار وجه عبوره
طاوئته من عزمى بتصير^(٣) أثبت همى فى قرارة كوره
وبراحة من همى ذو كربة^(٤) عمدت تذاكرنى بطبع ذكيره
فرد إذا انبعثت دياجى جُنجه هولا على خبطت فى ديجوره
حتى بدا عبد العزيز لناظرى أملى ، فزقت الدجى عن نوره^(٥)

وليلة الحريرى ضد ليلة ابن رشيق فى قوله :

ومن حسنات الدهر عندى ليلة من العمر لم تترك لأيامنا ذنبا^(٦)
خلونا بها نفى القذى عن عيوننا بلؤلؤة مملوءة ذهباً سكبا
وملنا تقبيل الخدود ولثمها كميل جياع الطير تلتقط الحبا^(٧)

قوله : « تمنيت » . ابن الأنبارى : فى معناه قدَّرت وأحببت أن يصير إلى ،
وهو من المنى وهو القدر ، يقال : منى الله لك ماتحبه يمينيه منياً ، أى قدره لك .
لمضض ، أى لحرقة . عاينت : شاهدت ، ويروى « عانيت » أى قاسيت . سميراً :

(١) ديوانه ١١٧ ، يمدح عبد العزيز بن المؤمن .

(٢) الديوان : « وجهه فى وجهه » .

(٣) الديوان : « بمضمر » .

(٤) الديوان : « ذو ذكره » .

(٥) ط : « فزقت الرجا » ، والصواب من ب والديوان .

(٦) معجم الأدباء ٣ : ٧٢ ، والتنف ٨ .

(٧) التنف : « كمثل جنوح » .

صاحباً يُسمر معه . يقصر : يردّها قصيرةً بأنسه وحديثه . الليلاء : الشديدة الطويلة السواد ، ولابن الزقاق في مثل هذا السُمير :

ربّ ليلٍ أُنحِفْتُ فيه بأنسي من سَمير زَفِّ الحديثِ عروساً^(١)
فاجتنيما مما يحدث زهراً واغتبِقنا من خُلُقِهِ خَندريساً
وانشئ الليل بفضل الصبح حسناً والدرارى بفضلنَ فيه الشموساً
ولئن كان لم يحلْ عن دجاء فله عَادَ خُمُهُ آبنوساً

قوله : « أُنحِفْتُ مقلتي » ، نامت عيني . قرع : ضرب . خاشع : لين . أثمر : طلع ثمره . الحظ : البخت . أقر : صار فيه قر ، يقول : لعلّ بختي قد زال نحسه وأقبل سمده ، إذ وجدت ما تمنيت . نهضت : تقدّمت . الطارق : الآتي بالليل . أجنّه : ستره . غشيه : غطاه . الإبواء مصدر آويت الرجل ، إذا أنزلته على نفسك وضممته ، وتقول : أويته وآويت بمعنى واحد . أسحر : دخل في وقت السحر ، يريد أنه لا يطلب غير المبيت وينصرف في السحر .

* * *

قال : فلما دَلَّ شُعاءهُ على شمسهِ ، وَنَمَّ غُنوانهُ بِسِرِّ طِرْسِهِ ، وَعَلِمْتُ أَنَّ مُسامرتَهُ غُنْمٌ ، وَمُساهرتَهُ نُعمٌ ، ففُتحت البابُ بِابْتِسامٍ ، وَقُلْتُ ادخلوها بِسَلامٍ ، فَدَخَلَ شَخْصٌ قَد حَنَى الدَّهْرَ صَعْدَتَهُ ، وَبَلَّلَ القَطْرُ بُرْدَتَهُ ، فَحَيَّا بِلِسَانٍ عَضْبٍ ، وَبَيَّانٍ عَذْبٍ ، ثُمَّ شَكَرَ عَلَى تَلْبِيَةِ صَوْتِهِ ، وَاعْتَذَرَ مِنَ الطُّرُوقِ فِي غَيْرِ وَقْتِهِ ، فدَانِيَتْهُ المِصْبَاحُ المُنْقَدِ ، وَتَأَمَّلْتُه تَأْمُلَ المُنْتَقِدِ ، فَالْفَيْتُهُ شَيْخَنَا أَبُو زَيْدٍ بَلَا

رَيْبٍ ؛ ولا رَجْمٍ غَيْبٍ ، فَأَخْلَلَتْهُ حَلٌّ مِّنْ أَظْفَرَنِي بِقُصْوَى الطَّلَبِ
وَتَقَلَّنِي مِّنْ وَقْدِ الْكَرْبِ ، إِلَى رُوحِ الطَّرَبِ . ثُمَّ أَخَذَ يَشْكُو الْآيْنَ
وَأَخَذَتْ فِي كَيْفَ وَأَيْنَ ، فَقَالَ : أَبْلَعْنِي رَيْقِي ، فَقَدْ أَتَعْبَنِي طَرِيقِي ،
فَظَنَنْتُهُ مُسْتَبْطِنًا لِلسَّغَبِ ، مَتَكَاسِلًا لِهَذَا السَّبَبِ ، فَأَحْضَرْتُهُ مَا يُحْضَرُ
لِلضَيْفِ الْمَفَاجِي ، فِي اللَّيْلِ الدَّاجِي .

* * *

الشَّعَاعُ : مَا يَدُولُكَ مِنَ الشَّمْسِ إِذَا ظَهَرَتْ كَالْخِيَالِ . نَمَ : أَفْشَى السَّرَّ:
وَالطَّرَسُ : الْكِتَابُ . الْعَنْوَانُ : مَا يَكْتُبُ عَلَى ظَهْرِهِ ، يَرِيدُ أَنْ كَلَامَ الطَّارِقِ
دَلَّ عَلَى مَرَادِهِ . وَالْمَسَاهِرَةُ ، هِيَ الْمَسَاهِرَةُ . غُنْمٌ : غَنِيمَةٌ . نَعْمٌ : نِعْمَةٌ . بِسْلَامُ ،
أَيُّ بِسْلَامَةٍ وَأَمْنٍ . قَوْلُهُ : « صَعْدَتْهُ » ، الصَّعْدَةُ : الرَّمْحُ الطَّوِيلُ ، وَكُنِيَ بِهِ
عَنِ الْقَامَةِ . بَرْدَتُهُ : ثَوْبُهُ . عَضْبٌ : قَاطِعٌ . تَلْبِيَّةٌ : قَوْلِي لَهُ : لَبَّيْكَ . الطَّرُوقُ :
الْحُجَى بِاللَّيْلِ . دَانِيَتُهُ : قُرْبَتُ مِنْهُ . تَأَمَّلْتُهُ : نَظَرْتُهُ . الْمُنْتَقِدُ : الْحَرْبُ لِلدَّرَاهِمِ ،
أَيُّ نَظَرْتُهُ بَعَيْنَ الْمُبَاحَثَةِ ، أَلْفَيْتُهُ : وَجَدْتُهُ . رَيْبٌ : شَكٌّ . رَجْمُ الْغَيْبِ : رَمَى
الظَّنَّ . أَظْفَرَنِي : مَدَّ كُنْيِي . قُصْوَى : غَايَةٌ ، وَهِيَ مُؤْنِثُ الْأَقْصَى أَيْ الْأَبْعَدِ .
وَقَدْ الْكَرْبِ . حَرَقَةُ الْهَمُومِ : رُوحُ الطَّرَبِ : رَاحَةُ السَّرُورِ . الْآيْنُ : التَّعَبُ
كَيْفَ : سَوْأَلٌ عَنْ حَالٍ . وَأَيْنَ : سَوْأَلٌ عَنْ مَكَانٍ ، أَيْ سَأَلْتُهُ كَيْفَ حَالُكَ ،
وَمِنْ أَيْنَ جِئْتَ . أَبْلَعْنِي رَيْقِي ، أَيْ لَا تَكْثُرْ عَلَيَّ السَّوْأَلُ فَيُعْجِلَنِي جَوَابُكَ
عَنْ بَلْعِ رَيْقِي . السَّغَبُ : الْجُوعُ ، وَقَدْ سَغَبَ وَسَغَبَ جَاعٌ . الدَّاجِي : الْمَظْلَمُ .

* * *

فَاتَقَبَّضَ انْقِبَاضَ الْمُحْتَشِمِ ، وَأَعْرَضَ إِعْرَاضَ الْبَشِمِ ، فَسَوَّتْ

ظَنَّا بامتناعه ، وأحفظني حُثُولُ طباعه ، حتى كدتُ أَغْلِظُ لَهُ في الكلامِ ، وألسمهُ بِحُمَةِ اللامِ ، فتبيّن من لمحات ناظري ، ما خامرَ خاطري ، فقال : يا ضعيفَ الثقة ، بأهلِ المَقَّة ، عَدُّ عَمَّا أخطرتَهُ بآلِكَ ، واستمعْ إليَّ لا أبالك ! فقلت : هاتِ ، يا أخا الترهات ، فقال : اعلم أُنّى بتُّ البارحةَ حايِفَ إفلاسٍ ، ونجىَّ وسواسٍ ، فلما قضى الليلُ نَحْبَهُ ، وغَوَرَ الصُّبْحُ شُجْبَهُ ، غدوتُ وقتَ الإِشراقِ ، إلى بعضِ الأسواقِ ؛ مُتَّصِدًّا لِصَيْدِ يَسْنَعٍ ، أو حُرٍّ يَسْمَعٍ ، فلحظتُ بها تمرًا قد حَسُنَ تَصْفِيْفُهُ ، وأَحْسَنَ إِلَيْهِ مَصِيفُهُ ، فجمعَ عَلَى التَّحْقِيقِ ، صفاءَ الرَّجِيقِ ، وقنوءَ العقيقِ ، وقُبالاته لِبَأْ قَدْ بَرَزَ كالإبريزِ الأصفرِ ، والجلَى في اللّونِ المَزَعْفَرِ ، فهو يُثْنِي على طاهيه ، باسانٍ تنَاهِيه ، ويصوِّبُ رَأْيَ مُشْتَرِيهِ ، ولو نقدَ حَبَّةَ القلبِ فيه .

* * *

المُحْتَمَمُ : المستحى هنا . أعرض : نحى وجهه ، وتحقيقه : ولى عُرْضَهُ ، أى . جانبه . البِشْمُ : الكسِيلُ من الشَّبَعِ وقد بِشِمَ بشما : مرض من كثرة الأكل . سَوْتُ ظَنًّا : ساء ظنّي ، وظَنَّا للنصوب على التمييز فاعل في الدنيا ، من باب تَفَقَّأَ شَحْمًا . أَحَفَظُنِي : أغضبنى . حُثُولُ طباعه : تغيّر أخلاقه . حُمَةُ اللّامِ : سَمُ العتاب . أَلْسَمَهُ : أقرصه باسانى ، ولسعته العقرب : ضربته بإبرتها .

لمحات ناظري ، أى خطرات عيني . خامر خاطري . خالط فكري . المَقَّة : الحب . عَدُّ ، أى اصرفه عن نفسك . الترهات : العجائب ، وأيضاً الأباطيل ،

وأصلها الطرق الصفار المتشعبة عن الطريق الأعظم . حليف إفلاس : ملازم فقر .
نجى : محدث . ولما كانت الوسوس تشغل بال الإنسان وتجمله يتحدث وحده
جعل نفسه محدثاً لها . قضى نجبه : تم وانقضى ، وقضى الرجل نجبه : مات .
والنحب : النذر . وغور : غيب . شبهه : نجومه . والإشراق : ارتفاع الشمس
وصفاؤها . الأسواق : جمع سوق ، وسميت سوقاً ، لأن الأشياء تساق إليها ،
وتساق منها ، ولأن سوق الناس تكثر فيها . والشوق : جمع ساق ، والسوق
بالفتح : مصدر سقت ، وبالضم الاسم . متصديا : متعرجاً .

يسنح : يعرض من جهة اليمين ويزاد بياناً عند ذكر السائح والبارح .
يسمح : يجود . لحظت : نظرت ، ولحظي : أضيق عيني ، أى أبصرت بضيق عيني .
تصنيفه ، أى جعله صفاً واحداً ، وصفت الشيء : جعلته صفاً واحداً مضموماً .
المصيف : زمن الصيف . الرحيق : الخمر . قنوء : حمرة . العقيق : خرز أحمر .

عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
«تختموا بخواتيم العقيق فإنه لا يصيب أحدكم غم مادام عليه ذلك» والألبا : أول .
ما يحلب من اللبن وهو لم ينضج . برز : ظهر . الإبريز : الذهب الخالص .
الزعفر : المصبوغ بالزعفران .

ويروى : «المصفر» ، وهو المصبوغ بالمصفر . وطاهيه : طابخة : تنأيه .
غايته وكاله ، يقول : هذا الألبا بحسن صنمته وجودة طابعه كأنه يثنى للمشتري على
طابحه وإن لم يكن له لسان ، فكاله في الحسن وجودته في الصنعة قام له مقام
اللسان ، ويستى هذا الكلام بلسان الحال قال الشاعر :

ولسان نعمتك التى قلدتنى بالشكر أبلغ من لسان بيانى

وقال المتنبي :

تُنشد أثوابنا مدائحَهُ بالسن ما لمنَ أفواه^(١)
إذا مررنا على الأصمِّ بها أغنته عن مسميه عَيْنَاهُ^(٢)
أخذه من قول نصيب :

فاجأوا فأننوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقايب^(٣)
وقال أبو العتاهية :

أيا عجباً كيف يعصى الإله أم كيف يحجده الجاحدُ !
وفي كلِّ شيء له آية تدلّ على أنه واحدُ
ولله في كلِّ تسكينة وتحركة في الوري شاهدُ

وقال الفضل بن عيسى الرقاشي : سل الأرض : مَنْ غرس أشجارك ،
وشقّ أنهارك ، وجنّى ثمارك ؟ فإن لم تجبك حواراً ، أجابتك اعتباراً .

(١) ديوانه ٤ : ٢٦٥ وفي شرحه : « قال أبو الفتح : يخلف عليهم ثياباً تنشد مدائحهم فيه ، بالسن ما لمن أفواه تقعم لبدتها ، والأصم يستغنى برؤيتها عن صوتها ، فقد اجتمع فيها الحسن والقصة . قال العروضي : هذا كلام من لم ينظر في معاني الشعر ، ولم يرد الكثير فيه ، وكنت أربأ بأبي الفتح عن مثل هذا القول ؛ ألم يسمع بقول نصيب :

فاجأوا فأننوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقايب

ولم يكن للحقايب قصة ، وإنما أراد أنهم يرونها ممثلة ، وكذلك أراد المتنبي بالسن خاضعاً وأثوابه ، فبرأها الناس عياناً ، فعملون أنها من هداياه ، فكأنها قد أثنت عليه ، وأثنت مدائحها بالسنة لا تتحرك في أفواه ، لأنها لا تنطق في الحقيقة ، وإنما يستدل بها على جوده ؛ فكأنها أخبرت وخطت .

(٢) الأصم : الذي لا يسمع ، والمسمعان : الأذان .

(٣) البيان والتبيين ١ : ٨٣ ، وقوله هناك :

أقولُ لركبِ صَادِرِينَ لِقَائِهِمْ قفّاً ذاتِ أوْشالٍ ومولَاكَ قَارِبُ

فَقُوا خَبَرُونَا عَنْ سُلَيْمَانَ إِنِّي لمَعْرُوفِهِ مِنْ أَهْلِ وَدَّانِ طَالِبُ

ومنه سؤال العرب للمنازل الخالية والديار الدارسة ، وقال شاعرهم :
 وأجهشتُ للتوباد حين رأيته وكبّر للرحمن حين رآني^(١)
 وأذريت دمع العين لما رأيته وفادى بأعلى صوته فدعاني
 فقلت له أين الذين عهدتهم حواليك في أمن وخصب زمان !
 فقال مضوا واستودعوني ديارهم ومن ذا الذي يبقى على الحدّان!^(٢)

التوباد^(٣) : جبل بنى عامر ، وجوابه لهذا الشاعر بالمعنى ، فجعله لفظياً مجازاً ،
 وهذه الحالة الدالة التي سماها الجاحظ في أقسام البيان النّصبة ، قال الجاحظ :
 جميع أصناف الدلالة على المعاني من لفظ أو غيره خمسة لا تنقص ولا تزيد ،
 أولها اللفظ ثم الإشارة ، ثم المقد ، ثم الخط ، ثم النّصبة ، والمقد : أخذ العدد في
 الأصابع^(٤) .

قوله : « قد » أى أعطى نقداً ، وهو المال الحاضر . حبة القلب : سواده .

* * *

فأسرّتنى الشهوة بأشطانها ، وأسلمتني العيمة إلى سلطانها ،
 فبقيتُ أحيّر من صبّ ، وأذهل من صبّ ، لا وُجدَ يوصلني
 إلى نيل المراد ، ولذّة الإزدراد ، ولا قدم يطاوعني على الذهاب ،
 مع حُرقة الاتهاب ، لكن حدّاني القرم وسورته ، والسغب
 وفورته ، على أن أنتجع كلّ أرض ، وأقتنع من الورد ببرز ،
 فلم أزل سحابة ذلك النهار ، أدلي دنوي إلى الأنهار ، وهي لا ترجع

(١) ياقوت ١ : ٢٢٤ ، مع اختلاف في الرواية .

(٢) ط : الترباذ ، صواب في ١ ، ب وياقوت . (٣) البيان والتبيين ١ : ٧٦ .

بِسِلَّةٍ ، وَلَا تَجْلِبُ نَقْعُ غُسْلَةٍ ، إِلَى أَنْ صَفَتِ الشَّمْسُ لِلْغُرُوبِ ،
وَصَفَّتِ النَّفْسُ مِنَ اللُّغُوبِ ، فَرُخْتُ بِكَبِدِ حَرَى ،
وَانْتَيْتُ أَقْدَمُ رَجُلًا وَأَوْخَرُ أُخْرَى .

* * *

أُسْرَتِي : رَبَطْنِي كَالْأَسِيرِ . أَشْطَانَهَا : حَبَالَهَا . أَسْلَمْتَنِي : تَرَكَتَنِي . الْعَيْمَةُ :
شَهْوَةُ اللَّبَنِ . وَسُلْطَانَهَا : قُدْرَتُهَا وَغَلْبَتُهَا ، يَرِيدُ أَنْ الشَّهْوَةُ إِلَى اللَّبَنِ قَهْرَتُهُ حَتَّى
تَرَكَتُهُ مُسْتَسْلِمًا لَا يَمْلِكُ نَفْسَهُ .

[الضَّبُّ وَبَعْضُ طَبَاعِهِ]

الضَّبُّ : يَشْبَهُ الْجِرَذُونَ ، وَهُوَ حِرْذُونَ الصَّحْرَاءِ وَإِذَا فَارَقَ جُجْرَهُ لَمْ يَهْتَدِ
إِلَيْهِ فَيَتَحَيَّرُ . فَيَجْعَلُ خَجْرًا عِنْدَ جُجْرِهِ وَاقْفًا لِيَهْتَدِيَ بِهِ ، فَإِذَا أَزَالَهُ الصَّائِدُ
تَحَيَّرَ ، فَجَاءَ فَأَخَذَهُ ، وَرَبَّمَا قَتَلَهُ بِذَلِكَ الْحَجَرِ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

وإِن الضَّبُّ ذُو دَهْمٍ وَمَكْرٍ كَمَا الْيَرْبُوعُ وَالذَّنْبُ اللَّعِينُ^(١)
يَرَى مِرْدَاتِهِ مِنْ رَأْسِ مِيلٍ وَيَأْمَنُ سَيْلَ بَارَقَةِ هَتُونِ^(٢)
وَيُدْخِلُ عَقْرَبًا تَحْتَ الذَّنَابِي رَوَاغَ الْفَهْدِ مِنْ أَسَدٍ كَمِينِ

جَعَلَ الذَّنْبُ لَعِينًا ، لِأَنَّ مَنْ رَأَاهُ صَاحَ عَلَيْهِ . وَمِرْدَاتِهِ : حَجَرَهُ ، وَالْعَقْرَبُ
يَعْدُهُ الضَّبُّ لِلصَّائِدِ إِنْ أَدْخَلَ يَدَهُ فِي جُجْرِهِ ، وَأَخَذَ بِذَنْبِهِ ، لَسَعْتُهُ الْعَقْرَبُ ،
وَرَبَّمَا أَكَلَ الْعَقْرَبُ وَتَرَكَ مِنْهَا وَاحِدًا فِي بَابِ جُجْرِهِ لِلصَّائِدِ ، قَالَ الشَّاعِرُ :
وَأُخْذِعُ مَنْ ضَبَّ إِذَا جَاءَ حَارِشٌ أَعْدَلُهُ عِنْدَ الذَّنَابَةِ عَقْرَبًا^(٣)

وَالضَّبُّ ، يَوْصَفُ بِالضَّلَالِ وَقَالُوا فِي بَيْتِ الْمُتَنَنِّي :

لَقَدْ لَعِبَ الْبَيْنُ الْمَشْتَ بِهَا وَبِي وَزُودَنِي فِي السَّيْرِ مَازُودَ الضَّبِّ^(٤)

(١) الحيوان ٦ : ٤٥ . (٢) المرداة : الصغرة التي يرمى بها .

(٣) الحيوان ٦ : ٥٣ ، الكامل ١ : ٢٧١ ، (أسعته) : المبدئي ١ : ١٣٩ .

(٤) ديوانه ١ : ٦٠ .

أراد أنه زودني للضلال عن وطني ، الذي خرجت منه ، فما أوفق للعود
إليه ، والاجتماع مع الحبيب .

وقال الواحدى يقول : جعل البين زادى زادَ الضب ، والضب لا يتزود
فى المفازة ، ومعناه : فارقت الحبيب من غير وداع ولا التقاء يكون لى زادا
على البعد . ويقال أيضا : أخدع من ضب ، وذلك أنه يطعم الصائد فى
نفسه ، فإذا حنق عليه خدع فى جحره ، ومنه أخذ معنى الخداع .

ويقال فيه : إنه أعق من ضب ، وذلك أنه يأكل أولاده ، ويكنى أبا الحسل
ويسمى ولده الحسل . وأمثال العرب به كثيرة . ويزعمون أنه كان حَكَمًا فى الدواب
فى الزمان ، الذى كانت فيه الحيوان تتكلم . وعنه يروون : فى بيته يؤتى
الحكم ، يعنى نفسه . وفيه خواص ليست فى الحيوان ، تزعم العرب أنه لا يشرب
الماء ، وإذا أخذه العطش صعد ربوة واستقبل الريح ، وأنه طويل العمر .
ويقولون : إنه أحيامن ضب ، يريدون أن حياته لا تكاد تنقضى ، وأنه لا يسهط
له سن ، وأنه أطول الدواب دما ، وإذا ذبح يبقى زمانا ، وحينئذ يموت ، وأن
له ذكرين ولأثناه فرجين .

* * *

« أذهل من صب » : أى أشغل قلبا من عاشق ، ووساوس المشق أنضت
ببعض العشاق إلى الجنون . وُجد : غنى ، وقد وجدت وجدا ، أى كثر مالى
والازدرداد : كثرة الأكل ، وزردت للطعام وازدردته إذا ابتلعه ،
الانتهاب : اشتعال نار الجوع . حدانى : ساقى . القرم : شهوة اللحم ، وأراد
به شهوة الأكل . سَوَّرته : شدته . وفورة السَّب : غليان الجوع . أنتجع :
أمشى فى طلب ما آكل . والورد : الحظ من الماء . والبرّض : قليل الماء .
سحابة ذلك النهار ، أى طوال ذلك النهار ، كما تقول : بياض يومى ، أى يومى
كله ، أى لم يزل طول يومه يستجدى فلم يُعط شيئا . تقع غلة : إرواء عطش
صفت : مالت . اللغوب : الفشل . حرّى : ما تهبة . اثنتيت : رجعت .

[مقامة البديع الجماعية]

أطال أبو محمد هذه المقامة حتى كادت تثقل على السامع ، وللبديع فيما يتعلق بمعناها مقامة بتراء فلو زيد في البديعية وقصر في الحرية لاعتدلتا .
وها أنا أذكر البديعية هنا بحملتها ؛ لرشاققتها وخففتها .

قال عيسى بن هشام : كنتُ ^(١) ببغداد عام الجماعة ، فدفعت إلى جماعة قد نظمهم ^(٢) سلك الأثرى ، وكلهم يطلب شيئاً ، وفيهم ذولنغ ^(٣) في لسانه وقلج في أسنانه ^(٤) ، فقال : ما خطبك ؟ فقلت : حالات لا يُفْلِح صاحبها ، فقير كدُهُ الجوع ، وغريب ليس يمكنه الرجوع ، فقال ^(٥) ، أى الثلمتين تريد ^(٦) سدها ؟ فقلت : الجوع يأسيدنى ، وقد بلغ منى ^(٧) مبلغه ، فقال : ماتقول في رغيغ ، على خِوان ^(٨) نظيف ، وتقل قطيف ^(٩) ، على لون لطيف ^(١٠) ، وخردل حرّيف ^(١١) ، إلى شواء صفيغ ^(١٢) ، يقربه إليك من لا يماطلك ^(١٣) بوعد ، ولا يعذبك بصدد . [ثم يعلّك بعد ذلك بأقداح ذهبية ، من راح عَنبِيَّة] ^(١٤) ، أذاك أحب إليك أم أوساط محشوة وأكواب مملوءة ، وأُنقال ^(١٥) معدّدة ، وفرش

(١) . مقامات البديع ص ١٦٢ ، ١٦٣ (٢) المقامات : « ضمهم » .

(٣) اللاتع واللغة : أن يبدل بعض الحروف بعض .

(٤) القلج : تباعد ما بين الأسنان .

(٥) المقامات : « فقال الغلام » .

(٦) المقامات : « تقدم سرها » . والثلمة : أصل الشق في الحائط ونحوه .

(٧) المقامات : « مبلغا »

(٨) الخوان : المائدة .

(٩) المقامات : « وبقل » ، والقطيف : المقطوف .

(١٠) المقامات : « إلى خل ثقيف » وأصل اللون : الدقل . وهو نوع من النخل .

(١١) الحردل : حب شجر معروف . والحرّيف : الذى له لذة في اللسان .

(١٢) الشواء : اللحم المشوى (١٣) المقامات : « من لا يماطلك » .

(١٤) من المقامات . (١٥) الأُنقال : جمع نقل ، وهو ما ينقل من الحر .

منضدة، [وأنوارُ مُجَوِّدة] ^(١) ومُطَرَّبٌ مُجِيدٌ، له من الغزال عينٌ وجيدٌ، فإن لم ترد هذا ولا ذلك، فما تقول في لحم طيرى ^(٢)، وسمكٌ بحرى، وباذنجانٍ مقلّى، وراح نقى، وتفتح جنّى، ومضطجع وطى، على حذاء نهر جارٍ، وبركة ذات ثرثار .

قلت : أنا عبد الثلاثة، قال : وأنا خادمها لو حضرت ^(٣)، قلت من أى الحجرات ^(٤) أنت ؟ قال :

من ربة الإسكندرية ^(٥) من نبتة فيهم زكية
سَخِفَ الزَّمانَ وأهلُه فركبتُ من سغفٍ مَطِيَّةٍ

* * *

وبينا أنا أسمى وأقمَدُ، وأهْبُ وأركدُ ؛ إذ قابلنى شيخٌ
يتأوّه آهة التَّكلانِ، وعيناهُ تَهْمَلانِ، فما شغلنى ما أنا فيه
من داء الذَّيْبِ، والخلوى المذِيبِ، عَنْ تماطى مداخلته، والطَّمَعِ
فى مخاتلته، فقلت له : يا هذا، إن لبكائك سِرًّا، ووراء تمرُّك
لشراً، فأطلعنى على بُرحائك، واتخذنى من نصحاءك، فإنك ستجد
منى طبًّا آسيًا، أو عونًا مواسيًا، فقال : والله ما تأوّهى من عيشٍ
فاتٍ، ولا من دهرٍ افتاتٍ، بل لا تقراضِ العلمِ ودرُوسِهِ، وأقول
أقمارِهِ وشموسِهِ، فقلت : وأى حادثة نجمتَ، وقضية استعجمتَ

(١) من مقامات الهمذاني .

(٢) المقامات : « طرى »

(٣) المقامات : « لو كانت » (٤) المقامات : « الخرابات »

(٥) المقامات : « أنا من ذوى الإسكندرية »

(١١ - شرح مقامات الحريري ٢)

حَتَّى هَاجَتْ لَكَ الْأَسْفُ ، عَلَى فَقْدِ مَنْ سَلَفَ . فَأَبْرَزَ رَقْعَةً مِنْ
كَتَمِهِ ، وَأَقْسَمَ بِأَيِّهِ وَأُمِّهِ ، لَقَدْ أَنْزَلَهَا بِأَعْلَامِ الْمَدَارِسِ ؛ فَمَا امْتَاذُوا
عَنِ الْأَعْلَامِ الدَّوَارِسِ ، وَاسْتَنْطَقَ لَهَا أَحْبَارَ الْمُحَابِرِ ، فَخَرَسُوا وَلَا
خَرَسَ سَكَّانُ الْمَقَابِرِ ، فَقُلْتُ : أَرَيْنَهَا فَلَدَلْتُ أُغْنِي فِيهَا ، فَقَالَ :
مَا أَبْعَدْتَ فِي الْمَرَامِ ؛ فَرَبَّ رَمِيَةٍ مِنْ غَيْرِ رَامٍ . ثُمَّ نَاوَلَنِيهَا ، فَإِذَا
الْمَكْتُوبُ فِيهَا :

* * *

قوله : « أَسْمَى » ، أَيْ أَمْشَى مُسْرِعًا . أَهَبَ وَأَرَكَدَ : أَتَحَرَّكَ وَأَسْكَنَ ،
أَرَادَ أَجْرَى وَأَقْفَ ، وَأَصْلُ الْمُهْبُوبِ وَالرَّكُودِ لِلرَّيْحِ . يَتَأَوَّه : يَتَوَجَّعُ وَيَقُولُ :
آه ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَزِينِ . آهَةُ الشَّكْلَانِ : تَوَجَّعُ الْفَاقِدِ لِأَحْبَابِهِ . تَهْمَلَانِ :
تَسِيلَانِ ، وَدَاءُ الذُّبِّ : هُوَ الْجُوعُ ، وَالذُّبُّ أَصْبَرُ النَّبَّاعِ عَلَى الْجُوعِ وَأَعْفَى ،
وَإِذَا افْتَرَسَ شَاةً أَكَلَ مِنْهَا شِمْعَةً وَتَرَكَ سَائِرَهَا وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهَا ، وَعَافَهُ إِنْ
أُرْوَحَ^(١) . الْخَوَى : خَلَوَ الْجُوفُ مِنَ الطَّعَامِ . الْمَذِيبُ : الْمَذْهَبُ لِلْحَمِّ وَالْقَوَى .
التَّعَاطَى : تَنَاوَلَ مَا لَا تَحِبُّ . وَمَدَاخِلَتُهُ : مَعْرِفَةُ سِرِّهِ . مَخَاتَلَتُهُ : مَخَادَعَتُهُ .
تَحَرَّقَكَ : تَوَجَّعَكَ . وَالْبُرْحَاءُ : الْإِثْدَةُ وَالْمَشَقَّةُ . طَبًّا : حَازِقًا . آسِيَا : طَبِيبًا .
مَوَاسِيَاً : مَعِينًا ، وَالْمَوَاسَاةُ تَكُونُ بِالنَّفْسِ أَوْ بِالْمَالِ ، وَيَشَاكِلُ كَلَامَهُ
فَوَلَّ الشَّاعِرُ :

وَلَا بَدَّ مِنْ شَكْوَى إِلَى ذِي مَرُوءَةٍ يُوَاسِيكَ أَوْ يَسْلِيكَ أَوْ يَتَوَجَّعُ
اِفْتَاتَ : ظَلَمَ وَجَاوَزَ الْحَدَّ . انْقِرَاضَ : انْقِطَاعَ . دَرُوسُهُ : مَحْوُهُ . أَقُولُ :

(١) أروح : أصبحت له راحة .

مَغِيبٌ ، وَكَتَنَى بِالْأَقَارِ وَالشُّمُوسِ عَنْ مَشَاهِيرِ الْعُلَمَاءِ ، وَبِأَفْوَلِهِمْ عَنْ هَلَاقِهِمْ ، قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : «مَوْتُ الْعَالَمِ مُصِيبَةٌ لَا تَجْبَرُ ، وَتُمْلَأُ لَا تُتَسَدُّ ، وَنَجْمٌ طَمَسَ ، وَمَوْتُ قَبِيلَةٍ أَيْسَرُ مِنْ مَوْتِ عَالَمٍ » . حَدَّثَتْهُ نَازِلَةٌ وَأَمْرٌ حَدَّثَ . نَجْمَتٌ : ظَهَرَتْ . قَضِيَّةٌ : قِصَّةٌ . اسْتَعْجَلَتْ : أَشْكَلَتْ . هَاجَتْ : حَرَكَتْ . الْأَسْفُ : الْحُزْنُ . سَلَفٌ : مَاتَ . وَذَهَبَ . أَعْلَامٌ : مَشَاهِيرُ ، وَأَصْلُهَا الْجِبَالُ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى مَجَاهِيلِ الْأَرْضِ . الْمَدَارِسُ : جَمْعُ مَدْرَسَةٍ ، وَهِيَ الْحَاضِرُ الَّتِي يَدْرُسُ فِيهَا الْعِلْمُ . امْتَازُوا : افْتَرَقُوا . وَالْأَعْلَامُ الدَّوَارِسُ : الْجِبَالُ الْمُقْفَرَةُ الْخَالِيَةُ مِنَ الْأَشْجَارِ وَالْعِمْرَانِ . اسْتَنْطَقَ : اسْتَخْبَرَ ، وَسَلَّاهُمْ أَنْ يَنْطَقُوا وَيَجْبِيُوا عَنْهَا . أَحْبَارٌ : عُلَمَاءٌ . خَرَسُوا : سَكَتُوا . أَغْنَى : أَقْرَبَ وَأَنْفَعَ . الرَّامُ : الطَّلَبُ .

* * *

[أَصْلُ الْمَثَلِ : رَبٌّ رَمِيَهُ مِنْ غَيْرِ رَامٍ]

رَبٌّ رَمِيَهُ مِنْ غَيْرِ رَامٍ ^(١) ، أَيْ قَدْ يَصِيبُ الْفَرَضُ مَنْ لَيْسَ لَهُ عِلْمٌ بِالرَّمَايَةِ ، وَهُوَ مَثَلٌ ، قَالَه حَكِيمُ بْنُ عَبْدِ يَعُوْثِ الْمَنْقَرِيُّ ، وَكَانَ حَكِيمٌ مِنْ أَرْمَى النَّاسِ ، فَأَقْسَمَ يَوْمًا لِيَعْتَرَنَ ^(٢) وَلَا بَدَّةَ ، فَنَخَرَجَ وَمَعَهُ قَوْسُهُ فَرَمَى وَلَمْ يَصْنَعْ شَيْئًا ، فَبَاتَ لَيْلَهُ بِأَسْوَأِ أَحَالٍ ، وَفَعَلَ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي وَالثَّلَاثِ كَذَلِكَ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ لِقَوْمِهِ : مَا أَنْتُمْ صَانِعُونَ ، فَإِنِّي قَاتِلُ الْيَوْمِ نَفْسِي إِنْ لَمْ أَعْقِرِ الْيَوْمَ مَهَاةً ؟ فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ : يَا أَبَتِ احْمِلْنِي مَعَكَ ، أُرِيدُكَ ، قَالَ : وَمَا أَحْمِلُ مِنْ رَعِيشٍ ، هَلِ ، جَبَانٍ فِشَلٍ ، فَاظْلُقْنَا إِذَا هُمَا بِمَهَاةٍ فَرَمَاهَا فَأَخْطَاهَا ، ثُمَّ حَمَرَتْ بِهِ أُخْرَى ، فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ مَطْعَمٌ : يَا أَبَتِ نَاوِلْنِي الْقَوْسَ ، فَضَبَّ أَبُوهُ وَهَمَّ أَنْ يَمْلُوهَ بِهَا ، فَقَالَ لَهُ مَطْعَمٌ : أَحْمَدُ بِحَمْدِكَ ، فَإِنْ

(١) الْفَاخِرُ ١٤٣ ، جَمْعُ الْأَمْثَالِ ١ : ٢٩٩ .

(٢) الْفَاخِرُ : « لِيَدَجُنَّ » .

سهى سهُمُكَ ، فناولهُ القَوْسَ ، فرمى مطعم فلم يخطِئْ ، فقال عند ذلك حكيم : رَبِّ رَمِيَةٍ مِنْ غَيْرِ رَامٍ ، وَقَالَ :

رَمَاهَا مَطْعِمٌ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ بِمَسِّ الْقَوْسِ لَمْ يَخْطِئْ وَهَلَاهَا
وَكَانَ أَبُوهُ قَدْ آلَى عَلَيْهَا فَلَمْ تَبْرَرْ أَلَيْتَهُ مَهْرَاهَا

* * *

أَيُّهَا الْعَالَمُ الْفَقِيهُ الَّذِي فَاقَ ذَكَاءَ فَمَا لَهُ مِنْ شَبِيهِ
أَقْتِنَا فِي قَضِيَّتِهِ حَادَ عَنْهَا كُلَّ قَاضٍ وَحَارَ كُلُّ فَقِيهِ
رَجُلٌ مَاتَ عَنْ أَخٍ مُسْلِمٍ حَرِّ تَقَى مِنْ أُمِّهِ وَأَبِيهِ
وَلَهُ زَوْجَةٌ لَهَا أَيُّهَا الْحَبْرُ أَخٌ خَالِصٌ بِلَا تَمْوِيهِ
فَحَوَتْ فَرَضَهَا وَحَازَ أَخُوهَا مَا تَبَقَّى بِالْإِرْثِ دُونَ أَخِيهِ
فَاشْفِنَا بِالْجَوَابِ عَمَّا سَأَلْنَا فَهُوَ نَصٌّ لَا خُلْفَ يَوْجَدُ فِيهِ

فَلَمَّا قَرَأْتُ شِعْرَهَا ، وَلَحْتُ سِرِّهَا ، قُلْتُ لَهُ : عَلَى الْحَبِيرِ
سَقَطَتْ ، وَعِنْدَ ابْنِ بَجْدَتِهَا حَطَطَتْ ، إِلَّا أَنِّي مُضْطَرٌّ الْأَحْشَاءُ ،
مُضْطَرٌّ إِلَى الْعَشَاءِ ؛ فَأَكْرِمْ مَشْوَايَ ، ثُمَّ اسْتَمِعْ فَتَوَايَ ؛ فَقَالَ :
لَقَدْ أَنْصَفْتَ فِي الْإِشْرَاطِ ؛ وَتَجَافَيْتَ عَنِ الْإِشْطَاطِ ؛ فَصِرْ مَعِيَ
إِلَى مَرْبَعِي لِنُظْفَرَ بِمَا تَبَتَّغَى ، وَتَنْقَلِبَ كَمَا يَنْبَغِي . قَالَ : فَصَاحَبْتُهُ
إِلَى ذَرَاهِ ، كَمَا حَكَمَ اللَّهُ . فَأَدْخَلَنِي بَيْتًا أُحْرَجَ مِنَ التَّابُوتِ ، وَأَوْهَنَ
مِنْ نَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ ، إِلَّا أَنَّهُ جَبَرَ ضَيْقَ رَبْعِهِ ، بِتَوْسِعةِ ذَرْعِهِ ،
فَعَاكَمَنِي فِي الْقِرَى ، وَمَطَايِبِ مَا يَشْتَرَى ؛ فَقُلْتُ : أَرِيدُ

أَزْهَى رَاكِبٍ عَلَى أَشْهَى مَرْكُوبٍ ، وَأَقْعَ صَاحِبٍ مَعَ
أَضْرَ مَضْحُوبٍ .

* * *

قوله : « فاق » ، أى فضل . ذكاء : حدة ذهن . حاد : مال .

قوله : « رجل مات عن أخ . . . » ، البيت .

فائدة ذكر الأخ ، إثبات النسب ، لأن الأجنبي لا يرث ، وفائدة ذكر
المسلم أن أهل دينين لا يتوارثان ، وفائدة ذكر الحر أن العبد لا يرث الحر ،
وأما المتقي ، فما لقيت من أسيافنا من تبه عليه ، حتى حدثني به الفقيه
أبو العباس اللبيبي ، عرف بالحضار ، فقال فائدة لطيفة ، وهى التحرز من قاتل
العقد ، لأنه لا يرث وليه ، فأراد أن موجبات التوارث قد كملت لهذا الوارث ،
ومع هذا لم يرث أخاه .

والخبر : العالم . تمويه : شك وكذب . حوت : حازت . الإرث : لغة في
الورث ، وهو بالهمز بدل من الواو . لحت : أى نظرت ، واللمحة نظرة غير
متمكنة . ابن بجدتها : عالم سرها ، ويقال : يجد في المكان إذا أقام به ، والقيم
بالموضع عالم به . وقيل : أصله من قولهم : فلان من أهل التبجد ، أى من أهل
البادية ، وهم العلماء باللسان على ما وضع . حططت : نزلت ، والخير : عالم
الخبر ، وهذه أمثال للعالم بحقيقة الشيء . مضطرم : متقد . مشواى : منزلى ،
وأكرمت مشواى الضيف ، إذا أحسنت نزلهم ووطأت له . فتواى : ما أفتيك به .
الاشتراط والشرط بمعنى . تجافيت : تباعدت . الاشتطاط : مجاوزة الحد .
مربعى : منزلى . تنظفر : تفوز ، وأصله من الظفر ، كأنه إذا ظفر بشيء أنشب
أظفاره فيه . تنقلب : ترجع . ذراه : منزله ، وكل ما كان من حائط وشبهه
ذرى . أخرج : أضيق . أوتهن : أضعف . جبر : أصلح . توسعة ذرعه :

سعة خلقه واحتماله . الفَرَى : طعام الضَّيف . مطايب : جمع طيب ، على غير قياس . أزهى : أعجب ، والزَّهو الكِبَر ، وكانوا يصفون التمرة على اللَّبَّاء عند بيعة ، فيريد بالراكب التمر وبالمرکوب اللَّبَّاء ؛ لأنهم يشقون التمرة ويفتفون بنصفها من القدح الذي فيه اللَّبَّاء . ويريد : بأنفع صاحب التمر ، وبأضر مصحوب اللَّبَّاء ، وهذا يوافق قول الأعرابي :

ألا ليت لي خبزاً^(١) من التمر واللَّبَّاء وخيلاً من البرني فرسانها الزبد
فأطلب فيما بينهنَّ إشهاداً بموت كريم لا يعد له لحداً

والبرني من أفضل التمر ، وقال مَحَار الكلبى :

أكلت الضَّبَاب فاعقتها وإني لأهوى قديد النَّم
وركبت زبدًا على تمرٍ فنعم الطعام ونعم الأدم

والعرب تقول : على التمرة مثلها زبدًا ؛ وقيل في تفسيره بالعكس ، لأن الأطباء يقولون : إن التمر مضرٌّ سريع المغن ، يولد السَّداد ، ويقولون أيضًا : إنه حارٌّ رطب ملين للبطن يولد المنى ، فيقابل ضرره نفعه ، وكفى لنا أنه قوتٌ يُكتفى معه بأدنى الطعام ، وفيه قوة زائدة ، وبالجملة فاللفظ مشكل ، وما وجدت من يحقِّقه .

ويُستملح من كلام الحريري أنه أراد بالراكب وبأنفع صاحب التمر ، لأنه قدَّمه في التفسير حين قال : لعلك تعنى ابنة نُخَيْلَة ، مع لبِّا سخيلة ، وليس في الآيات المتقدمة شاهد على اللَّبَّاء ، لأن حكم الزبد للزوجة ، وتعلقه بالتمر غير حكم اللَّبَّاء ، فبالحرى يقرن اللَّبَّاء بالتمر إذا شقت ، وجعله أضرَّ مصحوب لأنه لبن لم ينضج ، والنار تقطع بعض ضرره .

(١) ط : « خيرا » تصحيف ، صوابه من ا ، ب .

(٢) السداد : داء يسد الأنف ، وينتج نسيم الريح .

وقال الفجديهي: أزهى راكب التمر، أى أحسن منظراً وأكثر حمرة، وأشهى مركوب اللبأ، وجعل التمر راكباً واللبأ مركوباً، لأن التمر يُجْتَنَى من رؤوس النخل، فهو كالراكب، ولأن اللبأ يضع تمرات فوق اللبأ والرائب، ليزيد رغبة المشتري فيه. وجعل التمر أنفع صاحب، لا كغفاء العرب به عن جميع المطعومات، حتى يبقى أحدهم دهرأ لا يأكل إلا التمر، ولا يضره ذلك، وجعل اللبأ أضر مصحوب، لأنه يولد الصفراء.

وقالت عائشة رضی الله تعالى عنها: إنا كنا آل محمد صلى الله عليه وسلم نمكث شهراً لا نستوقد ناراً؛ إن هو إلا الأسودان: الماء والتمر.

وقال صلى الله عليه وسلم: «بيت لا تمر فيه جياع أهله».

والعرب تستحسن أكل الزبد مع التمر، قال سفيان الثوري: ما رأيت أحسن من زبدة على إزادة.

وقال معاوية لعبد الرحمن بن أبي بكر: أى اللقمة أطيب؟ قال: تمعضوة عليها مثلها زبدأ، والإزاد نوع من التمر، والتمعضوض تمر أسود.

وقالوا: ما أكلنا تمرأ أحد من التمعضوض، أى أشد حلاوة، وتأوه زائدة.

فأنكر ماعة طويلة، ثم قال: لعلك تمنى بذت نخيلة، مع لبأ مخيلة، فقلت: إياها عنيت، ولأجلهما تمنيت، فهض نسيطاً، ثم ربض مُسْتَشِيطاً، وقال: اعلم أصلحك الله، أن الصدق نباهة، والكذب عاهة؛ فلا يحملنك الجوع الذى هو شعار الأنبياء، وحلية الأولياء

على أن تلحق بمن مانَ ، وتتخلقَ بالخلق الذي يجانب الإيمان ،
فقد تجوع الحرّة ولا تأكل بشدينها ، وتأبى الدنيّة ولو اضطرت
إليها . ثم إنى لست لك بزبون ، ولا أغضي على صفقة مغبون ، وهأنا
قد أنذرتك قبل أن ينهتك السّتر ، وينعقد فيما بيننا الوتر ، فلا تُبلغ
تدبير الإندار ، وحذار من المكاذبة حذار .

* * *

قوله : «سخيلة» ، السّخيلة : ولد الشاة ذكراً كان أو أنثى . تعنيت : تعبت .
وقال أعرابي : أنا أشهى ثريدة دكّناء من الفلفل ، زقطاء من الحمص ،
ذات جناحين من اللحم ، لها جناحان من الفواق ، فأضرب فيها كما يضرب ولي
السوء في مال اليتيم .

وقال رجل لأعرابي : ما يسرنى لو بت ضيفاً لك ، قال : لو بت ضيفاً لي
أصبحت أبطن من أملك قبل أن تلدك بساعة .

قيل لأشعب : ما تقول في ثريدة مغمورة بالسمن ، مشقفة باللحم ؟ قال :
فأضرب كم ؟ قالوا : تأكلها من غير ضرب . قال : هذا ما لا يكون ، ولكن
لم أضرب أو أتقدم على بصيرة ؟

وقيل لمزبد - وقد أكل طعاماً كظاه^(١) : قتّه ، فقال : وما فيه ! خبز نقّ ،
ولحم جدى طرى ، امرأته طالق لو وجدت قيتاً لأكلته .

قوله : «نهض» ، تقدّم للمشى . نشيطاً : أى خفيفاً ، وهى من الأنشوطه .
ربض : نزل . مستشيطاً : شديد الغضب . نباهة : رفعة . عاهة : آفة وعيب .

(١) ط : « فكه » ، وما أثبتته من العقد ، والخبر فيه : قيل لمزيد المديني ، وقد أكل
طعاماً كظه : قى ، قال : أقى خبزاً نقياً ، ولحم جدى ! امرأته طالق ، لوجدتهما قيتاً لأكلته .

شعار : علامة ، وشعار المؤمنين في الحرب « لا إله إلا الله » ، أى علامتهم ، والأنبياء عليهم للسلام منزّهون عن شهوات المطاعم .

أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نور الحكمة الجوع والتباعد من الله الشَّبَع ، والقُرْبَة إليه حبّ المساكين والدنّونهم . لا تشبعوا فتطفئوا نور الحكمة من قلوبكم ، ومن بات بصلى في خِفة من الطعام ، بات حور العين حوله حتى يصبح » .

أبو هريرة رضى الله تعالى عنه : دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : ما أحوجك إلى الجلوس ؟ قال : الجوع ، فبكيت ، فقال : لا تبك ، فإن شدة القيامة لا تصيب الجائع إذا ما احتسب .

قوله : « حلية » : صفة يتحلّون بها . وتتخلّق : تتطّيع . بجانب : يبعد . وأشار لقوله صلى الله عليه وسلم ، قيل : أيسكون المؤمن كذّاباً ؟ قال : لا .

عمر رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يبلغ صريح الإيمان عبدٌ حتى يدع المزاح والكذب والمراء ، وإن كان محقاً » .

وقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : اتقوا الكذب ، فإن الكذب بجانب الإيمان .

[أصل المثل : تجوع الحرّة ولا تأكل نديها]

قوله : « تجوع الحرّة ولا تأكل نديها » ، أى لا ترضع^(١) لبنها بالأجرة ، ثم تأكلها ، وهو مثل يُضرب للذى لا يمنعه من صيانه شدة فقره ، وهذا المثل للحارث بن سليل الأسدي ، وكان خطب إلى علقمة بن خصفة الطائيّ - وكان شيخاً - فقال علقمة لامرأته : اختبرى ما عند ابنتك^(٢) ، فقالت : أى بنتي ، أى الرجال

(١) جهرة الأمثال ١ : ٢٦١

(٢) اسمها الزباء ، كما في الجهرة والميداني .

أحبُّ إليك؟ الكهل الجحجاح الواصل المتيّاح، أم الفتى الوضّاح، الذهول الطّمّاح؟
 قالت : بل الفتى، قالت : إن الفتى يُغيرك، وإن الشيخ يغيرك، قالت : يا أمّاه إن
 الفتى شديد الحجاب، كثير العتاب، يا أمّاه أخشى من الشيخ أن يدنس ثيابي
 وبيلي شبّابي، ويُسَمِّتَ بي أترابي. فلم تزل أمّها بها حتى غلبتها على رأيها.
 فتزوَّجها الحارث، ثم ارتحل بها إلى أهله، وإنه لجالس ذات يوم بفناء مُقبته،
 وهي إلى جانبه إذ أقبل شباب من بنى أسد يمتلجون، فتنفست الصّعداء ثم
 بكت، فقال لها: ما يبكيك؟ قالت : مالى وللشيوخ، الناهضين كالفرّوخ،
 من كل حوقل فنيخ؟ فقال : نكلك أمك ! تجوع الحرّة ولا تأكل بشديها،
 ثم قال : وأبيك لرُبّ غارة شهديها، وسبّية أودقها، وخمرة شربها، فالحق
 بأهلك، فلا حاجة لي فيك.

قولها : « الجحجاح » : السيد السمج . والمّتيّاح : الكثير المعروف، ويُغيرك
 يتزوَّج عليك، ويُغيرك : يميّرك، ويمتلجون : يتصارعون. والحوقل : اللّسن،
 والفنيخ : الضعيف الرّخو. وقول العامة : لا تأكل ثديها، أى لا تأكل لحم الثدي
 خطأ لا وجه له، ويجوز على حذف مضاف تقديره أجر ثديها أو ثمنها، أو
 يكون على الجاز، كأنها إذا أكلت أجرهما فقد أكلتهما، ونحوه قول الشاعر :

إذا صبّ ما في القعب فاعلم بأنّه دم الشّيوخ فاشرب من دم الشّيوخ أودعاً

يريد رجلاً أخذاً إبلاً في دية أبيه، فيقول له : إذا شربت لبنها فسكّانك
 تشرب دم أبيك .

قوله : « وتآبى الدّية ولو اضطرت إليها » : أى تتمتع من إتيان الفعل
 الدنى، ولو أُلجئت إليه . والزّبُون : الذى يغلب فى المعاملات، فعُول بمعنى
 مفعول، لأنه بزىن أى يدفع عن استكمال حقه .

أَغْضَى : أَسَدَلَ جَفَنِي ، أَيْ لَا أَسْكُتُ لَكَ عَلَى الْخُدَاعِ . أَنْذَرْتُكَ : نَبَّهْتُكَ .
يَنْهَيْتُكَ : يَنْقُطِعُ . الْوِثْرُ : الْعِدَاوَةُ ، وَقِيلَ : الْفَرْدُ ، فَيَكُونُ مَعْنَى : « يَنْعَقِدُ بَيْنَنَا
الْوِثْرُ » ، أَيْ يَرْتَبِطُ . وَتَرَى بَوْتَرِكَ ، أَيْ شَخْصِي بِشَخْصِكَ فِي هَذِهِ الْمَعَامَلَةِ ،
أَوْعِدَ الْمُضَارَبَةَ مَعَكَ إِنْ خَدَعْتَنِي . تُلَغُّ : تَتْرَكَ . الْإِنْذَارُ : التَّحْذِيرُ . حَدَّارٌ ،
أَيْ أَحْذَرٌ وَخَفٌ .

* * *

قُلْتُ : وَالَّذِي حَرَّمَ أَكْلَ الرِّبَا ، وَأَحَلَّ أَكْلَ اللَّبَا ،
مَا فَهَتْ بُزُورٌ ، وَلَا دَلَّيْتُكَ بِغُرُورٍ ، وَمُسْتَخْبِرُ حَقِيقَةِ الْأَمْرِ ،
وَتَحَمَّدُ بَذْلَ اللَّبَا وَالتَّمَرِ . فَهَشَّ هَشَاشَةً الْمَصْدُوقِ ، وَانْطَلَقَ
مُنْعِدًّا إِلَى السُّوقِ ، فَمَا كَانَ بِأَسْرَعَ مِنْ أَنْ أَقْبَلَ بِهِمَا يَدْلَجُ ،
وَوَجْهَهُ مِنَ التَّعَبِ يَكْمَلُحُ ، فَوَضَعَهُمَا لَدَيَّ ، وَضَعَ الْمَمْتَنُّ عَلَى ،
وَقَالَ : اضْرِبِ الْجَيْشَ بِالْجَيْشِ ، تَحْظَ بِلَذَّةِ الْعَيْشِ . فَحَسَرَتْ
عَنْ سَاعِدِ النَّهْمِ ، وَحَمَتْ حِمْلَةَ الْفِيلِ الْمَلْتَمِمْ ، وَهُوَ يَلْحَظُنِي
كَأَنَّ يَلْحَظُ الْحَنِقَ ، وَيُوْذُ مِنَ الْغَيْظِ لَوْ اخْتَنَقَ ، حَتَّى إِذَا
هَلَقَمْتُ النَّوْعَيْنِ ، وَغَادَرْتُهُمَا أَمْرًا بَعْدَ عَيْنٍ ، أَفْرَدْتُ حَيْرَةً فِي
إِظْلَالِ النَّبِيَّاتِ ، وَفِكْرَةٍ فِي جَوَابِ الْأَيَّاتِ ، فَأَلْبَثَ أَنْ قَامَ ،
وَأَحْضَرَ الدَّرَاةَ وَالْأَقْلَامَ ، وَقَالَ : قَدْ مَلَأْتُ الْجُرَابَ ، فَأَمْلِ
الْجَوَابَ ، وَلَا فَتْهًا إِنْ نَكَلْتِ ، لَا غَتْرَامَ مَا أَكَلْتِ ،

فَقُلْتُ لَهُ : مَا عِنْدِي إِلَّا التَّحْقِيقُ ، فَكَتَبَ الْجَوَابَ ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقِ .

* * *

الربا : البيع الفاسد .

ابن عباس رضى الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أكل درهمًا من ربا ، فهو مثل ثلاث وثلاثين زنية ^(١) ، ومن نبت لجمه من الشُّحْتِ فالنار أولى به » .

فُهِتْ : نطقت . زور : باطل . دَلَيْتُكَ بغرور : ، يريد أنه لم يمرر به بل صدّقه . ستنجبر : ستجرب . هَش : اهتز . المصدوق : الذى أخبر بالصدق . مَفْذًا : مسرعًا ، وقد أَعْذَ إِغْذَاذًا ، إذا أسرع . يدلح : يتناقل فى المشى ، ودلحت الدّابة بالجلل دُلُوحًا ، والسحاب بالماء . نهضت به ثقيلًا . يكلح : يعيش . الماتن : المتفضل . اضرب الجيش بالجيش ، أى اخلطهما عند أكلك لهما . تحظ : تسعد . حسرت عن ساعد ، أى شمريت عن ذراع . الزَّهْم : الكثير الشهوة والحرص على الأكل . الملتهم : المبتلع لما وجد . يلحظنى : ينظرنى بطرف عينه . الحنق : الغتاظ . وحنق حنقًا : اشتد غيظه . هلقمت : ابتلعت بسرعة . غادرتهما : تركتهما . أثارأ بعد عين ، أى بعد أن كان الطعام مريضًا ابتلقته فلم يبق غير أثره الإناء .

* * *

(١) ساقط من ط .

[مشاهير أهل الزرد]

ويليق بهذا الموضع أن نذكر فيه مشاهير مغربات الزرد^(١) ، قال الشاعر في أكل :

فتضرب خمسَ كفك في ثريدٍ يَلْقَمُ^(٢) منك منكش الذهابِ
كأن دويّه في الخلق لما يُمهمُّ صوتُ رعدٍ أو سحابِ
وقال آخر :

إذا غرّد العصفور طار فؤاده وليث حديد الناب عند الثرائدِ^(٣)
وقال آخر :

لم تر عيني آكلًا مشـ_____له^(٤) يضرب باليسرى معاً واليمينِ
تلعب بالقصعة أطـ_____رافه لعب أخى الشُّطرنج بالشَّاهينِ

فن مشاهير أهل الزرد هلال بن أسمر^(٥) المازني ، وهو من شعراء الدولة الأموية ، ذكر الأصمعي أنه كان عظيم الخلق شديداً قوياً .

(١) الزرد : سرعة ابتلاع الطعام .

(٢) ب : « يأكل »

(٣) الثرائد : جمع ثريدة ، وهي ما يهشم من الخبز ويبل بقاء القدر

(٤) ب : « غيره » .

(٥) ط : « أسعد » تحريف ، صوابه من ا ، ب ؛ ولهلال هذا ترجمة في الأغاني

٥٢ : ٣ - ٧٥ - ؛ قال أبو الفرج : « شاعر إسلامي من شعراء الدولة الأموية ، وأظنه قد أهرق الدولة العباسية ، وكان رجلاً شديداً ، عظيم الخلق أكلوا معدوداً في الأكلة » .

قال أبو عمرو بن العلاء : لم أكن أراه حياً ، بل رأيته ميتاً ، فما رأيته على سرير أطول منه .

قال هلال : جمعتُ مرّةً ، ومعى بعير لى ، فنحرته فأكلته إلا ما جعلته منه على ظهري ، ثم أردت جاع امرأتى ، فلم أقدر ، فقلت : كيف تصلُ إلىَّ وبيننا بعير^(١) !

وحدث شيخ من بنى مازن ، قال : أتاني هلال ، فأكل جميع ما في بيتنا ، فبعثنا إلى الجيران نستقرض الخبز منهم ، فلما رأى اختلافنا ، قال : كأنكم أرسلتم إلى الجيران : أعندكم سويق^(٢) ؟ فأتيته بمراب طويل فيه سويق وبرنية^(٣) فيها نبذ ، فصب السويق كله ، وصب النبذ ، وازدرد الكل^(٤) .

ومر على رجل من بنى مازن بالبصرة ، ومعه زورق رطب^(٥) ، قد ساقها من بُستانه ، فجلس على زورقٍ منها صغير ، منطى ببارية^(٦) فقال : آكل من رطبك ؟ قال : نعم ، قال : ما يكفيني ؟ قال : ما يكفيك ، فجلس على الزورق يأكل التمر إلى أن اكتفى ، فسَلَت البارية فإذا الزورق مملوء نوى^(٧) .

(١) الأغاني ٣ : ٦٨ ، في خبره عن المعتز بن سليمان ؛ قال المعتز في آخر الخبر : فقلت له : كم تكفيك هذه الأكلة ؟ قال : أربعة أيام .

(٢) السويق : دقيق الحطة .

(٣) البرنية : لبناء من خرف .

(٤) الخبر في الأغاني ٣ : ٦٩ ، وفيه : « فصب السويق كله ، وصب عليه النبذ حتى أتى

على السويق والنبذ كله » .

(٥) الأغاني ، : « رطباً في زواريق » .

(٦) البارية : الحصر المنسوج ، وجمعه البواري .

(٧) الخبر في الأغاني ٣ : ٦٩ .

وقال صدقة بن عبدالله^(١) المازني : أولم^(٢) على أبي لما تزوجت ، فعلمنا عشر جفان ثريداً من جزور ، فكان أول^(٣) من جاءنا هلال ، فقدّمت إليه جفنة فأكلمها ، ثم أخرى حتى أتى على عشر جفان ، ثم استسقى ، فأتى بقرية من نبيذ ، فوضع طرفها في شدقه ، فأفرغها في جوفه ، ثم خرج ، فاستأنفنا عمل الطعام ، ومن أعجب ما أكله مائتا رغيف بمكوك^(٤) بلح .

وكانت شبعته تكفيه خمسة أيام . وكان لا يقاومه أحد في النجدة .

ومنها سليمان بن عبيد الملك ، ذكر المسعودي^(٥) أن شبعه^(٦) كانت كل يوم مائة رطل بالعراقي ، وكان ربما أتاه الطبّاخون بسقافيد فيها الدجاج ، وعليه جبة الوشي ، فيحرصه على الطعام ، كان يدخل يده في كُمه ثم يقبض على الدجاجة ، وهي حارة فيفصلها .

قال الأصمعي : ذكرت ذلك للرشيد ، فقال : قاتلك الله ! ما أعرفك بأخبارهم ! لقد كنت أرى الدائم في أكمام جبابه ، ولا أدري ماسببه ، حتى حدثتني^(٧) . وكساني منها جبة .

وخرج يومان الحمام وقد اشتد جوعه [فاستعجل الطعام ولم يكن فرغ منه]^(٨) فأمر أن يقدم ما لحق من الشواء ، ولم يكن فرغ من الطعام شيء ، فقدم

(١) الأغاني : « صدقة بن عبيد المازني » .

(٢) أولم على أبي : عمل لي ولجبة ذواجي .

(٣) كذا في ب ، وهو يوافق ما في الأغاني ، وفي ط : « فأول من جاءنا » .

(٤) المكوك : مكيال يسع ساعا ونصفا ، والخبر في الأغاني ٣ : ٧٠ .

(٥) مروج الذهب ٣ : ١٨٥ .

(٦) الشبع من الطعام : ما يكفيك منه .

(٧) المسعودي : « عرضت على جباب بني أمية ، فنظرت إلى جباب سليمان وإذا كل

جبة منها في كمها أثر كأنه أثر دهن ، فلم أدرك ما ذلك حتى حدثتني بالحديث » .

(٨) تكملة من مسعودي .

إليه عشرون خروفاً ، فأكل أجوافها مع أربعين رُقاقة ، ثم قدّم الطعام ، فأكل مع ندمائه كأنه لم يأكل^(١) .

قال الشمردل وكيل عمرو بن العاص رضى الله عنه لما قدم^(٢) سليمان الطائف ، دخل بستانيّ هو وعمر بن عبد العزيز ، وأيوب ابنه ، فجال في البستان ساعة ، ثم قال : ناهيك بمالك هذا مالاً ! ثم ألقى صدره على غصن شجرة ، وقال : ويلك يا شمردل ! عندك شيء تطعمني ؟ فقلت : بلى عندي جدى ، كانت تغدو عليه بقرة وتروح [عليه^(٣)] أخرى ، قال : عجّل به ويحك ! فأتيته به كأنه عُسْكَة سمن ، فأكله وما دعا^(٤) عمر ولا ابنه حتى إذا بقي الفخذ قال : هلمّ أبا حفص ، قال : إني صائم ، فأتى عليه ، ثم قال : ويلك أَعِنْدَكَ شيء ؟ فقلت : سبع^(٥) دجاجات هنديات كأنهن رِثْلان^(٦) النعام ، قال : عجّل بهنّ ، فأتيته بهنّ ، فكان يأخذ برجل الدجاجة فيلقى عظامها بفيه ، فلما فرغ منهنّ قال : ويلك ! أَعِنْدَكَ شيء ؟ فقلت : حَرِيرَة^(٧) كأنها قُرْأَة ذهب ، فقال : عجّلها ، فأتيته بها ، فجعل يشربها شرباً ، فلما فرغ تجشأ فكَانَمَا صاح في جُبّ ، ثم قال : يا غلام أفرغت^(٨) من غدائي ؟ قال : نعم : فقدّم إليّ ثمانين قدراً ، فأكثرُ ما أكل من قِدَرِ ثلاث لقمات ، وأقلّ ما أكل لقمة ، ثم مسح يده ، واستلقى على فراشه ، وأذن للناس ، وصُفّتِ الموائد ، فأكل معهم فما أنكرت من أكله شيئاً .

(١) المسعودي ٣ : ١٨٥ .

(٢) الخبر في العقد ٦ : ٣٠١ .

(٣) من ب ، والعقد

(٤) ط : « ما دعا ابنه ولا عمر » ، والصواب ما أثبتته من ب والعقد

(٥) العقد « خمس دجاجات » .

(٦) الرثلان : جمع رال ، وهو فرخ النعام .

(٧) الحريرة : دقيق بطيخ بلبن وسمن .

(٨) أى هل آتمت إعداده ؟ كأنه جعل ما التهمه من قبل مقدمة لغدائه .

وسبب وفاته أن نصرانياً أتى بزنبيل مملوء بيضا ، وآخر مملوء تيناً ، فقال :
قَشِّروا، فجعل يأكل بيضة وتينة ، حتى أكل الزنبيلين ، ثم أتوه بقصعة مملوءة
مُحاً بسكر ، فأكله فاتخيم ، فمات .

ومنها عمرو بن معد يكرب ، دخل على عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ،
فقال : من أين أقبلت يا أبا نؤز ؟ فقال : من عند سيّد بنى مخزوم ، أعظمها
هامّة ، وأقلها ملامّة ، وأفضلها حلماً ، وأقدمها سلماً ، قال : من هو ؟ قال :
سيف الله وسيف رسوله خالد بن الوليد ، قال : فأى شئ صنعت عنده ؟ قال : أتيت
زائرأفد على بقعٍ وفرس وثورٍ ، فقال له عمر : وأبيك إن في هذا لشبماً ، قال : لى
أولك ؟ قال : لى ولك ، قال : بلى ، فما تقول يا أمير المؤمنين ، إنى لآكل الجذع
من الإبل ، أتقيه عظماً عظماً ، وأشرب الشنّ من اللبن رائباً أو صريفاً ^(١) .

* * *

قوله : « أقردت » . سكت وخضعت . مالبث : ما تمهل . الجراب : وعاء
الزاد ، وأراد بطنه . أمل : يقال : أمليت عليه إذا أقيت عليه ما يكتب ، وأملت
لغة ، وقيل : الأصل أملت ، فأبدل من اللام ياء . نكلت : انقطعت .

* * *

قل لمن يلغز المسائل إني كاشف سرّها الذى تخفيه
إنّ ذا الميّت الذى قدّم الشرّ ع أخا عرسه على ابن أبيه
رجل زوّج ابته عن رضاه محمّاة له ، ولا غرو فيه

(١) الشنّ : القربة ، والرائب : اللبن المخوض ، والصريف : اللبن ساعة يحلب .
(١٢ - شرح مقامات الحريري - ٢)

ثُمَّ مَاتَ ابْنُهُ وَقَدْ عَلِقَتْ مِنْهُ فَجَاءَتْ بَابَنٍ يَمُرُّ ذَوِيهِ
فَهُوَ ابْنُ ابْنِهِ بِغَيْرِ مَرَاءٍ وَأَخُو عَزِيسِهِ بِلاَ تَمَوِيهِ
وَابْنُ الْإِبْنِ الصَّرِيحُ أَدْنَى إِلَى الْجَدِّ وَأَوَّلَى بِإِرْتِهِ مِنْ أَخِيهِ
فَلِذَا حِينَ مَاتَ أُوجِبَ لِلزَّوْجَةِ ثُمْنُ التَّرَاثِ تَسْتَوٍ فِيهِ
وَحَوَى ابْنُ ابْنِهِ الَّذِي هُوَ فِي الْأَصْلِ

لِأَخْوَاهَا مِنْ أُمِّهَا بَاقِيهِ
وَتَحْلَى الْأَخَ الشَّقِيقَ مِنَ الْإِزْثِ وَقَلْنَا يَكْفِيكَ أَنْ تَبْكِيهِ
هَآكُ مِنْهُ الْفُتْيَا الَّتِي يَحْتَذِيهَا كُلُّ قَاضٍ يَقْضِي وَكُلُّ فَقِيهِ

* * *

لَاغَزَوْ: لَاعَجَبَ . علقت : حملت . ذويه : قرابته ، وأضاف « ذوى » إلى
اللمضر ، وهى لغة قليلة ، ومنعها بعضهم ، وجوزها جماعة من أئمة اللغة .
وقال أبو على الفارسي : اللهم صل على محمد وذويه ، تحلوا « ذوى » على
الأصحاب .

الأزهرى : سمعت غير واحد من العرب ، يقول : كنّا مع ذوى عمرو ،
يعنى مع أصحاب عمرو ، وهو كثير فى كلام قيس ومَن جاورهم .
وقال الحريرى فى الدرّة^(١) : ويقولون : رأيت الأمير وذويه ، فيهمون فيه ،
لأن العرب لم تنطق بذى ، الذى بمعنى صاحب إلّا مضاناً إلى اسم جنس ، كقولك :
ذو مال وذو نوال ، فأما إضافته إلى الأعلام أو إلى أسماء الصفات المشتقة من

(١) درة الفواص ٨٥ .

الأفعال فلم تُسمع بحال ، ولهذا لَحَنَ من قال : صلى الله على محمد وذويه ، وكما لم يقولوا : ذو^(١) أبي ولا ذو أُمِّي ، واقتصرُوا على إضافته إلى الجنس ، ولهذا لم يرفع السبجي لأنه ليس بمشتق [من فعل]^(٢) ، فلا يقال : سررت برجل ذي مال أخوه ؛ وتصحيحه ذو مال أخوه^(٣) ، لأن النكرة تختص بأن توصف بالجملة^(٤) .

* * *

قوله : « مرأ » جدال . تمويه : كذب . الصريح : الخالص . أدنى : أقرب .
التراث : المال الموروث . حوى : حاز . تحلَّى : خرج بلا شيء . هلك : خذ . يحذنها :
يقبها ويعمل بها .

وتقريب هذا اللفز أن تقول : رجل وابنه وامرأة وابنتها ، تزوج الرجل
البنات ، والابن الأم ، فمات الابن ، وقد حملت منه الأم ، فوضعت غلاماً ، فكان
للرجل ابن ابنه ، ولزوجته أخاً لأم ، ثم مات الرجل وترك أخاً فورثت زوجته
الثمن ، وأخوها من أمها الباقي ، لأنه ابن ابن الميت ، وهو يجب الأخ ، كما
كان يحجب الابن لو كان حياً .

ومثله قول الآخر :

وقائلة أو صِ الفداءَ فإنني أرى الموت قد حطت لديك ركايبه
فقلت وقد راع الفؤاد مقالها وضاعت به خوف الحمام مذهبه
لك الثمن إن حانت وفاتي فريضة وسائر ما يبقى فعضنوك صاحبه

جوابه :

تعلم فإن العالم أكبر ملبس لمن شرفت أخلاقه ومذهبه

(١) الدرة : « كما لم يقولوا : ذو عالم ولا ذو ظريف ؛ لم يقولوا : ذوني ولا ذوأمر ،
وقصروا ذا على إضافته إلى الجنس » .
(٢) من درة القواس .
(٣) درة القواس : « أبوه » .
(٤) درة القواس ٨٥ .

حليمة هذا أمها زوجة ابنه . فذلك والإلغاز جمٌ عجايبه
فإن ابنه صَنُوَ لزوجته ومن يقرّ بعرف العلم تعلو مراتبه
فيراثها ثمنٌ وللصنو ما بقي كذلك يقضى من تعالت مناقبه

والمقدم للسؤال في هذه المسألة عبد الملك بن مروان ، وذلك أنه وقف به
رجلٌ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا تزوجت امرأةً ، وزوجتُ ابني من أمها ،
فامددا بشيء نستعين به . فقال له : إن أخبرتنى كيف يدعى ابنُ كلٍّ واحد
منكما لابن صاحبه ، فأنا أرفدك ، وإلا فلا أعطيك شيئاً . فقال له الرجل : فسَلْ
عن ذلك كاتبك وصاحب شُرطَتِكَ ، فإن أجاباك ، فما تعطيه لي ، فادفعه إليهما ،
وإلا فأنا أعذِر . فسألها فلم يعرفاً ذلك ، فابتدر رجلٌ من آخر الصفوف ، وقال
له : أرأيتَ إن أخبرتك ، أتعطيني ما ذكرتَ للسائل؟ فقال له : نعم ، فقال ابن
الأب عمّ ابن الابن وابن الابن خال ابن الأب ، فوصله .

فهذا أخفّ أمراً في الظاهر من التوارث الذي فرض الحريري ، وأشكل
في المعنى .

* * *

قال : فلما أثبتَ الجوابَ ، واستثبتُ منه الصوابَ ، قال
لي : أهلكَ والليل ، فشمّر الذَّيْلَ ، وبادر السَّيْلَ ، فقلت :
إني بدارِ غربة ، وفي إيوائى أفضلُ قُرْبَةٍ ، لاسيما وقد أغدَفَ
جُنْحُ الظَّلَامِ ، ومَسَّبَحَ الرَّعْدُ في الغمام ، فقال : اغرُبْ
عافاك الله إلى حيث شئت ، ولا تطمع في أن تبيت ، فقلت .
ولم ذاك ، مع خلوّ ذراك ؟

قال : لَأَتَى أَنْعَمْتُ النَّظَرَ ، فِي التَّقَامِكَ مَا حَضَرَ ، حَتَّى لَمْ
تَبْقَ وَلَمْ تَذَر ، فَرَأَيْتُكَ لَا تَنْظُرُ فِي مَصْلَحَتِكَ ، وَلَا تَوَاعِي
حِفْظَ صِحَّتِكَ ، وَمَنْ أَمَّنَ فِيمَا أَمَعَتْ ، وَتَبَطَّنَ مَا تَبَطَّنَتْ ،
لَمْ يَكْذِبْ يُخْلَصُ مِنْ كِرْطَةِ مُدْنِفَةٍ ، أَوْ هَيْضَةٍ مُتْلِفَةٍ ،
فَدَعْنِي بِاللَّهِ كِفَافًا ، وَاخْرُجْ عَنِّي مَا دُمْتُ مَعَايَ ، فَوَالَّذِي يَحْيِي
وَيُمِيتُ ، مَالِكٌ عِنْدِي مَبِيتٌ .

فَلَمَّا مَيِّمْتُ أَلَيْتَهُ ، وَبَلَوْتُ بَلَايَتَهُ ، خَرَجْتُ مِنْ بَيْتِهِ
بِالرَّغْمِ ، وَتَزَوَّدَ النِّعَمُ ، تَجَوَّدَنِي السَّمَاءُ ، وَتَخَبَّطُ بِي الظُّلُمَاءُ ،
وَتَنْبَحِي الْكِلَابُ ، وَتَتَقَاذِفُ بِي الْأَبْوَابُ ، حَتَّى سَاقَنِي إِلَيْكَ
لُطْفُ الْقَضَاءِ ، فَشَكَرًا لِيَدِهِ الْبَيضَاءِ !

* * *

قوله : « أَثَبَّتْ » صحیح . استنبت ، أى وجده ثابتاً . أهلك والليل ، كلام
للعرب ، كأنه قال : بادزْ أهلك قبل الليل ، وتحقيق المعنى فى ذلك أنه عطف الليل
على الأهل ، وجعلهما مبادرين ، ومعنى المبادرة مسابقتك الشيء ، كقولك :
بادرت زيداً المنزل كائن سابقته إليه ، وكان الليل والرجل المخاطب يتسابقان إلى
أهل الرجل ، فأمره الأمر أن يسابق الليل إليهم ، ليكون عندهم قبل الليل .
شمر الذيل ، أى ارفع ساقك ، واستعد للمشي . إيوائى : ضجى . قرابة : ما يقترب
به من أعمال البر . أعدف : أسبل وأرسل ، ومنه قول عنترة :

إِنْ تُنْذِرِي دُونِي الْقِنَاعَ فَإِنِّي طَبُّ بِأَخَذِ الْقَارِسِ الْمُتَلْتِمِ^(١)
وَلِنَا قِيلَ لِلْغَرَابِ غُدَافٌ لِسَبُوحِ رِيْشِهِ .

وَقَالَ رُؤْبَةُ يَخَاطِبُ أَخَاهُ :^(٢)

* نُبِّتَ مِنْ جَنَاحِكَ الْغُدَافِي *

جُنْحُ الظَّلَامِ : مِيلُهُ ، وَجَنَحَ اللَّيْلُ جَنُوحًا ، وَأَجْنَحَ : مَالَ ، وَهُوَ مِنَ الْجَنَاحِ
وَكَانَ الطَّائِرُ إِذَا عَدَلَ عَنْ طَرِيقِ طَيْرَانِهِ ، فَيَرْجِعُ يَطِيرُ إِلَى جِهَةِ جَنَاحِهِ ، قِيلَ لَهُ :
جَنَحَ ، ثُمَّ اسْتَمِيرَ فِي اللَّيْلِ وَغَيْرِهِ ، كَمَا قِيلَ : نَكَّبَ عَنْ طَرِيقِهِ ، هِيَ مِنَ الْمَكْبِ ،
كَأَنَّهُ قَالَ : مَالَ بِمَشِيهِ إِلَى جِهَةِ مَنْكِبِهِ .

سَبَّحَ : صَوْتُ . النَّعَامِ : السَّحَابِ . اغْرُبَ : غَبَّ وَابْعَدَ . ذَرَاكَ : مَنْزَلَكَ .
أَنْعَمْتُ : بَالَفْتُ . تَرَاعَى : تَحَفَظَ . أَمِنَ : كَثُرَ ، وَتَقُولُ : أَمِنَ لِي بِحَقِّي ؛
اعْتَرَفَ بِهِ وَأَظْهَرَهُ ، مَأْخُوذٌ مِنَ الْمَاءِ الْمَعِينِ ، وَهُوَ الْجَارِيُّ الظَّاهِرُ .

الْقَرَاءُ : الْمَعِينُ مِنَ الْمَاعُونِ ، أَوْ مَفْعُولٌ مِنَ الْعِيُونِ .

تَبَطَّنَ : مَلَأَ بَطْنَهُ . كِفَافَةٌ : امْتِلَاءُ الْبَطْنِ . مَدَنَفَةٌ : عَمْرُضَةٌ . هَيْضَةٌ : انْطِلَاقُ
الْبَطْنِ بِالْقِيِّ وَالْإِسْمَالِ . كِفَافًا : مَسَالَةً ، أَيْ كَفَّ عَنِ شِرْكٍ وَخَيْرِكِ . مَعَافَى :
سَالِمًا مِنَ الْآفَاتِ .

(١) المعلقة - بشرح التبريزي ٢٥٦ ؛ قال: الإغداف: إرخاء القناع على الوجه . والطب :
الحاذق . ورواه : « المستلثم » والمستلثم : الذي قد لبس الأمانة ؛ وهى الفرع .
(٢) اللسان - غداف ، وروايته .

* رُكِّبَ فِي جَنَاحِكَ الْغُدَافِي *

وَبَعْدَهُ :

* مِنَ الْقَدَامِ وَمِنْ الْخَوَافِي *

أليته : يمينه . بلوت : خبرت وشاهدت . الرّغم : الذلّ . تجودني : تمطرني .
والسّماء : المطر هنا .

وتذكرت بهذه الحالة خروج السّلامي من دار الشريف الرضي في عشية
مطر ، فأعطاه كساء استتر به ، فلما وصل إلى منزله كتب إليه بقصيدة :

منها : (١)

ودّعتُ دارك والسماء تجودني بيد الغمام فلا يكن بك ما بي (٢)
ما كنت إلا جنّةً فارقتها كرهاً فصُبّ على سوط عذاب (٣)
ورأيت غاليةً الطريق ومِسْكُهُ طيباً معدّاً لي على الأبواب
وحى كساؤك لا عدت مُعِيرَهُ دُرّاعتي وعمامي وجبّابِي
فوليت يا بحر الدماحة كسوتي وولّي أخوك الفَيْثُ بَلّ ثيابِي
فوصلت أشكر ذا وأشكو ذا وبال
ـ عَيْنَيْنِ ما بهما من التَّسْكَبِ

وقال آخر فأحسن :

وغمامة نثرت دموعاً عندما نثر النسيم بُجانها تشبيكاً
تهدي السقوف جنانها متفرّقا وتمدّه عند السقوط سلوكاً

وقال ابن شهيد فأحسن :

ومرتجز ألقى بذى الأمل ككَلّاً وخطّ بجرعاء الأبارق ماحطاً (٤)
سعى في قياد الرّيح يسمح للهبّ فألقت على غير التّلاع به مرطاً

(١) من قصيدة ذكرها صاحب اليقظة في ٢ : ٣٨٢ - ٣٨٤ ، ومطلعها :

ما زال بي مهر الشّيبية جامعاً حتى حملت على المشيب الكابي

(٢) اليقظة : « فلا أرى بك ما بي » .

(٣) ط : « صوب حذابي » ، تصحيف .

(٤) ديوانه ١٢١ .

وما زال يروى التّرب حتى كسا الرُّبَا

درانك ، والغيطان من نسجه بَسَطًا
وَعَنَّتْ له رِيحٌ تَسَاقُطُ قَطْرُهُ كما نثرت حسناء عن جِيدِها سِمَطًا
قوله : « تحبّط » أى تجعلنى أمشي فيها على غير هدى . تتقاذف : تتراعى
وتتطارح ، وجعل الأبواب يرميه بعضها على بعض ، لما كان يقرعها ولا
تفتح له .

لطف القضاء ، أى رفق قدر الله وقضائه . يده البيضاء : نعمته الكريمة ،
وتقول : لفلان على يد بيضاء أى نعمة ، وجمعها أياد .

[مما قيل فى شكر النعمة]

قال ابن عباس رضى الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من
أهدى إلى قوم نعمة فلم يشكروها له استجيب له فيهم » .

قال عبد الله بن المبارك : أقبل نصر بن سيار : فقال : اللهم إني أهديت
إلى بسام نعمة فلم يبدلني بشكرها ، فاجعل موتهم قتلاً بالسيف . فبلغني أنه قتل
منهم سبعون رجلاً .

وقال أبو نواس وأتى بمعنى بديع :

قد قلت للعباس معتذراً من ضعف شكره ومعتزلاً^(١)

أنت امرؤ جَلَّلتَنِي نِعَمًا

أوهت قُوى شكرى فقد ضَعُفًا

فإليك بعد اليوم تقدِمةٌ لا قُوتك بالتصريح مكتنفاً

لا تحدثنِ إلى عارفة^(٢) حتى أقومَ بشكر ماسلفا

(١) ديوانه ٧١ .

(٢) الديوان : « لاتسدين » .

اعترضه الناشئ في معناه فقال :

إن أنت لم تحدِّثْ إليَّ يداً حتى أقوم بشكر ماسكاً
لم أحظَّ منك بنائلٍ أبداً ورجعت بالحرمان منصرفاً

وقال طريح :

طلبتَ ابتغاءَ الشُّكرِ فيما صنعتَ بي
فقصَّرتُ مغلوباً وإني لشاكِرُ
وقد كنتَ تعطيني الجزيلَ بدايةً وإني لما استكثرتُ منك لحاقِرُ
فأرجع مغبوطاً وترجعُ بالتي لها أولٌ في المكرَماتِ وآخرُ

وقال آخر :

رهنتُ يدي بالشُّكرِ في شكرِ برِّه
وما فوقَ شكرى للشُّكورِ مَزِيدُ
ولو أنَّ شيئاً استطاعَ استعطائه ولكنَّ ما لا استطاعَ شديدُ

وقال إبراهيم بن العباس الصولي :

فلو كان للشُّكرِ شخصٌ يبينُ إذا ما تأمله الناظرُ^(١)
لثَلَّثْتُه لك حتى تراه فتعلمُ إني امرؤٌ شاكرُ

وهذا الباب من الشكر وإن وفَّينا حقه هنا يأتي متفرِّقاً في الكتاب .

* * *

(١) ديوانه ١٨٤ ، عيون الأخبار ٣ : ١٦١ .

[البطنة وقولهم فيها]

ولمّا ذكر البطنة وخطرهما ، وأنها أوجبت عليه خروجه من منزل ضيفه على الحالة التي وصف ، أردنا أن نصلها بما يشاكلها .

وعما جاء في ذم البطنة من حديث عائشة رضی الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أن يشتري غلاماً وضع بين يديه تمرّاً ، فإن أكل كثيراً قال : ردّوه ، فإن كثرة الأكل من الشؤم .

وقيل للثّثري : الرجل يأكل في اليوم مرة ؟ قال : أكل الصديقين ، قيل : فمرتين ؟ قال : أكل المؤمنين . قيل : فثلاثاً ؟ قال : قل لأهلك يبدؤوا لك مقاماً .

ويصح أن يكون الرجل وصافاً لبطنه وفرّجه ، وإن من المروءة أن يترك الرجل الطعام وهو يشتهي .

وقال عمرو بن العاص لما رضى الله عنها يوم الحكين : أكلوا الطعام ، فوالله ما بطن قوم قط إلا فقدوا بعض عقولهم ، وما مضت عزيمة رجل بات بطيئاً .

وقال بعض الحكماء : لكل شيء صدأ وصدأ القلوب شبع البطون .

عزم المعتصم يوماً على الاصطباح ، وأمر ندماءه أن يطبخ كل واحدٍ منهم قدرّاً ، فدخل عليه غلام ابن أبي دواد ، فقال المعتصم : الساعة يأتي ابن أبي دواد ، فيقول : فلان الهاشمي ، وفلان القرشي والأنصاري ، فية طعمنا بمجوانجهم عماعز منا عليه ، وأنا أشهدكم أني لا أمضي له يومى هذا حاجة ، فلم يتم الكلام إلا والحاجب يستأذن به ، فقال لجلسائه : كيف ترون ؟ فقالوا : لا تأذن له ، فقال : سوأة لكم ! الحمى سنة أهون على من ذلك ، ودخل فاهو إلا أن سلم وجلس

وتكلم حتى ضحك المعتصم ، وسفر وجهه إليه ، ثم قال : يا أبا عبد الله ، لقد طبخ كل واحد من هؤلاء قِدرًا ، وقد جعلناك حكمًا في طبخها ، قال : فليحضر كل واحد قدره وآكل ، ثم أحكم فيها . فوضعت بين يديه ، فأكل من أول قِدرٍ أكلًا كثيرًا ، فقال المعتصم : هذا ظلم ، قل : وكيف ذلك ؟ قال : لأنني أراك أمعنت في هذا اللون ، وستحكم لصاحبه ، فقال : على أن آكل من القدر كلها مثله ، قال : شأنك ، فأكل ثم قال : أمّا هذه فقد أجاد طبّاخها ، إذ قلّل خلمها وكثّر زيتها ، ثم أكل من كل قِدرٍ كذلك ، ووصف القُدر كلها بصفات حسنة مُرّ بها أصحابها ، ثم قُدّم الطعام ، فأكل مع القوم كما أكلوا ، أنظف أكل وأحسنه ، وهو يحدّثهم بأخبار الأكلة في صدر الإسلام ، كعاوية وعبد الله ابن زياد ، والحجاج وسليمان بن عبد الملك . وعن أكلة دهره مثل ميسرة التمار ، ودوزق النصاب ، وحاتم الكيال ، وإسحاق الحمّامي .

فلما رفعت الموائد قال له المعتصم ، وقد أطربه حديثه : ألك حاجة يا أبا عبد الله ؟ قال : رجل من أهل بيتك ، وطئه الدهر ، وغير حاله ، قال : ومن هو ؟ قال : سليمان بن عبد الله ، قال : قدّر له ما يصلحه ، قال : خمسون ألفًا ، قال : قد أخذت ذلك له ، قال : ولي حاجة أخرى ، ثم ذكر ثلاث عشرة حاجة لا يرده عن شيء منها ، ثم قام خطيبًا ، فقال : عمرك الله يا أمير المؤمنين طويلاً فبعمرك^(١) تَخْصِبُ جنّات رعيّتك ، ويلين عيشهم ، وتنفو أموالهم ، ولازلت ممعًا بالكرامة والسلامة ، مدفوعاً عنك حوادث الأيام وغيرها ، ثم انصرف . قال المعتصم : هذا والله يتزين الملك بمثله ، ويتنهج بقربه ، أما رأيتم كيف دخل ، وكيف تكلم ، وكيف أكل ، ثم انبسط في الكلام ، وكيف طاب به أكلنا ، ما يرّدّ هذا عن حاجته إلّا لثيم الأصل ، والله لو سألتني في مجلسي هذا ما قيمته

(٢) ب . د فلعمر ك .

عشرة آلاف ألف ما رددته عنها ، وأنا أعلم أنه يكسبني في الدنيا حداً ، وفي الآخرة ثواباً .

وفيه يقول أبو تمام :

لقد أنست مساوئ كلِّ دهرٍ محاسنُ أحمد بن أبي دُوَادٍ^(١)

وهذه الحكاية تنظم في حكايات أهل الزرد المتقدمين في المقامة ، وقد احتوت على رجال موصوفين بذلك ، ختمنا بها الباب .

* * *

فَقُلْتُ لَهُ : أَحَبُّ بِلْقَائِكَ الْمُنَاحِ ، إِلَى قَلْبِي الْمُنَاحِ ، ثُمَّ
أَخَذَ يَفْتَنُ فِي حِكَايَاتِهِ ، وَيُسَمِّطُ مُضْحِكَاتِهِ بِمَكَايَاتِهِ ، إِلَى أَنْ
عَطَسَ أَنْفُ الصَّبَاحِ ، وَهَتَفَ دَاعِي الْفَلَاحِ ، فَتَاهَبَ لِإِجَابَةِ
الدَّاعِي ، ثُمَّ عَطَفَ إِلَى وَدَاعِي ، فَمَقَّتُهُ عَنْ الْإِنْبَعَاثِ ،
وَقُلْتُ : الضِّيَافَةُ ثَلَاثُ ، فَنَاشَدَ وَحَرَجَ ، ثُمَّ أَمَّ الْمَخْرَجَ ، وَأَنشَدَ
إِذْ عَرَجَ :

لَا تَزُرْ مَنْ تَحِبُّ فِي كُلِّ شَهْرٍ

غَيْرَ يَوْمٍ وَلَا تَزِدْهُ عَلَيْهِ

فَاجْتَلَاءَ الْهَلَالِ فِي الشَّهْرِ يَوْمٌ

ثُمَّ لَا تَنْظُرُ الْعُيُونُ إِلَيْهِ

قال الحارث بن مَهمَّام : فَوَدَّعْتُهُ بِقَلْبِ دَايِ الْقُرْحِ ، وَوَدِدْتُ

لَوْ أَنَّ لَيْلَتِي بِطَيْئَةِ الصَّبْعِ .

* * *

قوله : « أَحْبَبَ » ، تَعَجَّبَ معناه : مَا أَحَبَّ لِقَاءَكَ إِلَى قَلْبِي . المتاح : المقدَّر ، والمرتاح : المهتزَّ طرباً . يَفْتَنُ : يَفْتَوِّع . وَيَشْمِطُ : يَخْلَطُ . أَنْفَه : أَوَّلُهُ ، وَجْهَهُ . للصباح أنفًا عاطسًا مجازاً لما كَانَ يَدْفَعُ ظِلْمَةَ اللَّيْلِ . هَتَفَ : صَاحَ . دَاعَى الْفَلَاحَ ، هُوَ اللَّوْذَنُ . وَالْفَلَاحُ : الْبَقَاءُ . تَأَهَّبَ : اسْتَعَدَّ . عُمَّتَهُ : حَبْسَتَهُ . الْانْبِعَاثُ : الْتَهَوُّضُ .

وذكر أن الضيافة ثلاث : لأنه جاء في حديث أبي شريح الخزازي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ كَانَ بِؤْمِنَ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ » . وجائزته يوم وليلة ، والضيافة ثلاث ، ولا يحل له أن يتوَّى عنده حتى يخرجه ، فما أنفق عليه بعد ثلاث فهو صدقة .

أبو عبيدة : جائزته يوم وليلة ، أى يعطى الضيف بعد إكرامه ثلاثة أيام ما يجوز به يوماً وليلة ، يقال : أسفَّ بجائزة وجيزة ، وجوزة ، أى قدر ما يجوز به المسافر من منهل إلى منهل .

ومن ملح باب الضيافة ، قال المبرد : أضاف رجلٌ رجلاً فأطال المقام حتى كرهه ، فقال الرجل لامرأته : كيف لنا أن نعلم مقدار مقامه ؟ فقالت له : ألق بيننا شراً حتى نتجأ كم إليه ، ففعل ، فقالت للمرأة للضيف : بالذى يبارك لك فى غدوك غداً ، أيتنا أظلم ؟ فقال : والذى يبارك لى فى مقامى عندكم شهراً ما أعلم .

ونزل بصري على مدنى ، وكان صديقاً له ، فألحَّ عليه فى الجلوس ، فقال المدنى لامرأته : إذا كان غداً فإنى أقول لضيفنا : كم ذراع يقفز فأقفز ، فإذا قفز فأغلق الباب خلفه ، فلما كان من الغد ، قال له المدنى : كم قفزك يا أبا فلان ؟ قال : جيد ، فعرض عليه أن يقفز معه ، فأجابه ، فوثب المدنى من داره إلى خارج أذرعاً ، وقال للضيف : ثب أنت ، فوثب للضيف إلى داخل الدار

ذراعين، فقال له : وثبت أنا إلى خارج الدار أذرعاً ، وأنت إلى داخلها ذراعين ،
فقال الضيف : ذراعان من الدار خير من أربع إلى « برآ » .

الأزهري : برآ مودة .

قوله : « ناشد » حَلَف . حَرَج : وكَّد يمينه ، أى لا يقيم ، والحرج :
الإثم .

ابن الأنباري : تخرج فلان عن كذا ، أى تدبّن وضيق على نفسه ، والحرج
عندهم الضيق . أمّ : قصد . عَرَج : التوى عن الباب منصرفاً . اجتلاء : نظو .
القرح : الجرح ، وأنشد الثعالبي في هذا المعنى ، قال :

عليك بإقلال الزيارة إنَّها إذا كثرت كانت إلى المجرم مسلکا
فإني رأيت الغيث يسأم دائماً ويسأل بالأیدی إذا هو أمسکا
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « زر غيباً تزدد حباً » .

نظمه الشاعر فقال :

إذا شئت أن تُقَلّ فزر متواتراً وإن شئت أن تزداد حباً فزُرْ غيباً
وقالوا : قلة الزيارة أمان من الملالة .

وقالوا في ضده : ترك الزيارة سبب القطيعة .

وقال عليّ رضي الله عنه : الصبر من كرم الطبيعة ، والمنّ مفسدة الصنعة ،
وترك التماهد للصديق يكون داعية القطيعة .

وقال عبد الصمد بن المعتز في ضده هذا : وأن يحافظ على الصداقة بظهر
الغيب ، ويمدح إبراهيم بن الحسن :

بأمن فدت نفسه نسي وقد جعلت له وقاء لمن يخشى وأخشاه
أبلغ أخاك وإن شطّ للزّار به إنني وإن كنت لا ألقاه ألقاه

وإنَّ طرفي موصول برؤيته وإن تباعد عن مثنوى مثنوهُ
الله يعلم أني لست أذكرك وكيف يذكره مَنْ ليس بنسائه
لا شيء مما نرى إلا له شبهة وما لكم آل إبراهيم أشباه
عذراً فهل حسن لم يُنمِه حسن وهل فتى عدلت جدواه جدواه

قال أبو العتاهية :

أقلل زيارتك الصديق ولا تطل إننياته فتلج في هجرانه^(١)
إن الصديق بلج في غشيانته لصديقه فيلج في عصيانته
حتى تراه بعد طول سروره وكأنه متبرم بمكانته
وإذا تولى عن صيانته نفسه رجل تنقص واستخف بشانه

ولإفراط البر بالصاحب داع إلى كثرة الإخجال، ومانع من العودة بعد الانفصال .

وكتب ابن عمار إلى ابن زريق ، وقد عتب عليه ، أن اجتاز ببلده ولم يلقه
هذه الأبيات :

لم يلو عنك عتاني سلوةً خطرت ولا فؤادي ولا سمى ولا بصري
لكن عدني عنكم خجلة عرَضت كفاني العذر منها بيت معتذر
لو اختصرتم من الإحسان زركم والعذب يهجر للإفراط في الخصر^(٢)
ضمن ابن عمار هذا البيت أحسن تضمين ، وهو للمعري ، وما قيل في

(١) ديوانه ٣٣٧ ؛ وفيه : « حدث رجاء مولى صالح الشهرزوري ، قال : كان أبو العتاهية صديقاً لصالح الشهرزوري ، وأتت الناس به ، فسأله أن يكلم الفضل بن يحيى في حاجة له ، فقال له صالح : لست أكلمه في أشباه هذا ، ولكن حلني ماشئت في مالي : فانصرف عنه أبو العتاهية ، وأقام أياماً لا يأتيه ، ثم كتب إليه : « أقلل زيارتك الصديق .. » الأبيات فلما قرأ الأبيات قال : سبحان الله ! أتخرجني لمنى ليأك شيئاً ؛ تعلم أني ما ابتدلت نفسي له ، ونفسي مودتي ، ومن دون ما بيني وبينك ما أوجب عليك أن تعذرنى . وذكر شعراً بعده .
(٢) سقط الزند ١٢٠ ، والمصدر : البرد .

المعجز عن الشكر أحسن منه ، والإقلال بمنع تلاقى الأحباب ، ويحطّ من همم
ذوى الأحساب ، فإنه إذا لم يكن عندك ما تقدّم بين يدي ضيفك أو زارك
تمنّيت إذا حلّ بك ألاّ تراه .

وقال حبيب :

وسَيَّانٍ عندي صادفوا لي مطمعا أعاب به أو صادفوا لي مَقْتَلًا^(١)

وقال ابن الجدة :

وإني لصبٌّ بالتلاقى وإنما يصد فؤادي عن معاذيرك السر^(٢)
أذوب حياء من زيارة صاحب إذا لم يساعدني على بَرِّهِ الوفّر
وفي المقامة التي تلى هذه فنّ ثانٍ من الزيارة ، تنف عليه إن شاء الله تعالى .

* * *

(١) ديوانه .

(٢) ثلاثه العقبان . .

المقامة السادسة عشرة وتعرف بالمغربية

حكى الحارثُ بن همام ، قال : شهدتُ صلاةَ المغرب ،
في بعض مساجدِ المغرب ، فلما أَدَّيْتُهَا بِفَضْلِهَا ، وَشَفَعْتُهَا بِنَفْلِهَا ،
أَخَذَ طَرَفِي رَفَقَةً قَدْ انْتَبَذُوا نَاحِيَةً ، وَامْتَازُوا صَفْوَةً صَافِيَةً ،
وَهُمْ يَتَمَاعَطُونَ كَأْسَ الْمَنَافَةِ ، وَيَقْتَدِحُونَ زِنَادَ الْمُبَاحَةِ ،
فَرَعَبْتُ فِي مُحَادَثِهِمْ ، لِكَلِمَةٍ تَسْتَفَادُ ، أَوْ أَدَبٍ يُسْتَزَادُ ،
فَسَمِعْتُ إِلَيْهِمْ ، سَمْعِي الْمُتَطَفِّلَ عَلَيْهِمْ .

* * *

أَدَّيْتُهَا : تَمَّتْهَا . شَفَعْتُهَا : زَوَّجْتُهَا ، يريد أنه صلى الفريضة ، ثم صلى النافلة .
بِفَضْلِهَا ، يريد أنه صلاحاً في الجماعة ، وهي أفضل من صلاة الفرد . انتبذوا :
أهردوا ، وصاروا إلى جهة وزاوية من المسجد . وامتازوا : انفصلوا . صفوة :
خياراً . يتماطون : يعطى بعضهم بعضاً . المنافة : الحادثة . يقتدحون ، أى
يضربونها ويستخرجون نأرها . الماحطة : المناظرة في العلم .

* * *

[التطفل وأصل اشتقاقه]

للتطفل : الآنى إلى الطعام من غير أن يُدْعَى ، وهو الوارش ^(١) عند العرب .

(١) الوارش : الواغل .

وتُطْفَلُ : تشبّه بِطُفِيلِ العرائس ، وهو طُفِيلُ بن دلال الدارمي ، يسمّى طفيل بالأعراس ، وطُفِيلُ العرائس ، لكثرة دَوْرَانِهِ على حضورها ، ومشاهدته لها ، والأكل منها ، من غير أن يُدْعَى إليه ، واسمه مشتقٌّ من الطَّفَل ، وهو إقبال الليل على النهار .

أبو عمرو : الطَّفَلُ : الظَّلمة .

ابن الأعرابي : ويقال للطُّفِيلِ اللِّعموظ ، والجمع اللِّعماظ^(١) .

وطُفِيلُ من بنى عبد الله بن غطفان ، كان يأتى الأعراس ولم يُدْعَ . ومسكنه بالكوفة ، وكان يقول : ودِدْتُ أَنْ الكوفة بركة مُصْهَرَجَةٌ ، فلا يخفى على فيها دخان ، فُسِّبَ إليه كل من يَطْفُلُ ، نسبة مذهب لانسب ، والنطفُ من أخلاق اللثام ، وسجايا الأوغاد ، ومنهى عنه في الشرع .

ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ دُعِيَ فلم يُجِبْ فقد عصى الله ورسوله ، ومن دخل على غير دَعْوَى دخل سارقاً وخرج مُغِيراً » .

عائشة رضى الله عنها : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من دخل على قوم لطعام لم يُدْعَ فأكل دخل فاسقاً ، وأكل حراماً » .

* * *

[من أخبار الطفيليين]

ونسوق هنا فصلاً للطفيليين ، يكون في هذه المقامة بمنزلة فصل الأكلة في المقامة التي قبل هذه لأن حالتيهما متقاربة .

(١) في اللسان : اللعمظ : الشهوان الحريس ، ورجل لعمظة ولعموطة ؛ وهو القرد النهم .

فمن ذلك ما يحكى عن بشار الطفيلي أنه قال : رحلت يوماً إلى البصرة ، فلما دخلتها قيل لى : إنَّ هنا عريفاً للطفليين يَبْرُم ، ويكسوم ويرشدم إلى الأعمال ويقاسمهم . فسرت إليه فبرئى وكسأنى ، وأقت عنده ثلاثة أيام ، وله جماعة يصيرون إليه بالزَّلَّات ^(١) فيأخذ النصف ، ويعطيهم النصف ، فوجهنى معهم فى اليوم الرابع ، فخصلت فى وليمة ، فأكلت وأزلت معى شيئاً كثيراً وجئت به ، فأخذ النصف ، وأعطانى النصف ، فبعت ما وقع لى بدراهم ، فلم أزل على هذه الحالة أياماً ، ثم دخلت يوماً على عرس جليل ، فأكلت وخرجت بزلة حسنة ، فلقينى إنسان فاشتراها بدينار ، فأخذته وكتمته ، وكتمت أمرها . فدعا جماعة من الطفليين ، فقال : إن هذا البغدادى قد خان ، فظنَّ أنى لا أعلم ما فعل ، فاصفعوه وعرفوه ما كتّمنا ، فأجلسونى شئت أم أبيت ، وما زالوا يصفعونى واحداً بعد واحد ، فيصفعنى الأول منهم ، ويشم يدى ، ويقول : أكل مضيرة ^(٢) ، ويصفعنى الآخر ويشم يدى ، ويقول : أكل كدا ، ويصفعنى الآخر ، حتى ذكروا كلَّ شىء أكلته ، ما غلطوا بشىء منه ، ثم صفعنى شيخ منهم صفعة عظيمة ، وقال : باع الزلة بدينار ، وصفعنى آخر ، وقال : هات الدّينار ، فدفعته إليه ، وجردنى الثياب التى أعطانيها ، وقال : اخرج يا خائن فى غير حِفْظ الله . فخرجت إلى بغداد ، وحلفت ألا أقیم ببلد فيه طفيلية يعلمون الغيب .

ونريد هنا أن نذكر بعض ما اشتهر من حكايات طفيلية البصرة ، إذ هم أحقُّ خلق الله فى باب التطفيل :

بعث المأمون ^(٣) فى طلب عشرة من زنادقة البهّرة ، فجُمِعُوا فَرَأَمَ طفيلي ،

(١) قال فى القاموس : الزلة : اسم للمحمل من مائدة صديقك أو فريك ، عراقية أو عامية .

(٢) المضيرة : مرقة تطبخ باللبن .

(٣) الخبر ٦ : ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

ففضى معهم ، فأدخلوا في سفينة ، فدخل معهم ، وجيء بالقيود ، فقيّد معهم ، فقال أحدهم : يا طفيلي إلى هنا ، فأقبل عليهم فقال : فديتكم ، أي شيء أنتم ؟ فقالوا له : بل أنت ، من أنت ؟ وهل أنت من أصحابنا ؟ قال : والله ما أعرفكم ، غير أنني طفيلي ، خرجت من منزلي ، فرأيت منظرًا جميلًا ، و نعمة ظاهرة ، فقلت : شيوخ وكهول وشبان ، ما اجتمع هؤلاء إلا لصنيع ، فدخلت وسطكم كأني أحدكم إلى هذا الزورق ، فرأيت قد فرش وهد ، ورأيت سفرًا^(١) مملوءة فقلت : نزهة إلى بعض البساتين والتصور ، إن هذا اليوم يوم مبارك ، فزدت ابتهاجًا ، فجاء هذا اللوكل بكم فقيّدكم ، فطارعني فما الخبر ؟ فضحكوا وفرحوا به ، وقالوا له : قد حصلت في الإحصاء ، نحن مائيّة على مذهب ماني ، القائل بالنور والظلمة ، نسير إلى المأمون ، فيسألنا عن مذهبنا ، ويدعونا إلى التوبة . ويظهر لنا صورة ماني ، ويأمرنا أن نتقلّ عليها ، ونبرأ منها ، فن فعل نجًا ، وإلا قُتل ، فإذا دعيت فأخبره باعتقادك ، وللطفيلي مداخلات وأخبار فاقطع سفرنا بها . فكان ذلك . فلما دخلوا على المأمون ، دّعاهم بأسمائهم وامتحنهم فأمرّ عليهم بالسيف ، وتأخّر الطفيلي وقد استوعب العدة ، فسأل الموكّكين بهم ، فقالوا : وجدناه معهم ، فجئنا به ، فقال له : ما خبرك ؟ فقال له : يا أمير المؤمنين ، امرأته طالق إن كنت أعرف من أقوالهم شيئًا ، إنما أنا رجل طفيلي ، ثم قصّ قصته معهم .

فضحك المأمون كثيرًا ، ثم أظهر الصورة ، فلعنها وبرئ منها ، ثم قال : اعطوها لي حتى أسلح عليها ، والله ما أدري ما ماني ! أنصراني أم يهودي أم مسلم ؟ فقال المأمون : يؤدّب على فرط جهله وتفيله ومخاطرته بنفسه ، فقال : يا أمير المؤمنين بحياتك ، إن كنت ولا بدّ عازما ، فاجعل السيّاط كلّها على بطني ، فهو الذي حملني على هذا العرر . فعاد إلى الضحك ، فاستوهبه منه إبراهيم

(١) السفر : جمع سفرة ، وهي في الأصل : طعام المسافر .

ابن المهدي بحديث في تطفيله يذكر في خبر إسحاق الموصلي ، فوجهه له ، وأجاز الطفيلي مجازة سنّية .

كان إبراهيم بن المدبر عاملاً على البصرة ، وكان له سبعة ندماء لا يأنس بنيرهم ، وكل واحد منهم منفرد بعلم من العلوم . وكان طفيلي يعرف بابن درّاج ، من أكمل الناس أدباً ، وأخفهم رُوحاً وأشدّهم في كلّ مليحة افتناناً . فاحتال ودخل في جملة الندماء ، فخرج إبراهيم ، فرآه فقال لحاجبه : قل لهذا الرجل ، ألك حاجة ؟ فسقط في يد الحاجب ، وعلم أن الحيلة تمت عليه ، وأنه لا يرضى ابن المدبر من عقوبته إلا بقتله ، فرمى بجر رجليه ، فقال له : يقول لك الأستاذ : ألك حاجة ؟ فقال : قل له : لا ، فأدخله عليه ، فقال : فأى شيء أدخلك ! أنت طفيلي ؟ فقال : نعم أصلحك الله ! فقال : إن الطفيليّ يحتمل على دخوله على الناس بخصال ، منها أن يكون لاعباً للشطرنج أو بالنرد ، أو ضارباً بالعود ، أو بالطنبور ، فقل : أيّدك الله ، إن لما ذكرت في الطبقة العليا ، فقال لبعض الندماء : لاعبه بالشطرنج ، قال : أعزّك الله ، فإن قُدرت ^(١) ؟ قال : أخرجنك ، قال : وإن قُمرت ، قال : أعطيناك ألف درهم ، فقال : أحضرها فإن في حضورها قوة للنفس ، فلعبها بالشطرنج ، فغاب الطفيلي ، ومدّ يده لأخذ الدرام ، فقال الحاجب : أعزّك الله ، ذكر أنه في الطبقة العليا ، وإن فلانا غلامك يغابه ، فأحضر الغلام فغلبه ؛ فقالوا له : انصرف ، فقال : أحضروا النرد ، فلوعب به فغلب ، فقال الحاجب : لكن بوابنا فلان يغلبه ، فأحضر البواب فغلبه ، فقيل له : اخرج ، قال : فالعود ؟ فأعطى عوداً ، فغضب فأصاب ، وغنى فأترب ، فقال الحاجب : ياسيدي إن في جوارنا شيخاً يعلم القيان ، هو أحسن منه ، فأحضر إليه ، فكان أطيّب منه ، فقيل له : اخرج ، فقال : فالطنبور ؟

(١) قُمرت يالينااء المعجول : غلبت .

فَضَرَبَ ضَرْبًا لَمْ يُرَ أَحْسَنُ مِنْهُ ، فقال الحاجب : إِنْ فَلَانَا الْحَتَكِرَ أَطِيبُ مِنْهُ ، فَأَحْضَرَ فَكَانَ أَحْذَقَ مِنْهُ ، فقال ابنُ الدُّبَرِ : قد تَقَصَّيْنَا لِلْخَوْبِكْلِ جَهْدَ ، فَأَبَتْ حَرْفُتُكَ إِلَّا طَرَحَكَ ، فقال : يَا سَيِّدِي ، بَقِيتُ مَعِيَ فَائِدَةٌ حَسَنَةٌ ، فقال : وَمَا هِيَ ؟ قال : تَأْمُرُ أَنْ يَحْضُرَ قَوْسٌ بِنْدُقٍ مَعَ خَمْسِينَ بِنْدُقَةً مِنْ رِصَاصٍ ، وَيَقَامُ هَذَا الْحَاجِبُ فَأَرْمِيهِ فِي دُبُرِهِ ، فَإِنْ أَخْطَأَتْهُ بِوَاحِدَةٍ ، فَاضْرِبْ عُنُقِي ، فَضَجَّ الْحَاجِبُ . وَوَجَدَ ابْنَ الدُّبَرِ شِفَاءَ نَفْسِهِ فِي دَقُوبَتِهِ ، فَأَمَرَ بِخَشْبَتَيْنِ ، وَشَدَّ الْحَاجِبَ فَوْقَهُمَا . وَأَعْطَى الْقَوْسَ ، فَرَمَاهُ بِخَمْسِينَ بِنْدُقَةً ، فَمَا أَخْطَأَ دُبُرَهُ بِوَاحِدَةٍ مِنْهَا .

وَحُلَّ الْحَاجِبُ وَهُوَ يَتَأَوَّى لِمَا بِهِ ، فقال له الطَّفِيلِيُّ : يَا صَفْعَانُ ، هَلْ عَلَى بَابِ الْأَمِيرِ مِنْ يَحْسَنٍ مِثْلَ هَذَا ؟ فقال له الحاجب : يَا قَرْنَانُ إِذَا كَانَ الْبُرْجَاسُ ^(١) اسْتَقَى فَلَا يَحْسَنُ أَحْسَدَ مِثْلِكَ .

قال : وَذَهَبَ الضَّحْكُ بِابْنِ الدُّبَرِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ كُلٌّ مَذْهَبٌ ، ثُمَّ أَعْطَاهُ أَلْفَ دَرَاهِمٍ وَانْصَرَفَ .

صَحِبَ طَفِيلِيٌّ رَجُلًا فِي سَفَرٍ ، فَلَمَّا نَزَلُوا بِبَعْضِ الْمَنَازِلِ ، قَالَ لَهُ الرَّجُلُ : خُذْ دَرَاهِمًا وَأَمَّا أَنَا نَتَرَلْنَا لِمَا . فقال له الطَّفِيلِيُّ : قُمْ أَنْتَ ، وَاللَّهُ إِنِّي لَنَمِيبٌ ، فَاشْتَرِ أَنْتَ . فَمَضَى الرَّجُلُ ، فَاشْتَرَاهُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ الرَّجُلُ : قُمْ فَاطْبِخْهُ ، فقال : لَا أَحْسِنُ ، فقام الرجل ، فطبخه ، ثُمَّ قَالَ الرَّجُلُ لِلطَّفِيلِيِّ : قُمْ فَاتَرِدْ ، فقال : وَاللَّهُ إِنِّي لَكَسْلَانٌ ، فَتَرَدَّدَ الرَّجُلُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : قُمْ فَاعْتَرِفْ ، قال : أَخْشَى أَنْ يَنْقَلِبَ عَلَى ثِيَابِي ، فَغَرَفَ الرَّجُلُ حَتَّى ارْتَوَى الثَّرِيدَ ، فقال له : قُمْ الْآنَ فَسَكِلْ ، قال : نَعَمْ إِلَى مَتَى هَذَا الْخِلَافُ أَقْدَ وَاللَّهِ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ كَثْرَةِ خِلَافِكَ . وَتَقَدَّمَ فَأَكَلَ .

(١) البرجاس ، بالضم : غرض في البواء يوضع على رأس رميح .

وقال طفيل العرائس : ليس في الأرض أكرم من ثلاثة أعواد : عصا موسى عليه السلام ، وخِوان الطعام ، ومنبر الخليفة .

ومن وصيته لأصحابه : إذا دخلتم عرساً ، فلا تلتفتوا إلى الملامى ، وتخيروا المجالس ، وإن كان العرس كثير الزحام ، فليمض أحدكم ولا ينظر في عيون الناس ، ليظن أهل الرجل أنه من أهل المرأة ، وأهل المرأة أنه من أهل الرجل ، وإن كان البواب فظاً وقحاً ، فليبدأ به فلأمره ولينمه من غير عنف ، ولكن بين النصيحة والإدلال .

وقال بُنان الطفيلي : التمكن على المائدة خير من ثلاثة ألوان .

وسئل بنان : هل تحفظ من كتاب الله تعالى شيئاً ؟ قال : نعم ، آية . قيل : وما هي ؟ قال : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا ۚ ﴾^(١) قيل : أتحفظ شيئاً من الشعر ؟ قال : بيتاً واحداً ، قيل : ماهو ؟ قال :

نزوركم لانسكافئكم بجفوتكم
إن الكريم إذا ما لم يزّر زارا^(٢)

ويعهده :

يُقَرَّب الشوق داراً وهي نازحة
مَنْ عالج الشوق لم يستبعد الداراً
وقال أبو الورد المحاكمي في طفيلي :

طفيليُّ يوم الخبز أتى براه ولو يراه على يفاع
ولا يروى من الأخبار إلا : « أجيب ولو دعيت إلى كراع »

(١) سورة الكهف ٦٢ .

(٢) للعباس بن الأحنف ، المقدم ٦ : ٢٢١ .

وقال طفيلي أيضاً :

نحن قومٌ إذا دعينا أجبناً ومتى نفس يدعنا التطفيل^(١)
ونقل علماً دعينا فغبناً وأتانا فلم يجدنا الرسول
وأقبل طفيليٌ إلى طعام لم يدع إليه ، فقال صاحب الطعام : مَنْ دعاك ؟
فأنشده :

دعوت نفسي حين لم تدعني فالحد لي لالك في الدعوة^(٢)
وكان ذا أحسن من موعدٍ تخلفه يدعو إلى الجفوة
ودخل طفيليٌ في صنيع رجل من القبط ، فقال له : مَنْ أرسل إليك ؟ فأنشأ
يقول :

أزورك لا أ كافيكم بجفوتكم إن الحب إذا ما لم يزُر زارا
فقال : « زر زارا » ، ليس ندرى مَنْ هو ؟ اخرج من بيتي !

وقال آخر في طفيلي كوفي :

زرعنا فلما سلم الله زرعنا وأوفى عليه منجل الحصاد^(٣)
بلينا بكوفي حليف مجاعة أضرت علينا من دبى وجراد^(٤)
وحدث آدم الطويل ، قال : دخل حانوتي غريب يأكل شيئاً من الطعام
فتقدم سائل ، فقلت له : ما أ كثر تردك إليّ ! فقال الغريب الذى فى الحانوت :
لعله كما قال الشاعر :

(١) المقد ٦ : ٢١٤ .

(٢) عيون الأخبار ٣ : ٢٣٢ ، المقد ٦ : ٢١٢ .

(٣) عيون الأخبار ٣ : ٢٣١ ، المقد ٦ : ٢١٤ .

(٤) ط : « رباً » وما أثبتته من ب والمقد ، والذين : الجراد الصغير .

لو طبخت قدر بـطمورةٍ أوفى ذُرّاً قصرٍ بأعلى الثُّغورِ
وكنـت بالصين لو افيتـمـا ياعالم الغيب بما في القـدورِ !

حكى المبرد قال : كان بالبصرة طفيلي مشهور ، وكان ذا أدب وظرف ،
ممرّاً بسكة الذخع بالبصرة على قوم عندهم وليمة ، فافتحم عليهم ، وأخذ مجلسه مع من
دُعِيَ ، فأنـكره صاحب المنزل فقالوا له : لو تأنيت أو صبرت يا هذا قبل الدخول
حتى يؤذن لك ، كان أحسن لأدبك ، وأعظم لقدرك ، وأجل لمروءتك ؛ فقال :
إنمّا اتخذت البيوت ليدخل فيها ، ووُضعت الموائد ليؤكل عليها ، والحشمة
قطيعة ، واطراحها صلة .

وجاء في الآثار : صلّ مَنْ قطعك ، وأعطِ مَنْ منعك ، وأحسنْ إلى مَنْ
أساء إليك .

وأنشد :

كلّ يوم أدور في عرصة الدار أشمُّ الثُّنَّارِ شمَّ الذبابِ
فإذا مارأيت آثار عرسٍ أو دخاناً أو دعوة الأصحابِ
لم أعرج دون التفحّم لا أرهب شتماً أو لكزة البوابِ
مستهيناً بمن دَخَلَتْ عليه غير مستأذنٍ ولا هيّابِ
ذاك أهنأ من التكلف والغرم وشمّ التّبقال والقصابِ

كان بالبصرة طفيلي يكنى أبا سلمة ، وكان إذا بلغه خبر وليمة ، لبس لبس
القضاة ، وأخذ ابنيه معه ، عليهما القلائس الطّوال والطيايسة ، فيتقدم أحدهما
فيدق الباب ، ويقول : افتح يا غلام لأبي سلمة ، ثم لا يلبث حتى يلحقه الآخر ،

فيقول : افتح ويلاك ! قد جاء أبو سلمة ، ويتلوها ، فإن لم يعرفهم الأبواب فتح لهم ، وإن عرفهم لم ياتفت إليهم ، ومع كل واحد منهما فهرٌ مدوّر يسمونه كيسان ، فينتظرون مَنْ دُعِيَ ، فإذا جاء وفتح له طرحوا الفهر في المتبة ، حيث يدور الباب ، فلا يقدرّون على إغلاقه فيهمجون ويدخلون .

فأكل أبو سلمة يوماً على بعض الموائد لقمةً حارةً من فالزوج ، وبلدها بشدة حرارتها ، فتجمعت أحشاؤه ، فأت على المائدة ، فقال عبد الصمد بن المعدل يرثيه :

أحزان نفسي عني غير منصرمة

وأدمى من جفون العين منسجمة

على صديقٍ ومولى لي فجمعت به ما إن له في جميع الصالحين له

كم جفنةٍ مثل دور الحوض مترعة كرماء جاء بها طباخها رذمه

قد كللتها شحوم من قلبيتها ومن سنام جزورٍ عبطة سئمة

غيبت عنها فلم تعلم لها خبراً لهفي عليك وعولي يا أبا قليلة

ولو تكون لها حياً لما بعدت يوماً عليك ولو في جاحم حطمة

قد كنت أعلم أن الأكل يقتله

لكنني كنت أخشى ذاك من ثخمة

إذا تعمم في شبليته ثم غدا فإن حوزة مَنْ يأتيه مصطامه

* * *

وقلت لهم : أَتَقْبَلُونَ نَزِيلًا يَطْلُبُ جَنَى الْأَنْمَارِ ، لَا جَنَى الثَّمَارِ ، وَيَبْنِي مِلْحَ الْحَوَارِ ، لَا مِلْحَاءَ الْحَوَارِ ، فَحَلُّوا لِي الْحَبَا ، وَقَالُوا : مَرْحَبًا مَرْحَبًا ، فَلَمْ أَجْلِسْ إِلَّا لَمَحَّةَ بَارِقٍ خَاطِفٍ ، أَوْ مُنْبَغَةَ طَائِرٍ خَائِفٍ ، حَتَّى غَشِينَا جَوَّابٌ ، عَلَى عَاتِقِهِ جَرَابٌ ، فَحَيَّانَا بِالْكَلِمَتَيْنِ ، وَحَيَّا الْمَسْجِدَ بِالتَّسْلِيمَتَيْنِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا أُولَى الْأَبَابِ ، وَالْفَضْلِ الثَّلَاثِ ، أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّ أَنْفَسَ الْقُرْبَاتِ ، تَنْفِيسُ الْكُرْبَاتِ ، وَأَمْنٌ أَسْبَابِ النَّجَاتِ ، مَوَاسَاةُ ذَوِي الْحَاجَاتِ . وَإِنِّي وَمَنْ أَحَلَّنِي سَاخَتَكُمْ ، وَأَتَاكَ لِي اسْتِمَاخَتَكُمْ ، لَشَرِيدٌ مَحَلٍّ قَاصٍ ، وَبَرِيدٌ صَبِيحٍ خَاصٍ ، فَهَلْ فِي الْجَمَاعَةِ مَنْ يَفْتَأُ عَنَّا مُحِيًّا الْمَجَاعَةَ ؟ فَقَالُوا لَهُ : يَا هَذَا ، إِنَّكَ حَضَرْتَ بَعْدَ الْعِشَاءِ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا فَضْلَاتُ الْعِشَاءِ ، فَإِنْ كُنْتَ بِهَا تَنْوَعًا ، فَمَا تَحْدُ فِينَا مَنُوعًا ، فَقَالَ : إِنَّ أَخَا الشَّدَائِدِ ، لَيَقْنَعُ بِلُفَافَاتِ الْمَوَائِدِ ، وَنِقَاضَاتِ الْمَزَاوِدِ . فَأَمَرَ كُلَّ مِنْهُمْ عَبْدَهُ ، أَنْ يُزَوِّدَهُ مَاعِنْدَهُ .

* * *

قوله : « نَزِيلًا » أى ضيفًا . الْأَنْمَارُ : المذاكرة بالليل . وَجَنَّاها : مَا يُجْنَى مِنْ فَوَائِدِهَا . يَبْنِي : يَطْلُبُ . مِلْحَ الْحَوَارِ : مِلْحَجُ الْكَلَامِ ، وَالْحَوَارِ : مَرَاجِعَةُ الْقَوْلِ . مِلْحَاءُ الْحَوَارِ : لَحْمُ سَنَامِ الْفَصِيلِ . الْحَبَا : جَمْعُ حَبْوَةٍ ، وَكَانَتِ الْعَرَبُ لَيْسَ لَهَا فِي الْبَوَادِي حَيْطَانٌ تَسْتَنْدُ إِلَيْهَا فِي مَجْتَمَعِهِمْ ، فَكَانَ الرَّجُلُ يَقِيمُ

ركبته في جلوسه ، فيضع عليها أو يدير بهما ثوباً ، ويعقد عليهما يديه ،
ويستريح إليهما ، ويقوم ذلك له مقام الاستناد ، فيقال لذلك المقعد : الخبوة ،
فأراد أنهم حلوا له الحباً إكراماً له . لمحّة بارق : لمعة برق . خاطف : يخطف
العين بسرعة فيمنعها النظر . نغبة : جرعة . غشينا : دخل علينا فجأة . جواب :
قطاع للأرض بمشيه . العاتق : ما بين المنكب والمنق . جراب : وعاء للخبز .
الكلمتين : سلام عليكم . التسليمتين : سلامه عند الدخول وسلامه من
الركعتين . وتحمية المسجد : أن يركع الداخل فيه ركعتين ، وقيل : التسليمتين ،
تسليمة من صلاة المغرب وتسليمة من الركعتين اللتين بعدها . الألباب : الأذهان .
اللباب : الخالص . أنفس : أرفع . القرّبات : ما يُقَرَّب به إلى الله عز وجل ،
واحداً قرربة . الكرّبات : الموم . تنفيسها : تفرجها وإزالتها . أمتن : أقوى
وأغلظ . التّجاة : التخلّص . مُواساة : جعلك لهم أسوة نفسك . ساحتكم :
موضعكم . أتاح : قدّر . استماحتكم : اجتداءكم والطلب منكم . شريد : منفر ،
والشريد : الهارب . قاص : بعيد . بريد : رسول . خاص : جياع . يفتأ :
يكسر . مُحَيّا الجماعة : حِدّة الجوع . فضلات : بقايا . لفافات : ما يلفظ منها ،
أى يطرح . تُفَاضات : ما يُنفَض من بقية الزاد .

ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أكل ما يسقط
من الخوان نقي عنه الفقر ، وعن ولده الحق » .
والمزاد : أوعية الزاد .

* * *

فَأَعْجَبَهُ الصَّنْعُ ، وَشَكَرَ عَلَيْهِ ، وَجَلَسَ يَرْقُبُ مَا يُحْمَلُ
إِلَيْهِ ، وَثَبَّنَا نَحْنُ إِلَى اسْتِثَارَةِ مُلَحِّ الْأَدَبِ وَعُيُونِهِ ، وَاسْتِثْبَاتِ
مَعِينِهِ مِنْ عُيُونِهِ ، إِلَى أَنْ جُلْنَا فَمَا لَا يَسْتَحِيلُ بِالْإِنْعَاسِ ، كَقَوْلِكَ :

مَتَا كِبِ كَاسٍ . فِتْدَاعِينَا إِلَى أَنْ نَسْتَتِجَ لَهُ الْإِفْكَارَ ، وَنَفْتَرَعَ مِنْهُ
الْأَبْكَارَ ، عَلَى أَنْ يَنْظُمَ الْبَادِيُّ ثَلَاثَ جَمَانَاتٍ فِي عِقْدِهِ ، ثُمَّ
تَتَدَرَّجُ الزِّيَادَاتُ مِنْ بَعْدِهِ ، فَيَرْبِّعُ ذُو مِيمَتِهِ فِي نَظْمِهِ ، وَيَسْبِغُ
صَاحِبُ مِيسَرَتِهِ عَلَى رَغْمِهِ .

قال الراوى : وكنا قد انتظمنا عِدَّةً كأصابع الكفِّ ، وتَأَفَّفْنَا
أُلْفَةً أَصْحَابِ الْكُفِّ .

* * *

الصنع : الجليل . وقوله : « وجلس يرقب » ، وقال قبل هذا : « فلم أجلس
إلا لمحّة بارق » ، وقال فى الثامنة والعشرين ، « وجلس حتى خِمْ نَظْمُ الْمُتَأَذِينَ »
وأكثر ما صرف الجلوس فى مقاماته من قيام .

وقال فى الدّرة^(١) : « يقولون للقائم : اجلس ، والاختيار على ما حكاها الخليل ،
أن يقال إن كان قائماً : اقم ، ولمن كان نائماً أو ساجداً : اجلس . وعَلَّلَ
بعضهم هذا الاختيار بأنّ القعود هو الانتقال من علو إلى سفلى ، ولهذا قيل
لمن أصيب برجله : مُقْعَدٌ ، وإنّ الجلوس من سفلى إلى علو ، ومنه قول عمر بن
عبد العزيز رضى الله عنه :

قُلْ لِلْفِرْزَدَقِ وَالسَّفَاهَةِ كَاشِمِهَا إِنْ كُنْتَ تَارِكٌ مَا أَمَرْتُكَ فَاجْلِسْ
أَيُّ اقْصِدْ نَجْدًا .

وكان عمر والياً على المدينة فقال للفرزدق : إن كنت تلزم العفاف ، وإلا
فأخرج إلى نجد .

(١) دوة النواص ٨٨ .

وحكى أبو عبد الله بن خالويه : قال دخلتُ على سيف الدولة بن سحَّدان يوماً ، فلما مَنَّتْ بين يديه قال : أقعد ، ولم يقل : اجلس ، فتبينت بذلك اعتقاله بأهداب الأدب وإطلاعه على أسرار كلام العرب .

والذى نظر هو الوجه ، ولهذا جملة على الاختيار ، ولم يجعله من اللعن ، إلا أنه تقرب للمعنيين ، يجوز أن يكون قد استعمل جلس في اللقاءات ، من القيام .

* * *

يرقب : ينظر ويحرس ثبنا : رجونا . استنارة : استخراج . مُلح : ما يُلحَّح به من الكلام . عيونه : محتاره . استنباط : استخراج . معينه : ماؤه الصافي . عيونه : جمع عين الماء . وكنى بالعينين والعين عن الكلام والقلوب . جُلنا : تصرفنا . يستحيل . يتغير . الانعكاس : قراءة اللفظة من آخرها . ساكب : صاب . تداعينا : دعا بعضنا بعضاً . نستدعي : نستدعى منها الفَنَاج وهو الولد . الأفكار : جمع فكر ، وجعل ما يبيده الفكر من الكلام تناجاً له . نَفَرع : نفتض . بُجانات : جمع بُجانة ، وهى حبة تعمل من فضة كالدرّة ، تدرّج : تتمشى . يربّع : يصنع أربع جهانات . ذو ، بمعنى صاحب . يسّبع : يصنع سبعا . رَغْمه : إكراهه وإذلاله . انتظمنا : اجتمعنا . تألّفنا : تصاحبنا وانضمّ بعضنا إلى بعض ، ومنه ألقت الكتاب . والألفة : الصّحبة والاجتماع . والكهف : الغار . وأصحابه قصتهم معروفة .

* * *

[قصة أصحاب الكهف]

قال ابن عباس في قوله عز وجل : ﴿ مَا يَقْلُمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ ^(١) : أنا من أولئك القليل ، وهم مكسليتنا ويمليخا ، وهو المبعوث بالورق إلى المدينة ، ومرطونس

(١) سورة الكهف ٢٢ .

وسارينوس وبوانس وكفشطيوس وقطينوسيوسوس، وهو الراعى، والسكاب اسمه قطنير وهو أنمردون السكروى وفوق القاطى .

وقال أبو شبل : بلغنى أن من كتب هذه الأسماء فى شيء ووضعها فى الحريق سكن الحريق .

وذكر الطبرى^(١) أنهم كانوا فى أيام الطوائف على دين عيسى ابن مريم ، وكانوا فى حكم ملك للروم يُسمى دقيانوس يبعد الأصنام ، فبلغه عن الفتيمة مخالفتهم لدينه ، فطلبهم فهربوا منه ، فاجتازوا براءى غنم ، فاتبهم بكلبه ، فعلموه دينهم ، وصاروا إلى ربهم ، فأوام الليل إلى كهف ، فقالوا : نبئت هنا الليلة ثم نصبح فترى رأينا ، ف ضرب الله على آذانهم فناموا ، وتبعهم الملك فوجدهم فى الكهف ، فلم يُطق أحد منهم دخوله ، فبنى عليهم باب الكهف ، ففتحه الرعاء بطول الزمان ، فأقاموا فيه ما ذكر الله تعالى ، ثم أحيام الله تعالى بعد ثلثمائة وتسع ، فشكوا : هل ناموا يوماً واحداً أو بعضه ؟ ثم مسحهم الجوع ، فبعثوا أحدهم بورق يشتري لهم طعاماً ، ووصوه أن يحترز حتى لا يشعر بهم أحد ، فبدل عليهم فيجئوا إلى الملك الذى فرأوا منه أمس فيما ظنوا ، فيرجعهم أو يرجعوا إلى دينه ، فلما أتى باب المدينة ، أنكر أن تكون هى التى خرج منها أمس فى ظنه لأنها تغيرت بمرور زمان بعد زمان عليها ، فأنكر أهلها . ثم أخرج الدراهم ليشتري طعاماً ، فقال له البائع : من أين لك هذه الدراهم ؟ وأمسكه ، فقال : خرجتُ أمس مع أصحاب لى فارّين من هذا الملك ودينه ، فبقنا فى كهف ، وأصبحنا اليوم ، فأرسلونى لأشترى لهم طعاماً ، فاستُر علينا ، فحمله الرجل إلى ملك المدينة يسمع منه ، وكان ملكاً صالحاً ، نقص عليه القصة ، فركب الملك فى جملة من الناس ليطعموا على أمرهم ، فدخل على أصحابه ، فوجدهم قد عادوا إلى نومهم ، ف ضرب الله على أذنه معهم ، فدخل الناس فوجدوا أجساماً لا يفكرون

منها شيئاً ، وكانهم مستيقظون يكلمونهم ، غير أنها بغير أرواح ، قال لهم الملك :
هذه آية الله إليكم ، فبنوا عليهم مسجداً يصلون فيه .

* * *

فابتدر لعظم محنتي ، صاحب ميمتي ، وقال : لم أخامل .
وقال ميامنه : كبر رجاء أجر ربك . وقال الذي يليه :
من يرب إذا بر ينم . وقال الآخر : سكّت كل من نم
لك تكس .

وأفضت النوبة إلى ، وقد تمّن نظم السمت السباعي على .
فلم يزل فكري يصوغ ويكسر ، وبشري ويفسر ، وفي
ضمن ذلك استطعم ، فلا أجد من يطعم ، إلى أن ركد النسيم ،
وحصحص التسليم ، فقلت لأصحابي : لو حضر السروجي هذا
المقام ، لشفى الداء العقام ، فقالوا : لو نزلت هذه بإياس ، لأمسك
على ياس . وجعلنا نفيض في استصعابها ، واستفلاق بابها ،
وذلك الزور المعترى يلحظنا لحظ المزدري ، ويؤلف الدرر
ونحن لا ندري .

* * *

قوله : « اعظم محنتي » اعظم بليتي .

* * *

لَمْ : من اللوم . مَلَّ : من الملل . كَبَّرَهُ : عَظَّمَ الكبير ، وقَدَّمَهُ على نفسك .

يَرْبُ : يصلح . بَرَّ : أَكْرَم . يَنْمُ : يَزِيدُ خَيْرُهُ ، وترتفع منزلته .
وَنَمَى الشَّيْءُ يَنْمُو نَمَاءً ، ونَمَوًا ونَمِيًّا : زاد ، قال الأصمعي : نَمَيْتُ
حديثَ فلان إلى فلان أَنَمِيهِ ، إذا بَلَغْتَهُ على وجه الإصلاح وطلب الخير ، وفي
الحديث : « فقال خيرًا أو نَمَى خيرًا » أى أبلغ خيرًا ، أو رفعه ، وكلُّ شَيْءٍ رَفَعْتَهُ
فقد نَمَيْتَهُ . ورواية ابن ظَفَر : « مَن يَرْبَ إذا بَرَّ يَنْمَى » ، أى إذا كان البر من
الناس يَمْشِي بالنَمِيمة فمن يرب فعلا جميلا ويصلحه .

تَكْسٍ : تَكُن كَيْسًا ، والكَيْس : الناقد فى أموره ، وقيل العاقل .
أَفْضَتْ : وصلت . النَّوْبَةُ : الدولة . السَّمْطُ : الخيط يُعْقَدُ فيه اللؤلؤ .
يَصُوغُ : يصنع . يُثْرِى وَيَفْسُرُ ، أى يستغنى ويفتقر ، أى يكثر الكلام مرة
ويقلل أخرى .

وفي ضمن ذلك ، أى فى أثنائه وفى مدته . اسْتَطْعِمَ : أطلب طعامًا ، هذا
أصله ، وتقول : أَطْعَمْتُ القارىءَ إذا وَقَفَ ففَتَحْتَ عَلَيْهِ وأَفْتَيْتَهُ . واستطعم هو ،
إذا استدعى ذلك . على رضى الله عنه : إذا استطعم الإمام فأطعموه ، أى إذا
أُرْتَبِحَ عَلَيْهِ فافْتَحُوا لَهُ .

ركد النسيم : سكنت الريح ، يعنى كلامه . حصحص : تبين . التسليم :
الانقياد ، أى انقادت للعجز عن الإنيان بها .

النقام : الموقف . المُعَامَ : الشديد الذى لا يؤثر فيه الدواء ، بمنزلة الرحيم
(١٤ - شرح مقامات الحريري - ٢)

القيم ، التي لا تؤثر فيها النطفة فلا تلد .
إياس ، تقدّم ذكره . واليأس : ضدّ الطمع .

ولما ذكر هنا إياساً ويأساً ، نذكر فصلاً ذكره في الدرة على اللفظين ،
قال : ^(١) ويقولون : أشرف فلان على الإياس من طلبه ، فيهمون ^(٢) كما وهم
أبو سعيد السكري ، وكان من جلة النحويين ، وأعلام العلماء المذكورين ،
فقال : إن إياساً سُميّ بالمصدر ، من أيس ، وليس كذلك - ^(٣) وإنما إياس عند
المحققين مصدر آسيتُهُ ، أي أعطيته ، والمصدر منه الأوس ، ومنه المواساة ، فكأنهم
سمّوا إياساً بمعنى تسميتهم عطاء ^(٤) . ووجه الكلام أن يقال : أشرف على اليأس ،
لأنّ أصل الفعل منه يئس على فعل ، قال الله تعالى : ﴿ قَدْ يئسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا
يئسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ ^(٥) فأما أيس بتقديم الهمزة فقلوب من يئس
واستدلّ شيخنا أبو القاسم بن الفضل ^(٥) النحويّ على صحّة ذلك بأن لفظة يئس ،
تساوى لفظة اليأس ، الذي هو الأصل في نظم الصيغة ، فتسكون الياء مبدوءاً بها
والهمزة مثنيّ بها بخلاف تنزلهما في أيس ، فلهذا حكم على أيس أنها مقلوّبة
من يئس ، والمقلوب لا يتصرّف تصرّف الأصل ولا يكون له مصدر .

نفيض : نندفع بالكلام . المعترى : القاصد . يلحظنا : ينظرنا بطرف عينه .
استعقاراً منه لنا . المزدرى : المحتقر . يؤلف : يجمع . الدرر : جواهر الكلام .

* * *

(١) درة القواس ١١٦ .

(٢) الدرة : فيوهمون .

(٣-٣) ساقط من درة القواس .

(٤) سدورة المتنحة ١٣ .

(٥) الدرة : « أبو القاسم الفضل بن محمد النحوي » .

فَمَتَى عَثَرَ عَلَى افْتِضَاحِنَا ، وَنَضُوبِ ضَحَضَاحِنَا ، قَالَ : يَا قَوْمُ ، إِنَّ
 مِنَ الْعَنَاءِ الْعَظِيمِ ، اسْتِيلَادَ الْعَقِيمِ ، وَالْإِسْتِشْفَاءَ بِالسَّقِيمِ ، وَفَوْقَ كُلِّ
 ذِي عِلْمٍ عِلْمٌ . ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ، وَقَالَ : سَأُنُوبُ مَنَابِكَ ، وَأَكْفِيكَ
 مَا نَابَكَ ؛ فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَنْثُرَ ، وَلَا تَعَثُرَ ، فَقُلْ مَخَاطِبَا لِمَنْ ذَمَّ الْبُخْلَ ،
 وَأَكْثَرَ الْعَذْلَ : لُذِّ بِكُلِّ مُؤَمِّلٍ ، إِذَا لَمْ وَمَلَكَ بَذَلٍ . وَإِنْ أَحْبَبْتَ
 أَنْ تَنْظِمَ ، فَقُلْ لِلَّذِي تُعْظَمُ :

أُسْ أَرْمَلًا إِذَا عَرَا وَازِعَ إِذَا الْمَرْءُ أَسَا
 أَسْنِدَ أَخَا نِبَاهَةٍ أَبْنُ إِخَاءٍ دَنَسَا
 أَسْلُ جَنَابَ غَاشِمٍ مَشَاغِبٍ إِنْ جَلَسَا
 أَسْرٍ إِذَا هَبَّ مَرَا وَارْمِ بِهِ إِذَا رَمَسَا
 أَسْكُنْ تَقَوَّ قَعَسَى يُسْعِفُ وَقْتُ نَكَسَا

* * *

عثر : اطلع . افتضاحنا : اشتهارنا بالمعجز . نضوب ضحضاحنا : جنوف
 هائنا القليل . الاستيلاد : طلب الولد ، يقول : إنَّ من تعب النفس طلب فائدة
 من ذهن كلي وقرينة جامدة . نابك : نزل بك . تنثر : تقول نثراً . لُذِّ : استعتر
 به والجا إليه . مؤمل : مرجو فعل الخير . لم : جمع المال . بذل : تكرم على
 غيره ، وهذا اللفظ من المعكوس في النثر بديع ، فما ظنك بهذا النظم الرفيع الذي
 أردفه عليه ، فإنه من أشرف حسناته ، رحمه الله !

قوله : « أُسْ » أعط ، والأوئس : العطية . أرملا : فقيراً أفنى زاده . عرا :

قصد. ارفع : احفظ الصحبة . أسأ : أتى بسوء ، وأصله الهمز أساء فسُهل الهمزة ، يقول : إِنْ قَصَدَكَ فَقِيرٌ فَصِلْهُ ، وَإِنْ أَخْطَأَ عَلَيْكَ صَاحِبٌ فَلَا تَقْطَعْهُ ، و ارفع حقّ الصحبة ، ويقال : المرء بالهمز ، والمرء بلا همز ، وبترك الهمز يستقيم الانعكاس في بيت الحريري ، ويقال : المرة ، قال دعبل :

واخفظ عشيرتك الأدينين إِنْ آهَمُّ حقاً يفرق بين الزوج والبرّة^(١)

وهذا البيت الذي فسرناه وما بعده من الأبيات تقرؤه إن شئت من أوله ، وإن شئت من آخره . وجعل هذا النمط في عكس الحروف توطئة لما يذكر في المقامة بعد هذا في الرسالة الفهقرية ، من عكس ألفاظها ، من أولها إلى آخرها إلا أن ذلك العكس بالألفاظ وهذا بالحروف ، وكلاهما غاية في بابه ، وإنما يذكر الأدباء هذا استملاحاً في كلامهم ، وامتحاناً لخواطرم .

* * *

[مثل من التصحيف وقلب الكلام]

ونريد أن نذكر هنا فصلاً مما يوافقه أو يقاربه على ما شرطناه ؛ فمن ذلك أن بعض الأدباء اتهم صاحباً له بسماية في جانبه فكتب إليه في المجلس : ساءك نم ، فنظره الذي وشى به ، فكتب إليه : صحفه وقلب ، فهو والله مانطق به على لسانك ، من بغيك وعدوانك ، وهو مقلوب مصحف : منك أتيت ، فتضاحك وتصافيا .

وكتب بعضهم إلى خازن السلطان :

قد أقبل الشهر وإقباله يأتي بما أجرى ترتيبه

(١) ديوانه ص ٤٧ .

فوجه البرّ ومقلوبه يحزبك عن برّك مقلوبه

وكتب بعض الظرفاء إلى صاحب له وهو مقلوب مصحف : ظي سراب
خشن . فإذا قرأته على الولاء من آخره بعد القلب والتصحيف جاء منه : حُسن
شراب طيب .

ومن أنواع المعميات التصحيف ، ومثاله : أن إبراهيم بن المهدي كتب إلى
إسحاق الموصلي : لا يرتج مثل الأسنة ، فكتب إليه إسحاق . لا يرث جميل
إلا بثينة .

وقال أبو الجهم بن الأنباري للحسن بن وهب : مات مصحف : كلني بيمينك
فبعني بحبتين ، فقال : كل شيء منك في عيني حسن .

وغاب صديق عن صديق له ، فلما لقيه قال له : عنّ تبجي ، فجوابه : زرعنا
يرذاذ حباً ، فالأول قال : غبت عني ، والثاني قال : زرغباً تزداد حباً .

وذكر في بعض مجالس الأدب التصحيف ، فقال فتى شاب : أنا ابن بجدته ،
فقال بعضهم : مات مصحف : نصحت فحشي ، فقال : تصحيف حسن ، فاستغرب
إسراعه ، فاتهمه شاعر من بلنسية ، فقال : مات مصحف بلنسية ؟ فأطرق ساعة ،
ثم قال : أربعة أشهر ، فقال له البلنسي : صدق ظني إنك تنحل ما تقول ويحك !
والفتى يضحك ، فقال له : اشمر ، فإنك شاعر ، فقال : وأي نسبة بين أربعة
أشهر وبلنسية ؟ فقام وهو يقول : هو ذاك ؛ ثم تنبه بعد انصراف الفتى بعض من
حضر ، فنظر فإذا أربعة أشهر ثلث سنة ، وهو تصحيف بلنسية ، فحجل المنازع ،
ومضى إلى دار الفتى معتذراً .

كتب بعض وزراء ابن عباد إليه يتسخط الإخوان هذا البيت :

وإذا صفا لك من زمانك واحد فهو المراد ، وأين ذاك الواحد !

فوقع في الكتاب: وأين ذاك الواحد؟ صحّف تعرف: فلما قرأه الوزير طار سروراً، ومثل بالبساط فلثمه بين يديه، وإنما صحّف، وأين، نجاء منه: وأنت، فردّ عليه من كلامه أبلغ جواب.

ومن ملح ابن عباد في التصحيف، أنه خرج في جملة وزرائه الأدباء، فاجتازوا بإشبياتة بالموضع الذي يباع فيه الجير والجبس، فلقى هناك جارية من أحسن الناس وأقلمهم حياء. فأقبل ابن عباد على ابن عمار، وقال: يا ابن عمار الجيارين، فقال ابن عمار: يا مولاي والجباسين، فعلم من حضر أنهما لم يريد أن يعرف كل واحد منهما صاحبه بما ذكر، فبحثوا عن مرادهما، فلم يعرفوه، فسألوا: ابن عمار، فقال له ابن عباد: لا تتبعها منهم إلا غالية. ثم إن ابن عمار أخبرهم أن ابن عباد أعجبه حسن الجارية، وخابها بقله الحياء، فصحّف «الجيارين»، نجاء منه «الحيازين» وصحّفت أنا «الجباسين»، نجاء منه «الخناسين»، فاستغربوا حضور أذهانهما وحسن كتابتهما.

أين هذه الأذهان من رجل مغفل، كان له ابن يُسَمَّى حسناً مسافراً، فاستفتح المصحف يتفأله في القدوم، فخرج له «وَحُسْن مآب»، فترك التيامن بهذا اللفظ لمآب الفتى سالماً، وقال: تصحيف «حسن مآب»: «حسن مات»، فاستدعى أم الفتى وخدمه، ونعاه لمن فاق من مناعة، وجاء الجيران والقرابة يتظلمون حادثهم، فهو يخبرهم بما تصحّفت له، والفتى داخل قد أقبل في أغبط حال وأسرّها، فاستحق وصار مثلاً.

* * *

قوله: «أسند» أضفه إليك وقرّ به منك. نباهة: رفعة. أبن: باعد. دنس: عيب. يقول: صاحب من يشرفك بذكره الجليل، وباعد من يدنس عرّضك وتغاب به.

* * *

[من أقوالهم في اختيار الصديق]

وقد قيل : الصاحب رُقعة في الثوب ، فليَنظر الإنسان ما يرقع به ثوبه .

قال ابن رشيقي :

اصحب ذوى القَدْرِ واستعد بهم وعدَّ عن كل ساقط سَفِلَه^(١)
فصاحبُ المرء شاهدٌ ثِقَةٌ يقضى به غائباً عليه ولَهْ
ورُقعة الثوب حين تَلَبَّسَه شهرته أو تكون مشكلَهْ

وفي الحديث : « الأنفس أجناد مجتدة ، وإنها لتشام في الهوى كما تشام الخيل فإتعارف منها ائتلف وماتناكر منها اختلف » .

ونظم هذا الحديث أبو نواس فقال :

إنَّ القلوب لأجنادٌ مُجْتَدَّةٌ لله في الأرض بالأهواء تعترف^(٢)
فما تعارف منها فهو مؤتلفٌ وما تناكر منها فهو مختلفٌ
وقال طرفه - أو عدى بن زيد :

إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم

ولا تصحب الأردى فتدَى مع الردى^(٣)

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه

فكلُّ قرين بالمقارن مقتدى

(١) نقله في التتبع ٦٠ .

(٢) ديوانه ٤٠٨ .

(٣) البيت الثانى في ملحق ديوان طرفة ٨٢١ .

وقال أبو العتاهية :

اصحب ذوى الفضل وأهل الدين فالمرء منسوب إلى القرين

وقال الخالدي :

وإذا أردت ترى فضيلة صاحب فانظر بعين البحث مَنْ ندماه
فالمرء مطوي على علاته طوى الكتاب وصحبه عنوانه

ومما يروى لعلي بن أبي طالب رضى الله عنه :

فلا تصحب أخا التواء وإياك وإياه
فكم من جاهل أودى حليماً حين آخاه
يقاس المرء بالمرء إذا ما المرء ماشاه
وفي الناس من الناس مقاييس وأشباه
وفي المئين غنى للمئين أن تنطق أفواه
وللقب على القلب دليل حين يلقاه

وقال ابن رشيقي :

اختر لنفسك من تما دى كاختيارك من تصادق^(١)
إن المدود أخو الصديق وإن تخالفت الطرائق

قوله : « اسل جناب غاشم » يريد جانب منزل ظالم ، ولا تقرب به . وسلوت
يقعدى بمن وبنفسه ، تقول : سلوت عنه ، وسلوته وسليةته .

(١) نقله في التنف ٥٤ .

وقال الأسود بن يعفر :

فأقسمت لا أشريه حتى يملئني بشيء ولا أسليه حتى يفارقا
قوله : « مُشَاغِبٌ » مسارع للشرِّ . هب : تحرك . مرأ : جدال ، ومعنى
« اسر » اكشف وأزل ، يقول : إذا تعلق بك وهب عليك جدال من صاحب
فاكشفه عن نفسك بالناصحة ، وبعده المرأ . وتقول : سرّيت الثوب عني ،
وسرّيته ، إذا كشفته ، قال ابن هزّمة :

* سرى ثوبه عني السرى المتخايل * (١)

ومنه سرّى عن الرجل أى كشف عنه ما كان يجده من النعم والغضب ،
وقد يكون معنى « اسر » باعد وفارق من الشرى ، وهو سير الليل ، فيقول : فارق
موضع الجدال وبعده . رسا : ثبت ، أى إذا سكن الخلاف بين القوم فارزم
أنت به واتركه ، ويروى : « اسر » بالضم ، أى كن سرّياً ، أى سيداً ذا مروءة ،
إذا هاج الجدال بين القوم فباعده .

وقال سابق البربرى :

لا تنفعن لجوجاً حين تزجره إنّ الأجاج له فى المال إغراه
وأغض فى حسن عفوٍ عن نوادره فالحرّ فيه عن الآفات إغضاه

* * *

[ذكر المرأ والجدال وما يتولد منهما]

والمرأ مدافعة الحق وترك الانقياد ، لما ظهر منه ، وقد يستعمل بمعنى الجدال ،
فمن جادل ليظهر باطلاً فجداله محظور .

(١) ديوانه ١٦٦ وبقيته

* وآذن بالبين الخليط المزابل *

وفي الحديث : « من ترك الجِدالُ مُحِقاً بنى الله له بيتاً في الجنة » .
وقال ميمون بن مهران : لا تمارِ مَنْ هو أعلم منك إنه يحتزن عنك علمه .
ولم تضره شيئاً .

وقال لقمان لابنه : مَنْ لا يملك لسانه يندم ، وَمَنْ يكثرِ الرِّاءَ يُشْتَمَ ،
ومن يدخلُ مَدَاخِلَ السوءِ يَتَّهَمُ . يابنَى لا تمارِ العلماء فيمقتوك .
وقال مالك بن أنس رضي الله عنه : للرِّاءِ بقسى القلوب ويورث الضغائن .
وقال بلال بن مِهْمْدَة : إذا رأيت الرجل لجوجاً ماريكاً معجباً بنفسه فقد
تمت خسارته .

ولسعر بن كدام مخاطب ابنه :

إني منحتك يا كِدام نصيحتي فاسمع لقول أبي ، عليك شفيق^(١)
أما المزاحمة والمراء فدعُهما خُلقان لا أرضاهما لصديق
إني بلوتُهما فلم أخترُهما لجوار جارٍ ولا لرفيق

قوله : « اسكن » الزم السكون والوقار . تقوى : أراد تقوى . يسعف :
يساعد ويوافق . نكسَ : قصر بك ، يقول : لا تبادر إلى الجدال ، والزم
السكون ، حتى يتقوى نظرك ، ويظهر لك صوابك ، فمسي يوافقك على الإصابة
يحسن التدبير وقت كان يصرفك عن الصواب ، لو ألزمت الجدال .

ومن أعاجيب ابن الرومي قوله في ذم الجدال :

لأولى الجدالِ إذا غدوا لجدالهم حجج تضلّ عن الهدى وتَجُورُ
وهنّ كناية الزجاج تصادمت فهوت وكلّ مكاسر مكسورُ
فالقاتل المقتول ثم لو هُنيئ ولضعفه ، والآسر الأسورُ

(١) حساسة البحرى ٥٣ ، عيون الأخبار ١ : ٣١٨ .

وقال من شعر يمازح صديقاً له :

لكن في الشيخ غريزية يخاصمُ الله بها في القدرِ
ما كان لِمَ كان وما لم يكن لم يكن فهو كَيْلُ البَشَرِ

* * *

قَالَ : فَلَمَّا سَحَرْنَا بِآيَاتِهِ ، وَحَسَرْنَا بِبُعْدِ غَايَاتِهِ ، مَدَحْنَاهُ
حَتَّى اسْتَعْفَى ، وَمَنَحْنَاهُ إِلَى أَنْ اسْتَكْفَى .

ثُمَّ شَمَّرَ ثِيَابَهُ ، وَازْدَقَرَ جِرَابَهُ ، وَهَضَّ يُنْشِدُ :

للهِ دَرْ عَصَابَةٍ صُدِقَ الْمَقَالِ مَقَاوِلَا
فَاقُوا الْأَنَامَ فَضَائِلَا مَأْثُورَةً ، وَفَوَاضِلَا
حَاوَرْتُهُمْ فَوَجَدْتُ سَخَا بَانَ لَدَيْهِمْ بِأَقْلَا
وَحَلَلْتُ فِيهِمْ سَائِلَا فَلَقِيتُ جُودَا سَائِلَا
أَقْسَمْتُ ، لَوْ كَانَ الْكِرَا مُ حَيَا ، لَسَكَانُوا وَابِلَا

* * *

قوله : « سحرنا » تركنا مسحورين . بآياته . بعجائبه ، يقول : إن فلاناً
آيةٌ من الآيات ، أى عجب من العجائب . حسرنا : قطعنا وأكلنا . والفاية :
الطَّاق ، يريد أنا كلنا في الفايات التى جرى فيها لبعدها ؛ ويريد اتساعه فى
الكلام

استعفى : قال : عافونى منه . منحناه : أعطيناه . استكفى : قال : يكفينى .

ازدفر : حمله على ظهره ، والزفر الحِملُ على الظهر . جرابه : وعاء خبزه . عصاية : جماعة . صدق المقال ، أى صادقين فى قولهم ، وصدق جمع صدوق ، وعدل عن صدوق على جهة المبالغة فى صدقه . مقاولا : ملوكا . فاقوا : فضلوا ، وزادوا عليهم . فضائلا : جمع فضيلة ، وهى ما تفضل به غيرك من الأفعال الحمودة . مأثورة : متحدث بها .

فواضلا : عطايا وأيادى ، الواحدة فضيلة ، وفواضل المال : ما يأتيك من مرافقتك وعكسه .

ومن كلام العرب : إذا عزب المال قلت فواضله ، أى قل انتفاع رب الإبل بلبنها إذا بعدت ، قال الشاعر :

سأبغنيك مالاً بالمدينة إننى أرى عازبَ الأموال قلت فواضله
قوله : « حاورتهم » خاطبتهم .

* * *

[ذكر سحبان وائل]

سحبان فصيح العرب ، وهو سحبان بن زفر بن إياس بن عبد شمس الوائلى من وائل باهلة ، وكان من فصحاء العرب وبلغائها ، وبه يضرب المثل فى البيان والفصاحة ، فيقال : أفصح من سحبان .

ودخل عند معاوية وعنده خطباء القبائل ، فلما رأوه خرجوا لهمهم بقصورهم عنه ، فقال :

لقد علم الحىّ اليمانون أننى إذا قلت أما بعد أنى خطيبها^(١)

(١) البيت من شواهد الرضى فى السكافية ، وهو مع ترجمة سحبان فى خزنة الأدب لابن دى ٤ : ٣٤٦ - ٣٤٨ ، قال : وروى صدره :

* وقد علمت قيس عيلان أننى *

فقال له معاوية : اخطب ، فقال : انظروا لى عصاً ، فقالوا : وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين ؟ قال : وما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه ! فأخذها فى يده ، فتكلم من الظهر إلى أن كادت صلاة العصر تفوت ، ماتنحنيح ولا سعل ، ولا توقف ولا ابتداء فى معنئ ، فخرج منه وقد بقيت عليه فيه بقية ، ولا مال عن الجنس الذى يخطب فيه ، فقال معاوية : الصلاة ! فقال : الصلاة أمامك ، ألسنا فى تحميد وتمجيد ، وعظة وتنبيه ، ووعد ووعد ! فقال له معاوية : أنت أخطب العرب ، فقال : العرب وحدها ! بل أخطب الإنس والجن ، فقال له معاوية : كذلك أنت .

وهو أول من قال : أما بعد ، وأول من آمن بالبعث من الجاهلية ، وأول من توكأ على عصا ، وعمر مائة وثمانين سنة ، وهو القائل يمدح طلحة بن عبيد الله ، وهو طلحة الطلحات الخزاعى فقال فيه :

يا طالح أكرم من مشى حسباً وأعطاهم لِقَالِد^(١)
منك المطايا فاعطنى وعلى مدحك فى المشاهد

فقال له طلحة : احتمكم ، فقال : برّ ذونك الورد ، وفعمرك بزرنج^(٢) ، وغلارك الخباز^(٣) ، وعشرة آلاف درهم ، فقال له : أف أف لك ! لم تسألنى على قدرى ، إنما سألتنى على قدرك وقدر باهلة ، والله لو سألتنى كل قصر لى وعبد ودابة لأعطيتك .

* * *

(١) الخزانة ٤ : ٨٤٣ ، الميدانى ١ : ٢٤٨ .

(٢) ط : « بدرنج » ، تحريف ، صوابه من الخزانة وجمع الأمثال . وذكره ياقوت فى أبيات لعبيد الله بن قيس الرقيات يمدح مصعب بن الزبير :

ملكٌ يُطعم الطعام ويُستقى لبن البُخْتِ فى عساس الخُلنج
جلب الخيل من تهامة حتى بلغت خيله قصور زرنج

(٣) ط : « الخباز » ، وصوابه من ب والخزانة وجمع الأمثال .

[ذكر باقل]

قوله : « باقلا » ، هو من إباد ، قيل من بنى مازن . وقال حميد الأرقط في وصف ضيف أكثر من الطعام :

أتانا وما دانا سحبان وائل بياناً وعلماً بالذي هو قائل^(١)
فما زال عنه اللقم حتى كأنه من العي لَمَّا أن تكلم باقل^(٢)

والعرب تقول : إنه لأعيا من باقل ، ومن عيّه أنه اشترى ظيباً ، شمله على عُنقه ، فسئل عن ثمنه ، فخلّ عنه يديه وفتح أصابعه ، وأشار بها - وأخرج سانه - يريد أنه بأحد عشر درهماً ، ولم يلهم أن يخبر عن سومه بلسانه - ولنا غير باقل بفعله قال :

يلومون في عيّه باقلاً كأن الحماقة لم تُخلَق^(٣)
فلا تسكروا العتب في عيّه فللمى أجمل بالأموق
خروج اللسان وفتح البنان أخفت علينا من المنطق

الأموق : الأحق . قوله : « حلت » نزلت . سائلا : طالبا معروفيهم .
جوداً : كرماً . سائلا : جارياً . حياً : مطراً كثيراً .

والوابل : أشد المطر ، يريد أنهم كانوا يزدون عليهم في الفضل .

* * *

(١) الميداني ٢ : ٤٣ .

(٢) بعده في الميداني :

يقول وقد ألقى المراسي للقرى ابن لي ما الحاج بالناس فاعل !
يدلل كفاه ويخدر خلقه إلى البطن ما ضمت عليه الأنامل
فقلت لعمرى ما لهذا طرقتنا فكأن ودع الإرجاف ما أنت آكل

(٣) بقية الدهر ٢ : ٢٤٢ .

ثُمَّ خَطَا قَيْدَ رُمَحَيْنِ ، وَعَادَ مُسْتَعِيدًا مِنَ الْحَيْنِ ، وَقَالَ :
 بَاعَزَ مِنْ عَدِمِ الْآلِ ، وَكَنَزَ مَنْ سُلِبَ الْمَالِ ، إِنَّ الْفَاسِقَ
 قَدْ وَقَبَ ، وَوَجَهَ الْحَجَّةِ قَدْ انْتَقَبَ ، وَيَبْنِي وَبَيْنَ كِنَى لَيْلِ
 دَامِسَ ، وَطَرِيقُ طَامِسَ ، فَهَلْ مِنْ مِصْبَاحٍ يُؤْمِنُنِي الْعِثَارُ
 وَيُبَيِّنُ لِي الْآثَارَ ؟

* * *

خطا : مشى ونقل خطاه . قَيد : قَدَر . مستعيداً : مستجيراً . الحين :
 الموت . عديم الآل : فقد الأهل ، يقول : أنتم عزَّ لمن فقد أهله ، وكنز لمن
 أخذ ماله . الفاسق : القمر .

عائشة رضى الله عنها قالت : نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى القمر ، فقال :
 « يا عائشة استعيزي بالله من شرِّ هذا ، فإنَّ هذا هو الفاسق إذا وقب » ، يعنى
 حين شرِّه إذا كسف . ووقب القمر : يقبُ وقوباً : دخل فى الظلام الذى يكسفه ،
 وكلُّ ما غاب فقد وقَبَ . الحجَّة : الطريق . انتقب : استتر ، وجعل من الظلام
 نقاباً . وكِنَى : منزلى . دامس : مظلم . طامس : دارس ؛ لأنَّ الظلام لما غطاء
 كأنه محاء . الآثار : الطرق التى أثر فيها المشى .

* * *

[وصف الشمع]

قال الصابى فى شمعة ، وذكر هذا المعنى :

وليلة من محاق الشَّهر مُدْجَنَةٌ لا النجم يهْدِي الدُّرَى فيها ولا القمرُ^(١)

(١) يثيمة الدهر ٢ : ٢٤٢ .

كلّفت نفسي بها الإدلاج ممطياً عزماً، هو الصارم للصمّامة الذّكر
إلى حبيبٍ له في النّفس منزلة ما حلّمها قبله سمعٌ ولا بصَرُ
ولا دلائل سوى هيفاء مخطّفة^(١) تهدي الرّكاب وجنح اللّيل معتكّر
غصن من الذهب الإبريز أثمر في أعلاه ياقوتة صفراء تستعير
تأنيك ليلاً كما يأتي المريب فإنّ لاح الصّباح طوتها دونها الجدر^(٢)

وقال آخر في مثله :

لنا شمعٌ نيطت ذراها بشعلة كحقة تبرّ علقت بلسانها
إذا عثر الساري بذيل من الدّجا نحرنا له قلب الدّجى بسفانها
تفك قيود اللّيل عن كل زائر فتجري بها الرّجلان ملء عنانها
إذا ما أحست بالصّباح تمارضت كترجسة قد أذبلت بمكانها
تموت إذا ما قبلت خدّ حاطط فتثبت خلا فوّه من دُخانها
كان الجرّاد امتصّ جوهر رُوحها ولم يمتنع منها سويدا جناها

وقال النّمرى :

ولما دجا اللّيل مزقته بروح ينجفُ جثانها
بشمعٍ أعير قدود الرّماح يحاكي ذراها وألوانها
غصون من التبر قد ركبت لهيباً يزبّ أفسانها
فيا حسن أرواحها في الدّجى وقد أكلت فيه أبدانها

* * *

(١) المخطّفة : الضامرة البطن

(٢) اليقظة : « دونك المذر » .

قَالَ : فَلَمَّا جِئَ بِالْمَلْتَمَسِ ، وَجَلَّى الْوُجُوهَ صَوْنُ الْقَبَسِ ،
رَأَيْتُ صَاحِبَ صَيْدِنَا ، هُوَ أَبُو زَيْدِنَا .

فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي : هَذَا الَّذِي أَشَرْتُ إِلَى أَنَّهُ إِذَا نَاطَقَ أَصَابَ ،
وإن اسْتُمَطَرَ صَابَ .

فَاتْلَمَعُوا نَحْوَهُ الْأَغْنَاقَ ، وَأَحْدَقُوا بِهِ الْأَحْدَاقَ ، وَسَأَلُوهُ
أَن يُسَامِرَهُمْ لَيْلَتُهُ ، عَلَى أَن يَجْبُرُوا عَيْلَتَهُ . فَقَالَ : حُبًّا لِّمَا أَحْبَبْتُمْ ،
وَرُحْبًا بِكُمْ إِذْ رَحَبْتُمْ ، غَيْرَ أَنِّي قَصَدْتُكُمْ وَأَطْفَالِي يَتَضَوَّرُونَ
مِنَ الْجُوعِ ، وَيَدْعُونَ لِي بِوَشَكِّ الرُّجُوعِ ، وَإِنْ اسْتَرَأْتُونِي
خَامَرَهُمُ الطَّيِّشُ ، وَلَمْ يَصْفُ لَهُمُ الْعَيْشُ ، فَدَعُونِي لِأَذْهَبَ
فَأُسَدَّ نَخْمَتَهُمْ ، وَأَسِيغَ غَضَبَهُمْ ، ثُمَّ أَتَقَلِّبَ إِلَيْكُمْ عَلَى الْأَثَرِ ،
مُتَأَهِّبًا لِلْسَّيْرِ إِلَى السَّحَرِ .

فَقُلْنَا لِأَحَدِ الْغِلْمَةِ : اتَّبِعْهُ إِلَى فِتْنَتِهِ ، لِيَكُونَ أَسْرَعَ لِفَيْتْنَتِهِ ،
فَانْطَلَقَ مَعَهُ مُضْطَبِّنًا جِرَابَهُ ، وَمُخْبِحًا إِيَّابَهُ .

* * *

قوله : « الْمَلْتَمَسِ » ، أى المطلوب وهو المصباح ، والقبس ضوءه . جلا :
كشف . صاحب صيدنا ، أى الذى اصطاد أموالنا . استمطر : سُئِلَ المطر .
صَاب : وَقَعَ وقعا شديدا ، وكنى بالمطر الصَّوْبَ عن العلم الكثير . اتلمعوا :
مددوا ، وأتلع الرجل : نصبَ عنقه ومدَّها ، وتناول لينظر شيئا . أحدقوا :
(١٥ - شرح مقامات الحريري ج ٢)

حَلَقُوا وَأَحَاطُوا ، والأحداق : سواد العين الأعظم : عيلته : فقره
يَتَضَوَّرُونَ : يَصِيحُونَ . ابن الأنباري : وقولهم : تركته يتضوَّر ، معناه
يظهر الضر الذي وقع به بالتقلل والاضطراب والصياح ، فيتضوَّر ، يتفعل من
الضوَر ، والضوَر بمعنى الضَّيْر ، ويقال : ضررتني بضرئي ضراً ، وضارني يضرني
ويَضُوْرني ضيراً وضوراً بمعنى . وشك : سرعة . استراثوني : استبطوني .
خامرهم : خالطهم . الطيش : الخفة وذهاب العقل من الجوع . أسد
مخمتهم : أزيل جوعهم . والفصة : ما يُخْتَنَق به وإساعتها : تسهيلها حتى تبتلع .
انقلب على الأثر ، أى في الحين وفي الطريق الذي أمضى فيه . أرجع : أمشى
على أثرى فيه مسرعاً ، قبل أن يمشى غيرى فيغيِّره ، فهذا معنى أقلب على
الأثر . متأهباً : مستعداً . فيئته : رجوعه . مضطبنا : حاملاً على ضِيبته^(١)
وهو خصره . محنحنا : معجلاً . إياه : رجوعه .

* * *

فأبطأ بَطْطاً جاوزَ حدَّه ، ثمَّ عادَ الغلامُ وحده ، فقلنا له :
ما عندك من الحديث ، عن الخبيث ؟

فقال : أَخَذَنِي فِي طُرُقٍ مُتَعَبَةٍ ، وَسُئِلَ مُتَشَعِّبَةً ، حَتَّى
أَفْضَيْنَا إِلَى دُوَيْرَةِ خَرِبَةٍ ، فَقَالَ : هَاهُنَا مُنَاخِي ، وَوَكُرُ
أَفْرَاخِي . ثُمَّ اسْتَفْتَحَ بَابَهُ ، وَاخْتَلَجَ مِنِّي جِرَابُهُ ، وَقَالَ :
لَعَمْرِي ، لَقَدْ خَفَّفْتَ عَنِّي ، وَاسْتَوْجَبْتَ الْحُسْنَى مِنِّي ،
فَهَاكَ نَصِيحَةٌ هِيَ مِنْ نَقَائِسِ النَّصَائِحِ ، وَمَنَارِسِ الْمَصَالِحِ ،
وَأَنْشُد :

(١) : ط طينة « تحريف

إِذَا مَا حَوَيْتَ جَنَى نَخْلَةٍ فَلَا تَقْرَبْنَهَا إِلَى قَابِلٍ
وَأَمَّا سَقَطَتْ عَلَى بَيْدَرٍ فَحَوِصِلٍ مِنَ السُّنْبُلِ الْحَاصِلِ
وَلَا تَلْبَثَنَّ إِذَا مَا لَقِطْتَ فَتَنْشَبَ فِي كِفَّةِ الْحَابِلِ
وَلَا تُوْغِلَنَّ إِذَا مَا سَبَحْتَ فَإِنَّ السَّلَامَةَ فِي السَّاحِلِ
وَخَاطِبُ بَهَاتٍ وَجَاوِبُ بِسُوفَ وَبِعْ أَجَلًا مِنْكَ بِالْعَاجِلِ
وَلَا تُكْثِرَنَّ عَلَى صَاحِبٍ فَمَا مِلَّ قَطُّ سِوَى الْوَاصِلِ

* * *

الخبيث ، قال أبو الهيثم : الخبيث : الذكر من الشياطين وجمعه خُبث .
أبو عبيدة : الخبيث : ذو الخُبث في تفسيره . متشعبة : متفرقة ، وتشعبَ
الطريق : خرجت منه شعب إلى كل جهة ، أى طرق آخر ، فأراد أنه خلط عليه
بحيث لا يهتدى إلى منزله ، فكان يخرج من طريق إلى طريق . أفضينا :
وصلنا ، وهو من الفضاء . مناخى : منزلى ، وأصله موضع إناخة البعير .
وكر أفرأحى : عش أولادى . استفتح : ضرب وقال : افتحوا الباب .
اختلج : أخذ بسرعة . جرابه : وعاء زاده . الحسنى : الفعل الحسن .
هاك : خذ النفائس : الذخائر : الرقاع . مغارس : مواضع يُفرَس فيها .
المصالح : جمع مَصْلَحَة ، مفعلة من الصلاح . حويت : جمعت وحزت .
جنى نخلة : هو التمر . بَيْدَر : أندر الزرع ، يسمّى بالشأم أندر ، وبالعراق
بَيْدَر . حَوِصِل : اجعل فى حَوِصْلِكَ وهى للظائر فى الأصل . كِفَّة :
شبكة . الحابل : الصائد . تُوْغِلَنَّ : تكثرن الدخول . سبخت :

حمت . الساحل : ما ولي الماء من الأرض ، وهو فاعل بمعنى مفعول ، لأن الماء سحله أى قشره وأخذ عشبه ، كما تُسحل الحديد بالبرد ، أى تبرد بالبرد ، والسحالة : ماستط من المسحول .

وخاطب بهات : عكس قول صاحب ، وقد أهدى إليه العميرى^(١) قاضى قزوين هدية وكتب معها :

العميرى عبد كافى الكفاة ومن اعتد فى وجوه القضاة^(٢)
خدم المجلس الرفيع بكتب مفعمات من حسناتها مترعات
فوقع تحتها :

قد قبلنا من الجميع كتاباً ورددنا لوقتها الباقيات
لست أستغنم الكثير فطنبى قول خذ ، ليس مذهبي قول هات
قوله : « آجلا » ضد عاجل . وقوله : « ولا تكثرن على صاحب » ،
أى لا تكثرن من الزيارة وأقلها خشية الملل . وروى قدامة بن جعفر أن
رجلاً كتب إلى آخر : إن رأيت أن تحدّد^(٣) لى موعداً لزيارتك أتوقته
إلى وقت رؤيتك فيؤنسنى إلى حين ، فافعل .

فأجابه الآخر : أخاف أن أعدك وعداً يعرض دون الوفاء به مالا أملك
دفعه ، فتسكون الحسرة أعظم من الفرقة .

فأجابه : إنما أمرت بموعده ، وأكون جدلاً بانتظارك ، فإن عاق عائق عن
إنجاز وعدك ، كنت قد رجحت السرور لما أحبه ، وأصبت أجرى على الحسرة
بما حرمته .

(١) بتيمة الدهر ٣ : ١٧٤ .

(٢) ط : « العميرى » ، وما أثبتته من ب ، ج والبيتية .

(٣) ط : « تحدّد » ، بالجيم .

[نبذ مما قيل في الزائر]

ولبعضهم :

أَتَى زَائِرًا مِنْ غَيْرِ وَعَدِ وَقَالَ لِي أَجَلَّكَ عَنْ تَعْذِيبِ قَلْبِكَ بِالْوَعْدِ

وَمَا جَاءَ فِي قَصْرِ الزَّيَارَةِ قَوْلُ أَبِي الشَّيْصِ :

يَا حَبْتَا الزَّوْرَ الَّذِي زَارَا كَأَنَّهُ مَقْتَبِسٌ نَارًا
 نَفْسِي فِدَاءَ لَكَ مِنْ زَائِرٍ مَاحِلٍ حَتَّى قِيلَ قَدْ سَارَا
 مَرَّ بَبَابِ الدَّارِ فَاجْتَازَهَا يَالَيْقَهُ لَوْ دَخَلَ الدَّارَا !

وَأَشَدُّ الْحَاتِمِي وَالْوَكِيمِي لِحَفْظَةِ :

يَأْبَى مَنْ زَارَنِي مَكْتَبِمَا خَائِفًا مِنْ كُلِّ حَسٍّ جَزِعَا
 حَذِرًا دَلَّ عَلَيْهِ نَوْرُهُ كَيْفَ يُخْفِي اللَّيْلُ بَدْرًا طَلَعَا
 رَصَدَ الْخَلْوَةَ حَتَّى أَمَكَنْتُ وَرَعَى السَّامِرَ حَتَّى هَجَمَا
 كَابِدَ الْأَهْوَالِ فِي زَوْرَتِهِ ثُمَّ مَاسَلَمَ حَتَّى وَدَعَا

وَقَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ الْأَحْنَفِ :

سَأَلُونَا عَنْ حَالِنَا كَيْفَ أَتَمُّ فَقَرَنَّا وَدَاعَهُمْ بِالسُّؤَالِ^(١)
 مَا أَنَاخُوا حَتَّى ارْتَحَلْنَا فَمَا نَفَرَقَ بَيْنَ النَّزُولِ وَالتَّزْحَلِ

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أُمَيَّةَ السَّكَّابِ :

يَا فِرَاقًا أَتَى بِعَقْبِ فِرَاقٍ وَاتِّفَاقًا جَرَى بِغَيْرِ اتِّفَاقٍ
 حِينَ حَطَّتْ رِكَابُهُمْ لِتَلَاقٍ زُمْتُ الْعَيْسُ مِنْهُمْ لِانْطِلَاقٍ

(١) ديوانه ٢٣١ ، والرواية فيه :

مَا أَمَخْنَا حَتَّى ارْتَحَلْنَا فَمَا نَفَرَقَ بَيْنَ النَّاخِ وَالْإِرْتِحَالِ
 سَأَلُونَا عَنْ حَالِنَا إِذْ قَدَمْنَا قَرَنَّا وَدَاعَهُمْ بِالسُّؤَالِ

إن نفسي بالشّام إذ أنت فيها ليس نفسي نفسي التي بالعراق
أشتهى أن ترى نوادي فتدري كيف وجدى بهم وكيف احتراقي

[طيف الخيال]

ومن الزّوار طيف الخيال ، وهو في الشعر الجاهليّ والمولّد كثير ، وسند كثر
منه شيئاً يستحسن إن شاء الله تعالى ، قال قيس بن الخطيم^(١) .

إني مرّيت وكنت غير مرّوبٍ ومقرّبُ الأحلام غير قريب^(٢)
ما تمنّيت بقطي فقد تؤتيت^(٣) في النّوم غير^(٤) مصرّد محسوب^(٥)
وقال أبو النّرج السّكّاب :

خيالك كان أعرف بالقرام وأرأف بالحبّ المستهام
فلو بسطيع حين حضرت نومي لكان يزور في غير المنام
وقال المرتضى^(٥) :

وزور زارني والليل داج فطلّني بباطلٍ ذاك حيناً^(٦)
يربّي أنه ثانٍ وسادي مضاجعةً ، وزور ما يُربّي
نعمتُ بباطل ، ويودّ قلبي وداداً ، لو يكون لنا يقيناً
وقال أيضاً :

وزور تحطّي جنوب الملاّ فنّاديت : أهلاً بذا الزائر^(٧)

(١) ديوانه ١٥ ، ١٦ .

(٢) غير مرّوب : غير مبعده ، وفي ط : « مرّيت .. شراب » ، تصحيف .

(٣) مصرّد : مقل .

(٤) بعده في الديوان :

كان المنّي بلقائها فلقيتها فلهوت من لهو امرئ مكذوب

(٥) في الأصول : « الرضى » ، وهو خطأ ، والآيات في طيف الخيال للمرتضى ١٥٣ .

وهي أيضاً في ديوانه المرتضى ٣ : ٣٠٣ .

(٦) الديوان : « وقد ملاّ السكرى منا العيونا » .

(٧) طيف الخيال : ٢٤٣ . منسوبة إلى المرتضى .

أَتَانِي هَدَوْ وَعَيْن الرَقِيبِ مَطْرُوقَةً بِالْكَرَى الْغَامِرِ
وَأَحْيَبَ بِهِ يُسْعِفُ الْمَاجِمِينَ وَتَحَرَّمَهُ مُقَلَّةُ السَّاهِرِ
وَعَهْدِي بِتَمُوبِهِ عَيْنَ الْحَبِّ تَنَمَّ عَلَى قَلْبِهِ الطَّائِرِ
فَلَمَّا التَّقِينَا بِرَغَمِ الرِّفَا دُمُوهَ قَلْبِي عَلَى نَظَائِرِي

قال الرضى: قلت هذه الأبيات سنة سبع وثمانين وثلثمائة ، وتداول أهل الأدب إنشادها ، واستغربوا هذا المعنى ، وشهدوا أنه مخترع لم يسمع ، فلما تصفحت ديوان شعر أبي سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة ، وجدت بخطه في الجزء الثانى من شعره :

إِنْ طَيْفَ الْخِيَالِ زَارَ طَرُوقًا وَلِلطَّيَا بَيْنَ الْقَنَانِ وَشَعْبٍ (١)
زَارَنِي وَاصِلًا عَلَى غَيْرِ وَعْدٍ وَاثْنَى هَاجِرًا عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ
كَانَ قَلْبِي لِإِلَيْهِ رَائِدًا عَيْنِي فَعَلَى الْعَيْنِ مِقْدَةً لِلْقَلْبِ
كَانَ عِنْدِي أَنَّ الْغُرُورَ لِيَطْرُقَ فَإِذَا ذَلِكَ الْغُرُورُ لِقَلْبِي

فلا أدري : هل قصد نظمها حتى لا يخلى شعره من هذا المعنى ، أو أنسى سماعه منى ، وقذف به خاطره ، وكثيرا ما يلحق الشعراء ذلك ، فيتواردون في بعض المعاني المسبوق إليها ، وقد كانوا يسمعوها فأنسوها ؛ واغلواطر مشتركة ، والمعاني معترضة لكل خاطر ، وكيفما جرى الأمر فالمنصر واحد .

* * *

ثم قال : اخْزَنْهَا فِي تَأْمُورِكَ ، وَاقْتَدِرْ بِهَا فِي أُمُورِكَ ،

(١) ديوان الرضى س ١ : ١٣٩ ، ١٤٠ ، طيف الخيال ٩٣ ، ٢٦٥ بنسبتها إليه والقنان وشعب : موضعان ، وفى ط د العنان ، تحريف ؛ وبعده هناك :

فَوْقَ أَكْوَارِهِنَّ أَنْضَاءُ شَوْقٍ طَرَقُوا بِالْغَرَامِ دُونَ الرَّكْبِ
كَلِمًا أَنْتَ الْمَطَى مِنَ الْإِعْسَاءِ أَنَا مِنَ الْجَوَى وَالْكَرْبِ

وَبَادِرْ إِلَى صَحْبِكَ ، فِي كَلَاءَةِ رَبِّكَ ، فَإِذَا بَلَغْتَهُمْ ، فَأَبْلِغْهُمْ
تَعِيَّتِي ، وَاتْلُ عَلَيْهِمْ وَصِيَّتِي ، وَقُلْ لَهُمْ عَنِّي : إِنَّ السَّهْرَ فِي الْخُرَافَاتِ ،
لَمِنْ أَكْثَرِ الْأَقَاتِ ، وَلَسْتُ أُلْفِي اخْتِرَاسِي ، وَلَا أَجْلُبُ الْهُوسَ
إِلَى رَاسِي .

قال الراوي : فلما وقفنا على فحوى شعره ، واطَّلَعْنَا
عَلَى نُكْرِهِ وَمَنْكْرِهِ ، تَلَاوَمْنَا عَلَى تَرْكِهِ ، وَالْإِغْتِرَارِ
بِإِفْسَكِهِ .

ثُمَّ تَفَرَّقْنَا بِوُجُوهِ بَاسِرَةٍ ، وَصَفْقَةِ خَاسِرَةٍ .

* * *

قوله : « اخْزُنْهَا فِي تَأْمُورِكَ » ، أَيْ اجْعَلْهَا فِي قَلْبِكَ ، وَالتَّأْمُورُ : حِجَابُ
الْقَلْبِ ، وَقِيلَ : دَمُ الْقَلْبِ . كَلَاءَةٌ : حِفْظٌ وَكَلَاءَةٌ : يَكْلُوهُ : حِفْظُهُ .

الْخُرَافَاتُ : أَحَادِيثُ الْهَوِّ وَالْأَبَاطِيلِ ، قَالَ الْغَلِيلُ : الْخُرَافَةُ الْحَدِيثُ
الْمُسْتَمْلَحُ فِي الْكُذْبِ . أَبُو عُبَيْدَةَ : كَانَ خُرَافَةً رَجُلًا صَالِحًا سَبَقَتْهُ الْجَنَّةُ ،
فَرَأَى مِنْهُمْ عَجَائِبَ فَخَدَّثَ بِهَا ، فَيُقَالُ فِي كُلِّ حَدِيثٍ يُسْتَفْرَبُ : كَأَنَّهُ
حَدِيثُ خُرَافَةٍ .

أُلْفِي : أَتْرَكَ . اخْتِرَاسِي : تَحَفَظِي . الْهُوسَ : يَيْسُ الرَّأْسِ ، يَتَوَلَّدُ مِنْ
كَثْرَةِ السَّهْرِ . فَخَوَى : مَعْنَى . نُكْرِهِ : مَنْكْرِهِ وَدَهَائِهِ . تَلَاوَمْنَا : لَامَ
بِمَعْضَا بَعْضَا . الْإِغْتِرَارُ : الْإِنْخِدَاعُ . إِفْسَكِهِ : كَذْبِهِ . بَاسِرَةٍ : عَابَسَةٍ ، وَبَسَرَ
وَجْهَهُ بِسُورَةٍ : عَابَسَهُ . وَصَفْقَةُ خَاسِرَةٍ ، أَيْ تَجَارَةٌ وَمُبَايَعَةٌ نَاقِصَةٌ .

* * *

المقامة السابعة عشرة القهرية

حدث الحارث بن همام قال : لحظتُ في بعض مطارِح البين ،
ومطامِح العين ، فتيةً عليهم سيما الحجا ، وطلاوة نجوم الدجى .
وهم في مِماراةٍ مُشدَّة الهُبُوب ، ومباراةٍ مُشتطةِ الألهُوب ، فهِزَّني
لِقَصْدِهِمْ هَوَى المحاضرة ، واستِجلاءِ جَنَى المناظرة .

فلَمَّا التَّحَقَّتْ بِرَهْطِهِمْ ، وَانْتَضَمَتْ فِي سِمَطِهِمْ ، قالوا : أَأَنْتَ
مِنْ يُنْبَى فِي الْهَيْجَاء ، وَيُلْقَى دَلْوُهُ فِي الدَّلَاء ؟ فقلت : بل أَنَا
مِنْ نَظَارَةِ الْحَزْبِ ، لَا مِنْ أَبْنَاءِ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ . فَأَضْرِبُوا عَنْ
حِجَابِي ، وَأَفَاضُوا فِي التَّحَاجِي .

* * *

لحظت : نظرت . مطارِح : جمع مَطَرَح ، وهو الموضع تطرح فيه نفسك ،
أى ترميها فيه . البين : الفراق ، فيريد بمطارِح البين البلاد التى طرَحَ فيها
البين ورمَاهُ إليها . ومطامِح العين : الموضع الحسان الذى تطمح فيها العين بالنظر ،
أى ترتفع إليها . سيما الحجا : علامة العقل ، والسيما من وَسمَتُ الشئَ وَسمًا إذا
علَّمْتَهُ ، وأصله «وَسَمَى» ، فحوَّلَت الواو من موضع الفاء إلى العين . فصار سِوَمَى ،
فقلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها . طلاوة : حسن . الدجا : الظلمة . المِماراة :
الخصام . مُشدَّة : كبيرة الحركة . والشدة : الجرى . الهبوب : محىء الريح :
مباراة : معارضة . مُشتطة : ممدة متجاوزة الحد . الألهوب : الجرى الشديد ،

فأراد أن حركة الكلام بينهم في المناظرة شديدة . والمحاضرة : مجلسة العلماء .
مناظرة : سؤال العالم لتعلم حسن نظره وقدر معرفته . جناها : فوائدها . رهطهم :
جماعتهم . انتظمت في سبطهم ، أى جلست بينهم . يبلى في الهيجاء : يقاتل في
الحروب . النظارة . القوم يقعدون في موضع مرتفع من الأرض ينظرون منه
القتال ولا يشهدونه ، فأراد أننى ممن يحضر معكم للاستماع ، لا المناظرة .
الحجاج : مصدر حاجه ، تقول : حاجت فلانا إذا أوردت عليه الحجة وأوردها
عليك ، فإن غلبته قلت : حججته . أفاضوا فى الأحاجى : اندفعوا فى الألفاظ .

* * *

وكان فى محبوبه خلقتهم ، وإكليل رفقته ، شيخ قد
برته للهوم ، ولوحت السوم ، حتى عاد أنحل من قلم ،
وأفحل من جلم ، إلا أنه كان يبدى العجاب ، إذا أجاب ،
ويبنى سخبان ، كلما أبان . فأعجبت بما أوتى من
الإصابة ، والتبريز على تلك العصابة ، وما زال يفضح
كل معى ، ويضمي في كل مرمى ، إلى أن خلت الجعاب ،
ونفذ السؤال والجواب .

فلما رأى إنقراض القوم ، واضطراهم إلى الصوم ، عرض بالمطارحة ،
واستأذن فى المقامحة .

فقالوا له : حبذا ، ومن لنا بهذا !

* * *

بمحبوبة : وسط . إكليل : دائرة ، وأصلها عصابة مكحلة بالدر والياقوت ،

تعتمد على رموس الملوكة . رفقهم : جماعتهم . برته : أذهبت لحمه . لوَحته ::
غَيَّرته وأضرمت جسمه . السَّموم : الريح الحارّة . أقفل : أيس .

جلم : مقصّ ، وأكثر ما يستعمل مثنيّ ، فيقال : جلمان ، والعجب من
أبي محمد يقول في الدرّة : ^(١) ويقولون : قرضت ^(٢) بالمقراض ، وقصّصت ^(٣)
بالمقصّ ^(٤) فيهمون ، كما وهم بعض الحديثين حين قال في صفة مزنون ^(٥) بالقيادة ،
وإن كان قد أبدع في الإجابة :

إذا حبيبٌ صدّ عن إلفِهِ تيمّاً وأعيّاً كلّ رَواضٍ ^(٦)
ألف فيما بين شخصيهِمَا كأنّه مسمارٌ مقراضٍ

قال : والصّواب أن يقال ، مقراضان ومقصّان وجمالان ، لأهما ^(٧) اثنتان .

فما منعه غيره أباحه هنا لنفسه ، فقال : أقفل من جلم ، ولا تقول كما قال :
إنّه وهم ، بل تقول : إنها لغة قليلة .

قال يعقوب : والجلم الذي يُحزّ به ، وقال رجل من الأزد في مفرد مقراض :

(١) درة القوس ١١٥ .

(٢) الدرّة : قرضته .

(٣) الدرّة : « قصصته »

(٤) الدرّة : « فيوهمون » .

(٥) مزنون ، أي متهم .

(٦) قبله في الدرّة :

الوق ابن إسحاقٍ تلاقى فتى ليس امرؤ عنه بمعتاضٍ

(٧) بعده في الدرّة : وظنير هذا الوهم قولهم للاتنين زوج ، وهو خطأ ، لأن الزوج في كلام العرب هو الفرد المزاوج لصاحبه . فأما الاثنان المصاحبان فيقال لها : زوجان ، كما قالوا : عندي زوجان من النعال ، أي نعلان .

فعليك ما اسطعت الظهور بلّقي وعلى أن ألك بالفراض
وقال الراجز في مفرد الجلم :

* وجلم كرشة الوقــــــــواق *

والوقواق : الخطاف ، والجسم للنحيل يشبه بالقلم والجلم ، وقلب الشاعر
التشبيه والفرز بالقلم ، فقال :

ضئيل الرّواء كثير الفناء من البحر في المنصب الأخصر
كمثل أخى العشقي في شخصه وفي لونه من بنى الأصفّر
وقال ابن أبي لبابة في جلم :

ومعتقن ما اتّهما بعشي وإن وصفا بضمّ واعتناق
لعمرو أيك ما اجتماع المعنى سوى معنى القطيعة والفراق

وتقدّم في الثانية من أبيات المعاني فيه :

ارعت مراتع مدرّاها على وهن^(١) صنوين إن أفردا لم يرعيا أبدا

أبان : بيّن . التبريز : الظهور والخروج قبلهم .

العصابة : الجماعة . يفضح : يشهر عيبه . معنى : مستور . يصيب : يصيب
للقتل .

خلت الجماع : أي أفرغ الكلام ، والجمعة : وعاء السهام ، فكنتي بهاعن

(١) حاشية ط : الذي تقدم « على : عجل » .

القلوب ، وبالسهم عن الكلام الذي يصدر عنها .

الإفناض : فناء الزاد ، وقد أنقض القوم ، وأراد نفاذاً من العلم .
الصنوم : الشكوت والإمساك عن الكلام .

المطارحة ، أصلها في الفناء ، وهو ما يأخذه المتعلم عن المعلم وعرض بها ، أى ذكرها . المفاتحة : استفتاح الكلام .

* * *

فقال : أَتَعْرِقُونَ رِسَالَةَ أَرْضِهَا سَمَاوُهَا ، وَصُبْحُهَا مَسَاوُهَا ،
نُسِجَتْ عَلَى مَنَوَاتَيْنِ ، وَتَجَلَّتْ فِي لَوْنَيْنِ ، وَصَلَّتْ إِلَى جِهَتَيْنِ ، وَبَدَتْ
ذَاتَ وَجْهَيْنِ ، إِنْ بَزَعْتَ مِنْ مَشْرِقِهَا ، فَنَاهِيكَ بِرَوْثِهَا ، وَإِنْ طَلَعْتَ
مِنْ مَغْرِبِهَا ، فَيَا لِعَجَبِهَا !

قال : فَكَأَنَّ الْقَوْمَ رُمُوا بِالصُّمَاتِ ، أَوْ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ
الْإِنصَاتِ . فَمَا نَبَسَ مِنْهُمْ إِنْسَانٌ ، وَلَا فَاهَ لِأَحَدٍ لِسَانٌ ، فَحِينَ
رَأَاهُمْ بُكْمًا كَالْأَنْعَامِ ، وَصُمُوتًا كَالْأَصْنَامِ ، قَالَ لَهُمْ : قَدْ أَجَلْتُكُمْ
أَجَلَ الْمِدَّةِ ، وَأَرْخَيْتُ لَكُمْ طَوْلَ الْمِدَّةِ ، ثُمَّ هَاهُنَا تَجْمَعُ الشَّمْلُ ،
وَمَوْقِفُ الْفَصْلِ ، فَإِنْ سَمِعَتْ خَوَاطِرُكُمْ مَدَحَنَا ، وَإِنْ صَلَّتْ
زِنَادُكُمْ قَدَحَنَا ، فَقَالُوا لَهُ : وَاللَّهِ مَا لَنَا فِي لُجَّةِ هَذَا الْبَحْرِ
مَسْبَحٌ ، وَلَا فِي سَاحِلِهِ مَسْرَحٌ ، فَأَرِخْ أَفْكَارَنَا مِنَ الْكَدِّ ،

وَهَئِيَّ الْمَطِيَّةَ بِالنَّقْدِ ، وَاتَّخِذْنَا إِخْوَانًا ، يَثْبُون إِذَا وَثَبْتَ ، وَيُثْبُونُ
مَتَى اسْتَثَبْتَ .

فَأُطْرَق سَاعَةٌ ، ثُمَّ قَالَ : سَمَّاءَ لَكُمْ وَطَاعَةٌ ، فَاسْتَمْلُوا مِنِّي ،
وَانْقُلُوا عَنِّي ...

* * *

أَرْضُهَا سَمَاوُهَا : يريد أعلاها أسفلها . صَبَحُهَا مَسَاوُهَا : أولها آخرها .
الْمَنَوَال : خشبة الحائك ، أراد أنها نسجت من الطرفين ، لأنك تبتدئها بالقراءة
إن شئت من أولها ، وإن شئت من آخرها .

بَرَّغَتْ : طلعت . نَاهَيْكَ : كافيك .

رَوْقُهَا : حسنها ، والرَّوْنُق : صفاء الوجه وحسنه ونعمته .

الْعَمَات : السكوت ، والإنصات مثله . نَبَسَ : تكلم . الْأَنْعَام : المواشي .

أَجَلَّتْكُمْ : أخرتكم والعِدَّة هنا : عدة الموت ، لأنها أطول العدد ، أَلَا
تَرَى أَنَّهُ أَرْخَى لَهُمْ طَوْلَ الْمَدَّة ؛ وَالطَّوْل : الحبل . وَالشَّمْل : الاجتماع . الْفَضْل :
القضاء ، يقول : قد طوّلت لكم الأمد لتستخبروا هذه الرسالة ، وفي هذا الموضع
يكون اجتماعا ويفصل فيه بين المعارف وضده .

خَوَاطِرُكُمْ : أذهانكم . صَلَدَتْ : شجّت . قَدَحْنَا : ضربنا زند النار ، يقول :
إِن عَرَفْتُمُوهَا مَدَحْنَاكُمْ وَإِن جَهَلْتُمُوهَا عَرَفْنَاها لَكُمْ ، وجعل صلود الزند كناية
عن جمود القرائح .

لُجَّة : معظم الماء . مَسْبُوح : موضع يُسَبَّح فيه ، أى يمام . مَسْرَح : موضع

يُسرح فيه ، أى يُعشى ويتصرف . الكد . الجهد والتمب . هنىء : طيب .
النقد : حضور المال . يثبون : يقومون لقيامك . يُثيبون : يهبون الثواب .
استقنبت : طلبت الثواب . استملوا : اكتبوا .

* * *

الإنسانُ صنِمةُ الإحسانِ ، وربُّ الجليلِ فعلُ النَّدبِ ، وشِيمةُ
الحُرِّ ذخيرةُ الحمدِ ، وكسبُ الشُّكرِ استثمارُ السَّعادةِ ، وعُنوانُ
الكرمِ تباشيرُ البشرِ ، واستِعمالُ المُداراةِ يُوجبُ المُصافاةَ ، وعَقْدُ
الحُبِّةِ يَقْتَضِي النُّصحَ ، وَصِدْقُ الحديثِ حِلْيَةُ اللِّسانِ ، وفصاحةُ
النُّطقِ سِحْرُ الألبابِ ، وَشَرَكُ الهوى آفةُ النفوسِ ، وَمَلَلُ الخَلِيقِ
شَيْنُ الخَلِيقِ ، وَسُوءُ الطَّعمِ يَبْأِينُ الوَرَعَ ، وَالزِّرامُ الحِزَامَةُ زِمَامُ
السَّلامَةِ ، وَتَطَلُّبُ المِثَالِ ، شَرُّ المَعَايِبِ ، وَتَتَبُّعُ العَثَرَاتِ ،
يُدْحِضُ المودَّاتِ ، وَخُلُوصُ النِّيَّةِ ، خُلَاصَةُ العَظِيمَةِ . وَتَهْنِئَةُ النِّوَالِ تَمُنُّ
السُّؤَالَ ، وَتَكَلُّفُ الكَلْفِ ، يُسَهِّلُ الخَلْفَ ، وَتَيَقَنُ المَعُونَةُ يُسَنِّي
المُتُونَةَ ، وَفَصْلُ الصَّدْرِ ، سَعَةُ الصَّدْرِ ، وَزِينَةُ الرِّعَاةِ ، مَقْتُ الشُّعَاةِ ،
وَجَزَاءُ المَدَاحِ ، بَثُّ المَنَاصِحِ ، وَمَهْرُ الوَسَائِلِ ، تَشْفِيعُ المَسَائِلِ ،
وَمَجْلَبَةُ الغَوَايَةِ ، اسْتِغْرَاقُ الغَايَةِ ، وَتَجَاوُزُ الحَدِّ يُكَلِّهُ الحَدَّ .

* * *

صنِمة: ما يصطنعه الإنسان لغيره من الخير ، يريد أن الإنسان أهل الإحسان ،
وإن عكست قلت : الإحسان صنِمة الإنسان ، أى إصلاح الإحسان وتتميمه

من صنع مَنْ يوصف بالإنسانية وقد تقدّم :

* وما فيهم مَنْ يربّ الصنّيع *

وقال أعرابي لعبد الملك بن مروان :

ربّ الذي يأتي من الخير إنه إذا فعل المعروف زاد وتّمّا
وليس كبان حين تمّ بناؤه تنبّعه بالتقصّ حتى تهدّما
فعنى يربّ ، هو قوله : زاد وتّمّا .

الذّنب : السيّد الخفيف : شيمة : طبيعة . الذخيرة : الشيء الرفيع من مالٍ
أو غيره ، والادخار كالإقتناء . استثمار : تناول الثمر : عنوان : دليل : تبشير :
أوائل ، وتبشير الصبح : طرائق ضوئه في الليل ؛ ويقال للطواق التي تراها على وجه
الأرض من آثار الرياح : التبشائر . البشر : طلاقة الوجه . المداراة : خداع
القلوب بلطف الكلام ، ومداراة الناس : معاملتهم بما يحبّون . المصافاة : إخلاص
الصحبة . عقدها : ربطها . يقتضى : يتضمّن . حلية : زينة . الألباب : المقول .
الهوى : ما يهواه الإنسان ويميل إليه . آفة : داء . الخلائق : الناس . شين :
عيب . الخلائق : الطبائع ، يقول : الملل في الناس يعيب أخلاقهم . سوء الطمع :
كثرة الحرص . تباين : تباعد . الورع : الكفّ عما فيه إثم ، وقد ورّع الرجل
برّع ورعاً ورعة ؛ إذا كفّ عما لا يحلّ ، والورع بفتح الراء : الجبان ، وقد
ورّع وورّع ، وقال عروة بن أذينة في ذمّ الطمع :

لقد علمت وخيرُ القول أصدقه بأنّ رزقي وإن لم آتْ يأتيني
أسمى له فيعنيني تطلبه وإن قدمت أتانى لا يعنيني
لاخير في طمع يبدني إلى طمع وعقة من قوام العيش تكفيني

وأُنشد الحريري البيت الأول في الدرة :

قد علمت وما الإسراف من خُلُقي أن الذي هو رزقي سوف يأتي
قال : فيروى أكثرهم « الإسراف » بالسین المهملة ، وروى بعضهم بالشين
المججمة^(١) ، ليكون معناه التطلع إلى الشيء والاستشراف إليه .

* * *

[عروة بن أذنيه وهشام بن عبد الملك]

قال : ولهذا البيت حكاية تحت على استدشعار اليقين ، وإعلاق الأمل بالخالق
دون المخلوقين ، خلّيته بها تحلية لمأطله ، ومنبهة على صدق قائله ؛ وهو ما رويته
من هذه طرق : أن عروة هذا وفد على هشام بن عبد الملك في جماعة من الشعراء ،
فلما دخل عليه عروة قال له ألسنت القائل :

لقد علمت وخير القول أصدقه ... الأبيات

وأراك قد جئتَ تضرب من الحجاز إلى الشام في طلب الرزق ! فقال له :
لقد وعظت يا أمير المؤمنين فبالفت في الوعظ ، وأذكرت ما أنسانيه الدهر .
وخرج من فوره إلى راحلته فركبها ، ثم نصتها نحو الحجاز .

فمكث هشام يومه غافلا عنه ، فلما كان من الليل تعار^(٢) على فراشه ،
فذكره فقال : رجل من قريش قال حكمة ، ووفد إلى اليوم ، فخبثته ورددته عن
حاجته ! وهو مع هذا شاعر ، لا آمن ما يقول . فلما أصبح سأل عنه ، فأخبر

(١) البيت في اللسان - شرف

(٢) التعار : التقلب على الفراش في النوم .

(١٦ - شرح مقامات الحريري - ج ٢)

بانصرافه ، قال : لا جرم ، ليعلم أن الرزق سيأتيه ، ثم دعا بمولاه له ، فأعطاه ألفي دينار ، وقال : الحق بهذا ، أين أدركته فأعطه إياها .

قال : فلم يدركه إلا وقد دخل بيته ، فقال : أبلغ أمير المؤمنين السلام وقل له كيف رأيت !

* * *

قوله : «اللزامة» : جودة الرأي ، والحازم : الجامع لرأيه ، المحكم لأمره وأصل الحزم الجمع والشد . ومنه الحزمة ، وحزمت المتاع جمعته وشدته ، ومنه الحزام لأنه يُشد به ، وقد حَزُم الرجل : صار حازماً .

الزَّمام : مِقْوَد البعير .

المثالب : المساوى ، وثلبه : ذكره بسوء . النطلب : البحث ، يريد أن البحث عن عيوب الناس من أكبر العيوب ، قال رجل للمستورد الخارجي : أريد غلاماً عتياباً ، قال : التمسه بفضل معايب فيه .

وكان يقول : أول ما يدلّ على عائب الناس معرفته بالعيوب .

معاوية : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم ، أو كذت تفسدهم .

أبو الدرداء : كلمة سمعها معاوية من رسول الله صلى الله عليه وسلم نفعه الله بها : مرّ المسيح صلوات الله عليه بقوم من اليهود ، فقالوا له شرّاً ، فقال خيراً ، فقيل له في ذلك ، فقال : كلٌّ ينفق مما عنده .

وكتب الشافعيّ رضي الله عنه لصديق له :

لئن ساءنى أن نلتقى بمساءة لقد مرّنى أنى خطرت بيمالك^(١)
 وأتى الشافعى رضى الله عنه مسجداً ، فصادف قوماً يفتابونه ، فسدّ الباب
 وقال :

هنيئاً مريئاً غير داء مخامرٍ لعمرة من أعراضنا ما استعلت^(٢)
 وقال الشاعر :

ثالبى عمرو وثالبته فأنتم المثلوب والثالب
 قلت له خيراً وقال الخنّى كل على صاحبه كاذب

قوله : « العثرات » ، السقطات . يدحض : يبطل ، يريد أن البحث عن
 عيوب الصاحب يبطل مودته .

أبو بُرْدة الأسلمى رضى الله عنه : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم
 فقال : يا معشر من أسلم بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه ، لا تذرّوا الناس ولا
 تميّروهم ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من يلتمس عورة أخيه تتبع الله عورته ،
 ومن تتبع الله عورته يفضحه في بطن بيته .

وقال سابق البربرى :

إذا ما كنت طالب كل ذنبٍ ولم تحمِلْ أخاك عن العتابِ
 تُباعد من تباعد بعد قربٍ وصار بك الزمان إلى اجتنابِ

وقال عبدالله بن جعفر : عليك بصحبة من إن صحبته زانك ، وإن غبت عنه
 صانك ، وإن احتجت إليه مانك ، وإن رأى منك خلة سدّها ، أو حسنة عدّها .

(١) البيت من أبيات لابن الدمينه ، ديوانه ١٧ .

(٢) من تائيه كثير ، أمالى القالى ٢ : ١٠٧ - ١١٠ .

وقال الحسن بن وهب: مِنْ حُقُوقِ الْمُوَدَّةِ أَخَذَ عَفْوُ الْإِخْوَانِ ، وَالْإِغْضَاءُ
عَنْ تَقْصِيرِ إِنْ كَانَ .

وقيل : خَيْرُ الْإِخْوَانِ مَنْ إِذَا نَسِيتَ ذَنْبَكَ لَمْ يَفْرَعَكَ بِهِ ، وَمَعْرُوفُهُ عِنْدَكَ
لَمْ يَمْنَعْ عَلَيْكَ بِهِ .

وقال الشاعر :

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَدْعَى كَرِيماً مَهْذَباً سَنِيكاً سَرِيباً مَاجِداً فَطَنَّا حُرّاً
إِذَا مَا بَدَتْ مِنْ صَاحِبِ لَكَ زَلَّةً فَكُنْ أَنْتَ مُخْتَالاً لَزَلَّتْهُ عُذْرَا

قوله : « خلوص النية » ، صفاؤها ، أى من أخلص لك النية ؛ فكأنه قد
أعطاك خالص ماله ، والخلاصة : ما خلص من الشيء وصفا .

النوال : العطاء . الكلف : المشقات . يسئى : يستهل . المؤنة :
خدمة الضيف وما ينفق عليه ، يقول : من يتوقع أن الله يُعينه على البرِّ أو
ما ينويه من الحقوق ، سهل عليه تكلف المؤن ؛ وهو من قول النبي صلى الله
عليه وسلم : « إِنْ أَلَّهِ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من عظمت نعمة الله عنده عظمت مؤنة الناس
عليه . فإن لم يقم بذلك النعمة عَرَّضَ النعمة للزوال » .

وأما معكوس ما قبله ، وهو يتيقن الخلف يسهل الكلف ، فمن قوله
صلى الله عليه وسلم « من أيقن بالخلف جاد بالمطية » .

قال محمود الوراق :

مَنْ ظَنَّ بِاللَّهِ خَيْرًا جَادَ مَبْتَدَأًا وَابْتِخَلَ مِنْ سُوءِ ظَنِّ الْمَرْءِ بِاللَّهِ

قالوا: للمعروف ثلاث خصال : تمجيئه وتيسيره وستره ، فن أخلّ بواحدة منها ، فقد بحسّ المعروف حقّه ، وسقط منه الشكر .

قوله : « الفضل » ، هو الزيادة على قدر الحاجة . الصّدر : هو المتقدم في الأمور ، مثل الوالى وسيّد القوم ، يقول : مَنْ يتصدّر لأُمور الناس ، فضله وشرفه سمة خلقه .

الرّعاة : الولاة . مقت الثّماعة : بغض العتال الذين يجمعون الزكاة . وللشّاة أيضاً المشاءون بالتميمة للملوك ، فيقول : زين الملوك بغض العمال الذين جرت العادة في قديم الزمان وحديثه بظلمهم الناس ، فإذا أبغضوهم بحثوا على أعمالهم الفاسدة ، فخافوهم فعدلوا ، وأما بغض المشائين التّيممة للملوك فواجب ، لقول النّبي صلى الله عليه وسلم « لعن الله المثالب » . قيل : ومَنْ المثالب يارسول الله ؟ قال : « الذى يسمّى بصاحبه إلى سلطان ، فيهلك نفسه وصاحبه وسلطاناه » .

قوله : « بثّ » ، أى نشر . المناطح : العطايا ، يقول : جزاء المدح بذل المال ، وأصل المناطح بذل فوائد الأموال لا الأموال .

مهر : حقّ ، الوسائل : القُرب ، والوسيلة ما تجعله سبباً بينك وبين مَنْ تريد الوصول إليه مثل الشّفييع والهدية فى قضاء حاجتك .

المسائل : جمع مسألة ، وهى هنا سؤال المحتاج . والجلبّة : مَفْعَلَةٌ من الجلب ، والمعنى : حقّ الوسيلة قضاء الحاجة . النّواية : الضّلالة . استفراق : تجاوز الحدّ ، والحدّ : الأوّل الفصل بين الشّيئين ، وأصله المنع ، والحدّ الآخر حدّ السيف وشبهه . بكلّ : يضعف .

* * *

وتعدّى الأدب ، مُحْبِطُ القُرب ، وتناهى الحقوق ، ينشئ

المُعقوق، وتَحَاثَى الرَّيْبَ يَرْفَعُ الرَّتَبَ ، وارتفَاعُ الأخطَارِ بِاقْتِحَامِ
 الأخطار ، وَتَنَوُّهُ الأَقْدَارُ بِمَوَاتَاةِ الأَقْدَارِ ، وشرفُ الأعمالِ فِي
 تقصيرِ الآمالِ ، وإِطَالَةُ الفِكْرَةِ تَنْقِيحُ الحِكْمَةِ ، ورَأْسُ الرِّيَاسَةِ
 تُهْدَبُ السِّيَاسَةُ ، وَمَعَ اللَّجَاجَةِ تُنَلِّى الحَاجَةُ ، وَعِنْدَ الأَوْنَجَالِ
 تَتَفَاضَلُ الرُّجَالُ ، وَبِتَفَاضُلِ الهِمَمِ تَتَفَاوَتُ القِيَمُ ، وَبِزَيْدِ السَّفِيرِ
 يَهِنُ التَّدِيرُ ، وَبِحُلُلِ الأَحْوَالِ تَتَبَيَّنُ الأَهْوَالُ ، وَبِجُوبِ الصَّبْرِ
 ثَمَرَةُ النَّصْرِ ، وَاسْتِحْقَاقُ الإِنْحَادِ بِحَسَبِ الاجْتِهَادِ ، وَوُجُوبُ
 المِلَاحَظَةِ ، كِفَاءُ المُحَافَظَةِ ، وَصَفَاءُ المُوَالِي بِتَعَمُّدِ المُوَالِي ، وَتَحَلَّى
 المَرْوَاتِ يَحْفَظُ الأَمَانَاتِ ، وَاخْتِبَارُ الإِخْوَانِ بِتَخْفِيفِ
 الأَحْزَانِ ، وَدَفْعُ الأَعْدَاءِ بِكَفِّ الأَوْدَاءِ ، وَامْتِحَانُ العُقَلَاءِ
 بِمُقَارَنَةِ الجُهَلَاءِ ، وَتَبْصُرُ المَوَاقِبِ يُؤْمِنُ المَعَاظِبِ ، وَاتَّقَاءُ
 الشُّنْعَةِ يَنْشُرُ الشُّعْمَةَ ، وَقُبْحُ الجَفَاءِ يَنَافِي الوَفَاءِ ، وَجَوْهَرُ
 الأَحْرَارِ عِنْدَ الأَسْرَارِ .

* * *

تَعَدَّى : تَجَاوَزَ . يَحْبُطُ : يَفْسُدُ .

يَنْشَى المَعْقُوقُ : يَظْهَرُ المَقَاطَعَةُ . تَحَاثَى : تَرَكَ وَاعْتَزَلَ .

الرَّيْبُ : التَّهْمُ . الرَّتَبُ : المَنَازِلُ الرِّفِيعَةُ ، قَالَ بَعْضُ الحُكَمَاءِ : ثَلَاثَةٌ
 لَأَعْزَبَةٍ مَعْمَنَ : مَجَانِبَةُ الرَّيْبِ ، وَحَسَنُ الأَدَبِ ، وَكَفُّ الأَذَى .

ونظمها الشاعر فقال :

يزين الغريبَ إذا ما اغتربَ ثلاثٌ، فمنهنَّ حسنُ الأدبِ
وثانيةٌ حسنُ أخلاقه وثالثهنَّ اجتِنابُ الرِّيبِ

وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه لدهقان بعض ملوك المعجم : بم ينبئُ الرجلَ عنكم ؟ قال : بترك الكذب ، فإنه لا يشرفُ إلا من وثق بقوله . وبقيامه بأهله ، فإنه لا ينبئُ مَنْ يحتاج أهله إلى غيره ، وبمجانبة الرِّيبِ فإنه لا يعزَّ من لا يأمن أن يصادف على سوءة . وبالقيام بمحاجات الناس ، فإنه مَنْ رُجِيَ الفرج لديه كثرت غاشيته .

قوله : « ارتفاع الأخطار » أى شرف الأقدار والقِيَم . اقتحام : دخول شديد ، يقال : فلان يقتحم في الأمور ، أى يدخل فيها بغير تثبت ولا روية ، وتحمّت الناقة ، إذا نذت فلم يسكها راكبها ، ومنه قُحْمُ العرب ، سُمِّيَتْ قُحْمَةً ، لأنهم إذا أجذبوا تركوا البادية ودخلوا الريف .

الأخطار : جمع خَطَر ، وهو القَرَر .

تنوّه : ترفع . مواتاة : موافقة . الأقدار : الأول جمع قَدَر الإنسان ، أى منزلته ، والأقدار الثاني : جمع قَدَر الله تعالى .

وقال الشاعر :

الجِدْ أَنهضْ بِالْقَتَى مِنْ عَقْلِهِ فَانْهَضْ بِجِدِّهِ فِي الْحَوَادِثِ أَوْ ذَرِ
مَا أَقْرَبَ الْأَشْيَاءِ حِينَ يَسُوقُهَا قَدَرٌ وَأَبْعَدُهَا إِذَا لَمْ تَقْدَرِ

تقصير الآمال : تقليل الرجاء وكفّه ، وَمَنْ قَلَلِ الطامع شَرْفَ عمله .

الفكرة : التدبير . تنقيح : تخليص ، وأصله أن تشذب العَقد من العود أو القصب حتى يستوى موضعها مع القصب .

قال الشاعر :

وطارت بصلب قوضت عند بيتها له أبْنٌ ما قوّضت وكعوب^(١)

صلب : عمود البيت ؛ جذبته المرأة لتضربه به فتهدم بيتها .

تهذب : تخلص : والمهذب : المخلص من العيوب . والسياسة : حسن الإدارة .
واللحاجة : ركوب الرأس في الباطل . تُتَلَقَّى : توجد ويروى : «تلقى» و«تلقى» ،
وممنهما تُترك وتطرح . والحاجة : ما يُحتاج إليه ، فإن عكست رجعت الحاجة
الفقر ، يريد : إذا لججت في شيء أدركت حاجتك ، وعلى «تلقى» إذا وقعت لجة
في حاجتك تركت ، وعلى العكس : مَنْ افقر ليج في السؤال حتى يعطى .
الأوجال : جمع وَجَل ، وهو الفزع ، وللعنى ، أن تفاضل الرجال في
الصبر عند النوازل .

سلمان رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس شيء خيراً
من ألفٍ مثله إلا الإنسان » .

وقال الشاعر :

ولم أرَ أمثالَ الرجال تسارعُوا إلى الخير حتى عدّ ألفٌ بواحدٍ

وفي عكسه يقول : الأمور المخوفة تصغر على العظيم وتعظم على الصغير ، فعلى
قدر ما يفضل الرجل صاحبه في عزمه وإقدامه تزايد الأوجال وتنتقص .

وقد قال المتنبي :

على قدرِ أهلِ العزم تأتي العزائمُ وتأتى على قدر الكرام المكارم^(٢)

(١) الأبنة : العقدة في العود ، وجمعها أبْن .

(٢) ديوانه ٣ : ٣٧٨ ، ٣٨٩ .

وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صَغَارُهَا وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعَظَامُ
 الهمم : جمع همة . تتفاوت : تتباعد ما بينها . القيم : المنازل . السفير :
 الرسول : يهين : يضعف ، والمعنى أن السفير إذا تعدى فزاد في الحديث ضعف
 التدبير ، ولو عكست لقلت : إن تدبير المرسل إذا اختل ضعف السفير ، وإن
 كان حازماً ، وعلى هذا أنشدوا :

إِذَا كُنْتَ فِي حَاجَةٍ مَرْسَلًا فَأَرْسِلْ حَكِيمًا وَلَا تُوصِدْ^(١)
 وَإِنْ نَاصَحَ مِنْكَ يَوْمًا دَنَا فَلَا تُنَاقِ عَنْهُ وَلَا تُنَصِرْ
 وَإِنْ بَابُ أَمْرٍ عَلَيْكَ التَّوَي فَشَاوِرْ لِيُبَيِّنَا وَلَا تَعَصِرْ
 وَذُو الْحَقِّ لَا تَنْقُصْ حَقَّهُ فَإِنَّ الْقُطَيْعَةَ فِي نَقْصِ—
 وَلَا تَحْرِصَنَّ فَرَبَّ أَمْرٍ حَرِيصٍ مُضَاعٍ عَلَى حِرْصِهِ

قوله : « خلل » ، فساد . والإححاد : أن تجرد الرجل محمودا .
 والاجتهاد : بلوغ الجهد ، وهو أفصى الطاقة ، والمعنى : أن الرجل يستحق
 أن يكون محموداً بحسب ما بذل من اجتهاده وطاقته ؛ ولو عكست قلت :
 الاجتهاد واجب عليك فما كلفته بحسب إححادك من كلفك .
 الملاحظة : النظر بمؤخر العين .

المحافظة : التحرز ، والمعنى : إنك إذا أوجبت ملاحظة حال المحافظ لك ،
 ففعلك ذلك كفاء محافظته ، وإن عكست قلت إن المحافظ لك إذا صفت محافظته
 فهي كفاء ملاحظتك .

الموالى : الذى يُوالى الخير ، والكرم ، أى يفعل المرة بعد المرة . تنهد :

(١) البيت الأول في الأغاني ١٦ : ٨٤ (ساسى) من غير نسبة .

تَفَقَّدَ . الْمَوَالِي : بنو العمِّ ، وقيل : الموالى مَنْ والاك بعتق أو بحاف أو بصحبة ، فكلُّ واحد منهما مولى للآخر ، والموالى بالضم الفاعل ، والمعنى : إذا تعاهدت مَنْ والاك بما أوجبه ولاؤه من رعايته ، صفت مودته لك ، وإن عكست قلت : إن الموالى يتعهدون مَنْ والاهم .

والصحيح في هذا الموضع أنَّ للموالى الذى يولىك وُدَّه ، والموالى : العبيد والأتباع .

وسأنى الأستاذ المقرأ الحاجَّ ابن السقاط في هذا الموضع ، فأجبت بما تقدَّم ، فقال لى : معنى هذا الموضع غائب عن لا يعرف سيرة أهل المشرق ، وذلك أنَّ الرجل الشريف حين يصبح عندهم يأمر مواليه أن يقصدوا نظراء من الأشراف والأعيان ، فيأتون باب الشريف ، فيستأذنون عليه ، ويدخلون إليه ويقولون له : بنعم مولانا صباحك ، ثم يسألونه عن حاله وعمَّا حدث عنده ، ثم يفعلون كذلك بجميع أصحاب مولاى ، وكذلك يفعل موالى ذلك المقصود فى قصد نظراء مولاى ، فتتضبط بذلك عندهم الرعايات بين الأصدقاء والأقارب ، وتزايذ المودات بين الأولياء والأجانب . فعلى هذا المعنى يقول فى تعهد الموالى ، وهو حسن إن شاء الله تعالى .

قوله : « تحلّى » ، أى تزيّن . والمروءات ، تقدمت . وتخفيف الأحران : تهوين الطوارى والنوازل . الأوداء : الأحاب ، يريد أنهم يكفون الأعداء ، ورواية ابن ظفر « دفع العداء » ، وأنكر « الأعداء » ، وقال : العداء بالفتح والمد : الظلم .

امتحان : اختبار ، يقول : إنما يتبين لك المماقل بمقارنته وبمصاحبته للجاهل ، لأنَّه لا يواقه ، وإن عكست قلت : الجاهل إذا صحب الماقل تبهر وانتقى جهله .

وقالوا : إذا أردت أن تُفحِّمَ عالماً فأحضِرْهُ جاهلاً .

وقال الشاعر :

عَدَوَى البليد إلى الجليد سريعةً والجمرُ يوضعُ في الرماد فيخمدُ
وقال صلى الله عليه وسلم : « ويل لعالمٍ أمرٍ من جاهله » .
وجاء كيسان إلى الخليل يسأله ، ففكر ليحييه فلما استفتح الكلام ، قال
له : لا أدري ما تقول ! فقال الخليل ^(١) :

لو كنتَ تعلمُ ما أقولُ عَذَرْتَنِي أو كنتُ أَجهلُ ما تقولُ عَذَلْتُكَ
لكنَّ جهاتَ مقاتلي فعَذَلَتْنِي وعلمتُ أَنَّكَ جاهلٌ فعَذَرْتُكَ
تبهر العواقب : إمعان النظر في عاقبة الأمور . والمعاطب : الممالك ،
يريد من نظر في عاقبة أمره أمين ما يحذر .

الشدة : الفعل القبيح ينشر ذكره . السمعة : الذكر الجميل يُسمع عنك ،
أو القبيح فينشر في الناس .

الجفاء : سوء الأدب ، وقيل الكلام . وينافى : يباعد . الوفاء : ضد
الغدر .

* * *

ثم قال : هَذِهِ مَائِئَةُ لَفْظَةٍ ، تَحْتَوِي عَلَى أَدَبٍ وَعِظَةٍ ،
فَمَنْ سَاقَهَا هَذَا الْمَسَاقَ ، فَلَا مِرَاءَ وَلَا شِقَاقَ ، وَمَنْ رَامَ
عَكْسَ قَالِبِهَا ، وَأَنْ يَرُدَّهَا عَلَى عَقِبِهَا ، فَلْيَقُلْ : الْأَمْرَارُ

(١) الخبر والشعر في ابن خالكان ١٧٣: ١ بهذه الرواية : « وكان له - أي للخليل - ولد متخلف ، فدخل على أبيه يوماً ، فوجده يقطع بيت شعر بأوزان العروض ، فخرج إلى الناس وقال : إن أبي قد جن ، فدخلوا عليه ، وأخبروه بما قال ابنه ، فقال مخاطباً له ... وذكر البيهقي .

عند الأحرار ، وَجَزَهُرُ الْوَفَاءِ ، يُنَا فِي الْجَفَاءِ ، وَتُبِحُّ الشُّعْمَةُ
يَنْشُرُ الشُّعْمَةُ ، ثُمَّ عَلَى هَذَا الْمَسْعَبِ فَلَيْسَ سَعْبُهَا ، وَلَا يَرْهَبُهَا ،
حَتَّى تَكُونَ خَائِمَةً فَقَرَهَا ، وَآخِرَةُ دُرِّهَا . وَرَبُّ الْإِحْسَانِ
صَنِيعَةُ الْإِنْسَانِ .

* * *

تحتوى : تشتعل . عظة : موعظة .

المراء والشقاق ، معناهما الخلاف ، والمكس ردّ أول الكلام على آخره ،
وهو الردّ على العقب كما ذكره ، وهو معنى القهقرة الذى تبنى به المقامة ،
ولذلك لم ينسبها إلى بلد . والقهقرة : رجوع الرجل عنك ، كما جاء عليك ، وذلك
أن يرجع إلى خلف ، وهو يستقبلك بوجهه ، وهو الردّ على العقب ، وذلك
أن الرجل إذا توجه مقبلاً إليك ، فإنما يقدّم فى مشيه إليك صدوراً قدميه ،
فإذا تقهقر قدّم فى مشيه عقبه ، وأصل القهقر : الحجر المدحرج ، فإذا ضربته
تدحرج فى جريه ، حتى يستقر ، فإذا أردت أن يرجع إلى الموضع الذى جاء
منه ضربته فتدحرج راجعاً إلى جهة موضعه ، فشبّه رجوع الرجل على ما وصفناه ،
وكذلك هذه الرسالة رجوع آخرها إلى أولها ، مشبّه بذلك .

ولذلك شبّه الأعرابى فرسه فى اجتماعه بالحجر^(١) فقال : محبوبك مهملج^(٢)
كما تقهقر الأدعج

والمسحب : الطريق الذى تجرّ فيه الشيء .

(١) الحجر : الأثني من الخيل

(٢) المهملجة : حسن سير الدابة فى سرعة

يرهبها : يخفها ، أى لا يخرج الألفاظ عن طريقها فتختل ، وذلك أن هذه الرسالة مركبة كلها من مبتدأ وخبر ، فإن وقفت فيها على مبتدأ فى أولها أو آخرها أو وسطها ، فافترأ مع ما بعده تبعده مستقيماً ، واقترأ مع ما قبله تبعده كذلك ، فإن وقفت على خبر مبتدأ فلا يستقيم مع ما بعده ، وهو مع ما قبله أبعد ، فأراد بقوله « لا يرهبها » لا يبتدىء لفظه بغير مبتدأ فتتداعى مبانها ، وتبطل معانيها ، ففهمه .

والفقر فى غير الموزون مثل القوافى فى الموزون ، والفقر مشتقة من فقار الظهر ، لأنها تنقطع على قافيتين أو ثلاثة ، وهذا هو الفرق بين الفقر والأسجاع إذ الأسجاع كلها ترجع إلى قافية واحدة من سجع الحمام وهو لا يختلف ، ولهذا قال المرمى فى الغراب :

أتى وهو طيار الجناح وإن مَشَى أشاع بما أعيأ سطيحاً من السجع^(١)
وسطوح : كاهن ، وكلامه أسجاع .

قال الراوى : فلما صدع برسالة الفريدة ، وأملوحتيه
للأفيدة ، علمنا كيف يتفاضل الإنشاء ، وأن الفضل بيد الله
مؤتيه من يشاء . ثم اعتلق كل منا بذيله ، وفلذ

(١) سقط الزند ١٣٣٧ ، قال فى شرحه : أتى : الضمير فيه يرجع إلى « موف » ، والمراد به الحمام الأورق ، وهو طيار الجناح ، والبيت قبله :

وشككتين ما بين الأنافى واحد
وآخر موف من أرك على قرع

لَهُ فَلَذَّةٌ مِنْ نَيْلِهِ ، فَأَبَى قَبُولَ فَلَذَتِي ، وَقَالَ : لَسْتُ
أَرْزَأُ تَلَامِيذَتِي .

فَقُلْتُ لَهُ : كُنْ أَبَا زَيْدٍ ، عَلَى شُحُوبِ مَحَنَّتِكَ ، وَنُضُوبِ
مَاءِ وَجَنَّتِكَ ، فَقَالَ : أَنَا هُوَ عَلَى نُحُولِي وَفُحُولِي ، وَقَشْفِ
مُحُولِي ، فَأَخَذْتُ بِنِي تَثْرِيئِهِ ، عَلَى تَشْرِيقِهِ وَتَغْرِيئِهِ .

* * *

صدع : كشف وشق .

للفريدة : التي لا مثل لها .

أملوحته ، يريد بها الرسالة ، والأملوحة : الكلام المليح ، يعجب له
السامع .

والإنشاء : الكتابة

فَلَذٌ : قطع فلذة : قطعة ، وأصلها قطعة من كبد البير .

قال الشاعر :

تسكفيه حُرَّةٌ فَلَذٍ إِنْ أَلَمْ بِهَا مِنْ الشَّوَاءِ وَيُرْوَى شَرِبَهُ الْفُغْمَرُ^(١)
نيله : عطائه . أرزأ : أنقص .

والتلميذ : هنا متعلم العلم ، ولذلك أباي أن يأخذ منه شيئاً ، وهو في كل
مقامة إذا تعرّض للكذبية يفرده بالأخذ منه ، أو يبتدىء التقدير منه ، وذلك أن

(١) البيت لأعشى باهلة ، من قصيدته في رثاء المنتشر : ذكرها المبرد في الكامل
٤ : ٦٤ - ٦٦ ، ورواية البيت هناك « تسكفيه فلذة كبد » ، والفمر : قذح صغير لا يروى .

الجماعة في هذه المقامة اشتروا مناظرته ، وابن همام شَرَطَ أَنَّهُ من نظارة الحرب ،
أى إِنَّمَا جلس لينظر ويتعلم ، فلهذا أخذ منهم وتركه ، وزاده فائدة التنبيه على
أنه أبو زيد ، ولذلك قال له : كن أبا زيد ، وكن أتى به بلفظ الأمر ، ومعناه
الدعاء ، وفي الحديث : « كن أبا ذر » و « كن أبا خيثمة » ، وذلك أن النبي
صلى الله عليه وسلم رأى شخصاً من بعيد ، فرجا أن يكون أبا ذرّ الغفارى ،
فقال : « كن أبا ذر » أى جملك الله أبا ذرّ ، فكان مارجاه النبي صلى الله
عليه وسلم ، وكذلك كان اللفظ هنا ، كأن ابن همام لما أعجب بفصاحة صاحب
الرسالة تمنى أن يكون أبا زيد ، لما عهد من فصاحته فقال : كن أبا زيد ، أى
جملك الله أبا زيد الذى عهدتُ منه الفصاحة ، متى رأيتُه ، فصدق منه أُمْنِيَّتُهُ
فقال : أنا هو الذى تمتيت .

والدعاء بلفظ الأمر كثير فى كلامهم كقوله :

* ألا أنعم صباحاً إيتها الطلل البالى * (١)

وقول الآخر :

* ألا أنعم صباحاً أيها الربع واسلم *

أى سلمك الله من رُبْع ، وجعل صباحك ناعماً .

الفنجديهى : كن أبا زيد ، أى أنت أبو زيد ، ومنه : ﴿ كنتم خير أمة
أخرجت للناس ﴾ أى أنتم خير أمة .

شعوب : تغير : سَخَنْتَكَ : جلدة وجهك وهيئتكَ . نُضوب : جفوف .
والوجنة : العظم الشاخص تحت العين . قُحولى : يُنْبسى . قَشَف : تغير هيئته

(١) لامرى القيس ديوانه ... ، وبقية :

* وهل يَمِينُ مَنْ كَانَ فى الْعَصْرِ الخَلَالِ *

بترك النظافة . مُحول : جفوف جسمى .

تَثْرِيه : لومه وتعميب فعله ، والتثريب بالدنب المؤاخذه به ، وأصله
الاختلاط والإفساد ، وإنما يقول : لا تثريب عليك ، من قدر فعفا .

فَحَوَّلَ وَاسْتَرْجَعَ ، نَمَّ أَنْشَدَ مِنْ قَلْبٍ مُوجِعٍ :

سَلَّ الزَّمانُ عَلَيَّ عَضْبَةً لِيُرْوَعَنِي وَأَحَدَ غَرْبَةٍ
وَاسْتَلَّ مِنْ جَفَنِي كَرًّا مُرَاعِمًا ، وَأَسَالَ غَرْبَةٍ
وَأَجَالَنِي فِي الْأَفْقِ أَطْرَافَ شَرْقَةٍ وَأَجُوبَ غَرْبَةٍ
فِي كُلِّ جَوٍّ طَلْقَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ لِي وَغَرْبَةٍ
وَكَذَا الْمَغْرَبُ شَخْصُهُ مُتَغَرَّبٌ وَنَوَاهُ غَرْبَةٍ

نَمَّ وَلَّى يَجْرُ عِطْفِيهِ ، وَيَخْطِرُ بِيَدَيْهِ ، وَنَحْنُ بَيْنَ مُتَلَفَتٍ
إِلَيْهِ ، وَمُتَهافتٍ عَلَيْهِ ، نَمَّ لَمْ نَلْبَثْ أَنْ حَلَلْنَا الْحُبَّاءَ ، وَتَفَرَّقْنَا
أَيَّادِي سَبَا .

حولى : قال لاحول ولا قوة إلا بالله . استرجع : قل إنا لله وإنا إليه
راجعون .

عضبه : أى سيفه القاطع . ليروعنى : ليفزعنى .
غربه : حده . استل : أزال . كراه : نومه .

مراعِما : مَذَلَّلًا .

غربه : مجرى دمه ، والقرب فيض الدمع .

أجالي : صرفنى ومشائى .

الأفق : نواحي الأرض . أطوى : أقطع . أجوب : أخترق .

جوّ : ناحية . غربّة ، قَعْلَة ، من الغروب مثل طَلْعَة ، من الطلوع .

المغرب : المبعد . المتغرب : الملازم للغربة .

نواه : سفرته . غربّة : بعيدة .

[مما قيل في السفر والاغتراب]

ومن أحسن ما قيل في تبعيد السفر قول حبيب^(١) :

سَلِيْ هل عمرتُ القفرَ وهو سباسبٌ وغادرت رُبى من ركاى سَبَاسِبًا^(٢)
وغرّبت حتى لم أجد ذكر مشرقٍ وشرقت حتى قد نسيتُ الفاربا
خطوبٌ إذا لاقيتهم رددتنى جريماً كَأَنى قد لقيت الكتابيا
وله أيضاً :

ما اليومَ أوّلُ توديعى ولا الثانى البين أكبر من شوقى وأحزانى^(٣)
دعِ العراق فإنّ الدهر ساعده فصار أملك من رُوحى لجئانى
خليفة ألخضر من يربع على وطن^(٤) فى بلدة فظهورُ العيس أوطانى
فى الشام أهلى وبغداد الهوى وأنا بالرقتمين وبالفسطاط إخوانى

(١) ط : « ابن حبيب » ، والصواب ما أثبتته من ا

(٢) ديوانه ١٧

(٣) ديوانه ٢٢٣ .

(٤) يربع : يقف .

(١٧ - شرح مقامات الحريرى - ج ٢)

وما أظنّ النوى ترضى بما صنعت حتى تبغنى أقصى خراسان^(١)
وقال الحلواني :

يا نفس وبِحَك ، في التغرب ذلّة فتجرّعى كأسى هوى وهوان
وإذا نزلت بدار قوم دارهم فلهم عليك تمزّز الأوطان
وقال ابن شرف :^(٢)

إن ترمك الغربة في معشر قد جيل الناس على بُغضهم^(٣)
فدارهم ما دمت في دارهم وأرضهم مادمت في أرضهم
وقال البستي :

لا يعدم المرء كئيبا يستكن به وشعبة بين أهليه وأصحابه
ومن نأى عنهم قلت مهابته كاليث يحقر لما غاب عن غايده
والسابق لهذا المعنى زهير في قوله :

ومن يقترب بحسب عدو أو صديقه ومن لا يكرّم نفسه لا يكرّم^(٤)
وفي قوله :

فقرى في بلادك إن قوما متى بدعوا ببلادهم يهونوا^(٥)
يقال : جاء يجرّ عطفه ، إذا جاء رخي البال متبغترا ، وإنما ينظر في عطفه
إذا كان مُعجبا بنفسه .

(١) الديوان : « حتى تشافه بي » .

(٢) نقله في الننف ١٠٣

(٣) الننف : « قد جيل الطبع »

(٤) ديوانه ٣٢ .

(٥) ديوانه ١٩٢ ، وفيه : « فعل في ديارك » .

وثاني عِظْفَيْهِ ، بمعنى متكبر ، والمِطْفَان : جانبا الثوب ، والمِطَاف الرِّداء ، والجمع عُطْف .

ويقال : جاء يجرّ رجله ، إذا جاء مثقلا لا يقدر أن يحمل رجله .
يخطر ببديه : يجرّ كهما عند المشي .

متهافت : متساقط من الندم على فراقه .

أبادى سبا ، يريد في كلّ طريق وجهة .

* * *

[ذكر سبا وسدّ مأرب]

وسبأ هو أبو قبائل اليمن المتفرقة من سدّ مأرب الذين مزقهم الله كلّ مزق . وُسِّمَ سباً لأنه أوّل مَنْ سَبَى السَّبْيَ ، وقيل : سباً اسم أمّهم ، ومأرب اسم بلدهم .

وكانت سباً من أحسن بلاد الله تعالى وأخصبها ، وأكثرها شجراً وماء ، وقد ذكر الله تعالى أنها كانت جَنَّتَيْنِ عن يمين وشمال ، وكانت مسيرة شهر في شهر للمجدّد الراكب ، يسير في جنان من أولها إلى آخرها ، لا تواجهه الشمس ، ولا يفارقه الظلّ ، مع تدفق الماء ، وصفاء الهواء ، واتساع الفضاء ، فكشوا ما شاء الله ، لا يماندهم ملكٌ إلا قصموه .

وكانت في بدء الزمان تركبها السيول ، فجمع ملكٌ حير أهل مملكته ، فشاوهم في دفع السَّيْلِ ، فأجمعوا على حفر مسارب له حتى تؤدّيه إلى البحر ، فحشد أهل مملكته حتى صرف الماء ، واتخذ سدّاً في موضع جَرَيان الماء من الجبال ، وورصفه بالحجارة والحديد ، وجعل فيه مجارى للماء في استدارة الذراع ، يخترقون منها مقداراً

صلوكم من الماء وشربكم مقسوما للأرض ، فإذا جاء السيل تصرف في الجارى
إلى جناتهم ومزروعاتهم ، بتقدير يعتمهم فعه .

وقيل : صنعه اتمان بن عاد ، وجعله فرسخاً في فرسخ ؛ وذكر الأعشى في
شعره أن حميراً ابتنته ، فقال :

رُحَامٌ بَنَتْهُ لَهْمَ حَمِيرٍ إِذَا جَاءَ مَاؤُهُمْ لَمْ يَرِمْ^(١)
وَأَرَوَى الزَّرُوعَ وَأَعْنَابَهُمْ عَلَى سَعَةِ مَاؤُهُمْ قَدْ قَسِمَ^(٢)
فَعَاشُوا بِذَلِكَ فِي غَبْطَةٍ خَافَ بِهِمْ جَارِفٌ مِنْهُمْ^(٣)

فلما كفروا بأنعم الله ، ورأوا أن ملكهم لا يبديه شيء ، وعبدوا
للشمس ، بعث الله على سدّهم فآرة فخرقته ، وأرسل عليهم السيل ، وأباد
الله خضراءهم .

ولما انتهى الملك في ولد سبأ إلى عمرو بن عامر مزيقياء - وسمي بذلك
لأنه كان يمزق في كل ليلة حُلّةً كبيراً من أن تعاد عليه أو يلبسها غيره . وقيل :
سمي بذلك لأنه مزق الأزدي في البلاد - وكان أخوه عمران كاهناً ، فأنته
كاهنة تدعى طريفة فأخبرته بدنو فساد السدة وفيض السيل ، وأنذرتة ،
فقال لها : وما آية ذلك ؟ فقالت : إذا رأيت جُرْذاً يُكْثِرُ بِيَدَيْهِ الْحَفَرَ ، وَيَقْلِبُ
بِرْجَلَيْهِ الصَّخْرَ ؛ فاعلم أنه قد اقترب الأمر . فقال : وما الأمر ؟ فقالت : وعد

(١) ديوانه ٤٣ ، ولم يرم : لم يذهب

(٢) في الديوان : : « ... وأعْنَابُهَا ... » إذ قسم .

(٣) في الديوان : « جَارِفُهُمْ جَارِفٌ مِنْهُمْ » ، قال والنهزم : الذى له صوت .

من الله ، ينزل يا عمرو ، فلتكثر الشكر .

فراى عمرو يوما فى السد جُرذا يقبل صخرة ، ما يقبلها خمسون رجلا ،
فرجع وهو يقول :

أبصرتُ أمراً هاج لى بَرَحِ السَّقَمِ
مِنْ جُرَذٍ كَفَحَلِ خَنْزِيرِ أَجَمِ
لَهُ مَخَالِبُ وَأَنْيَابٌ قَضَمِ

أى معوجة . فأجمع على الخروج منها ، وأعمل الحيلة فى بيع ماله ، وألاً
بنكر الناس عليه ، فقال لابنه : إنى صانع طعاماً ، وداع إليهِ أهل مأرب ، فارهد
على ما أقول لك من الحديث ، ففعل ابنه ذلك وردَّ عليه بأقبح ردِّ ، فصاح
عمرو : واذْلاهِ ابْجِيبْنِي صَبِيَّ الْخَلْفِ أَلَا يَقِيمُ ببلدِ ضِيمٍ فيه ، فجعل يبيع
أمواله^(١) .

وبعضهم يقول لبعض : اغتذموا غضبة عمرو ، واشتروا منه قبل أن يرضى ،
فلما اجتمعت له أمواله ، أخبرهم بشأن السَّيْلِ ، فأجمعوا على الجلاء ، فقال لهم عمرانُ
أخوه : إنى أصف لكم بلدًا أنا ، فاخترأوا أَيْتَهَا شَتَمَ ... فمن كان منكم ذا تم
بعميد ، وجل غير شرودٍ ، فليخلق بالشَّعب من كروود ، فالحق به همدان .

(١) فى معجم البلدان - مأرب : « وكان فيهم امرأة كاهنة تسمى طريفة ، فأقبلت يوماً
حتى وقفت على عمران بن عامر وهو فى نادى قومه ، فقالت : « والظلمة والضياء ، والأرض
والسماء ، ليقبلن إليكم الماء ، كالبحر إذا طما ، فيدع أرضكم خلا ، تسقى عليها الصبا . فقال لها
عمران : ومتى يكون ذلك يا طريفة ؟ فقالت : بعد ست عدد ، يقطع فيها الوالد الولد ، فيأتكم السيل ،
يفيض هيل . وخطب جليل ، وأمر ثقيل ، فيخرب الديار ، ويهطل العشار ، ويطيب العرار ،
فقال لها : لقد فجعنا بأموالنا يا طريفة ، فيبنى مقاتلك ، قالت : أنا كم أمر عظيم ، بسيل لطيم ،
وخطب جسيم ، فاحرسوا السد ، لثلاث عتد ، وإن كان لابد ، من الأمر المد ، انطلقوا إلى
رأس الوادى ، فسترون الجرذ العادى ، يجر كل صخرة صيخاد ، بأنياب حداد ، وأظافر
شداد ... فانطلق » .

ثم قال : وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ ذَا سِيَّاسَةٍ وَصَبْرٍ ، عَلَى أَزْمَاتِ الدَّهْرِ ، فَلْيَلْحَقْ بِهَيْطُنْ مُرًّا ؛ فَلْيَحْقْ بِهِ خُرَاعَةً .

ثم قال : وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَرِيدُ الرَّاسَخَاتِ فِي الْوَحْلِ ، الْمَطْعَمَاتِ فِي الْحُلِّ ، فَلْيَلْحَقْ بِثَرِبِ ذَاتِ النَّخْلِ . فَنَزِلْهَا الْأَوْسَ وَالْخُرْجَ .

ثم قال : وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَرِيدُ الْخَمْرَ وَالْخَمِيرَ ، وَالْأَمْرَ وَالْعَامِيرَ ، فَلْيَلْحَقْ بِبُصْرَى وَسَدِيرٍ ، وَهَيْ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ ، فَنَزِلْهَا غَسَّانَ .

ثم قال : وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَرِيدُ الثِّيَابَ لِلرِّقَاقِ ، وَالْخَلِيلَ الْعَتَاقِ ، وَالذَّهَبَ وَالْأَوْرَاقَ ، فَلْيَلْحَقْ بِالْعِرَاقِ ، فَلْيَحْقْ بِهَا مَالِكُ بْنُ فِهْمٍ بْنُ الْأَزْدِ .

وَتَخَلَّفَ مَالِكُ بْنُ الْيَمَانِ فِي قَوْمِهِ ، حَتَّى أَخْرَجَهُمُ السَّبِيلَ فَنَزَلُوا نَجْرَانَ ، وَانْتَسَبُوا إِلَى مَذْحِجٍ .

وَدَخَلَتْ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ إِلَى مَعْدَةَ ، فَأَخْرَجَتْهُمْ مَعْدَةُ بَعْدَ حُرُوبٍ ، فَنَزَلُوا بِجِبَالِ السَّرَّاءِ عَلَى تَحْنُومِ الشَّامِ .

فَلَمَّا تَفَرَّقَتْ فِي الْبِلَادِ هَذِهِ التَّفَرُّقُ ، ضَرَبَتْ الْعَرَبُ بِهِمُ الْمَثَلَ ، فَقَالُوا : ذَهَبُوا أَيْدَى سَبَأَ وَأَيْدَى سَبَأَ ، أَيْ مَفْتَرِقِينَ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ .

وَقِيلَ فِيهِمْ : إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْتَمِعِينَ بَدَأَ وَاحِدَةً ، فَلَمَّا مَرَّقَهُمُ اللَّهُ وَفَرَّقَهُمْ ، صَارَتْ يَدُهُمْ أَيْدَى مَفْتَرِقَةٍ ، وَأَخَذَ كُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ طَرِيقًا عَلَى حِدَةٍ . أَوْ يَرِيدُ بِهِ الْإِنْعَمَةُ ، فَالْمَعْنَى : تَفَرَّقْنَا كَمَا تَفَرَّقَتْ نَعْمُ أَهْلِ سَبَأَ .

الزَّجَّاجُ : سَبَأُ مَدِينَةٌ تَعْرِفُ بِمَأْرَبٍ عَلَى ثَلَاثِ لَيَالٍ مِنْ صَنْعَاءَ .

الْجَوْهَرِيُّ : سَبَأُ اسْمُ رَجُلٍ سُمِّيَتْ بِهِ الْبَلَدَةُ .

وذكر في الدرة أن لفظة التفرق تستعمل في الأشخاص والأجسام ،
نحو تفرق القوم ، وإن الافتراق يقال في الأهواء والآراء ، كما قال النبي صلى
الله عليه وسلم : « تفرق أمتي على كذا وكذا فرقة » ، فإذا قيل : إن لزيد ثلاثة
إخوة متفرقين ، فالمراد أن كل واحد منهم ببقعة . وإن قيل متفرقين
فالمراد أن أحدهم لأبيه وأمه ، والآخر لأبيه ، والثالث لأمه ؛ وكذلك يقال :
فرق بالتشديد فيما كان من قبل الجمع ، وفرق بالتخفيف ، فيما يراد به التمييز
كقوله : فرق بين الحق والباطل ، والحالي والمآطل .

المقامة الثامنة عشرة وتعرف بالسَّجَارِيَّة

حكى الحارث بن همام قال : قفلتُ ذاتَ مرّةٍ من الشام ،
أنحو مدينة السلام ، في ركبٍ من بني مُمَيَّر ، ورفقةٍ أولى خيرٍ
ومير ، ومعنا أبو زيد السَّروجِيّ : عُقْلَةُ العجلان ، وسلوة الشكّلان ،
وأعجوبة الزمان ، والمشار إليه بالبنان في البيان .

فصادف نزولنا سنجار ، أن أولمَ بها أحدُ الثَّجَّارِ ، فدعَا
إلى مادُتِه الجَفَلَى ، من أهل الحضارة والفلا ، حتّى سرت دَعْوَتُه
إلى القافلة ، وجمَعَ فيها بين الفريضة والنَّافِلَة .

* * *

قفلت : رجعت من السفر .

* * *

[ذكر الشام]

الشَّام ، ويقال له : شام وشَّام ، ويذكر ويؤنث ، وينسب إليه شامى وشَّام ،
على قَعال . ويحكى عن سيبويه شامى ، وإثبات الألف في النسب بدلٌ على إثباتها
في أصل البناء .

وقيل : أُلِفُ يمان وشَّام عَوْض من ياء التَّسب ، قال طرفة :

• شامية تروى الوجوه بلبيل •

وقال في الدرّة^(١) المنسوب إليه على ثلاثة أوجه : شامى وهو القياس ،
وشام بيا ، مخففة كالمقص ، وشامى وهو شاذ لأنه يصير بمنزلة المنسوب إلى
المنسوب ، وكذلك جوزت الثلاثة في المنسوب إلى اليمين .

وعلى الشاذ منها قول العرب^(٢) :

إني أتيت لي يمانية إحدى بنى الحارث من مذحج

ولم يجز الحريري تأنيث الشام وقال : لفظه مذكر .

وقال ابن الأنباري - وذكر الشام والحجاز وغيرهما : فمن أنث من ذلك شيئاً
فإنما يذهب به إلى معنى المدينة .

وقالوا : الشام صفوة بلاد الله .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحذيفة ومعاذ : « عليكم بالشام فإن
الله قد تكفل بالشام وأهله » .

وسميت شاماً لأنها عن شامة الكعبة .

ابن الأنباري : يجوز أن يكون مأخوذاً من اليد الشوى وهي اليسرى .
وقال قوم : أصله في الكعبة ، لأن بابها يستقبل المطلع ، فمن قابل طلوع
الشمس كانت الكعبة عن يمينه في شق الجنوب ، والشام عن يده الشوى في
شق الشمال .

أبو القاسم الزجاجي : قال : جماعة من أهل اللغة : يجوز ألا يهمز ، فيقال :
شام جمع شامة ، سميت بذلك لكثرة قراها ، وتداين بعضها من بعض ، شبت
بالشامات .

(١) درة الفوارس ٩٠

(٢) في الأصول : « عمر بن أبي ربيعة » وهو خطأ ، والبيت للمرجى في ديوانه ١٩ ،
والأغاني ١ : ١٠٨ .

وقال الشرقي سميت بسام بن نوح ، لأنه أوّل مَنْ بناها ، فعَبِّر اللفظ المعجمي فجعل السين شيناً .

وقسمت الشام خمسة أقسام : الشام الأولى ، وأوّل حدّها من طريق مصر أمّج ، ثم غزة ثم الرملة ، ومدينته العظمى فلسطين وعسقلان ، وفلسطين هي الشام الأولى ، وسها بيت المقدس .

الشام الثانية الأردن ، ومدينته العظمى طابريّة ، وهي بشاطيء البحيرة ، واليرموك بين فلسطين والأردن .

والشام الثالثة الفُوطَة ، ومدينتها العظمى دمشق ، ومن سواحلها طرابلس الشام .

الرابعة : أرض حصص الشام .

الخامسة : قنسرين ، ومدينته العظمى حلب ، وهي من قنسرين على أربعة فراسخ . وساحلها أنطاكية ، مدينة عظيمة على شاطئ البحر داخلها المزارع والبساتين والأنهار .

* * *

قوله : « أنحو » أى أقصد . الركب : اسم لمن يركب الإبل ، كذا قال الخليل .

وقال يعقوب : الرّكب : جمع راكب ، وهم أصحاب الإبل خاصّة ، ولا يكون الركب إلا أصحاب الإبل ، وراكب الفرس فارس ، وراكب البغل بقال ، وراكب الحمار حمّار ، وراكب الفيل قَيّال ، والجمع خَيْالَة وبَقَالَة وحمارة وقَيّالَة ، وتبعه ابن قتيبة في هذا ، وخطأهما جميعاً ابن السّيد وغيره واحتجوا بقول امرئ القيس :

إذا ركبوا الخيل واستلّموا تحزّت الأرض واليوم قرّة^(١)

فقوله : « ركبوا الخيل » ، يدلّ على أنه يقال لمن ركب الفرس : راكب . وما ذكره يعقوب هو الصحيح ، لأنّ العرب إذا أفردت لفظ راكب أو ركب لم يقع في كلامها إلّا على أصحاب الإبل مطلقاً ، فإذا أرادت أن توقمه على أصحاب الخيل قيّدته بذكر الخيل ، فقالوا : ركب الفرس ، وراكب الفرس ، فيذكرون الفرس ، وعلى هذا أتى :

* إذا ركبوا الخيل واستلّموا *

نخّيت هذه التفرقة على ابن السّيد ، على حظّه الوافر من اللغة .

وقال الحريري في الدّرة^(٢) : الراكب هو راكب البعير خاصّة ، وجمعه رُكبان ، فأما الركب والأركوب ، فقد جوز الخليل أن يطلق اسمها على راكبي كلّ دابة إلّا أن الأركوب أكثر من الرّكب عدة وأكثر جماعة .

[بنو نَمِير]

وبنو نمير قبيلة من بني صعصعة ، إحدى جمرات العرب ، وأشرف بيوت قيس عيلان ، وجمرات العرب ثلاثة ، سموا بذلك لأنهم متوافرون في أنفسهم لم يدخلوا معهم غيرهم ، والتجدير في كلامهم التجميع ؛ وهم بنو نمير ، وبنو الحارث ابن كعب ، وبنو ضبّة بن أدّ ، فطفت جمرتان وهم بنو ضبّة لحاققتها الرّباب ، وبنو الحارث لحاقتها مذحج ، وبقيت نمير لم تحالف ، فهي على كثرتها ومنعتها ، قال شاعرهم :

(١) ديوانه ١٥٤

(٢) درة النّواس ٥٠

نَمِيرُ جَرَّةِ الْعَرَبِ أَتَى لَمْ تَزَلْ فِي الْحَرْبِ تَنْتَهَبُ النَّهَابَا
وَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ إِذَا قِيلَ لَهُ : تَمَنَّيْتُ أَنْتَ ؟ قَالَ : نَمِيرِي كَمَا تَرَى ، إِذْ لَا
بِنَسْبَتِهِ ، وَافْتِخَارًا بِمَقْعَتِهِ ، حَتَّى قَالَ جَرِيرٌ فِي الرَّاعِي :
فَقَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نَمِيرٍ فَلَا كَعْبًا بَلَفْتَ وَلَا كِلَابًا^(١)
فَصَارَ إِذَا قِيلَ لَهُ تَمَنَّيْتُ أَنْتَ ؟ قَالَ : عَامِرِي .
وَمَرَّتْ امْرَأَةٌ بِهِمْ ، فَأَحْدَوْا النَّظَرَ إِلَيْهَا ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ : وَاللَّهِ إِنَّهَا لَرَسْعَاءُ ،
فَقَالَتْ : يَا بَنِي نَمِيرٍ ، وَاللَّهِ مَا امْتَثَلْتُمْ فِي وَاحِدَةٍ مِنْ اثْنَتَيْنِ ؛ لَأَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :
﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَفْعَلُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾^(٢) ، وَلَا قَوْلَ جَرِيرٍ :
فَقَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نَمِيرٍ فَلَا كَعْبًا بَلَفْتَ وَلَا كِلَابًا
قَوْلُهُ : « أَوْلَى خَيْرٍ » ، أَيْ ذَوِي غَنَى . مِيرٌ : صَلَةٌ وَصَدَقَةٌ . عَقْلَةُ الْمَجْلَانِ :
حَابِسُ الْمُسْتَعْجِلِ .
سَلَوَةُ الشُّكْلَانِ : مَذْهَبُ حَزْنِ الْحَزِينِ ، يَقُولُ : إِذَا رَأَاهُ مَنْ هُوَ فِي شُغْلٍ
مَمْجَلٍ حَبْسِهِ ، أَوْ حَزِينٍ أَزَالَ حُزْنَهُ .
الْبَنَانُ : الْأَصَابِعُ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « كَفَى بِالْمَرْءِ فِتْنَةً
أَنْ يَشَارَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ فِي دِينٍ أَوْ دِينَانٍ إِلَّا مِنْ عَصَمَةِ اللَّهِ » .

* * *

(١) ديوانه ٧٥

(٢) سورة النور ٣٠

[سنجار]

سنجار : بلد بينه وبين قرقيسيا تيف وثلاثون فرسخاً ، وقرقيسيا على الفرات ، وهي كورة من كور ديار ربيعة ، وفي سنجار فوهة نهر الخابور ، فيمر حتى يصب في الفرات ، وهي على أميال من نصيبين ، وعن يمين طريق الموصل .

* * *

قوله : « أولم » ، أى صنع وليمة ، والوليمة : طعام العرس . والمأدبة : طعام يدعى إليه الناس .

والجنلى : الناس أجمع .

والخضارة : ضد البدواة ، يفتح أولها ويكسر . الفلا : القفر ، وأراد دعا أهل الحضارة والبادية . سرت : وصلت .

القافلة : الرفقة الراجعة من سفرها ، قال الأزهري : سُميت قافلة تفاؤلاً بقولها عن سفرها الذى ابتدأت .

وظن ابن قتيبة أن عوام الناس يفلطون في تسميتهم للناهضين في ابتداء الأسفار قافلة ؛ إلا منصرفه إلى وطنها وهذا غلط ، وما زالت العرب تسمى للناهضين في ابتداء الأسفار قافلة تفاؤلاً ، بأن يُيسّر الله لها القبول وهو شائع عند فصاحتهم إلى اليوم .

وأراد بالفريضة ، أعيان التجار الذين حضورهم كالفرض ، وبالنافلة : المكارين والأنباع ، أو يريد بالفريضة من لا بد له أن يدعو للحضور ، مثل القرابة والوجوه والأصحاب ، والنافلة لقيف الناس ، وأراد أنه حل لعرسه من يحب ومن لا يحب ، والماء من « فيها » ضمير الدعوة ، ويروى « فيها » بالميم .

* * *

[ذكر الحاضرة والبادية]

وأما ذكر الحاضرة والبادية ، فقد أتينا في ذلك بفصل أدبي مستحسن ،
ولسنا نحتاج إلى إقامة دليل شاهد على فضل الحاضرة ، لأنها محلّ الجمعيات
والجماعات ، وإليها تجلب الخيرات ، وبها تستمد البركات ، ومنهم العلماء
والفضلاء ، والملوك ، إلى ما يطول تعدادهم ، ومن أراد الله به خيراً نقله من البادية
إلى الحاضرة ، وقد أخبر الله تعالى عن يوسف عليه الصلاة والسلام في قوله :
{ وقد أحسنَ بي إذ أخرجتني من السجن وجاء بكم من البدو } ^(١) ، وهذا فيه
فضل للحاضرة لا يُدفع إذ قرن الخروج من السجن بالجيء من البدو ، وعده
من إحسان الله سبحانه وتعالى .

وقف أعرابي على دِعْبَل وهو ينشد :

إذا القوس أوترها أيّد رمى فأصاب الكلا والذرى

فقال له : ما عנית ؟ فقال دعبل : القوس قوس قزح ، أمطرت الأرض
بها ، فأعشبت فروعها المال ، فسميت كلاه وأسفمه ، قال الأعرابي : لله دركم
يا حاضرة الإنسكم لتسيرون معنا فتساوون ، ولتفكّجون عنا فتفتوتون .

وفي ضدّ هذا المعنى قال شبيب بن شبة : كثر قطع الطريق بين مكة والبصرة ،
فبعثني المنصور أقوم في المناهل ، وأنكلم بدمّ البادية ، وأوبخهم بما يردّهم ،
فلم أرد ماء إلا تكلمت عايه بما يحضرني ، فلا أجده من ينطق ، حتى قت على
ما لبني تميم ، فلما انقضى كلامي ، قام رجل منهم فقال : الحمد لله أفضل ما حدثه ،
وحمده الحامدون قبلك أو بعدك ، وصلى الله على سيدنا محمد أفضل صلاة وأتمّها

وأخصها وأعمها . ثم إنى قد سمعت ما قلت فى مدح الحاضرة وأهلها ، وذمّ البادية وأهلها ، ومهما كان فينا أهل البادية من سوء ، فليس فينا نقب الذور ، ولا شهادة الزور ، ولا نبش القبور ولا نيك الذكور .

قال : فأفجمنى والله حتى تتميت أنى لم أخرج لذلك الوجه .

وقال القطامى :

فمن تكن الحضارة أعجبه فأتى رجال بادية ترانا

قال ابن رشيق : ومن أملح ما سمعه الناس فى تفضيل البادية على الحاضرة من حلاوة وطلاوة وصحة معنى ، وقرب مأخذ ، مأخوذ من قول أبى الطيب :

مَنْ الْجَاذِرُ فِي زِيِّ الْأَعَارِبِ مُحَرَّ الْحُلَى وَالطَّايَا وَالْجَلَايِبِ^(١)

ثم قال :

ما أوجه الحضرة المستحسنات به كأوجه البدويات الرعايب^(٢)

حُسن الحضرة محبوب بتطرية وفى البداوة حُسن غير محبوب^(٣)

أفدى ظبياء فلاة ما عرفن بها

مَضَنُغَ الْكَلَامِ وَلَا صَبْغَ الْحَوَاجِبِ

ولا بَرَزْنَ مِنَ الْحَمَامِ مَائِلَةً أَوْ رَاكِبْنَ صَقِيلَاتِ الْمَرَاقِبِ^(٤)

(١) ديوانه ١ : ١٢٩ : والجاذر : جمع جَوْدَر ، وهو ولد البقرة الوحشية . وأعاريب : جمع عرب ، أو اسم جنس . والجلايب : الملاحف .

(٢) الرعايب : جمع رعبوبة ، وهى المرأة المتلكة البيضاء .

(٣) بمدّه فى الديوان :

أَيَّنَ الْمَعِيزُ مِنَ الْأَرَامِ نَاطِرَةً وَغَيْرَ نَاطِرَةٍ فِي الْحَسَنِ الطَّيِّبِ

(٤) المراقب : جمع عرقوب ؛ وهو ما يكون عند السكب ؛ يريد أن حسنه بغير تطرية ولا نصنع ولا دخول حمام .

وَمِنْ هَوَى كُلِّ مَنْ لَيْسَتْ مَخْضِبُهُ
تَرَكْتُ لَوْنَ مَشْيِي غ——يرَ مَخْضُوبِ
فَلَمْ تَفْضَلِ الْبَادِيَةَ إِلَّا بِهَذَا ، لَكَانَ فِيهِ مَقْنَعٌ .

* * *

فَلَمَّا أَجَبْنَا مُنَادِيَهُ ، وَحَلَلْنَا نَادِيَهُ ، أَخْضَرَ مَنْ أَطْعَمَهُ الْيَدِ
وَالْيَدَيْنِ ، مَا حَلَا فِي الْقَمْرِ وَحَلَى فِي الْعَيْنِ . ثُمَّ قَدَّمَ جَامًا ، كَأَنَّمَا مُجِدَّةٌ
مِنْ الْهَوَاءِ ، أَوْ مُجَمَّعٌ مِنَ الْهَبَاءِ ، أَوْ صَيَّغٌ مِنْ نَوْرِ الْفَضَاءِ ، أَوْ قُشِيرَ
مِنَ الدَّرَّةِ الْبَيْضَاءِ ، وَقَدْ أُودِعَ لَفَائِفُ النِّعَمِ ، وَصُتِّغَ بِالطَّيْبِ
الْعَمِيمِ ، وَسِيقَ إِلَيْهِ شَرِبٌ مِنْ تَسْنِيمٍ ، وَسَفَّرَ عَنْ مَرَأَى وَسِيمٍ ،
وَأَرْجَ نَسِيمٍ .

فَلَمَّا اضْطَرَمَّتْ بِمَحْضَرِهِ الشَّهَوَاتُ ، وَقَرِمَتْ إِلَى تَحْبِيرِهِ اللَّهَوَاتُ ،
وَشَارَفَ أَنْ تُشَنَّ عَلَى سِرْبِهِ الْفَارَاتُ ، وَيُنَادَى عِنْدَ نَهْبِهِ بِاللَّتَارَاتُ 1
نَشَزَ أَبُو زَيْدٍ كَأَلْمَجْنُونِ ، وَتَبَاعَدَ عَنْهُ تَبَاعُدَ الضَّبِّ مِنَ الثَّوْنِ ،
فَرَاوَدَنَاهُ عَلَى أَنْ يَعُودَ ، وَأَلَّا يَكُونَ كَقُدَّارٍ فِي عُودٍ .

* * *

قوله : « ناديه » أى مجلسه . وطعام اليد : للتريد ونحوه . وطعام اليد بن :
المدجاج الصالح والشواء ونحو ذلك ، وكانت وليمة فى الأنصار ، فحضرها
حسان بن ثابت ، وقد كُفَّ بعصره ، ومعه ابنه عبد الرحمن ، فلما وضع الطعام ،

جى. بالثريد ، قال حسان لابنه : يا بني ، أ طعام يد أم طعام يدين؟ قال : بل طعام يد . فأكل ، ثم جىء بالشواء ، فقال مثل ذلك ، فقال : بل طعام يدين . فأملك .

حلا : طاب ، حَلَى : حَسُنَ ، وحلا في القم ، من الحلاوة ، وحَلَى في العين من الحلى اللزيق به .

وفي الدرة ^(١) : العرب تقول : حلا في في ، وحَلَى في عيني ، وليس التاني من نوع الأول ، وهو من الحلى اللبوس ، فكأن المعنى : حَسُنَ في عيني كحسن الحلى اللبوس ، وهو من ذوات الياء ، والأول من ذوات الواو ، إلا أن المصدر فيها جميعاً الحلاوة ، والاسم حُلُولاً حالٍ ؛ لأنَّ الحالى ضدَّ العاطل ، وهو الذى عليه الحلى .

والجام : إناء من زجاج . بُجِّدَ : عَقِدَ وصنع جامدا .

والهباء : غبار الشمس ، وهو ما تراه يدخل عليك مع الشمس من شِقِّ باب أو كوة حائط .

صَيْغ : صُنِعَ . نور الفضاء ، يعنى الشمس ، والفضاء : الأرض الواسعة ، وفي الفضاء يتسع ضوء الشمس فيبيض نورها .

أودع : ضَمَنَ وجعل فيه . لفائف النعيم : مالف من الحلوى وطوى بمضه على بعض .

الفندجيهى : لفائف النعيم اللوزينج والقطائف .

ضَمَخ : تَطَخ . العميم : الكثير . شَرَب : ماء . وتسليم : أرفع شرايات أهل الجنة . سَفَر : كشف .

(١) درة القوام ١٠٣ .

(١٨) - شرح مقامات الحريري - ج ٢ <

سراى وسيم : منظر حسن . أرج نسيم : طيب الرائحة ، والنسيم : الريح
التيئة المبوب ؛ يريد : لما أحضر الجام ، ساقوا معه ماء عذبا لنسل اليد ، ثم
كشف لهم عن الجام ، فأروا منظرأ من الحلواء اللوثة ، ورائحة عطرة من
الأفاويه .

وقال فى مثل ذلك عبد السلام بن الحسين المأمونى^(١) :

خبيسة فى الجام قد قدمت مدفونة فى اللوز والسكر
يا كل من يأكلها خمسة بكفه فيها ولم بشمر
قوله : « اضطربت » أى اشتعلت . قرمت ، أى اشتت .

اللهوات : جمع لمة وهى أقصى النعم . شارف : قارب وأشرف عليه .
تشن : تفرق . سريه : جماعته ، ويريد به ما فيه من الحلواء ، والسرب :
بالسكر : جماعة النساء ، وبالفتح : الإبل فى الرعى . الفارات ، يريد الأيدي
التي تُغير على الطعام . نهبه : انتهابه بالأيدي وأكل ما فيه . بالثارات : كلمة
ينادى بها العرب إذا ظفروا بأعدائهم الذين لهم عندهم دم . والثار : الطلب
بالدم ، وثار بالقتيل : قتل قاتله .

وقال حسان بن ثابت :

لتسمعن وشيكا فى دياركم الله أكبر يا ثاراتِ عما نا^(٢)

فالثارات ها جمع ثار ، وهو المطلوب بالدم ، قال :

وكيف تجلّد الأتوام عنه ولم يقتل به الثار النسيم

قال أبو على : الثار : القتل ، مُمى بالمصدر ، كرجل عدل ، لذلك جمع

(١) عبد السلام بن الحسين المأمونى ، من أولاد المأمون الخليفة العباسى ، ذكره التتالبي
وأورد طائفة من شعره فى البيمة ٤ : ١٤٩ - ١٧٩
(٢) ديوانه ٤١٠ .

بالتاء ، وتفسير أبي عليّ عكس ما تقدم ، وإذا كان منقولاً من المصدر احتمل وصف الفاعل به والمفعول وثارات عثمان محتملة للتفسيرين ، فتقديره على قول أبي عليّ : يا مطلوبات عثمان ، وعلى القول الآخر : يا طالبات عثمان هذا أو أنكم بالجدّ ، وتفسير : يا لثارات في المقامة يستقيم على المعنيين ، فعلى الأول معناه : يا مطلوبات الجياع ، قد تمسكنا منك ، وعلى الثانى معناه : يا طالبين الأكل ؛ قد تمسكنتم من المأكول .

وقوله : «نشر» ، أى وثب . وتقدّم فى الضبّ أنّه لا يرد الماء ، وأن مسكنه الصحراء .

والنون : الحوت ، وهو لا يفارق الماء ، وهما لا يجتمعان ، وقد تقدم للصابى :

• الضبّ والنون لا يرجى التقاؤهما •

وقال الآخر :

فلو أنهم جاءوا بشيء مـ _____ارب
لقلت هو الشَّكْلُ للوافق للشَّكْلِ^(١)
ولكنهم جاءوا بمحيطان لجةٍ قواميسَ، والمكفى فينا أبا نالِحِ
فضرب بتباعدهما المثل .

راودناه : أردناه على الفعل ، تقول : راودته على كذا ، إذا أردته على فعله . يعود : يرجع . ثمود : أمة صالح عليه الصلاة والسلام .

وقدار : هو عاقر الناقة ، يضرب به المثل فى الشؤم ، فيقال : أشأم من مُقدار ، ومن أحيمر عاد .

(١) الحيوان ٤ : ٥٢٩ ، ونسبهما إلى السكيت .

[قصة نمود]

وتقريب قصته ، أن نمود كانت تبني في طول أعمارها ، فأتخذوا من الجبال بيوتا فرحين ، وبيوتهم إلى وقتنا هذا باقية منحوتة في الجبال ومساكنهم على قدر أجسامهم ، ورممهم وآثارهم فيها بادية ، فلما بُعث فيهم صالح ، قال له زميمهم : إن كنت صادقاً فأظهر لنا من هذه الصخرة نافذة سوداء عشاء ، ذات عرف ، فأبى الصخرة فتمخضت كالحامل ، وانشقت عن النافذة . ثم تلاها سقياً^(١) ، فأمن كثير منهم ، وكان شربها^(٢) يوماً وشربهم يوماً ، فإذا كان يوم شربها حلبوها ، فوُأمن لبنها كل إناء ووعاء ، فلما امتنعت إبلهم من الماء يوم شربها استنقلوها ، وكان فيهم امرأتان : غنيمة وصدقة ، فبذلتا أنفسهما لِقُدَّار على أن يعقر الناقة ، وهو قُدَّار بن قديرة ، وهي أمه وسالف أبوه ، وكان قُدَّار أزرق اسر قصيرا ، وكان له صديق اسمه مصدع بن مهرج ، معاون له على ما كان به من الفساد في الأرض ، وكانا في تسعة من أهل الفساد ، فضرب قُدَّار عرقوبها بسيفه ، وضرب مصدع العرقوب الآخر ، واستهوا لهما ، فخرجت نمود تعتذر إلى صالح ، وتزعم أنها لا ذنب لها . فقال : انظروا ، هل تدركون فصيلها ، فبسي أن يرفع عنكم العذاب ! فالتسوه ، فصعد إلى جبل يقال له : القارة ، وطال الجبل به في السماء ، حتى ما تناله الطير ، وبكى . ثم استقبلهم ، ورغا ثلاثا ، فقال صالح : تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب ، وآية ذلك أن تصبح وجوهكم في الأول مصفرة ، وفي الثاني حمرة ، وفي الثالث مسودة . فلما رأوا صدقه أول يوم أرادوا قتله ، فنع منهم . فلما رأوا صدقه في اليوم الثالث تحفظوا وتكفئوا وبكوا وضجوا ، وجعلوا

(١) السبق : ولد الناقة .

(٢) الشرب : النصب من الماء .

ينظرون من أين يأتيهم العذاب . فصَبَّحْتَهُمْ فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ صَبْحَةً مِنَ السَّمَاءِ ،
قَطَعْتَ قُلُوبَهُمْ فِي صُدُورِهِمْ ، فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ ، فَعَقَرُوهَا يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ ،
وَأَصْبَحُوا يَوْمَ الْأَحَدِ ، وَإِنَّمَا أَصَابُوا وَالْمَذْنِبَ بَعْضُهُمْ ، لِأَنَّهُمْ رَضُوا فَعْلَهُ ، وَالْتَبَتِ
أَبْلَغَ مِنَ الْعَمَلِ — وَبِلَادِهِمْ بَيْنَ الشَّامِ وَالْحِجَازِ إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْحَبَشِيِّ .
وَمَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَرِيَّتِهِمْ ، وَنَهَى النَّاسَ عَنْ دُخُولِهَا ، وَأَرَامَ
مَرْتَقَى الْفَنَاصِيلِ —

ولما رأى صالح أنها دار سخط ، ارتحل بمن معه إلى مكة ، فلم يزالوا بها
حتى ماتوا ، فقبورهم في غرى البيت ، بين دار الندوة والحجر .

وقال حباب بن عمرو :

كَانَتْ ثَمُودُ ذَوِي عَزِيٍّ وَمَكْرَمَةٍ
مَا إِنْ يَضَامَ لَهُمْ فِي النَّاسِ مِنْ جَارٍ
فَأَهْلَكُوا نَاقَةً كَانَتْ لِرَبِّهِمْ قَدْ أَنْذَرُوهَا فَكَانُوا غَيْرَ أَرْبَارٍ

فَقَالَ : وَالَّذِي يُنَشِّرُ الْأَمْوَاتَ مِنَ الرِّجَامِ ، لَا عُدْتُ دُونَ رَفْعِ
الْجَامِ ، قَلِمٌ نَجِدُ بُدْأَ مِنْ تَأْلُفِهِ ، وَإِبْرَازِ حَلْفِهِ ، فَأَشْلَنَاهُ وَالْعَقُولُ
مَعَهُ سَائِلَةٌ ، وَالذُّمُوعُ سَائِلَةٌ . فَلَمَّا فَاءَ إِلَى مَجْثَمِهِ ، وَخَلَصَ مِنْ مَأْتَمِهِ ،
سَأَلْنَاهُ لِمَ قَامَ ، وَلِأَيِّ مَعْنَى اسْتَرْفَعَ الْجَامُ ؟ فَقَالَ : إِنَّ الزُّجَاجَ نَمَامٌ ،
وَلِإِنِّي آلَيْتُ مُنْذُ أَعْوَامٍ ، أَلَّا يَضُمَّنِي وَنَوْمًا مَقَامٌ .

فَقُلْنَا : وَمَا سَبَبُ يَمِينِكَ الصَّرِيِّ ، وَأَلَيْتِكَ الْحَرِيِّ ؟

قوله : « يُنشر » ، أى يُبجى الموتى ويقيمهم ، فيُنشَرُونَ فى الأرض .
والرجام : القبور ، واحدا رجما . تألفه : ضمه وترك خلافه . إِبْرَارِ حَلْفَه :
مراعاة قسمه .

أشلتناه : رفعناه . شائلة : مرتفعة .
فاء : رجع . تجشمه : موضعه ، وأصله للطائر .
الصَرَى : العزيمة ، ويقال : أصررت على الشيء ، عزمته عليه ، وهو منى
صَرَى وصِرَى وأطهرى أى عزيمة وجد .
وضلت ناقة أبى السمال ، قال : والله لئن لم يردّها الله على لا أصلى أبداً ،
فذهب فى ابتغائها ، فوجدها وقد تعلق زمامها بشجرة ، فقال : علم الله أنها
كانت منى صرّى فردّها على .

وقال حبيب :

لما رآهم بآبك^١ دون ألفى هَجَرَ القَوَاية بعد مُطول وصال^(٢)
تخذ الفرار أخاً وأيقن أنه صرّى عزم من أبى السمال

يقول : لما رأى كثرة من يحاربه أيقن أن ما تمناه فيهم لا يدركه ، فهجر
الضلالة ، وانهزم ، إذ أيقن أن طالبه مَصْرٌّ على طلبه .

الحرى : الوكيدة الشديدة ، والكبد الحرى : اليابسة العاطشة .
وناظر الحريرى^٣ بهذه المقامة مقامة المضيرى^(٤) فى البديعية ، ومن هنا إلى
أولها مبنى على تلك .

* * *

(١) ديوانه ٢٦١ .

(٢) ط : « الطيرة » تحريف .

[المقامة المضيرة للبديع الهمذاني]

قال البديع : حدثنا عيسى بن هشام قال :

كنت بالبصرة ومعى أبو الفتح الإسكندريّ ، رجل الفصاحة ، يدهوها فتجيبه ، والبلاغة ، بأسرها فتطيعه . وحضرنا معه دعوة بمض التجار ، قدّم مضيرة^(١) ثلثي على الحضارة^(٢) ، وتترجرج في الفضايرة^(٣) ، وتؤذّن بالسلامة ، وتشهد لمعاوية رحمه الله بالإمامة ، في قصعة يكل^(٤) عنها الطّرف ، ويموج فيها الطّرف .

فلما أخذت من الإخوان مكانها^(٥) ، ومن القلوب أوطانها ، قام أبو الفتح يلعنّها وصاحبها ، ويمقتها وآكلها ، ويثلبها وطابحها ، وظلنّاه يمزح ، فإذا الأمر بالصدّة ، وإذا المزاح عين الجِدّة ، وتنصّي عن الإخوان ، وترك مساعدة الإخوان ، فرفعناها فارتفعت معها القلوب ، وسافرت خلفها العميون ، وتخلّبت لها الأفواه ، [وتلمظت لها الشفاه] وانتقدت لها الأكباد ، [ومضى في إثرها النوّاد]^(٦) ،

لكنا سألناه عن أمرها ، وساعدناه على هجرها

ثم أخذ يذكّر لهم المانع من أكلها ، كما يذكّر الآن السّروجي .

ومقامة^(٧) المضيرة طويلة مضحكة . . .

* * *

(١) المقامات : « فقدمت إلينا مضيره » ، والمضيرة : نوع من الطعام ، يتخذ من اللحم واللبن الحامض ؛ وربما أضيب إليه الحليب ، ثم يوضع عليه التوابل والأبزار .

(٢) أى تدل على أن أهل الحضرة أقدر على صنعها من البدو .

(٣) تترجرج : تموج وتمحرك . والفضايرة : القصعة .

(٤) المقامات : « بزل » . والطرف : العين .

(٥) الإخوان : الذى يوضع عليه الطعام .

(٦) تسكّلة من مقامات البديع .

(٧) مقامات البديع ١٢١-١٤٣ .

فقال: إنه كان لي جارٌ لسانه يُتَمَرَّبُ، وَقَلْبُهُ عَقَرَبٌ، وَلَفْظُهُ شَهْدٌ
يَنْقَعُ، وَخَبْوُهُ سَمٌ مُنْقَعٌ، فَلَمْتُ لِمَجَاوَرَتِهِ، إِلَى مُحَاوَرَتِهِ، وَاعْتَزَلْتُ
بِمُكَاشَرَتِهِ، فِي مُعَاشَرَتِهِ، وَاسْتَمَوْتُنِي خُضْرَةٌ دِمْنَتِهِ، لِمُنَادَمَتِهِ،
وَأَعَزَّتُنِي خُدْعَةُ سِمَتِهِ، بِمُنَاسَمَتِهِ. فَارْجَيْتُهُ وَعِنْدِي أَنَّهُ جَارٌ مُكَاسِرٌ،
فَبَانَ أَنَّهُ عُقَابٌ كَاسِرٌ، وَأَنْسَيْتُهُ عَلَى أَنَّهُ حَبٌّ مُوَالِسٌ، فَظَهَرَ أَنَّهُ
حُبَابٌ مُوَالِسٌ، وَأَمَّا لَحْنُهُ وَلَا أَعْلَمُ أَنَّهُ عِنْدَ تَقْدِهِ، يَمُنُّ
بِفَرَحٍ بِفَقْدِهِ، وَعَاقَرْتُهُ وَلَمْ أَذِرْ أَنَّهُ بَعْدَ قَرَّةٍ، يَمُنُّ بِطَرَبٍ
لِمَقَرَّةٍ.

قوله: «جار لسانه يَتَمَرَّبُ»، معناه يُتَوَدَّدُ إِلَيْهِ بِاسَانِهِ، وَيَكْتُمُ الْعِدَاوَةَ
فِي قَلْبِهِ، وَهَذَا مَا يَذْكُرُ بَعْدَهُ.

[نبذ من الأقوال الحكيمة في الجار]

أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أشرط الساعة سوء الجوار».
تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ ثَلَاثٍ، هُنَّ الْعَوَاقِرُ: لِإِمَامِ السُّوءِ، إِنْ أَحْسَنْتَ لَمْ يَشْكُرْ،
وإِنْ أَسَأْتَ لَمْ يَفْغُرْ، وَمِنْ جَارِ السُّوءِ إِنْ رَأَى حَسَنًا سَتَرَهُ، وَإِنْ رَأَى قَبِيحًا
أَذَاعَهُ، وَمِنْ امْرَأَةِ السُّوءِ، الَّتِي إِنْ غَنَبْتَ عَنْهَا خَاتَمَكَ، وَإِنْ دَخَلْتَ عَلَيْهَا
لَسَنَتَكَ.

قال بعض الفضلاء: الجار السُّوءُ يَفْشِي السِّرَّ، وَيَهْتِكُ السَّتْرَ.

وقيل لأهل البحرين: إِنْ كُنْتُمْ تَحِبُّونَ أَنْ يُحِبَّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَحَافِظُوا

على ثلاث خصال : صدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وحُسن الجوار ، فإن أذى
الجار يمحو الحسنات ، كما تمحو الشمس الجليلد عن الصفاة .

* * *

قوله : « ينفع » ، أى يَرَوَى للعطش . وَمُنْفَع ، أى أَدِيم حبسه ، وأنفع سَمِّ
الحية : ثبت ودام . خَبْؤُهُ : باطنه ، وما خبأه من الشر .

محاورة : محادثته . بمكاشرته : مضاحكته : معاشرته : مصاحبته .

استهوتنى : ذهبت بى . خُضرة دِمْنَتِه : حُسن ظاهره ، وتقدمت خضراء
الدم .

أغرقتنى : حرّضتنى وأصقتنى به . سَمْتِه : علامته . مُنَاسِمْتِه : مصاحبته ،
وقرب نسق من نسقته ، أى شخصى من شخصه .

مازجته : خالطته . مكاسر : قريب الدار ، وكِسر البيت : جانبه .
والْمُقَاب الكاسر : التى تضم جناحيها ، وتهوى على فريستها ، فضمّ الجناح
هو كسره .

وَأَنسَتْه : أبهرته . حَبّ : حبيب ، وكان زيد بن حارثة يسمّى حَبّ
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى حبيبه .

وَضَحّ : تبين . حُبَاب : حية . موالس : مخادع خائن فى صحبته .

مالحته : واكلته ، أى أكلت معه الملح ، وأصل المالحة الرضاع كأنه حين
نادمه راضعه الكأس ، وملحت المرأة الصبي : أرضعته .

نَقَدَه : تجربته . عاقدته : عاهدته ، وعقدت يدى على يده .

فَرّه : اختباره وكشف سرّه ، يريد أن هذا الصاحب كان يظهر مودته ،
ويسرّ عداوته .

* * *

[مَمَّا قِيلَ فِي الْمَوَدَّةِ وَالْإِخَاءِ]

وقال الشاعر؛ وهو المغيرة بن حبياء^(١):

أخوكَ الذي لا ينقضُ النأيُ عهدَه ولا عندَ صَرْفِ الدهرِ يزورُ جانبَه
وليس الذي يلقاك بالبشرِ والرضا وإن غبت عنه لسمعتك عقاربُه

قال: وأنشد آخر:

على لإخواني رقيبٌ من الصفا تبديد الليالي وهو ليس يَبِيدُ^(٢)
وإني لأستعجى أخى أن أبرّه قريباً وأن أجفوه وهو بعيد
وقال ابن المعتز:

لم يبقَ مِمَّا قَاتَنِي كَسْبُهُ إِلَّا قَتَى يَسْلُمُ لِي قَلْبُهُ^(٣)
بِنَأْيٍ فَلَا يَذْهَبُهُ نَأْيُهُ عَنِّي وَلَا يَفْسُدُهُ قُرْبُهُ
يَكُونُ حَسْبِي مِنْ جَمِيعِ الْوَرَى فِي كُلِّ حَالٍ وَأَنَا حَسْبُهُ

وقال بشار وزاد معنى:

تودّ عدوى ثم تزعم أنني صديقك، إن الرأى منك لَعَارِبُ^(٤)
وليس أخى مَنْ وَدَّني رَأَى عَيْفُهُ
ولكن أخى مَنْ وَدَّني وهو غائب

* * *

(١) ط: «شمة»، وهو خطأ، والبيتان من أربعة أبيات في أمالي القالي ٢: ٢٣٠.

(٢) اللالكى ٢٧٢ من غير عزو.

(٣) اللالكى ٢٧٢.

(٤) أمالي القالي ١: ٨٣.

وَكَانَتْ عِنْدِي جَارِيَةٌ ، لَا يُوجَدُ لَهَا فِي الْجَمَالِ مُجَارِيَةٌ ،
 إِنْ سَفَرْتُ خَجِلَ النَّيْرَانِ ، وَصَلَيْتِ الْقُلُوبُ بِالنَّيْرَانِ ، وَإِنْ
 بَسَمْتُ أُرْزَتْ بِالْجَمَانِ ، وَيَبِيعُ الْمَرْجَانُ بِالْمَجَانِ ، وَإِنْ رَنَتْ
 هَيْجَتِ الْبَلَابِلُ ، وَحَقَّقَتْ سِحْرَ بَابِلَ ، وَإِنْ نَطَقَتْ عَقَلْتُ لُبَّ
 الْعَاقِلِ ؛ وَاسْتَنْزَلَتْ الْمُعْصَمَ مِنَ الْمَعَاقِلِ ، وَإِنْ قَرَأَتْ شَفَتِ الْمُفْتَوْدَ ،
 وَأَخْبَتِ الْمَوْوَدَ ، وَخَلَّتْهَا أُوتَيْتُ مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ . وَإِنْ
 غَنَّتْ ظِلَّ مُعْبَدٍ لَهَا عَبْدًا ، وَقِيلَ سَحَقًا لِإِسْحَاقَ وَبُئْمَدَا ، وَإِنْ
 زَمَرْتُ أَصْحَى زُنَامَ عِنْدَهَا زَنِيمًا ، بَعْدَ أَنْ كَانَ لِجِيلِهِ زَعِيمًا ،
 وَبِالْإِطْرَابِ زَعِيمًا ، وَإِنْ رَقَصَتْ أَمَالَتِ الْعَمَائِمُ عَنِ الرَّمُوسِ ،
 وَأَنْسَتِكَ رَقْصَ الْحَبِّبِ فِي الْكَثُوسِ ، فَكُنْتُ أُرْدَى مَعَهَا
 حُمُرَ النَّعَمِ ، وَأَحْلَى بِتَمْلِيهَا جِيدَ النَّعَمِ ، وَأَخْجَبُ مَرَاها عَنِ
 الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، وَأَفُودَ ذَكَرَها عَنِ شَرَائِطِ السَّمَرِ ، وَأَنَا مَعَ ذَلِكَ
 أَلِيحٌ ، مِنْ أَنْ تَسْرِي بِرِيَاها رِيحٌ ، أَوْ يَكُونَنَّ بِهَا سَطِيحٌ ، أَوْ
 يَنْمَّ عَلَيْهَا بَرْقٌ مُلِيحٌ .

قوله : « مجارية » ، مبارية معارضة ، وفلان يبارى الريح جوداً ، كأنه
 يمارضها بفعله ، فإذا هبت في زمن الشقاء والجهد ، ففُزَّتِ المحتاجين تتبعم آثار
 فسادها بماله وهباته فأصلحها .

سُفِرَتْ : كُشِفَتْ وَجْهَهَا . خَجِلَ : اسْتَحْيَا . النَّيْرَانُ : الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .

صَلَّيْتُ : أحرقت ، يقول : إذا كشفت وجهها افتضحت الشمس والقمر لبديع
حسنها ، واخترقت القلوب بنيران حبها .

[مما قيل في جمال المرأة]

ونسوق هنا جملة من الشعر المستحسن في أوصاف النساء :

قال الشاعر :

لما تبددت من الأستار قلتُ لها

سبحان سبحان ربِّي خالقِ الصُّورِ

ما كنت أحسب شمساً غيرَ واحدة

حتى رأيتُ لها أخيراً من البشرِ

كانها هي إلا إن يفضِّلها حسنُ الدلال وطرفِ فاطرِ النظرِ

وقال أعرابي :

وتكفيك فقدَ البدرِ إنْ فقدَ البدرُ

ووالله ما من ريقها حسبك الخمرُ

جميلاً ، وهل في مثلها يحسن الصبرُ

لكان للمس الذرِّ في جلدها أثرُ

إذا حُجِبَتْ لم يكفِكَ البدرُ فقدَها

وحسبك من خمر تقوتك ريقها

وما للصبر عنها إن صبرتَ وجدته

ولو أن جلد الذرِّ لامسَ جلدها

وقال العباس بن الأحنف :

خَوْدٌ تَكْمَلُ في أعطافها الفَنِّ (١)

تَهَتَّ علينا بأنْ تَمَّتْ محاسنها

مَهْمَ يَأْتِيَانَا حَتَّى إِذَا نَظَرْتُ إِلَى الْمِرَآةِ نَهَاهَا وَجْهَهَا الْحَسَنُ
مَا كَانَ هَذَا جَزَائِي مِنْ مَحَاسِنِهَا
أَغْرَتَ بَنَى الشَّوْقِ حَتَّى شَفَنَى الشَّجَنُ

وقال بشار:

دَرَّةٌ حَيْثُمَا أُدِيرَتْ أَضَاءَتْ وَمَشَمَّ مِنْ حَيْثُمَا شَمَّ فَاحَا
وَجَنَاتُ قَالَ الْإِلَهَ لَهَا كَوْنِي فَكَانَتْ رَوْحًا رُوحًا وَرَاحَا

وله أيضاً :

كَأَنَّهَا يَوْمَ رَاحَتْ فِي مَحَاسِنِهَا قَارَنَتْجَ أَسْفَلُهَا وَاهْتَزَّ أَعْلَاهَا
حَوْرَاءُ جَاءَتْ مِنَ الْفَرْدَوْسِ مُقْبِلَةً فَالشَّمْسُ طَلَعَتْهَا وَالْمِسْكُ رِيَّاهَا
رَاحَتْ وَلَمْ تَعْطِهِ بُرْءًا لِمِلَّتِهِ عَنْهَا وَلَوْ سَأَلَتْهُ النَّفْسُ أَعْطَاهَا
مِنَ الْوَاتِي أَكْدَسَتْ بُرْدًا فَشَقَّ لَهَا مِنْ حَسَنِهَا الْحَسَنُ يُبْرِئُهَا لِأَفْرَدَاهَا

وقال السَّلامى :

وَفِيهِنَّ سَكْرَى الْأَحْظَ سَكْرَى مِنَ الْأَصْبَا
يُعَاتِبُ حُلُوُ الْفِظْ حُلُوُ الشَّمَائِلِ (١)
أَدَارَتْ عَلَيْنَا مِنْ سُلَافٍ خَدُودَهَا (٢)
كَؤُوسًا وَغَنَّتْنَا بِصَوْتِ الْخِلَاحِلِ

(١) البقيّة ٢ : ٣٧١

(٢) البقيّة : د حديثها ٥ .

هو قال أيضاً :

لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ دَاعِيَ الْقَهْوِ مِنْ كُتْبٍ إِلَى مَعَاظِفَ كَالْأَغْصَانِ مِنْ كُتْبٍ
 إِنَّ السَّوَالِفَ كَالسَّوَسَانِ فِي ضُمُودٍ إِنَّ الْغَدَائِرَ كَالْخُلُخَالِ فِي صَبَبٍ
 إِلَى خُدُودِ بَنَاتِ الرُّومِ قَدْ بَرَزَتْ مِنْ حُجُبِهَا وَأَدَارَتْ أَعْيُنَ الْعَرَبِ
 مِنْ كُلِّ سَافِرَةٍ عَنْ مَشْرِقٍ خَجَلًا فِيهِ طَرَا زَانٌ مِنْ مَاءٍ وَمِنْ لُحْبٍ
 وَاسْتَضْحَكَتْ بَيْنَ لَّالٍ أَوْ حَمَى بَرْدٍ
 يَكَادُ يَقْطُرُ مِنْ مَائِيَةِ الشَّنْبِ
 تَحْدُو بِهَا فَتِيَّةٌ صَيِفَتْ وَجُوهَهُمْ
 مِنَ الرِّضَا وَعَوَالِيهِمْ مِنَ النُّصْبِ

وللأُمير تميم بن المعز :

فَاوَلَتْهَا شَيْبَةً خَذِيئَهَا مَعْتَقَةً صِرْفًا كَانَ سَنَاها ضَوْءُ مِقْبَاسٍ^(١)
 قَبِيلَتَهَا وَقَالَتْ وَهِيَ ضَاحِكَةٌ
 فَكَيْفَ تُهْدِي خُدُودَ النَّاسِ لِلنَّاسِ^(٢)
 قُلْتُ أَشْرَبِي فِيهِ دَمْعِي، وَحَمَرْتَهَا دَمِي، وَطَابَخُهَا فِي الْكَاسِ أَنْفَاسِي
 قَالَتْ فَإِنْ كُنْتُ مِنْ حُجْبِي بِكَيْتٍ دَمَا فَأَسْقِنِيهَا عَلَى الْعَيْنَيْنِ وَالرَّاسِ
 بِاللَّيْلَةِ بَاتَ فِيهَا الْبَدْرُ مُعْتَقِي
 وَبَاتَتِ الشَّمْسُ فِيهَا بَعْضُ جَلَاسِي
 وَبَتْ مُسْتَفْنِيَا بِالْفَرِّ عَنْ قَدَحٍ وَبِالْخُدُودِ عَنِ التَّفَاحِ وَالْأَسِ

(١) ديوانه ٢٤٩ ، وفيه : « مشعشة » ، والمِقْبَاسُ والقَبَسُ : الشعلة من النار .

(٢) الديوان : « وكيف نسقي »

وقال أيضاً :

قَالَتْ وَقَدْ نَالَهَا اللَّيْنُ أَوْجُهُهُ
اجْعَلْ يَدَيْكَ عَلَى قَلْبِي فَدَضُّهُ فَمَتَّ
وَأَعْطَفْ عَلَى الْمَطَايَا سَاعَةً فَعَسَى
كَأَنِّي يَوْمَ زِلْتُ حَسْرَةً وَأَسَى
وَاللَّيْنُ صَعْبٌ عَلَى الْأَحْبَابِ مَوْقِعُهُ^(١)
ق-واه عن حمل ما تحويه أضلعه^(٢)
مَنْ شَتَّ شَمْلَ الْهَوَى بِالْوَصْلِ يَجْمَعُهُ
غَرِيقٌ بِحَرِّ بَرَى الشَّاطِئِ وَيَمْنَعُهُ

وقال التهامي :

أَهْدَى لَنَا طَيْفُهَا نَجْدًا وَسَاكِنَهُ
فَبَاتَ يَجْلُو لَنَا مِنْ وَجْهِهَا قَرَأَ
وَرَاعَهَا حَرًّا أَنْفَاسِي قَلَّتْ لَهَا :
وَزَادَ دُرَّ الثَّنَايَا دَرًّا أَدْمَعَهَا
وَلَوْ قَدَرْتُ وَثُوبَ اللَّيْلِ مِنْخَرِقُ
بِیضَاءِ يَسْجُبُ لَيْلًا حَسَنَهُ أَبْدَأُ
لَوْ لَمْ يَكُنْ أَنْحَوَانَا نَفَرُ مَبِيسَمِهَا
وَلَبِغَضُ أَصْحَابِنَا :
حَتَّى اقْتَنَصْنَا ظِلَّاءَ الْبَدْوِ فِي الْخَصْرِ^(٣)
مِنْ الْبَرَّاقِعِ لَوْلَا كُفْلَةُ الْقَمَرِ
هَوَايَ نَارَ وَأَنْفَاسِي مِنَ الشَّرَرِ
فَالْتَفَّ مَبْتِظَمٌ مِنْهُ بِمَنْتَشِرٍ
بِالصَّبْحِ رَقْمَتُهُ مِنْهُنَّ بِالشَّعَرِ
فِي الطَّوْلِ مِنْهُ وَحَسَنَ اللَّيْلِ فِي الْفَصْرِ
مَا كَانَ يَزْدَادُ طَيْبًا سَاعَةَ السَّحَرِ

شَدَّهَتْ فَلَا أَدْرِي بِأَيِّ صِفَاتِهَا
وَأَيَّ لَآلِيهَا أَشَدُّ نَفَاسَةً :
فَلِلشَّمْسِ مِرْآأَهَا ، وَلِلغَضَنِ قَدْهَا ،
تَقِيدُ أَلْبَابَ الْوَرَى وَنَقُودَهَا
أَمْنَطَقَهَا أَمْ ثَفَرَهَا أَمْ عَقُودَهَا
وَلِلْمَسْكِ رِيَّأَهَا ، وَلِلرَّيْمِ جِيدَهَا

وقال الحسن :

- (١) ديوانه : ٢٦٠ ، وفيه : « وقال وقد ودعه بضئ أهله لسفره » ، وقال صاحب البيتية : « وه مما ينقضي به » .
(٢) الديوان : « ما فيه أضلعه » .
(٣) ديوانه ٤١ و ٤٢ ط : « أهدي لنا طيفها » ، وصوابه من الديوان .

وذاث خدٍ مورَّدُ فناة التجردُ^(١)
 تأمل العين منها محاسناً ليس تنفذ
 فبعضها في انتهاء وبعضها يتـولّد
 فالحسن في كلّ جزء منها معادٌ مردّد
 وكلّما عدت فيها تكون في العودِ أحمد

قوله: «أزرت بالجان»، أى قصرت بحبّ الفضة.

الرجاء: اللؤلؤ الصغار.

والجان: شيء لا تمن له، وخذ هذا مجاناً، أى باطلا؛ أراد أنها إذا ضحكت
 فبدت أسنانها كانت أحسن مما وصف. وأخذه من قول أبي تمام:

وقهوة كوكبها بزهرُ يسقط منها المسك والعنبرُ^(٢)
 ورديةٌ يحشها شادنٌ كأنها من خده تُغصّرُ
 مهنف لم يبتسم ضاحكاً مذ كان إلا كسد الجوهـر

وقال آخر وذكر الجان:

عثمان يعلم أن اللدح ذو ثمنٍ لكنه يشتبه مدحاً بمجانٍ
 والناس أكيس من أن يدحوا رجلاً حتى يروا عنده آثاراً إحسانٍ

رنت: نظرت. البلايل: وساوس الموم. والسّخر، ينسب إلى بابل
 وقال السّلامى في هذا المعنى:

(١) ديوانه ٣٧١.

(٢) ديوانه ٤٤١.

أَكْجِيلَةَ الْأَجْفَانِ بِالسَّحَرِ الَّذِي لَوْلَاهُ مَادَرَتْ الْبِلَابِلُ بَابِلَ
 قَدْ كَانَ قَلْبِي غَافِلًا عَمَّا بِهِ أَوْدَى وَقَلْبُ أَخِي السَّلَامَةُ غَافِلُ
 حَتَّى دَهَانِي مِنْكَ صَدْرُ رَامِحٍ ذَرَبَ سِنَانَهُ وَطَرَفَ قَاتِلُ
 مَا عَيْدُكَ الْمَهْنَا بِحَيْدِكَ دَرَّةٍ لَكِنْ فِرْنَدُ فِي حَسَامٍ جَائِلُ

وللأمير تميم بن المعتز :

وَلَيْلَةٍ بَثُّهَا عَلَى طَرَبٍ آخِرَهَا مَشْبِيَّةٌ لِأُولَاهَا^(١)
 أَقْبَلَ الْبَرْقَ مِنْ ثَنِيْنِهَا وَأَثَمَ الشَّمْسَ مِنْ مُجَيَّهَا
 سَفْتَنِي الرِّاحَ وَهِيَ خَدَاها بِأَكْوَسِ السَّعْرِ وَهِيَ عَيْنَاهَا
 إِذَا أَرَادَتْ مَزَاجَهَا جَمَلَتْ بَآخِرِ الْحِظِّ مِنْ فِي قَاهَا
 فَيَا لَهَا قَهْوَةٌ مَعْتَقَةٌ وَلَيْسَ إِلَّا الْخُلُودُ مَا وَاها
 حَبَابُهَا الثَّمَرُ حِينَ تَمْزِجُ لِي وَتُقْلِمُهَا أَلَمٌ حِينَ أُسْقَاهَا

* * *

[ذَكَرَ بَابِلَ]

وبابل مدينة كان ينزلها ملوك المعجم ، وهي دار نمرود بن كنعان ، وكانت بابل ، من استعظامها واستبشاع أمرها ، لا تكاد تحصل . وأسسها نمرود ، وكانت مدينة ضاحكة للنظر ، زاهية البناء ، واسعة للفناء ، جمعت إلى حسن للنظر رصافة البنيان وبهاء الانصب ، فكانت سهلة بطعاء مربعة ، في كل تربيع حصنان عظيمان ، وسورها لا يكاد سامعٌ يخبره بصدقه ، كان عرضه خمسين

(١) لم ترد هذه الأبيات في ديوانه .

ذراعاً ، في ارتفاع مائتي ذراع ، في دور أربعة وستين ميلاً ، وحواله خندق يجري فيه الفرات ، وفيها مائة باب نحاس .

وهي أقدم بناء بُني بعد الطوفان ، ونسب السَّحَر لها لأن بها هاروت وماروت معلَّي السَّحَر ، فكانا بمِجبان من بني آدم حيث يعصون الله تعالى على إنعامه عليهم ، فابتلاهما الله تعالى فسَلَط عليهما الشهوة الآدمية ، وحرَّم عليهما القتل والزنا والخمر ؛ وأنزلهما إلى الأرض للحُكْم بين أهلها ، فجاءتهما الزَّهْرَة في خصام ، فوقعت في قلوبهما ، فشكا كل واحدٍ منهما لصاحبه ما يجده من حبِّها ، فأرسل إليها فراوداها فأبت حتى يعلمها الاسم الذي يرجعان به إلى السماء ، فأبيا عليها ، قالت لهما : فاشربا الخمر ، فشرباها فسيكرا وعلماها الاسم ، وواقعاها ، ثم خرجا فوجدار جلا ، فظننا أنه ظهر على أمرهما قتلاه ، وتكلَّمت الزَّهْرَة بالاسم الذي يرجعان به إلى السماء فرفعت ومسخت كوكبا وخُبراً بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا ، فهما بعدَّبان ببابل ، ويعلمان السحر .

وجاءت امرأة إلى عائشة رضي الله تعالى عنها ، فقالت : يا أمَّ المؤمنين ، قالت لي امرأة : هل لك أن أعلمك شيئاً يصرف وجهَ زوجك إليك أفانت جَيْسِيْن ، فركبتُ واحداً ، وركبت الآخر ، وسرنا ماشاء الله ، فقالت : أتدريين أنك ببابل ؟ ودخلت على رجلين ، فقالا لي : بُولي على ذلك الرماد ، فذهبت ولم أبل ، ورجعت . فقالا لي : ما رأيت ؟ قلت : ما رأيت شيئاً ، قالا : أنت على رأس أمرك ، فرجعت قد شدت وُبُلت ؛ فخرج مثل الفارس القنق ، فصعد في السماء ، فقالا لي : ما رأيت ؟ فأخبرتُهما ، فقالا لي : ذلك إيمانك فارَّك ، فخرجت إلى المرأة ، فقلت لها : والله ما علماني شيئاً ، ولا قال لي كيف أصنع ، فقالت : فما رأيت ؟ قلت : كذا وكذا ، فقالت : أنت أسحر العرب ، اعلمية ،

قطعت جداول ، فإذا زرع يهتز ، فقلت : أفرّك فإذا هو قد يبس ، فأخذته وفركته ، وقالت : خذبه ، واجعله سويقاً واسقيه زوجك ، فلم أفل شيئاً من ذلك . واتهى الأمر إلى هذا فهل لي من توبة ؟

ورأت رجلاً من خزاعة فقالت : يا أمّ المؤمنين ، هذا أشبه الناس بهاروت وماروت . روى هذا الحديث بإسناد له ابن قتيبة .

* * *

قوله : « عقلت لبّ العاقل » ، اللب : العقل ، وعقلته : شدّدته بعقل ، وهو قيد البعير .

والعصم : الوعول ، والأعصم : التيس الجبلي الذي في يديه بياض ، والمقصم : موضع الخلخال .

الخليل : الأعصم الوعل ، وعصمته : بياض في رجليه .

والعاقل : قرون الجبال ، وأراد أن كلامها لعدوّته يطلب أهل العقول حتى نعدّاهم إلى الوحش ، أو يريد بالعصم مَنْ له عزمة وهمّة من الرجال ، فإذا سمعها تذلل لها .

وأخذ هذا من قول أبي بكر بن دريد ^(١) :

لَوْ نَاجَتِ الْأَعْصَمَ لَا نَحْطَ لَهَا طَوْعَ الْقِيَادِ مِنْ شَمَارِيخِ الذَّرَا ^(٢)
أَوْ صَابَتِ لِقَانَتِ فِي مَخْلُوقِ مُسْتَصْعَبِ الْمَسْلَكِ وَغَرِ الْمَرْتَقَى ^(٣)

(١) المقصورة ١٢٥ (نشرة المطار)

(٢) ط : « باحت » ، وصوابه من المقصورة . وناجت : سارت والأعصم : الوعل الذي في يديه بياض . والشماريخ : جمع شمراخ ؛ وهو رأس الجبل . والترا : جمع ذروة .

(٣) صابت : وافقت ووجدت . والقانت : المطيع . والمخلوق : الأملس . ومستصعب : صعب . . . والمسلك : الموضع الذي يسلك فيه .

ألماءُ عن تَسْبِيحِهِ وَدِينِهِ تَأْنِيسُهَا^(١) حَتَّى تَرَاهُ قَدْ صَبَا^(٢)
 والسابق إلى هذا المعنى اللبابة بقوله :
 لو أَنَّهَا عَرَضَتْ لِأَشْمَطِ رَاهِبٍ عَبْدُ الْإِلَهِ صَرُورَةٌ مُتَعَبِّدٍ^(٣)
 لَنَا لِرُؤْيَيْهَا وَحُسْنِ حَدِيثِهَا وَخَالَهُ رَعْدًا وَإِنْ لَمْ يُرْشَدْ
 والمنفود : الذي يشتكي نؤاده . والمؤود : المدفون حيًا ، وانظره في
 الخماسة والثلاثين .
 وأراد أن حسن صوتها بالقرآن يشفي من مرض النؤاد ، ويحيي الموتى .
 والعرب تزعم في شعرها أن إفراط الحُسن يُحيي الموتى .
 قال الأعشى :

لَوْ أَسْنَدَتْ مَيِّتًا إِلَى نَحْرِهَا قَامَ وَلَمْ يُخَمَلْ إِلَى قَابِرٍ^(٤)
 حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ مَمَّارًا يَا عَجَبًا لِلْمَيِّتِ النَّاشِرِ^(٥)
 وقال توبة بن الحُمَيْر :

وَلَوْ أَنَّ لَبِيَّ الْأَخْيَلِيَّةَ سَلَّمَتْ عَلَى وَفَوْقِي تَرْبَةً وَصَفَائِحُ^(٦)
 لَسَلَّمَتْ تَسْلِيمَ الْبَشَاشَةِ أَوْ زَقَا إِلَيْهَا صَدَى مِنْ جَانِبِ الْقَبْرِ صَائِحُ^(٧)

(١) ط : « تأنيثها » ، تحريف . والتأنيث : الأنس وحسن الحديث .
 (٢) صبا : فعل أفعال الصبيان .
 (٣) ديوانه ٣١ . الراهب : الخائف من الله . والصرورة في الجاهلية : الذي لم
 يتزوج ، وفي الإسلام : الذي لم يحج .
 (٤) ديوانه ١٣٩ ، ١٤١ . والنحر : أعلى الصدر .
 (٥) نشر الله الموتى : أحيامهم وبيهم .
 (٦) ديوان الخماسة - بشرح الرزوقي ١٣١١ .
 والصفائح : الحجارة الراس يغطي بها القبر .
 (٧) زقا : صاح . والصدى : ما يجيبك من الجبال وغيرها إذا صاحت ؛ وكانت العرب
 تزعم أن عظام الموتى تصبح هامًا وأصداء ، ويعدّه في الخماسة :

وَأَغْبَطُ مِنْ لَبِيٍّ بِمَا لَا أَنَا لَهُ أَلَّا كُلَّ مَا قَرَّتْ بِهِ الْعَيْنُ صَالِحُ

قوله : «مزامير» ، المزمار : الصوت نفسه ، والجمع مزامير . وقيل : صوابه زمّار ، ولا يقال زامر ، ويقال للآتي : زامرة ولا يقال : زمّارة ، والآلة التي يزمر بها الزّمارة .

وكان داود عليه الصلاة والسلام أحسن خلق الله صوتاً ، وإذا قرأ الزّبور رقت لصوته الوحوش ، وحنّت حتى تؤخذ بأعناقها وهي مصغية له ، وما صنعت الشياطين المزامير والبرابط إلا على صوته .

ومعبد ، أطلع المغنّين المتقدّمين ، وإسحاق الموصلي أطلع المتأخرين ، وفي معبد يقول حبيب :

محاسنُ أوصافِ المغنّين بحمّةٍ وما قصّصاتُ السّبقِ إلّا لِمَة بَدِ

* * *

[أخبار معبد]

وهو معبد^(١) بن وهب ، وقيل ابن قطن^(٢) وأبوه أسود ، وكان هو خلاصياً مديد القامة ، أحول .

غنى في أول الدولة الأموية ، وتوفّي أيام الوليد بن يزيد .

وكان^(٣) علم جارية اسمها ظبية فاشتراها رجل من الأهواز ، وذهبت به إلى كلّ مذهب ، فأتت وأخذت جواريه أكثر غنائها ، فكان من أجلها يفضل معبداً على نظرائه ، ويظهر التعصّب له ، فسمع به معبد ، فخرج إليه حتى أتى البصرة ، فصادف الرّجل خارجاً إلى الأهواز في سفينة ، فسأله الدخول معه ،

(١) ديوانه ١٠٣ .

(٢) أخبار معبد في الأغاني ١ : ٣٦ - ٦٠ .

(٣) الأغاني « قطن ، مولد ابن قطر » .

(٤) الخبر في الأغاني ١ : ٤٨ ، ٤٩ ، باختصار وتصرف .

قامر الملاح أن يُجِلِّسه في مؤخر السفينة ، وانحدر حتى بلغ إلى فم نهر الأبلّة ،
فخفدوا وشربوا ، وأمر جواربه ففتين ، ففتت إحداهنّ للنايفة^(١) :

• بانت سعادُ وأُمسى حَبْلُها انجذما •

ومعبد ساكت في ثياب السفر ، حتى سككت ، فصاح : يا جارية ، غناؤك
ليس بمستقيم ، فغضب مولاه ، وقال : وما أنت والغناء ! ثم غنّت الثانية
بشعر عبد الرحمن بن أبي بكر :

بابتة الأزديّ قلبى كئيبُ مُستهام عندها ما يُنِيبُ^(٢)
ولقد قالوا قلّتْ دعوى إنَّ مَنْ تَنهَوْنَ عَنْهُ حبيبُ
إِنَّمَا أَنفَى عَظائِي وَجَسِي حُبُّها ، والحبُّ شئٌ عَجيبُ^(٣)

فصاح معبد : يا جارية ، قد أخلّلتِ بهذا الصوت إخلالاً شديداً ! فازداد
غضباً مولاه ، وقال : ويلك ! أما تكفّ عن هذا الفضول ! ثم غنّت أخرى
لكثيرٍ قالت :

خَلِيلِي عَوْجاً سَلَمًا سَاعَةً مَعِي عَلَى الرَّبْعِ تَقْضِي حَاجَةً وَنَوْدَعُ^(٤)

(١) الأغاني وعده من الأصوات

بانت سعادُ وأُمسى حَبْلُها انصرما واحتلّتِ الفُوزَ والأجراعَ من إضما
إحدى بليّ وما هام الفؤاد بها إلّا السفاهَ وإلّا ذُكْرَةَ حَمَلَا

والبيتان في ديوان النايفة ٦٥

(٢) الأغاني ١ : ٥٠

(٣) في الأغاني : « إِنَّمَا أَبْلَى عَظَائِي » ، وبعده هناك :

أَيُّهَا الْعَائِبُ عِنْدِي هَوَاهَا أَنْتَ تَفْدِي مِنْ أَرَاكَ تَعِيبُ

(٤) الأغاني ١ : ٥٠ ونسبه إلى كثير ، وفيه : « عَوْجاً مِنْكَ » . وبعده هناك :

وَلَا تَعْجَلَانِي أَنْ أَلِيْمٌ بِدِمْنَةٍ لَعَزَةً لَاحَتْ لِي بِبِيدَاءِ بَلْقَمِ

وقولا لقلب قد سلا : راجع الهوى وللمين أذرى من دموعك أودعى
فلا عيش إلا مثل عيش مضى لنا مصيفاً أقنا فيه من بعد مزيج

فقال معبد . ما قومتين صوتاً واحداً ، فقال له الرجل : والله ما أراك تدع
هذا الفضول بوجه ولا حيلة ، وأقسمت بالله لن عاودته لأخرجتك من السفينة .
فاندفع معبد بغير الصوت الأزل ، فصاح الجوارى : أحسنت والله يارجل !
فأعده ، قال : لا ولا كرامة ، ثم غنى الثانى ، فقلن لسيدهن : هذا والله أحسن
للناس غناء ، فأسأله أن يعيد لملنا أن نأخذه ، ثم غنى الثالث فززل عليهم
للسفينة ، فوثب الرجل وقبل رأسه ، وقال : أخطأنا عليك ، فأسألك أن تنزل
إلى ، فأبى فلم يزل به حتى نزل ، وقال له : من أين أخذ جواريك هذا الغناء ؟
قال : من جارية أخذت عن أبى عباد معبد ، ثم استأثر الله بها ، وكانت مئى
محل الروح من الجسد ، فلذلك أفضل معبداً على جميع المفتين ، فقال له معبد :
ولم لك لأنت هو ! أفقر فنى ؟ قال : لا ، فصك معبد بيده صلته ، وقال : فأنا
والله معبد ، وإليك قدمت من الحجاز ، ولقصديك بالأهواز دخلت السفينة ، والله
لا قصرت فى جواريك [هؤلاء] ^(١) حتى أجعلن خلفاً من الماضية . فأكب
الرجل والجوارى على يديه ورجليه بالتقبيل ويقولون : « كتممتنا نفسك ، حتى
أسأنا عشتك ، وأنت تمن نعمتى من الله أن نلقاه .

ثم وهب له ثلثمائة دينار وطيباً وهدايا بمنثلها ، فأقام عنده سنة حتى أخذ
عنه جواريه ثم انصرف إلى الحجاز .

قال ابن السكيت : قدم ابن سريج والغريص المدينة ، وكانا فى صبة الغناء
من الحدائق ، يقرضان لمروف أهلها ، قلماً شارفاًها تقدماً ثقلهما ، ليرتاده

(١) نكته من الأغاني .

منزلاً ، حتى إذا هما بمنسلة تنسل فيها النياب قرب المدينة ، إذا هما بعلام
ملتحف بإزارٍ و طرفه على رأسه ، وييده حباله يصيد بها الطير ، وهو يتغنى :

القصر فالنخل فالجتماع بينهما أنهي إلى القلب من أبواب جيرون^(١)
فإذا الغلام معبد فلما سماه مالا إليه ، واستعاداه ، فأعاد الصوت ، فسمعا
شيئاً لم يسمعا مثله قط ، فقال أحدهما لصاحبه : هل سمعت كالיום قط ؟ قال :
لا والله ، فما رأيك ؟ قال ابن سريج : هذا غناء غلام يصيد الطير ، فكيف
يبن في المدينة ، أما أنا فشككت ولدي إن لم أرجع ، فرجع ولم يدخلها^(٢) .

وروى إسحاق أن معبداً سافر إلى مكة ، فسمع ببطن مرّ غناء ، فقصد
الموضع ، وإذا رجل جالس على حرف بركة فارق شعره حسن الوجه عليه
درعة مصبوغة بزعفران ، وهو يتغنى :

حنّ قلبي من بعد ما قد أنابا ودعا الممّ شجوه فأجابا^(٣)
ذاك من منزلٍ لسلى خلاء لابس من خلائه جلبابا^(٤)
مُجّت فيه وقلت للركب عوجوا طمعا أن يردّ ربيع جوابا
فاستنار المنسى من لوعة الحب وأبدى الموم والأوصابا

(١) الأغاني ١ : ١١ ، وفي ط : « فالنخل فالأبواب » ، وما أثبتته من الأغاني ،
وأبواب جيرون بدمشق ، وبعده في الأغاني :

إلى التلّاط فما حازت قرائنه دور نزّح من النعشاء والمون
قدّ يكمّ الناس أسراراً فأعلمها ولا يتألون حتى الموت مكنوني
والآيات من أصوات الأغاني ، وهي لأبي قطيفة .

(٢) الخبر في الأغاني ١ : ٤٤ ، ٤٥ .

(٣) الشعر لعمرو بن أبي ربيعة ، والأغاني ١ : ٤٧ .

(٤) الأغاني « مكس من صفائه » .

هَرَعَ مَعْبِدَ بِمِصَاهِ وَغَنَى :

مَنَعَ الْحَيَاةَ مِنَ الرِّجَالِ وَنَقَمَهَا حَدَقَ قَلْبَهَا لِلنِّسَاءِ مِرَاضُ^(١)
وَكَانَ أَفْتَدَى الرِّجَالِ إِذْ رَأَوْا حَدَقَ النِّسَاءَ لِنَبْلِهَا أَغْرَاضُ

قال الرجل له: أنت معبد؟ قال نعم، وقال له معبد: بالله أنت ابن مَرِيحٍ؟
قال: نعم، ووالله لو عرفتُك ما غَنَيْتُ بين يديك.

قال معبد: فلما قدمت مكة، قيل لي: إن ابن صفوان قد جَمَلَ بين
الغَنَيْنِ جَائِزَةً، فَأَتَيْتُ بَابَهُ، فَطَلَبْتُ الدَّخُولَ، فَقَالَ لِي آذِنُهُ: قد أمرني أن
أَلَا آذِنَ لأَحَدٍ عَلَيْهِ، قُلْتُ: فدعني أدنو من الباب، فأَغْنِي صَوْتًا، قَالَ: أَمَّا
هَذَا فَنَعَمْ، فَدَنَوْتُ مِنَ الْبَابِ، فَفَتَيْتُ، فَقَالُوا: معبد، فَفَتَحُوا لِي وَأَخَذْتُ
الْجَائِزَةَ.

* * *

[ذكر إسحاق الموصلي]

وأما إسحاق فذكره صاحب الأغاني^(٢)، وقال: كان محلَّ إسحاق من
العلم والأدب والرواية، وتقدّمه في الشعر وسائر الحاسن أشهر من أن يوصف.
وأما الغناء فكان أصغرَ علومه، وأدنى ما وُسِمَ به وإن كان الغالب عليه؛ وهو
الذي صَحَّحَ أَجْنَاسَ الْغِنَاءِ وَطَرَائِفَهَا، وَمَيَّزَهَا تَمْيِيزًا لَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ عَلَيْهِ قَبْلَهُ
وَلَا بَعْدَهُ، مِنْ تَدْقِيقِ الْمَجَارِي، وَتَمْيِيزِ الْأَصْنَافِ الَّتِي جَعَلُوهَا صِنْفًا وَاحِدًا،
وَهِيَ فِي نَفْسِهَا كَذَلِكَ، وَلَكِنَّهَا تَفْتَرِقُ عِنْدَ مُتَقِظٍ مِثْلَهُ، وَأَبْنٍ مِثْلَهُ أ

(١) الأغاني ١: ٤٨، والشعر لفرزدق، ديوانه ٤٨٨.

(٢) أخبار إسحاق الموصلي في الأغاني ٥: ٢٦٨ - ٤٣٣.

وروى عنه أنه ^(١) قال : بقيتُ دهرًا أغلُسُ إلى هشام ^(٢) أسمع الحديث .
وإلى الكسائي أقرأ عليه جزءًا من القرآن ، وإلى الفراء وابن ^(٣) غزالة أسمع
اللغة ، ثم آتى منصور ززل ، فيطارحنى طريقتين أو ثلاثًا ، ثم آتى عاتكة
بنت شهدة ، فآخذ منها صوتًا أو صوتين ، ثم آتى الأصمعي وأبا عبيدة ، فاستفيد
منهما وأنشدهما ، ثم أصير إلى أبي فاعله بما صنعتُ ، وأتفدى معه ، فإذا
كان العشي رحلت إلى الرشيد .

وروى الحديث ، ولقي أهله ، مثل مالك بن أنس وسفيان بن عيينة
وغيرهما . وسأل المأمون أن يكون دخوله مع أهل العلم والأدب ، لامع المغنين ،
فإذا أراداه للفناء غناه ، فأجابه إلى ذلك .

وقال المأمون : لولا ما سبق لإسحاق على أسنة الناس من الشهرة بالفناء ،
لوليته القضاء بحضرتي ، فإنه أولى به ، وأصدق وأدق ، وأكثر دينًا وأمانة
من هؤلاء القضاة . وكان أجود الناس بالمال وأبخلمهم بالفناء . وأعطى لمنصور
ززل لما علمه الضرب بالعود أكثر من مائة ألف درهم ^(٤) .

وأهدى له ابن الأعرابي ^(٥) نسخة من النوادر بخطه ، فرّ يومًا على
المدائني ، فقال : إلى أين يا أبا عبد الله ؟ قال : أمرت على رجل كما قال
الشاعر :

نحمل أشباحنا إلى ملكٍ نأخذ من ماله ومن أدبه ^(٦)

(١) الأغاني ٥ : ٢٧١ .

(٢) الأغاني : « هشيم » .

(٣) في حواشي الأغاني عن شرح القاموس : « وعبد الواحد بن أحمد بن فزال ، مرقى » .

(٤) الأغاني ٥ : ٢٧٤ .

(٥) الأغاني ٥ : « أبو عبد الله بن الأعرابي » .

(٦) قال صاحب الأغاني « والبيت لأبي تمام الطائي » .

فقال : ومن هو ؟ قال : أبو محمد إسحاق بن إبراهيم .
ومات وهو أشعر أهل زمانه ، وقال رأيت جريراً في منامى ينشد شعراً ،
فلما فرغ أخذ كُتْبة شعر فالتقاها في فمى ، فابتلعها ، فتأولت ذلك أنه ورثني
الشعر .

ومرّ به شيخ وهو في الحديث ، فقال لجلسائه : هذا أشبه الناس بجرير
الذي رأيت ، فسئل الشيخ ، فإذا هو مُحارة بن عقيل بن بلال بن جرير .
ومن شعره يفتخر ^(١) :

إذا كانت الأحرار أصلي ومنصبي
وقام بنصري خازم وابن خازم
عطست بأفـ شامخ وتناولت
بداءي الثريا قاعداً غير قائم

وسمهما الأسمى فاستعسهما ، وأعجب بهما وفضلهما .
ودخل على مروان بن أبي حفصة وهو يتعدّث مع أبيه فأنشده :
إذا مضى الجراء كانت أرومتي وقام بنصري خازم وابن خازم ^(٢)
عطست بأفـ ... البيت .

فجعل إبراهيم يحدث مروان ، وهو ساه عنه ، فقال : مالك لا تمجيني
فقال : إنك ما تدري ما أفرغ ابنك في أذني .

(١) في الأغاني ٥ : ٢٧٨ : « أن الأسمى أنشد قول إسحاق يذكر ولاءه لمزعة بن
خازم ، وذكر البيت .
(٢) الأغاني ٥ : ٢٦٩ .

حُوجَّهَ إِلَيْهِ^(١) أَحْمَدُ بْنُ هِشَامٍ بِزَعْفَرَانٍ رَطْبٍ وَكُتِبَ إِلَيْهِ :

اشْرَبْ عَلَى الزَّعْفَرَانِ الرُّطْبَ مَتَّكِنًا وَأَنْعَمَ نِعْمَتَ بَطُولِ الْإِلَهِيِّ وَالطَّرْبِ
خَرَمَةُ الْكَأْسِ بَيْنَ النَّاسِ وَاجِبَةً كَحَرَمَةِ الْوَدِّ وَالْأَرْحَامِ وَالْأَدَبِ

فَأَجَابَهُ إِسْحَاقُ لِلْوَصْلِ :

إِذْ كَرُّ أَبَا جَعْفَرٍ حَقًّا أُمْتُ بِهِ أَنِّي وَإِيَّاكَ مَشْفُوقَانِ بِالْأَدَبِ
وَأَنَا قَدْ رَضَعْنَا الْكَأْسَ دِرَّتَهَا وَالْكَأْسَ حَرَمَتُهَا أُولَى مِنَ الذَّسَبِ

وَجَلَسَ^(٢) عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُصْعَبٍ لِلشَّرْبِ ، فَسَقَى الْفُلَمَانُ مَنْ حَضَرَ ،
وَجَاءَ غَلَامٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ بِقَدَحٍ إِلَى إِسْحَاقَ ، فَلَمْ يَأْخُذْ مِنْهُ ، فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ :
لَمْ لَا تَشْرَبُ ؟ فَقَالَ :

أَصْبَحَ نَدِيمُكَ أَقْدَا حَا نَسْلَسِلُمَا مِنَ الشَّمُولِ^(٣) وَأَتْبَعَهَا بِأَقْدَاجِ
مَنْ كَفَّ رِيْمَ مَلِيحِ الْوَجْهِ رَيْقَتُهُ بَعْدَ الْمَجُوعِ كَسْكَ أَوْ كَتَفَاجِ
لَا أَشْرَبُ الرَّاحَ إِلَّا مِنْ يَدَيِ رَشِي تَقْبِيلُ رَاحَتِهِ تُغْنِي^(٤) عَنِ الرَّاحِ
فَدَعَا لَهُ بِوَصِيْفَةٍ تَامَّةِ الْحَسَنِ ، فِي زِيِّ غَلَامٍ ، عَلَيْهَا أَقْبِيَّةٌ^(٥) وَمِنْطَقَةٌ ، فَسَمِعَتْهُ
حَتَّى سَكِرَ ، ثُمَّ أَمَرَ بِتَوْجِيهِهَا إِلَيْهِ بِكُلِّ مَا مَعَهَا إِلَى دَارِهِ .

وَمِنْ طَرَفِ إِسْحَاقَ ، أَنْ كَلَثُوا مَاتَابِي كَانَ مِنَ الْعِلْمِ وَغَزَاةِ الْأَدَبِ

(١) الْأَغَانِي ٥ : ٣٠١

(٢) الْأَغَانِي ٥ : ٣٣٠ .

(٣) الشَّمُولُ : الْخَرُّ .

(٤) الْأَغَانِي . « أَشْبَى مِنَ الرَّاحِ » .

(٥) الْأَقْبِيَّةُ : جَمْعُ قَبَاءَ ، بِالْفَتْحِ ؛ وَهُوَ تَوْبٌ يَلْبِسُ فَوْقَ الثِّيَابِ . وَقِيلَ : نَوْبٌ يَلْبِسُ

حُلُوقَ الْقَمِيصِ وَيَتَمَنَّقُ بِهِ .

وكثرة الحفظ والترسل والنظم على ما لم يكن عليه أحد ، فحضر مجلس المؤمن ، فوضع بين يديه ألف دينار ، وغمز إسحاق بالعبث به ، فأقبل إسحاق يعارضه في كل باب ويزيد عليه ، وهو لا يعرف إسحاق ، فقال : أياذن أمير المؤمنين في نسبة هذا الرجل ، والسؤال عن اسمه ؟ فقال : أفعل ، فقال له العتابي : ما اسمك ومن أنت ؟ فقال : أنا من الناس ، واسمى كل بصل ، فقال له العتابي : أما النسبة فمعروفة ، وأما الاسم فنسكور ، فقال له إسحاق : ما أقل إنصافك ، أو ما كنتوم من الأسماء ! قال بصل أطيب من الثوم ! فقال له العتابي : قاتلك الله ، ما أملحك ! ما رأيت كالرجل حلاوة ، أياذن أمير المؤمنين في صلته بما وصلني ، قد والله غلبني ؟ فقال له المؤمن : بل ذلك موفور عليك ، وأمر له بمثله . فانصرف إسحاق إلى منزله ، وناداه العتابي بقية يومه .

وكانت هُشيمة الخمتارة تجيد الشراب ، فلما ماتت قال يرثيها :
أضعت هُشيمة في القُبورِ مقيمةً وخلت منازلها من الفتيان^(١)
كانت إذا هجر الحبيب يحبه^(٢) دبت له في السر والإعلان
حتى يلين لما تريد قياده ويصير سيئه إلى الإحسان

وهو إسحاق بن إبراهيم بن ماهان ، أصله فارسي ، وترك ماهان إبراهيم صغيراً ، فنشأ في بني نعيم .
وهذا الذي ذكرنا نبذة من أدبه .

وأما محاسنه في الفناء فلا يأتي عليها الخصر ، قال الواثق : ما غناني إسحاق قط إلا ظننت أن قد زيد في ملكي ؛ وإن إسحاق نعمة من نعم الملك ،

(١) الأغاني ٥ : ٤١٠ .

(٢) الأغاني : « إذا هجر الحبيب جينه » .

التي لم يحظ أحد بمثلها ؛ ولو أن له العمر والنشاط بما يشتري لاشتريتهما بشطر ملكي .

وحدث حماد ابنه قال ^(١) : حدثني أبي قال : غدوت يوماً وأنا ضَجِر من من ملازمة دار الخليفة . فركبت بكرة عازماً أن أطوف في الصحراء ، وأتفرج ، وقلت لملائي : إن جاء رسول الخليفة فعرفوه أني ركبت في مهم ^(٢) ، ومضيت ، وطلعت ما بدالي ، وغدوت ، وعدت ، وقد حَجَّ النَّهار ، فوقفت في ظل جناح شارع ^(٣) لأستريح ، فلم ألبث أن جاء خادم يقود حمرا فارها ، عليه جارية تحتها منديل ديق ^(٤) ، وعليها من اللباس الفاخر ما لا غاية وراءه ، فرأيت لها شمائل ظريفة وطرفاً فاتراً ، فحدثت ^(٥) أنها مغنية ، فدخلت الدار التي كنت عليها واقفاً ، فملقها قلبي علوقاً شديداً لم أستطع معه براحاً . وأقبل رجلان شابان ، لهما هيبة تدل على قدرهما ، وهما راكبان ، فأذن لهما فحملني حب الجارية وحسن حالهما أن توسلت بهما ، فدخلت معهما ، فظننا أن صاحب الدار دعاني ، وظن هو أني معهما ، فجلسنا ، وأنى بالطعام فأكلنا ، وجرى بالشراب ، فخرجت الجارية ، وفي يدها عود ، فرأيت جارية حسناء ، فغنت غناء صالحاً ، فعمكن ما في قلبي منها ، وشربنا . ثم قت للبول ، فسلما صاحب المنزل عني ، فأنكراني ، فقال : هذا طفيلي ، ولكنه ظريف ، فأجملوا عشرته ، فجلست فغنت في الحن لي :

ذكرتك أن مررت بيا أم شادنِ أمام المطايا تشرئب ^(٦) وتسبحُ

(١) الأغاني ٤ : ٤٣٢

(٢) الأغاني : « في بعض مهماني ، وأنكم لا تعرفون أين توجهت » .

(٣) الأغاني : « فوقفت في الشارع للمرور بالخرم » والخرم : عملة ببغداد :

(٤) دبيق منسوب إلى دبيق ، وهي بلدة كانت بين القرماتيين من أعمال مصر ، وقد

خربت الآن .

(٥) الأغاني : فغصت عليها أنها مغنية ، وخرصت ، أي خنت وظننت .

(٦) ط : « تسريح » ، والأجود ما أثبتته من الأغاني .

من المؤلقات الرمل أدماه حرّة شعاع الضحى في وجهها بتوضّع
عَادَتَه أداء صالحاً . ثم غنّت أصواتاً فيها من صنعتي :

للقلول الدوارسُ فَارَقَتْهَا الْأَوَانِسُ
أوحشتْ بعد أنسها فهي قَفَرٌ بسكيسُ

فكان أمرها فيه أصلح من الأوّل ، ثم غنّت من صنعتي في شعري ^(١) :

قل لمن صدّ عاتباً ونأى عنك جانباً
قد بلغت الذي أردت وإن كنت لاعباً

واعترفنا بما ادّعى وإن كنت كاذباً ^(٢)

فكان أصلح ممّا غنّته ، فاستمدته منها لأصحّحه . فأقبل على أحد الرجلين ،
تقال : ما رأيتُ طفلياً أصنق وجهاً منك ، لم ترَضَ بالتطفيل حتى اقترحت !
وهذا تصديق المثل ، « طفيل وقد يقترح » ، فلم أجبه ^(٣) . وكفّه صاحبه عنى ، فلم يبكف ،
ثم قاموا للصلاة فأخذتُ عود الجارية ، وأصلحته إصلاحاً محكماً . وعدت
إلى موضعي ، فصلّيت ، ثم عادوا ، فعاد ذلك الرجل في عزّ بدّته علىّ ، وأنا
صامت ، فأخذت الجارية عودها ، وجسّته ، فقالت : مَنْ جسّ عودي؟ فقالوا :
ما جسّه أحد ، فقالت : والله لقد جسّه حاذق متقدّم ، وشدّ طبقة ، فقلتُ لها :
أنا أصلحته ، فقالت : بالله عليك خذه ، واضرب به ، فأخذته منها وضربتُ
مبدأ طريق عجيب صنّف ، فيه نقرات محكّمة ^(٤) ، فإبّنيّ منهم أحدٌ إلا وثب ،
وجلس بين يدي ، وقالوا : بالله يا سيدي ، تُنقّي؟ قلت : نعم ، وأعرّفكم بنفسيّ

(١) الأغاني : « ثم غنّت أصواتاً من القديم والحديث ، وغنّت في أثنائها من صنعتي » .

(٢) لم يرد هذا البيت في رواية الأغاني .

(٣) الأغاني : « فأطرقت ولم أجبه » .

(٤) الأغاني : « محرّكة » .

أنا إسحاقى الموصلى ، والله إني لأتية على الخليفة وأنتم تشتموننى منذ اليوم لأنى
تملأْتُ معكم بسبب هذه الجارية ! والله لانطقتُ بحرف ولا جلست معكم ،
أو تخرجوا هذا المرء الفث ، ونهضت لأخرج . فتعلقوا بى وتملأَت الجارية بى ،
قلت : والله لا أجلس إلا أن يخرج ؛ فقال له صاحبه : من شبه هذا حذرت
عليك ، فأخرجوه ، فغذيت الأصوات التى غنتها الجارية من صنعى ؛ فطرب
صاحب البيت طرباً شديداً ، وقال لى : هل لك فى أمرٍ أعرضه عليك ؟ قلت :
ما هو ؟ فقال : تقيم عنيلى شهرأ ، والجارية مع ما عليها لك ، قلت : أفعل ،
فاقتُ عنده ثلاثين يوماً لا يعرف أحدٌ أين أنا ، والمأمونُ يطلبنى .

فجئت بذلك منزلى بعد شهر ، وركبت إلى المأمون ، فقال لى : يا إسحاق ،
ويحك ! أين تسكون ؟ فمرّفته الخبر فقال : على بالرجل الساعة ، فمرّقتهم موضعه
فأحضره ، وقال : أنت رجل ذو مروءة وسييلك أن تماون عليها ، فأمر له
بمائة ألف درهم ، ونهاه ألا يعاشر ذلك المرء الذى للذلل ، وأمر لى بخمسين ألفاً ،
وقال : أحضر لى الجارية ، فأحضرتها فمنته ، فقال : قد جعلتُ لها نوبةً
فى كل يوم ثلاثاء ؛ تنقضى مع الجوارى ، وأمر لها بخمسين ألف درهم . فربحتُ
والله تلك^(٢) الرّكبة وأرنبحت .

وتشبه هذه الحكاية حكاية إبراهيم^(٣) بن المهدي ، إذ شفع للمأمون فى
طفلى قد قدّمنا ذكره ، فقال إبراهيم : يا أئمة المؤمنين ، هب لى ذنبه ،
وأحدثك حدثاً عجيباً فى التّطفيل من نفسى ، قال : قل ، قلت ؛ خرجت يوماً

(١) الأغاني « أحضرنى »

(٢) الأغاني : « بلك » .

(٣) الخبر فى العقد ٦ : ٢٠٨ — ٢١٠

فررت في سكك بغداد ، فشمت راحة أزار من جناح دار ، وقدور قد
 فاح قنارها . فسألت خياطاً : عن رب الدار ، فقال رجل من التجار اسمه فلان .
 فخرجت من شباك في الجناح كف ومصم ، ما رأيت مثلها قط ، فذهب عني
 وبهت ، وإذا رجلان نبيلان ، فقال الخياط : هذان نديماه ، وهما فلان وفلان ،
 فحركت دابتي ، ودخلت بينهما ، وقلت : قد استبطأ كما أبو فلان ، فأينما الباب ،
 فدخلنا ، فلم يشك صاحب الدار أنني منهما ، فرحب بي ، وأجلسني في أجل
 موضع ، فأتيننا بالألوان ، فكان طعمها أطيب من رائحتها ، فقلت في نفسي :
 أكلت الألوان وبقي الكف . ثم سرنا إلى مجالس المندامة ، فإذا أنبل مجلس ،
 وصاحب الدار مقبل بالآطاف والحديث على لما ظن أني منهما ، فخرجت جارية
 تفتني كأنها خوط بان ، فسلمت وجلست ، وأخذت بالعود وجسته ، فتبينت
 الحذق في جستها ، وغفت هذا الصوت :

توهمها طرفي فأصبح خدها وفيه مكان الوم من نظري أثر
 وصاحها كفي فآلم كفها فن لمس كفي في أنا ملها عقر
 ومر بفكري شخصها فجرحته ولم أر شخصاً قط يجرحه للفكر

فهيبت بلالي ، وطربت ، ثم غفت :

أشرت إليها هل علمت ^(١) مودتي فردت بطرف العين لاني على العهد
 فحدثت عن الإظهار عمداً لسرها وحادت عن الإظهار أيضاً على عمد

فصعنت : السلاح ! وجاءني ما لم أملك معه نفسي ، ثم غفت :

أليس عجيباً أن يبتغي بغيته وإياك لا نخلو ولا نكلم

(١) الطه : « مرفت »

(٢٠ - شرح مقامات الحريري ج ٢)

سوى أعينٍ تشكو الهوى بجفونها وترجع أحشاء على النار تُضرمُ
إشارة أفواهٍ وغمز حواجبٍ وتكسر أجفانٍ وقلبٍ معتمٍ^(١)
فحسدتها على حذقها، قلت: باجارية بقي عليك شيء، ففضبت ورمت بالعود،
وقالت: متى كنتم تحضرون مجالسكم البغضاء! فندمت ورأيت تغير القوم،
فدعوت بالعود وغنيت:

ما للمنازل لا يُجيبن حزيماً أصمّمتن أم بعد اللدى قبلينا
راحوا العشية روضةً مذكورةً إن متن متنا أو بقين بقينا^(٢)
فأقبلت على رجلٍ تقبلهما، وتقول: المذرة والله يسيدي من تغير مثلك،
وقام مولاها وصاحبها، وصنعوا مثلها، وشربوا بالطاسات طرباً، ثم غنيت:
أفى الحق أن أمسى^(٣) ولا تذكرينى
وقد سحمت^(٤) عيناى من ذكرك الدما^(٥)
إلى الله أشكو مخلياً وسماحتى لما عملت منى وتبذل علقما^(٦)
فجاء والله من طرب القوم ما حسبت له أن يخرجوا من عقولهم، فأمسكت
حتى إذا هدا القوم اندفعت أغنى:

(١) المقد: « وكف تسلّم » وما أنبته من أ، ب
(٢) المقد: « أوحين حيناً » .
(٣) ط: « هل عمى »
(٤) المقد: « ود سحمت عيناى »
(٥) بعده في المقد:

فدّى مصاب للقلب أنتِ قتلته ولا تتركه ذاهل العقل مغرماً
(٦) بعده في المقد:
إلى الله أشكو أنها مادريّة وأناى لما بالود ما عشت مكرماً

هَذَا مَحْبُوكٍ مَطْوًى عَلَى كَمْدِهِ صَبَّ^(١) مَدَامُهُ تَجْرَى عَلَى جَسَدِهِ
لَهُ يَدٌ تَسْأَلُ الرَّحْمَنَ رَاحَتَهُ تَمَّا بِهِ وَيَدٌ أُخْرَى عَلَى كَبْدِهِ
يَا مَنْ رَأَى كَلْفًا مُسْتَهْدَقًا أَسِفًا كَانَتْ مَنِيَّتُهُ فِي طَرْفِهِ وَيَدِهِ^(٢)

فصاحت الجارية : السلاح ! هذا والله الفناء يا مولاي . وسكروا ، وأمر صاحب الدار غلامه بحفظهم إلى منازلهم ، وبقيت أشرب معه - وكان جيد الشراب - فقال : يا سيدي ذهب والله ما خلا من أيامى باطلا إذ كنت لأعرفك ، غن أنت فأخبرتني ، فقبل رأسي ، وقال : وأنا أعجب من هذا الأدب ، وأنا منذ اليوم مع الخلافة . ثم سألتني عن قصتي فأخبرتني خبر الطعام والمقصم ، فأحضر جواربه [ولا أشعر]^(٣) . ثم قال : مابق غير أبي وأختي ، ولأنزلهما إليك . فمجبت من كرمه ، وسعة صدره ، فقلت : ابدأ بالأخت ، ففعل ، فلما رأيت مصمها ، قلت : هي هي . فأرسل إلى عشرة مشايخ وأحضر بذرتين ، وقال : أشهدكم أني قد زوجت أختي فلانة من إبراهيم بن المهدي ، وأمهرتها عنه عشرة آلاف درهم . فدفعت إليه البذرة الواحدة ، وفترقت الأخرى على المشايخ ، وانصرفوا ، وقال : يا سيدي أمم ذلك بمض البيوت ، فأحشمني^(٤) ، قلت : بل أحملها إلى منزلي في عمارية ، فوحقك يا أمير المؤمنين ، لقد حمل إلى من الجهاز ماضق عنه بعض دُوري .

فتمجَّب المأمون من كرمه ، وأمر بإحضاره فصار من خواصه .

قوله : « سَحَنًا » أي بعداً .

(٢) لم يرد هذا البيت في المقد .

(٤) أحشمه : أخجله .

(١) القصد : جرى مدامه «

(٣) من المقد

[ذكر زناهم الزامر]

وزناهم الزامر هو الذي أحدث الذأى ، وهو الزمار الذي تدعوه عامقته بالمغرب الزلامى ، فصحتوه بإبدال نونه لاما ، وإنما هو زنامى ، وقال فيه الشاعر :

إن فى نأى زنام شغلا يشغل العاقل عن نأى زنام-

قال القاسم بن زرزور الزامر : حدثنى زنام الزامر ، قال : لما اعتل للمعتمصم علقته التى مات منها ، قال : هيتوا لى الزلال حتى أركبه ، فهتئى له فركب ، وأتى فيمن معه ، فتر بدجلة بإزاء منازلهم ، فقال : يا زنام ، قلت : لبيك يا أمير المؤمنين ! قال : ازمرو :

يا منزلاً لم تبلى أطلاله حاشا لأطلاك أن تبلى
العيش أولى ما بكاه الفتى لابد للحرزون أن يسلى
لم أبك أطلاك لكنى بكيت عيشى فيك إذ ولى

قال : فزمرت ومازلت أردده ، وهو ينتحب وييسكى إلى أن خرج ، ثم توفى بعد خمسة أيام .

وزناهم سار المثل بضرب زمره وإتقان صنمته .

وكان الواثق مولماً بزمره بعد أبيه المعتمصم ، حدث حسين بن الضحاك قال (١) : دخلت على الواثق ، فقال : قل الساعة أبياتاً ملاحاً حتى أهب لك شيئاً مليحاً ، قلت : فى أى معنى ؟ قال : فما شئت بما ترى بين يديك ، فالتفت فإذا بساط قد تنفتحت أنواره ، وأشرق فى نور الصبح ، فنبجلت وأزنج على ، فقال

(١) الأغاني : ٧ : ١٩٦ ، ١٩٧ .

«لوائق : ألسنت ترى نُور صباح ، وَنُور أفاق ! فُتُح لي ، قلت :

ألسنتَ تَرَى الصُّبْحَ قد أسفرا ومنسكبَ الفَيْثِ قد أمطرا^(١)
 وأسفرت الأرض عن حَلَّةٍ تُضاحك بالأصفر الأحمرا^(٢)
 وتُعمل كأسين في فتيةٍ تطارد بالأصفر الأكبرا
 بحثُ كئوسهمُ مخطفٌ تجاذبُ أردافه المئزرا^(٣)
 فكلُّ ينافس في برِّه ليفعل في ذاته المنكرا

فضحك ، وقال : تستعمل ماقلت يا حسين إلا للفسق فلا ولا كرامة .
 ثم قال : قوموا بنا إلى حانة الشطّ . فقام إليها ، وشرب وطرب ، وماترك أحداً
 من المتمدنين والجلساء إلا أمر له بعملة . وكان من الأيام التي سارت أخبارها في
 الآفاق ، فلما كان من الغد غدوت عليه ، فقال : أنشدني ماقلت في يومنا
 الماضي ، فأنشدته :

يا حانة الشطّ قد أكرمت مثنوانا عودي بيوم سرور كالذي كانا
 لا تُفقدبنا دعاياتِ الأمير ولا طيب البطالة إصراراً وإعلانا
 وهاج زمر زُناهم بين ذاك لنا شجوراً فأهدى لنا رَوْحاً ورَّيحانا

(١) الأغاني : ٥ وبكر .

(٢) بده في الأغاني :

ووافقك نَيْسَانُ في ورده وحنك في الشرب كي نَشَكرا .

(٣) بده في الأغاني :

ترجل بالباب حتى إذا أدار غداثه وفرّا
 وفضّض في الجلّسار البها ر والآبنوسة والعنبرّا
 خلفاً تمازج ما شدّرت مقاريض أطرافه شدّرا

وَسَلَسَلِ الرَّطْلَ عَمْرَوْنَهُمْ بِهِ الْخُفْيَا فَالْحَقَى أَخْرَانَا بِأَوْلَانَا
لَا زَلَّ آهْلَةُ الْأَوْطَانِ حَامِرَةً بِأَكْرَمِ النَّاسِ أَعْرَافًا وَأَغْصَانَا
ذَكَرْنَا هَذِهِ الْحِكَايَةَ لظَرْفِهَا ، وَلَمَّا وَقَعَ لَزَامٌ مِنَ الذِّكْرِ فِي شَعْرِ حَسَنِ .

* * *

قوله : « زنيا » ، أى دعيا في الزمر . قال ابن الأعرابي : الزنيم ابن الزانية .
أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل
الجنة ولد الزنا ولا شئ من نسله إلى سبعة آباء » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كانت العباد فيما مضى إذا عبد الله
أحدهم أربعين سنة يستقى نوره بين يديه ، فعبد الله عابد أربعين سنة وأربعين ،
فلم يسع له نور ، فابتهل إلى الله تعالى فقال : عبدتك أربعين وأربعين ، ولم
يسع لى نور ؛ فأرى فى منامه أنه لنغير ريشة ، فقال : يا رب إن كان أبواى
أكلأ مُحَاضًا أضرس أنا ! : فسمى نوره بين يديه .

قوله : « جيله » ، أى أهل عصره .

الزهم الأول السيد ، والثانى الضامن ، أراد أنه يضمن لمن سمى أن يطربه
وقال أبو الفضل الدارمي في زامر أسود :

وَحَالِكِ اللَّوْنِ كَاللَّيْلِ الْبَهِيمِ لَهُ فَضَائِلُ مَشْرِقَاتِ الْحُسْنِ كَالْفَلَقِ
تَحَالُ مَجْلِسَنَا وَجْهًا بِهِ حَسَنًا إِذْ صَارَ فِيهِ كَخَالٍ مُعْجَبٍ لَبِقٍ
تَرَاهُ يَحْفَظُ مَا يُوْحَى إِلَيْهِ بِهِ وَسِرَّهُ أَبَدًا يَهْوِي بِمَنْخَرٍ

يحدو بأنفاسه الأوتار مجتهداً قدستقيم به الألحان في الطُرُقِ
أهدى للشبابُ إليه حسنَ بهجته فغاسب المسك في لونٍ وفي عبقٍ

الحبيب : الفقايع تعالو الماء والخمر . أزدري : أحقر . النَّمَم : الإبل وأكرمها
الخمر . أحلَّى : أزين . بتملَّها : بطول حياتها ومدتها ، والملاوة : المدة ، ومنه
قوله تعالى : ﴿ وأملِ لهم ﴾ . مرآها : رؤيتها . أذود : أدفع . شرائع : طرق .
السمَر : الحديث بالليل . أليح : أشفق ، تسيرى : تسير ليلاً . ربَّأها : راعها
الطليبة . يكنهن : يشمر ويحسن ، وتكنهن الرجل : تحدث عن الغيب .

* * *

[ذكر سطيح]

وسطيح الفسائي أكنه الناس ، وأنذر بسيل العرم ، فكان يدرج
جسده كما يدرج الثوب ، خلا جُجمة رأسه ، وإذا مست باليد أثرت فيه
للين عظمها .

ومن كنهاته أنه لما كان ليلة ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتج
إيوان كسرى ، فسقطت منه أربع عشرة كُشرفة ، فأعظم ذلك أهل المملكة ،
وكتب إلى كسرى صاحب الشام أن وادى السماوة انقطع تلك الليلة .

وكتب إليه صاحب اليمن أن بحيرة ساوة غاضت تلك الليلة .

وكتب إليه صاحب طبرية أن الماء لم يجر تلك الليلة في بحيرة طبرية .

وكتب إليه صاحب فارس أن يبعث النار خذت تلك الليلة ، ولم تحدث
قبل ذلك بألف سنة^(١) .

فلما تواترت عليه الكتب ، أظهر سريره ، وبرز إلى أهل مملكته ، فأخبرهم

(١) الفائق : د ألف عام

الخبر ، فقال المؤبذان : أيها الملك إني رأيت تلك اليلة رؤيا هالتي ، رأيت إبلا صعباً ، تقود خيلاً عراباً ، حتى اقتحمت دجلة وانتشرت في بلادنا .

قال : فإذن في تأويلها ؟ قال : ما عندي شيء ، ولكن أرسل إلى عاملك بالحيرة يوجه إليك رجلاً من علماءهم فإنهم أصحاب علم بالحدثان . فبعث إليه ، فوجه عبد المسيح بن بقيلة الفسائي ، فأخبره كسرى بالخبر فقال : أيها الملك ، ما عندي فيها شيء ، ولكن جهّزني إلى الشام إلى خالي سطيج . فجهّزه ، فلما قدم عليه بإجده قد احتضر ، فناداه فلم يجبه ، فقال ^(٢) :

أَصْمٌ أَمْ يَسْمَعُ غَطْرِيفُ الْيَمِينِ رَسُولٌ قِيلَ لِلْعَجَمِ يَهْوِي لِلْوُثْنِ ^(٣)
يَا فَاصِلَ الْخَطَّةِ أَعَيْتَ مَنْ وَمَنْ أَتَاكَ شَيْخٌ الْحَيِّ مِنْ آلِ سَنَنْ
• أَيْضُ فُضْضَاضُ الرِّدَاءِ وَالرَّسَنِ • ^(٤)

فرفع إليه سطيج رأسه ، وقال : عبد المسيح ، على جهلٍ مُشَبِّح ، أقبل إلى سطيج ، وقد أوفى على الضريح ، بعثك ملك بني ساسان ، لارتجاج الإيوان ، ونُحُود النيران ، ورؤيا المؤبذان ؛ رأى إبلا صعباً ، تقود خيلاً عراباً ، حتى اقتحمت الواد ، وانتشرت في البلاد . عبد المسيح ، إذا ظهرت التلاوة ، وغاض وادى السماوة ، وظهر صاحب المَراوة ، فليست الشام لسطيج بشام ، يملك منهم ملوك ومِلِكَات ، بمدد ما سقط من الشرفات ، وكل ما هو آت آت ، ثم قال ^(٥) :

- (١) ط : « نغيلة » صوابه من ا ، ب والطبرى .
(٢) تاريخ الطبرى ٢ : ١٦٧ والفائق ١ : ٤٦١ ؛ والرجز هناك أطول وأكمل .
(٣) الطبرى : « يسرى للوثن » .
(٤) الطبرى : « والبدن » .
(٥) تاريخ الطبرى ٢ : ١٦٨ ، وأول الشعر هناك :

شمر فإنك ماضى الهم شَمِيرُ لا يفزعك تفريق وتغيمُ

إن كان لك بنى ساسان أفرطهم فإن ذا الدهر طوراً دهاربر
 منهم بنو الصريح بهرام وإخوته والهرمزان وسابور وسابور
 غرباً أصبحوا منهم بمنزلة تهاب صولتهم الأسد اليها صيد
 حثوا المطى وجدوا في رحيلهم فما يقوم لهم سرج ولا كور
 والناس أبناء علات فن علموا أن قد أقل ، فجقور ومنهجور
 والخير والشر مقرونان في قرن والخير متبع والشر محذور

فأتى كسرى فأخبره ، ففته ذلك ، فقال : إلى أن يملك منا أربعة عشر
 ملكاً ، يدور الزمان ؛ فملكوا كلهم في أربعين سنة .
 قوله : « بنم » : من النيمة . مليح : كثير للظهور .

فاتفق لوشك الحظ المبخوس ، ونكد الطالع المنعوس ،
 أن أنطقني بوصفها محياً المدام ، عند الجار النمام . ثم تاب
 الفهم ، بعد أن صرد السهم ، فأخسنت الخبال والوبال ؛ وصيغة
 ما أودع ذلك الغربال ، بيد أنى عاهدته ، على عكم ما لفظته ،
 وأن يحفظ السر ولو أحفظته ؛ فزعم أنه يخزن الأسرار ،
 كما يخزن اللثيم الدينار ، وأنه لا يهتك الأستار ، ولو عرض
 لأن يلج النار .

الحظ : البخت والنصيب . ووشكه : سرعة زواله المبخوس : المنقوص .
 نكد : مشقة . الطالع : نجم الإنسان ، والطالع يقابله التاقط . محياً : حدة

ثاب : رج . صرِد : خرج من قوسه ، وأراد بالسهم اللفظ الذي سمع منه جاره .
الخلبال : الفساد . الوبال : الثقل ، وهو وبال عليه أى ثقل في العاقبة ، وطعام .
وبيل : ثقل متخيم ، ومنه استوبلت المدينة إذا لم توافق جسمك وإن أحبتها .
أودع : جعل فيه . والغربال ، معلوم ، يشبه به التمام حيث لا يمسك ما جعل
فيه ؛ قال الخطيئة يهجو أمه :

تَذَحَّى قَاجِلِي مَتَى بَعِيدَا أَرَا حَ اللَّهِ مِنْكَ الْعَالِيَمَا^(١)
أَعْرِبَالَا إِذَا اسْتَوْدَعْتَ سِرًّا وَكَانُونَا عَلَى الْمُتَحَدِّثِينَا
كَانُون : أبرد أيام الشتاء ، ويريد أنها باردة لحديث .

قال كمب بن زهير رضى الله عنه :

وَلَا تَمْسُكْ بِالْعَمْدِ الَّذِي رَزَعَتْ إِلَّا كَمَا يَمْسُكُ الْمَاءُ الْفَرَابِيلُ^(٢)
وقال في الحماسة :

وَلَا أَكْنِمُ الْأَسْرَارَ لَكِنْ أَنْتَهَا وَلَا أَدْعُ الْأَسْرَارَ تَغْلَى عَلَى قَلْبِي^(٣)
وَلِنْ قَلِيلِ الْعَقْلِ مَنْ بَاتَ لَيْلَةً تَقْلُبُهُ الْأَسْرَارُ جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ
وقال آخر :

أَمْزَزَ عَلَى بَأْخِلَاقٍ وَنَمَتَ بِهَا عِنْدَ الْبَرِيَّةِ يَا فَالْوُذَجِ الشُّوقِ
تَضِيْقُ بِالسَّرْدِ مَا إِنْ خُصِمَتْ بِهِ حَتَّى يَرَى دَائِمًا كَالْفَنَاجِ فِي الْبُوقِ
وقال في ضده :

وَمُسْتَخْبِرٌ عَنْ سِرِّ رِيَاءٍ رَدَدَتْهُ بَعِيَاءُ مِنْ رِيَاءٍ بِفَرِّ يَقِينِ

(١) ديوانه ٢٧٧ (طبعة الحلبي) .

(٢) ديوانه ٨ .

(٣) ديوان الحماسة . ١٨٥ ، والبيتان لسحيم المقصبي .

وقال انتصرحني إني لك ناصح وما أنا إن خُبرته بأمين
وقال قيس بن الخطيم^(١) :

إذا جاوز الإثنين سرّاً فإنه يث^(٢) وتكثر الحديث قين^(٣)
يكون له عندي إذا ما ضمنته مكان^(٤) بسوداء الفؤاد مكين
وقال العباس بن الأحنف^(٥) :

تعتيت^(٦) تطلب ما أستحق به المجر منك ولا تقدير
وماذا يضرك من شهرتي إذا كان سرّك لا يشهر
أمنى تخاف انتشار الحديث وحطّ من صوته أوفر
ولو لم أصنه لبقيت عليك^(٧) نظرتُ لنفسي كما تنظرُ

قوله : « بيد » بمعنى غير . عكم : ربط . أحفظته : أغضبته . يهتك : يخرق

* * *

فأ إن غبر على ذلك الزمان ، إلا يوم أو يومان ، حتى بدا
إلى أمير تلك المدرة ، ووالها ذى المقدرة ، أن يقصد باب
قيله ، مُجدداً عرض خيله ، ومستمطراً عارض نيله ، وارتاد
أن تصحبه تحفة تلامم هواه ، ليقدّمها بين يدي نجواه ،

(١) ديوانه ص ١٠٥

(٢) الديوان : « بنشر »

(٣) بعده في الديوان :

وإن ضيع الإخوان سرّاً فإني كقوم لأسرار المشير أمين

(٤) الديوان : « مقر » .

(٥) ديوانه ١٤٦ .

(٦) الديوان : « تعتيت » .

(٧) الديوان : « ولو يكن لي بقيا » .

وَجَعَلَ يَبْذُلُ الْجَمَالَ لِرَوَّادِهِ ، وَيُسْتَى لِمَنْ يُظْفِرُهُ
 بِمِرَادِهِ ، فَأَسْفَ ذَلِكَ الْجَارُ الْخَطَارُ إِلَى بَذُولِهِ ، وَعَمَى فِي أَدْرَاعِ
 الْعَارِ عَذْلَ عَذُولِهِ ، فَأَنَّى الْوَالِي نَاشِرًا أَذْنِيَهُ ، وَأَبْنَاهُ
 مَا كُنْتُ أُسْرَرْتُهُ إِلَيْهِ ، فَمَا رَاعَنِي إِلَّا أَنْسِيَابُ صَاحِبَتِهِ إِلَى ،
 وَأَنْثِيَالُ حَفْدَتِهِ عَلَى ، يَسُومُنِي لِإِثَارِهِ بِالْدَّرَةِ الْيَتِيمَةِ ، عَلَى أَنْ
 أَتَحَكَّمَ عَلَيْهِ فِي الْقِيَمَةِ ، فَغَشِيَنِي مِنَ الْهَمِّ ، مَا غَشَى قَرَعُونَ وَجُنُودَهُ
 مِنَ الْيَمِّ .

* * *

غَبَرٌ : مَغَى . الْمَدْرَةُ : اللَّيْلَةُ . قِيلَهُ : مَلَكَ الْأَعْظَمُ .
 مَجْدَدًا عَرَضَ خِيَلَهُ ، أَيْ لِيَعْرِضَ عَلَيْهِ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْأَجْنَادِ . وَالْأَنْثِيلُ ،
 أَيْ الْعَطَاءُ . ارْتَادَ : طَلَبَ . نَحْفَةٌ : هَدِيَّةٌ . تَلَأَمَ ، تَوَافَقَ . هَوَاهُ : إِرَادَتُهُ .
 نَجْوَاهُ . حَدِيثُهُ مَعَ الْمَلِكِ .

وَالْجُنُودُ : حَقٌّ مِنْ ذَلِكَ عَلَى حَاجَةٍ ، وَالْجَمَالَةُ بِمَعْنَاهُ ، وَالْجَمَائِلُ جَمْعُهَا . يُسْتَى : يَسْتَرُ
 وَأَصْلُ الرُّوَادِ طَلَابُ الْمَرْغَى ، وَاحِدُهُم رَائِدٌ ، وَأَصْلُ الْوَسَائِلِ ، أَسْبَابُ الْوُدِّ .
 أَسْفَ : انْحَطَّ وَدَنَا ، وَأَسْفَ الطَّائِرُ : تَدَلَّى نَحْوِ الْأَرْضِ لَشَيْءٍ يَأْخُذُهُ ،
 وَأَسْفَ الرَّجُلُ : طَلَبَ مَذَاقَ الْأُمُورِ .

وَالْجَارُ الْخَطَارُ : الْخَدَّاعُ بِذُولِهِ : عَطَاؤُهُ . أَدْرَاعُهُ : لِبَسُهُ الْمَرْغَى . نَاشِرًا أَذْنِيَهُ ،
 أَيْ طَامِعًا ، وَهُوَ مَثَلُ . أَبْنَاهُ : قَالَ لَهُ سِرًّا .

قَوْلُهُ : «رَاعَنِي» أَيْ أَفْرَعَنِي .

أَنْسِيَابُ : دُخُولُ . صَاحِبَتِهِ : حَاشِيَتُهُ . وَمَنْ يَمِيلُ إِلَيْهِ .

أَنْثِيَالُ : أَنْصَابُ . حَفْدَتُهُ : أَنْبَاعُهُ

يسومنى : يعرض على ، إيثاره : تفضيله على نفسه .

الدرّة اللّيتيمة : الجوهرة النفيسة، وبهذا سمى الثمالى كتابه الدرّة اللّيتيمة ، أى الدرّة المنفردة التى لا مثل لها . واللّيتيمة درّة مشهورة فى البيت الحرام أكبر من بيضة الحمامة ، استخرجها من البحر كلب جاء ليبلغ ، فعمّلت تجارتها بفمه ، ففضها فى البرّ ، فهى من عجائب الدّنيا .

ومن عجائبها الحافر ، وهو حجر لا قوت ، شبه حافر الفرس ألصقه أمير المؤمنين بمصحف عثمان .

والغريبة الثالثة : فرس ذهب لم يصنعه صانع ، إنما وجد فى ممدن الذهب وهو عند ملك الحبشة بغانة .

والذى غشى فرعون وجنوده من اليمّ ، هو الفرق . واليمّ : البحر الذى ذهبت نفوسهم فيه .

[تكملة قصة موسى]

ولابد أن نلمّ بنبذة من خبره ، نكمل بها القصة حسبما شرطنا ؛ وذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام ، لما خرج فارّاً من فرعون حسبما قدمناه فى الخامسة، توجه إلى مدين ، فبلغها كالأجائماً فقيراً ، فوجد الناس يسقون كما نص الله تعالى : ﴿ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ ^(١) ، أى يحبسان غنمهما ، فأخبرتاها بأنهما لا يستقيان حتى يصدر الرعاء ، وأن لهما أبا شيخاً كبيراً ، فرجّهما واقتلع الصخرة عن الحجر . وكان لا يرفعهما إلا نفرٌ - فلأوسقى لهما ، ثم تولى إلى ظلّ شجرة مثمرة فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتَ إِلَى مِنْ خَيْرٍ قَبِيرٍ ﴾ ^(٢) . قال ابن عباس رضى الله عنهما : قال هذا موسى ، ولو شاء إنسان أن ينظر إلى خُصرة أمثاله من شدة الجوع لفعل - أراد خُصرة البقل الذى أكل فى طريقه - فرجعت الجارحان بسرعة إلى أبيهما ، فأنكر مجيئهما قبل الوقت الذى جرّت المادة بمجيئهما

(١) سورة القصص ٢٣

(٢) سورة القصص ٢٤

فيه ، فأخبرناه خبر موسى ، فأرسل إلى إحداهما فأتته وهي تستحي منه ، فقالت : ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ ^(١) . فحشي معها ، وهي بين يديه فضرب الريح ثوبها ، فنظر إلى عَجِيزَتِهَا فقال لها : امشي خلفي ، ودلّيني على الطريق ، فلما أتى الشيخ سألَه عن شأنه ، فقص عليه قصته فقال : ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ^(٢) . فقالت التي دعتُه : ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوَى الْأَمِينُ﴾ ^(٣) . فقال لها الشيخ : أما اللقوة فقد خَبَرْتُه بقلع الصخرة ، فما يدريك أمانته ؟ قالت له : إني مشيت أمامه فلم يحب أن يخونني وردني خلفه . فقال له : ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَمْكِكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ ..﴾ ^(٤) إلى آخر القصة .

فلما قضى أجله ، وسار بأهله ، وكان في شقاء ، رُمِعت له نار فيما رأى فكانت من نور الله تعالى ، فقال لأهله : ﴿امْكُنُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا...﴾ ^(٥) الآية ، ومعنى تصطلون ، أي من البرد فكان عند إتيانه لما ما أخبر الله تعالى من أنه ﴿نُودِيَ أَنَّ بورك من في النار ومن حوّلها وسبعان الله رب العالمين﴾ ^(٦) . ثم قال له : ﴿وما نالك بيمينك يا موسى * قال هي عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي﴾ أي أضرب بها ورق الشجر للغنم ﴿ولى فيها مآرب﴾ ^(٧) أخرى ؛ من حل الزاد عليها والسقاء وغير ذلك ، فقال له ﴿أقمها يا موسى * فألقاها فإذا هي حية﴾ ^(٨) تسمى . ﴿فلما رآها تهتز كأنها جان فولى مدبراً أو لم يعقب﴾ ^(٩)

(٢) سورة القصص ٢٥

(٤) سورة القصص ٢٧

(٦) سورة النمل ٨

(٨) سورة طه ٢٠

(١) سورة القصص ٢٥

(٣) سورة القصص ٢٦

(٥) سورة القصص ٢٩

(٧) سورة طه ١٧ ، ١٨ .

(٩) سورة القصص ٣١ .

أى لم ينظر فدوى : ﴿ لا تخف إنك من الأمنين .. ﴾ ^(١) الآيات .
فسأل الله تعالى أن يرسل معه أخاه هارون رداً ، أى عوناً لكونه كان أفصح
منه لساناً للجُمرة التي كانت أحرقت لسانه في صغره ، فقتل لسانه فقال تعالى :
﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ ^(٢) .

فأقبل موسى إلى أهله فصار بهم إلى مصر ، فدخلها ليلاً ، فنزل ضيقاً بأمه
وأخيه ، وهم لا يعرفونه ، وهارون غائب ، فنزل بجانب الدار ، وجاء هارون فسأل
عنه أمه فأخبرته أنه ضيف ، فدعاه وأكل معه ، ثم سأله : من هو ؟ فقال : أنا
موسى ، فقام كل واحد منهما لصاحبه واعتنقه .

فقال له موسى : يا هارون ، إن الله قد أرسلني وإياك إلى فرعون ، فانطلق
معي ، فقال : سمعاً وطاعة ، نصاحت أمهما ، وقالت : نشدتكما الله تعالى ألا تذهبا
إليه فيقتلكما فسكناهما ثم انطلقا إليه ليلا في قول السديّ وضرباً الباب ، فكلهما
البواب ، فقالا له : ﴿ إنا رسول رب العالمين ﴾ ^(٣) ، ففزع البواب ، فأتى فرعون فأخبره
أن مجنونين بالباب يزعمان كذا ، فقال : أدخلهما .

وأما ابن إسحاق فحدث أنهما وقفا على باب فرعون ، يلتمسان الإذن ، يندوان
ويروحان سنتين ، وفرعون لا يعرف بهما حتى دخل مُلَهً له ، فقال له : أيها الملك ،
إن على الباب رجلاً يزعم أن له إلهاً غيرك ، فقال : أدخلوه ، فدخلوا ، ويد موسى
عصاه ، فلما وقفا عرفه فرعون ، فقالا : إنا رسول رب العالمين ، فجأبه بقوله
﴿ أَلَمْ تَرُبُّكَ فِينَا وَلِيداً .. ﴾ ^(٤) الآيات ، ثم ذكره أياديه قبله .

فقال له موسى : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ^(٥) ، أى

(١) سورة القصص ٣١

(٢) سورة الشعراء ١٨

(٣) سورة القصص ٣٥

(٤) سورة الشعراء ١٨ - ٢٢

اتخذتهم عبيدا ، تقتل من شئت وتسترق من شئت . فقال له ﴿ وَمَا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾^(١) فأراه الآية الكبرى في العصا ، أن ألقاها فإذا هي تعبان مابين ، ملأت ما بين السماطين فاتحة فاهها ، قد صار يحجبها على ظهرها ، فرفض الناس ، ومال فرعون عن سريره ، فناشد موسى ربه ، فأدخل يده في جيبه ، فأخرجها بيضاء كالثلج ، ثم ردها ، فمادت هيئتها ، ثم وضع يده على الحية فصارت عصا كما كانت أول مرة ، وأخذ فرعون بطنه - وكان فيما يزعم بمكث الخمس والست ولا يلتبس الخلاء - وكان ذلك مما زين له أنه ليس له شبيه في الناس - فقال للثقة : إن هذا لسحر عظيم ، فجمع السحرة ، ووعدهم ليوم العيد ، وأن يحشر الناس ضحى ، يحضرون أسرم مع موسى ، فاجتمعوا ذلك اليوم ، فصف خمسة عشر ألف ساحر ، كل ساحر له نوع من السحر ، فخرج موسى يتوكأ على عصاه ، حتى أتى الجمع ، وفرعون في مجلسه مشرف على وجوه أهل مملكته فقال لهم موسى : ﴿ وَيَلَكُمْ لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَكمْ عَذَابًا ۖ ۞ ﴾^(٢) الآية .

فقال بعضهم لبعض : أهكذا يقول ساحرا نخبروه في أن يلقي أو يلقوا ؟ فقال : بل ألقوا ، فخيّلوا بحبالهم وعصيم أشياء حيروا بها العقول ، من حيات قدملات الوادي ، يركب بعضها بعضاً ، ونيران تحرق في ظاهرها ما مرت به وظلم متكاثفة ، كما وصف الله تعالى ﴿ وَاسْتَزْهَبُوا وَجَاءُوا بِسَحَرٍ عَظِيمٍ ﴾^(٣) ، ففرغ موسى وأخوه لهول ما رأوا وذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةُ مُوسَى ۖ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ۖ ۞ ﴾^(٤) الآيات . فالتقى موسى عصاه ، فجعلت تلقف كل ما خيلوا به ، وكانوا جلبوا آلاتهم في السفن في النيل ، فابتلعت السفن ، وأقبلت فاتحة فاهها

(١) سورة الشعراء ٢٣ .

(٢) سورة طه ٦١ .

(٣) سورة الأعراف ١١٦ .

(٤) سورة طه ٦٨ .

على قبة فرعون بن فيها ، قفروا وتمتعوا بموسى يستنقذون به . فأخذها موسى ، فإذا هي عصا في يده كما كانت ، فوق السحرة سجداً قائلين : ﴿ آمنا رب هارون وموسى ﴾ ^(١) لما تبينوا أن أمر العصا إلهي ، ليس من تخايلهم ، فقال لهم فرعون : ﴿ آمنتم له قبل أن آذن لكم ... ﴾ ^(٢) الآية إلى قوله تعالى : ﴿ والله خير وأبقى ﴾ ، أي لا سلطان لك إلا في الدنيا ولا سلطان لك بعدها ، ﴿ قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ ^(٣) ، فقتلهم فكانوا أول النهار سحرة وآخره شهداء .

ثم أمر الله تعالى نبيه موسى أن يخرج بني إسرائيل فقال : ﴿ أسر بمبادي كَيْلَا ﴾ ^(٤) .

فأمرهم أن يستعبروا الحلي من القبط ، فخرجوا ليلاً ، وأتى الله على القبط النوم ، حتى طلعت الشمس ، وكان موسى على ساقة بني إسرائيل وهارون على المقدمة ، وعدد بني إسرائيل ستمائة ألف وعشرون ألف مقاتل ، لا يعدون ابن العشرة لصغره ، ولا ابن الستين لكبره . وتبعهم فرعون ، وعلى مقدمته هامان وهم في ألف ألف وسبعمائة ألف ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فأرسل فرعون في المداين حاشيرين ﴾ ^(٥) . فلما تراءى الجمعان ، قالوا : يا موسى أودينا من قبل أن تأتينا بالدبح ومن بعدما جئتنا اليوم يدركنا فرعون فيقتلنا ! فقال : ﴿ كلا إن ممي ربي سيهدين ﴾ ^(٦) .

فأتى موسى البحر ، وكناه أبا خالد ، فضربه بمصاه ، فانفلق فكان ﴿ كل فريق كالطود العظيم ﴾ ^(٧) ، والطود : الجبل ، فصارت للبحر اثنا عشر طريقاً فدخل كل سبط طريقه ، وكل سبط يقول : قتل أصحابنا ففتح الله بينهم فطائر ، فنظر آخرهم إلى

(٢) سورة الأعراف ١٢٦ .

(٤) سورة الشعراء ٣٥

(٦) سورة الشعراء ٦٣

(٢٠ - شرح مقامات الحريري ج ٢)

(١) سورة طه ٧٠ - ٧٣

(٣) سورة الدخان ٤٣

(٥) سورة الشعراء ٦٢

ثم أمر بإحضارهما فأحضرتا ، فرأيت جاريّتين ما رأيت مثلهما قط ،
قلت لإحداهما: ما عندك من العلم؟ قالت: ما أمر الله في كتابه، ثم ما ينظر الناس
فيه من الأخبار والأشعار . فسألتهما عن حروف القرآن، فأجابتني كأنها تقرأ
القرآن من كتاب، ثم سألتها عن الأخبار والأشعار والتفهو والعروض، فاقصرت
في جوابي في كل فنٍ أخذت فيه ، فقلت لها: فأنشدينا شيئاً ، فأنشدت:

يا خيَّاتَ العِبَادِ في كلِّ محلٍّ ما يريد العباد إلا رِضاً كما
لا ومن شرف الإمام وأعلى ما أطاع الإلهَ عبدٌ عصا كما

فقلت: يا أمير المؤمنين، ما رأيت امرأة في مسك^(١) رجل مثلاً .
وخبّرت الأخرى، فوجدتها دونها، فأمر أن تُصنَّع^(٢) تلك الجارية لتعمل
إليه في تلك الليلة ثم قال: يا عبد الله، أنا ضحّير ، وأحب أن تُسمعي حديثاً
مما شهدت من أعاجيب الزمان أنفرّج به ، فقلت: يا أمير المؤمنين، كان لي
صاحب في بدو بني فلان، وكنت أغشاه ، وأحدث إليه ، وقد أتت عليه
ست وتسعون سنة، وهو أصبح النفوس ذهناً وأقوام بدناً ، فنبت عنه ، ثم
أتبعته فوجدته ناحي البدن ، كاسف البال، فسألته: ما سبب تغيّره؟ فقال: قصّدتُ
بعض القراية ، فألفيت عندهم جارية ؛ قد طَلَّتْ بالورس بدنها ، وفي عنقها
طبل تنشد عليه :

محاسنها سهامٌ للمنايا مُرِيْشَةٌ بأنواع الخطوبِ
ترى ريب المتنون بهنَّ سهماً يُصِيبُ بنصْلِهِ مُهِجَ القلوبِ
فقلت :

ففي شَفَتي في موضع العُطْبُلِ ترمى كما قد أبحث الطبل في جيدك الحسنِ

(١) المسك ، بالفتح : الجلد .

(٢) صنفت الجارية ، بالبناء للمجهول : أحسن إليها حتى سمعت .

هَبْنِي عوداً يابسا تحت شِقَّةٍ يَمْتَمُ فيما بين نَحْرِكَ وَالذَّقَنِ

فلما سمعت الشعر، رمت بالطلل في وجهي، ودخلت الخليمه، فوقفت حتى
حَمَيْتَ الشمس على مفرق رأسي، فلم تخرج، فانصرفت بريح اللقاب، فهذا
التَغْيَرُ من عشقي لها.

فضحك الرشيد حتى استلقي، ثم قال: ويلك يا عبد الملك! ابنُ ست وتسمين
يعشقي! فقلت له: قد كان هذا، قال: يا عباس، أعطِ عبد الملك مائة ألف درهم،
وَرَدَّه إلى مدينة السلام.

فانصرفت، ثم أتاني الخادم، فقال: أنا رسولُ بنفك - يعني الجارية - تقول لك:
إن أمير المؤمنين أمر لها بمال وهذا نصيبك، فدفع لي ألف دينار، فلم تزل
تواصلني بالبرِّ الواصل، حتى كانت فتنة محمد، وانقطع خبرها عني، وأمر لي
الفضل بمشرة آلاف درهم.

وحدث علي بن الجهم، قال: لما أفضت^(١) للخلافة إلى التوكل، أهدى
إليه الناس على أقدارهم، فأهدى إليه ابن طاهر جاريةً أديبة، تسمى محبوبه،
تقول الشعر، وتلاجته، وتحمينُ من كلِّ علم أحسنه، فعلت من قلب التوكل
محلاً جليلاً، فدخلت يوماً للمنادمة، فخرج وهو يضحك. فقال: يا علي، دخلت
فرايت محبوبه قد كتبت على خدِّها بالمسك « جعفر »، فما رأيت أحسن منه،
قل فيه شيئاً، فسبقتني محبوبه، فقالت وأخذت عودها، وغنت:

وَكاتِبُهُ بِالْمَسْكِ فِي الْخَدِّ جَعْفراً
بِنَفْسِي خَطَّ الْمَسْكِ مِنْ حَيْثُ أُنْثَرَا

(١) الخبر في الأغاني ١٩ : ١٣٣ ، ١٣٤ (سأسي) والمحسن والأضداد ٢٥١ ،

لئن أوتيت سلطاناً من الملوك خدياً لقد أودعت قلبى لمن ألوحد بنظراً
 فيأمن منبهاها في السيرة جعفر سقى الله من سقى ثيابك جعفر
 وبأمن لملوك يظلم بملوك معطيكم لهم فيما أسروا وأجروا
 وبأمن لعن من رأى مثل جعفر سقى الله صوب السكرات لجعفر

قال : فتقلبت خواطري ، حتى كأنني ما أحسن حرقاً من الشعر ، قلت
 للعلم كل : أوفاني ، بقدر والله عزت ذهي عنى ، فلم يزل يفتني به ما تعلقه ان شئ
 ثم دخلت عليه بعد ذلك للمنادمة ، فقال : يا على ! أعلمت انى غاصبت
 محبوبتي ، وأمرتها بلزوم مقصورتها ، ومكنت أهل القصر من كلامها ؟ قلت :
 يا سيدي ، إن غاصبتك اليوم ، فصالحها غداً ، فدخلت عليه من الخمر ، فقال :
 ويحك يا على ! رأيت البارحة في النوم كأنني صليت محبوبتي ، فقالت جاريته :
 شاطر ، يا سيدي ، لقد سمعت الآن في مقصورتها هينبة ، فقال : أقيم حتى تنظر
 ما هي ، فقام حافياً ، حتى قرباً من مقصورتها ، فإذا هي تقنى ، وتقول :
 أدور في القصر لا أرى أحداً أشكر الله ولا يكفني (١)
 كأنني قبيد أنيت ، ومصيبة ! ليست لها تسوية ، فخلعت رايقة
 فحينئذ شفيقت لئلا أملك ، فقد فادني في البكرية ، وغداً تعني فاح
 بحق إذا لم ألقها فاح عابله شاكراً إلى وليت منكرمة فصار عني (٢) ،
 فصنق التوكل طرباً ، فلما سمعته خرجت تقبل رجله ، وتبرغ خديها
 في التراب حتى أخذت بيدها واضيقضتها . أخرجها من الخمر إلى شاكراً

(١) الحاسن والأضداد من يرى أحد
 (٢) الحاسن والأضداد : « ففارقني »

بغيرك ، فذهاب لنحملها إلى بغداد ، فإذا غدت هناك ، فاصرفها ، قلت :
سماً وطاعة ، فأصحبها جارية سوداء تخدمها وتعاد لها ، وأمر لي بناق وبعمل
عليه هودج ، فأدخلت فيه ، وسرنا مع القافلة إلى مكة ، فقضينا حجنا .
ثم لما وردنا القادسية ، أنتنى السوداء ، فقالت لي : تقول لك سيدتى : أين نحن ؟
فقلت : نحن نزول بالقادسية ، فأخبرتها ، فسمعت صوتها قد ارتفع بالنساء :

لَمَّا نَزَلْنَا الْقَادِسِيَّةَ حَيْثُ جَمَعَ الرَّفَاقُ ^(١)
وَشِمْتُ مِنْ أَرْضِ الْحِجَا زَنْسِيمَ أَنْفَاسِ الْعِرَاقِ
أَبْقَيْتُ لِي وَلَمْ يَنْ أَحْسَبْ بِجَمْعِ شَمْلٍ وَاتِّفَاقِ
وَضَحَكْتُ مِنْ فَرَجِ اللَّقَا . كَا بِكَيْتُ مِنَ الْفِرَاقِ

فصاح الناس من أقطار القافلة : أعيدى أعيدى ، بالله ! فاصبح لها كلمة .
فلما نزلنا الياسرية ^(١) على خمسة أميال من بغداد في بساتين متصلة ببيت
الناس بها ، ثم يبكررون ببغداد . فلما قرب الصباح إذا بالسوداء قد أنتنى
مذعورة ، فقالت : إن سيدتى ليست محاضرة ، ووالله لا أدرى أين هي ؟
فطلبتها فلم أجدها ، ولا وجدت لما ببغداد خبراً ، فقضيت حوائجي ببغداد ،
وانصرفت إلى تميم ، فأخبرته خبرها ، فلم يزل واجهاً عليها .
وأخبار اللقيان كثيرة فلنقتصر على هذا القدر .

* * *

[نبذ من أقوال الحكماء في الوشاة وبعض حكاياتهم]

ومما جاء في الواشي ، ما حكي أن رجلاً وثى رجل إلى بلال بن

(١) الياسرية : قرية كبيرة على ضفة نهر عيسى ، بينها وبين بغداد ميلان ، وفيها ب ،
« الناصرة » ، وهو خطأ .

أبى بردة، فقال للسامى : انصرف ، حتى أ كشف حمّاذ كرت ، فمّا كشف عن السامى ، إذا هو لغير رِشدة ، قال : نبأنا أبو عمرو - وما كذّبت ولا كُذّبت - حدّثنى أبى عن جدّى ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « السامى لغير رِشدة » .

وذُكر للسعاة عند المأمون ، فقال : لو لم يكن من غيرهم إلا أنهم أصدق ما يكونون أبيض ما يكونون عند الله .

وقال ذو الرياستين : قبول النسيمة شرّ من النسيمة ، لأن النسيمة دلافة ، والقبول إجازة ، وليس من دَلّ على شيء كمن قبله وأجازه ، وقد جعل الله السامع شريك القائل ، فقال : « سماعون للكذب » .
وقال للشاعر :

لعمرك ما سبّ الأميرَ عدوّه ولكنّ ما سبّ الأميرَ المبلّغُ
ووشى واشٍ بعبد الله بن همام السلولى إلى زياد ، فقال له : إنه هجّاك ، فقال : أجمع بينكما ، قال : نعم ؛ فبعث إلى ابن همام ، وأدخل الرجل بيتاً ، فقال زياد : يا بنَ همام ، بلغنى أنك هجوّتنى ، فقال : كلا ، أصلحك الله ما فعلت ، ولأنت لذلك بأهل ، فأخرج الرجل ، وقال : إن هذا أخبرنى ، فأطرق ابن همام هنيئة ، ثم أقبل على الرجل فقال :

وأنت امرؤٌ إما ائتمنتك خالياً فنخنت ، وإما قلت قولاً بلا علم
فأنت من الأمر الذى كان بيننا بمنزلة بين الخبيث — افة والإثم
فأعجب زياد بجوابه ، وأقصى الواشى ولم يقبل منه .

قال الشاعر :

لا تقبلن نسيمةً من قائل ونحفظن من الذى أنبا كتما

من الناس الذي أنسى الله نعمته أن سيدرب عطفك نعمته فقلت له كمال
 علي بن أبي طالب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن موسى قال :
 يا رب إني حيث ذهبت لا أنصر ولا أحذل ، فأوحى الله إليه : إن من أشكره
 غمًا زاء ، قال : يا رب دلتني عليه ، قال : يا موسى ، أبفض النياز ، فكيف أعير
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أبفض النياز ، فكيف أعير »
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أبفض النياز ، فكيف أعير »
 للفرقون بين الأحمية ، والمفسون بين البراءة العيب .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أبفض النياز ، فكيف أعير »
 من الأذى ، وذكر رجلاً يأكل لحوم النجاس ، ويأكل من النجاسة ، قال رسول الله
 * * *

فما هدبت الله تعالى فكذا ذلك العهد ، ما ألباطل من غشائك من بعد ،
 والناس جميع مضطربون ، بهذين الطوائع التي لم يمت ، ولا يبع ، يفضل في المثل في
 للقيمة لا فقلنا بقرى عليه مدليل على ، والله لكم الشجب لم تفتل إليه يسبح
 فلا تمذوني في بعد ما قد شربته ، على أن جرمتم في إقتطاف القطار في
 فقد بان عذري في صنيعي وإني سارتق فتني من تديلي في وطال في
 على أن ما زودتكم من فكاكه ، الله من الخلو في الذي أكل طارف

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أبفض النياز ، فكيف أعير »
 * * *
 الله من الخلو في الذي أكل طارف

الله من الخلو في الذي أكل طارف

وله أيضاً :

فنانى عنك ما استشعرت سرّاً خلالُ فيك لستُ لها براض^(١)
وإنك كلما استودعت سرّاً أنتم من التّسيم كلّ الرّاض
قوله : «وبه جرى»^(٢) المثل في النّيمة ، يقال : أنتم من الرّجاجة على ما فيها ،
لأنه جوهر لا يكمّم ما فيه .

[نفث من أقوال البلغاء في وصف الذهب والزجاج]

قال الأصمّهاني : «ما زال البلغاء يتماطون وصف هذا الجوهر»^(٣) ، فعبّروا
عن مدحه وذمّه ، فأما ذمه فإن إبراهيم بن سيار النظام أخرجه في كلمتين بأوجز
لفظ ، وأنتم معنى ، فقال : سريعُ الكسر ، بطيءُ الجبر .

وقال في الذهب : الذهب لثيم ، لأن الشكل يصير إلى شكاه ، وهو معد
اللاثم أكثر منه عند الكرام .

وأما سهل بن هارون ، فكان يوماً يجلس أحد الملوك ، وشداد الحربى
يمدّد خصال الذهب ، فقال : هو أبقى الجواهر على الدّفن ، وأصبرها على الماء ،
وأقلّم اقصاص النار ، وهو أوزن من كلّ ذى وزن ، إذا كان في مقدار شخصه ،
ولو وضعت على ظهر الزئبق في إنائه قيراطاً من ذهب ، لرُسب حتى يضرب
قعر الإناء ، وسائر الجواهر تطفو فوقه ؛ ولو كان الجوهر ذا وزن ثقل ، ورجح
عظيم ولا تشدّ الأسنان المتقلّبة بفهره ، ولا يُوضع في مكان الأنوف المصطلّة
سواه ، وميّله أجود الأميال ، والهند تُميّزه في العين بلا كحل لصلاح طبعه ،
وعليه مدار التّبايع مذ كان التّبايع ، وهو بمن لكل شيء ، وهو الزرّاب^(٤)
والجصّائح التي تكون في سقف الملوك ، والطبخ في مُقدوره أغذى وأمرأ .

(٢) ١ : د وبه يضرب المثل ،

(٤) الرّباب : الذهب الخالص .

(١) ديوانه ١٥٧ .

(٣) أي الزجاج

وسئل على بن أبي طالب رضي الله عنه عن الكبريت الأحمر، قال : هو الذهب ؛ فأدرك سهل بن هرون من الغيرة والحسد مادعاه إلى معارضته ، فقال يذمّ للذهب ، ويفضل الزجاج : الذهب مخلوق والزجاج مصنوع ، وإن فضله الذهب بالصلابة فضله الزجاج بالصفاء ، والزجاج أبقي على الدفن ، والزجاج نور علوي ، والذهب متاع سيّال ، ولم تتخذ الناس آنية للشراب ^(١) أجمع لما يريدون من الشراب منه ، والشراب فيها أحسن منه في كلّ معدن ، ولا يفقد معه وجه السديم ، ولا ينقل اليد ، ولا يرتفع في السوم .

وكان سليمان إذا شرب في إناء كلعت في وجهه مرّدة الجنّ ، فعلمه الله تعالى صنعة القوارير ، فخم عن نفسه تلك الجراءة . ومن كرع فيه فكأنما كرع في إناء من ماء وهواء ونور ، وقد تقدح النار من كسر قنبلة الزجاج إذا كان فيها ماء لأنّ طبع الزجاج والماء ، والهواء والشمس واحد ، وليس فيما يدور الفلك عليه أقبل لسكر صنيغ منه وأجدر ألا يفارقه ؛ حتى كان ذلك الصنيغ جوهرية فيه . ومتى سقط عليه ضياء أنفذه إلى الجانب الآخر ، وأعاره لونه ، فإن كان الجلام ذا لونين ، أراك الوثني أحسن من وثني صنم ، ومن ديباج تستر وإذا وقع شمع المصباح على جوهر الزجاج صار المصباح والقنديل مصباحاً واحداً ، وردّ الضياء كل واحد منهما على صاحبه . واعتبروا ذلك بالشعاع الذي يسقط على المرأة على وجه الماء ، أو على الزجاج ، ثم انظروا كيف يتضاعف نوره ، وإن كان سقوطه على عين إنسان أعماه وربما أمماه ، قال الله تعالى : ﴿ الله نور السّوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري ﴾ ^(٢) ، والزيت في الزجاجة نور على نور . قال الله تعالى : ﴿ إنا صرّح ممرّد من قوّارير ﴾ ^(٣) .

(٢) سورة النور ٢٥ .

(١) ط ، ب : « الشراب » .

(٣) سورة النمل ٤٤ .

والفتات : النام بالكذب والتميمة ، وقت بقت فتاً : مشى بالتميمة ، ونمّ
 يتمّ ثماً : ضيع الأحاديث ولم يحفظها ، وقيل : التميمية من قواهم : جلود تمت إذا
 لم تمسك الماء . والفتات أيضاً : المستمع على من ليس بشمر به ، وهو الفتات ،
 والفتام والعتاس والعتام والعتاز والمهيم ، والمورث والمأس ، وقدمأس يماس .
 دخله : خاصته العالم بداخل أمره . الفتات : المستبدّ برأيه المتسور على
 ما لا ينبغي له .

راش : جعل لها ريشاً .

السماية : المشى بالتميمة . جذم : قطع . الرعاية : حفظ الصدافة . الاستخذاء :
 الخضوع . والاستكانة : الذلّ . ذوو المكاة : إهل الجاه .

• • •

وكنْتُ حَرَجْتُ عَلَى نَفْسِي ، أَلَا يَسْتَرْجِعُهُ أَنْسِي ، أَوْ يَرْجِعَ
 إِلَى أَمْسِي ؛ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ مِنِّي سِوَى الرَّدِّ ، وَالْإِضْرَارِ عَلَى الصَّدِّ ،
 وَهُوَ لَا يَكْتَسِبُ مِنَ النَّجْهِ ، وَلَا يَتَّبِعُ مِنْ وَقَاحَةِ الْوَجْهِ ، بَلْ يُلَاطُ
 بِالْوَسَائِلِ ، وَيُلِجُ فِي الْمَسَائِلِ ؛ فَمَا أَتَقَدَّرُ مِنْ إِبْرَامِهِ ، وَلَا أَبْعَدُ
 عَلَيْهِ نَيْلَ مَرَامِهِ ؛ إِلَّا أَيْاتُ نَفَثَ بِهَا الصَّدْرُ الْمُتَوَتُّورُ ، وَالْخَاطِرُ
 الْمُبْتَوَّرُ ؛ فَإِنَّهَا كَانَتْ مَذْحَرَةً لَشَيْطَانِهِ ، وَمَسْجَنَةً لَهُ فِي أَوْطَانِهِ .
 وَعِنْدَ انْتِشَارِهَا بَتَّ طَلَّاقَ الْخُبُورِ ، وَدَقَّ بِالْوَيْلِ وَالْتِمُورِ ، وَيَسَّ
 مِنْ كَشْرِ وَصْلِي الْمُتَقَبُّورِ ؛ كَمَا يَتَسَّ الْكَفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ .

• • •

حَرَجْتُ : أُنِيتَ وَضُنِيتَ عَلَيْهَا يَمِينُ أَكِيدُهُ . الإصرار : العزيمة . والصدّة :
 الأمراض عنه . يكتسب : يهيم . النجّة : الجفاء وتغليظ الكلام . يتّيب :
 يرجع . يُلَطُّ : يكثر الزوم بها . ويقال : ألط بالشئ ، إذا لزمه .

إبرامه : نَفَثَ . نَفَثَ : نطق وتكلم . الموتور : المظالم . المبتور : المقطوع
 بالهم . مَذْحِرَةٌ : مدفنة ومبعدة ، ودَحَرْتُ الشيء دَحوراً ودَحْراً : أبعدته ودَحَرْتَهُ
 هو : بَعُدَ . بَتَّ : قطع وأمضى ، وجعله بقاً وهو مالا رجعة له فيه .
 الحُبُور : السرور ، وحَبَّرْتَهُ حَبْرَتُهُ : سرَّرتَهُ . الثُّبُور : الهلاك ، وثَبَّرَ اللهُ المدو
 ثبوراً : أهلكه . يئس : قطع رجاءه . نَشَرَ : أحيَا . المقبور : المدفون . الكُفَّار :
 الدافنون للموتى .

• • •

فَنَاشِدْنَاهُ أَنْ يُنْشِدَنَا إِيَّاهَا ، وَيُنْشِقَنَا رِيَّاهَا ، فَقَالَ : أَجَلْ ،
 خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ ، ثُمَّ أَنْشَدَ لَا يَزُوِيهِ خَجَلٌ ، وَلَا يَشْنِيهِ وَجَلٌ :
 وَنَدِيمٍ مَحْضَتُهُ صِدْقٌ وَدَى إِذْ تَوَهَّمَتْهُ صَدِيقًا حَمِيمًا
 ثُمَّ أَوَّلَيْتُهُ قَطِيعَةً قَالَ حِينَ أَفْلَيْتُهُ صَدِيقًا حَمِيمًا
 خَلَّتْهُ قَبْلَ أَنْ يَجْرِبَ إِلْفًا ذَا ذِمَامٍ فَبَانَ جِلْفًا ذَمِيمًا
 وَتَخَيَّرْتَهُ كَلِيمًا فَأَمْسَى مِنْهُ قَلْبِي بِمَا جَنَاهُ كَلِيمًا

• • •

ناشدناه : سألناه وجعلناه . يُنْشِقُنَا رِيَّاهَا : يشمنا رائحتها . أجل ، حرف
 جواب بمعنى نعم .

خلق الإنسان من عجل : قال أبو علي : هو على القلب ، معناه : خلق العَجَلُ من
 الإنسان ، قال الزَّجَّاج : ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ ^(١)
 ومثله : ﴿ وَقَدْ بَلَغَى الْكِبَرَ ﴾ ^(٢) أى بلغت الكبر ، ومثله : ﴿ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ
 الْأَرْضِ ﴾ ^(٣) .

(٢) سورة آل عمران آية ٤٠

(١) سورة الإسراء آية ١١

(٣) سورة الكهف آية ٤٥ .

(٢٢ - شرح مقامات الحريري ج ٢)

خدم الزمان والمجد يثابرون سوف يمنه أما يليق بهذا الوضع ! ثانياً :
 أن قال سفيان الثوري رحمه الله تعالى لصديق له : هل يتركك في حركه
 من لا تعرف ؟ قال : لا ، قال : فأقل بمن تعرف .

(١) الجاحظ : قري علي باب شيخ من أهل الري : حزيني الله من لا يعرفنا
 ولا يعرفه خيراً ، مكانه من شقائه .
 وقال امرؤ القيس بن جندب :
 إذا قلت هذا صاحب قد رضيعته
 كذلك جدى ، ما أصاحب صاحباً
 من الناس إلا خافى وتغيراً
 وقال النابغة :

(٢) وإستعصم من أخا لا تلتزمه
 ولما انحرف ابن الزيات عن إبراهيم بن العباس الضولي ، تحاماه الناس أن
 يلقوه ، وكان الحارث بن سنجر صديقاً له ، فجمرة من ذلك ، فكتب إليه :
 تنبئ لي فيمن تغير حارث
 أحارث إن أشركت فيك فطالما
 وكتب لابن الزيات :

أخي بني وبين الدهر صاحب أبنك غليماً
 صدقي ما استقام فإن
 وثبت على الزمان به
 ولو عاد الزمان لنا
 ولعاد أهلكنا معك
 وكتب إليه أيضاً :

وكنتم أخى يا أخاه الزمان
 فلتأخذا صرت حراماً عواقاً
 (١) ديوانه ٦٩
 (٢) ديوانه ١٨٢
 (٣) ديوانه ١٦٦
 (٤) ديوانه ١٥٥
 (٥) ديوانه ١٦٦

وكنْتُ إِيْلِكَ أَلومَ الزَّمانِ فأصبحتُ فِيكَ أَلومَ الزَّمانِ
وكنْتُ أَعِدَّكَ لِلنَّائِبَاتِ فأصبحتُ أَطْلُبُ مِنْكَ الأمانا

وقال أبو فراس :

أقلبُ طرفي لا أرى غيرَ صاحبِ يميلُ مع النِّعماءِ حيثَ تَميلُ^(١)
ومِرِّئاً نأزى أنَ التَّارِكِ محسنِ وأنَ خَلِيلاً لا يضرُّ خَليلُ
تَصَفَّحتُ أحوالَ الرِّجالِ فلمَ يَكُنْ إلى غيرِ شاكٍ في الزَّمانِ وَحُلولُ
أَكَلْ خَليلَ هَكَذَا غيرَ مُنصفِ وكلَ زمانٍ بالكِرامِ بِمُخيلُ!

وله أيضاً .

إذا اخلَلْ لم يهْجُرْكَ إلَّا مَلالَةٌ فليسَ لَهُ إلَّا الفِراقُ عَقابُ^(٢)
إذا لم أَجدْ في بلدٍ ما أريدُه فصدى لأخرى عِزْمَةٌ ودُكابُ
بِمن يثِقُ الإنسانُ فيما يَنوبُه ومِنْ أينَ للعَرِّ الكَرِيمِ صِحابُ!
وقد صارَ هذا النَّاسُ إلَّا أَقلُّهم ذُناباً على أجسادِهِم نِيابُ

وقال الخباز للبلوي :

ألا إنَّ إخواني القَدِينَ مَهَّدتُهُم أفاعي رمالٍ لا تَقْصُرُ في السَّعَرِ
ظَهَنَتْ بِهِم خَيْراً فَلَمَّا بَلَّوْهُمْ نَزَلَتْ بِوَادٍ مِنْهُمْ غَيْرُ ذِي زَرْعِ

ولابن هارون القرطبي :

ذهبَ الوفاءُ فلا وفاءَ يَرْتَجِي تَلَقَى الصَّدِيقُ مِنَ الوفا عُرْياناً
يُعْطِيكَ ودّاً صادِقاً بِلسانِه وَيُجِنُّ نَحْتَ ضُلُوعِه أَلواناً

(١) ديوانه ٣٤ . (٢) ديوانه ٣٨

وقال المعري :

فظنَّ بسائر الإخوان شرًّا ولا تأمنَ على سِرِّه فؤادا^(١)
 فلو خبَرْتَهُمُ الجوازُ خُبْرِي لما طلعتُ بخافة أن تُكادَا
 تجتنبُ الأنعامُ فلا أواخي وغبتُ عن الأنعامِ فلا أعادي^(٢)
 ولَسَا أنْ تجتَمنِي مُرادِي جريتُ مع الزَّمانِ كما أرادا
 وهَوَّنتُ الخُطوبَ عَلَى حَتَّى كَأَنِّي صِرْتُ أَمْنُجها ودادا
 وله أيضًا :

والخلَّ كَلِّاءٌ يَدِي لِي ضَمائِرُه مع الصفاء ويخفيها مع الكدر
 وكتب المعتمد^(٣) صاحب المزية إلى ابن عمار :

وزهدني في الناسِ معرفتي بهم وطولُ اختياري صاحبًا بعد صاحبٍ
 فلم تُرِنِي الأيامُ خِلاَّ نَسْرَتِي مبادئه إلا ساءني في العواقبِ
 ولا قلتُ أرجوه لدفعِ ملَّةٍ من الدهرِ إلا كان إحدى المصائبِ
 وقال البعري :

أما للعداة فقد أروك نفوسَهُمُ فاقصد بسوء ظنونك الإخوانا
 وقال أيضًا^(٤) :

أما المدوِّ قَيْيِدِي ما عنده ويكشفُ
 لكن تنوَّقْ وحاذر من الصَّدِيقِ الملائفِ
 وقال منصور بن إسماعيل التميمي الفقيه: قال ابن رشيقي :

لو قيل لي خذ أمانًا من حادثات الزمانِ^(٥)

(١) سقط الزند ٥٥٩ (٢) سقط الزند « وزدت على العدوفا أعادي » .

(٣) هو المعتمد بن حادح ، والأبيات في تمام المتون ٥٤ ، ٥٥ .

(٤) ملحق ديوانه ٢٦٠٩ عن الفريسي (٥) نقله في التنف ٨١

لما أخذت أماناً إلا من الإخوان ما أماناً

(١) وهذا الباب لا يجرى كثرته .
 وأتقنتم في أن غلبتكم مملو حليماً
 وقوا لئلا تلهوا في الأبدان تستعجل
 وأوليتكم أن تلهوا في حب الدنيا
 لئلا يبت من أسعده الذي أعجز الرا
 وهذا نهجه غداة افترقنا
 لم يكن رائفاً خصيماً ولكن
 قلت لئلا يلوته : لئلا كا
 يفضي الصبح حين يتم إلى قلا
 ودغاني إلى هوى الليل إذ كا
 وكفى من بشي ولو فاه بالصدا
 مستقيماً والجسم مني مستقيماً
 كان بالشتر رائفاً لي خصيماً
 ن عدداً ولم يكن لي ندماً
 في لأن الصبح يلفي نوماً
 ن سواد الذي رقيقاً أكتوماً
 ق أناماً فيما أتلها ولوما

قوله : «تظننت» أي حسبته ، وأبدل من إحدى نونيها بـ

لعيناً : رجماً : شيطاناً مبعداً مرجوماً بالنجوم ، وقيل : الرجيم : المرجوم أي
 المشتموم المسبوب من قوله سبحانه وتعالى : (لئن لم تنته لأرجنكم) ، أي لأسببكم .
 وقيل : الرجيم : المألون ، وهو من ذهاب أهل التفسير في القبح والرجيم واحد .
 تراءيته : ظننته ، أي تراءى لي في القلبي من حظائر الظهور ومريداً فمحبباً .
 جلي : كشف لي سركه ، فمريداً فمحبباً .
 خبيثاً لئلا : وضع

للقدر خبيثاً الهمة
 (١) سورة مريم ٤٦ .
 (٢) سورة مريم ٤٦ .
 (٣) سورة مريم ٤٦ .
 (٤) سورة مريم ٤٦ .
 (٥) سورة مريم ٤٦ .
 (٦) سورة مريم ٤٦ .

وقال ابن المعتز :

لا تلق إلا بليلى من تواصله
كم عاشق وظلام الليل يستره
فالشمس نمامة والليل قواد^(١)
لاقى الأحبة والواشوت رقاد^(٢)
وقال المتنبي وأجاد :

كم زورة لكفى الأعراب خافية
أذنى وقد ردوا من زورة الذيب^(٣)
أزورم وسواد الليل يشفع لي
وأثنى وبياض الصبح يُغري بي
وهذا البيت أمير شعره على كثرة الجتيد فيه . والبديع فيه أنه قابل الشطر
الأول بالثاني حرفاً بحرف ، فقابل « أزورم » بقوله : « أثنى » ، و« سواد الليل »
ببياض الصبح » ، « ويشفع لي » بـ « يُغري بي » .

وحكى ابن جنى . قال : حدثني المتنبي وقت القراءة قال لي ابن حنابلة
وزير كافوز : أعلت أنى أحضرت كتبى كلها ، وجماعة من أهل الأدب
يطلبون من أين أخذت هذا المعنى ، فلم يظفروا به ، وكان أكثر من
رأيت كتبا .

قال ابن جنى : ثم إنى عثرت على للوضع الذى أخذ منه ، فوجدته لابن المعتز
مصراعاً بلفظ [لئن] صغير [جداً] جرى فيه معنى بيت المتنبي كله على جزالة لفظه
وحسن تقسيمه وهو :

• فالشمس نمامة والليل قواد •

قال : النعماني إما أن يكون ألم به فعسفه وزينه ، فصار أولى به ، أو عثر
على الموضع الذى عثر عليه ابن المعتز فأربى عليه فى جودة أخذه ، وإما أن يكون
قد افترع المعنى وابتدعه ، فله دره وناهيك بشرف لفظه وبراعة نسجه^(٣)
قال : وبعض أهل المصر بيت يجمع خمس مطابقات ولا يستقل إلا بإنشاد
بينين قبله وهو :

(٢) ديوانه ١ : ١٦١

(١) ديوانه ١ : ٧٧

(٣) يتيمة الدهر ١ : ١١٥ .

عذيري من الأيام مدت صروفها
وأبدت برأسي طالعاً أرى بها
فذاك سواد الخط ينهي عن الهوى
وإلى وَجْدٍ مَنْ أهوى يدُ المسخ والحوى
سهم أبي يحيى مسددةً نحوى
وهذا بياض الوخط يأمر بالصحو
وقال ابن رشيقي :

أيتها الليل طِرْ بغير جَمَاحٍ
كيف لا أبغضُ الصُّباحِ وفيه
ليس للعين راحةٌ في الصُّباحِ^(١)
بان عنى أولو الوجوه للصُّباحِ
وقال المتنبي :

وكم لظلام الليل عندك من يدٍ
وقاك أذى الأعداء تسرى إليهم
تخبر أن المانوية تمخذب^(٢)
وزارك فيه ذو الدلال المحجب
المانوية هم للثنوية ، وهم الذين يقولون : إن الخير كله من النور ، والشر
كله من الظلام ، فكذبهم بأن وجد الخير في الظلام حيث ستره من أعدائه ،
ووقاه شرهم ، وكان عوناً على زيارة حبيبهم ، ووجد الضد في النور ، وهذا كله يجري
في نمط بيت الحريري .

* * *

قال : فلما سمع رب البيت قريضةً وسجعةً ، واستملىح تقريظه
وسبحةً ، بواؤه مهّاد كرامته ، وصدره على تكميمته . ثم استخضر
عشرَ صحافٍ من الغرب ، فيها حلواء القندر والضرب ؛ وقال له :
لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، ولا يسع أن يُجعل
البري كذبي الظنة ، وهذه الآنية تنزل منزلة الأبرار ،

(١) تزيين الأسواق ٢٠١ ، ديوان الصباية ١٠٩ ونقله في التنف ٢٢٠

(٢) ١ : ١٧٨ ، ١٧٩

ابن آدم بن مسم بن نوح، وكانوا أهل أوثان ثلاثة يصدونها من دين الله، في كانوا
ثلاث عشيرة قبيلة باليمن، فمد عليهم هود إلى عبادة الله تعالى، في كذبوه وعصوه،
وكانوا جملة أقبوا، حول الرجل منهم مائة ذراع، وطول أقصرهم ستون
ذراعا، قال الله تعالى: ﴿وَرَدَّاهُمْ فِي لُظُفٍ نَارًا﴾ (١). أجد عظاما وطولا وقوة
وشدة، وعظم هود عليه الصلاة والسلام، وقال لهم: ﴿أَتَيْتُكُمْ بِكُلِّ رُبْعِ آيَةٍ
تَعْمَلُونَ﴾ (٢). الآية، فكان جوابهم أن قالوا: ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ (٣)، وقالوا:
﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أُعْطِيَ أَمْ لَمْ تُنْكَلْ مِنْ الْوَاعِظِينَ﴾ (٤)، وقالوا: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ
وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِيكَ أَفَتُنَا عَنْ قَوْلِ كَذِّبٍ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٥). الآية،
واستكبروا ولم يؤمنوا، فحبس عنهم القطار ثلاث سنين حتى جهدوا. الآية
كانوا قد رأوا وقد استسقوا لهم، فبعثوا قيل بن عفر، ونعيم بن مضر،
ومرثد بن سعد، وكنتيته أبو سعد، وجهم بن الحخيرى، ولقمان بن عباد، ومع
كل رجل منهم رهط من قومه، فلما قربوا من مكة نزلوا على معاوية بن بكر
القيلى، وكانوا أخوالا لله وعظماء، فأبوا لهم وأكرمهم المهرزكة يشربون الخمر
ومضغيتهم فينتال له يقال لها: الجرادان. فلما رأى معاوية طول مقامهم عنده، وقد
بشهم قومهم للبلاد الذي نزل بهم شق عليه ذلك، وقال: ملك أصحابى وأحوالى،
والله ما أدرى ما أصنع بهم، وإنى أشتكى أن أمر بالخروج من عندي فيظنون
أنه هناك بنى مقامهم عندي، فقال شغرا أو أعطاه للجرادين هتافا به، وهو
ألا يا قيل ويحك قم فمهم لعل الله يصبحنا ضامما
فيسرى أرضى معاوية أن يهاجرا فمستقدا مسودا لا يؤيدون ملكا لهما
لا وإن الله الوخس ثمانيتهم جهارا ومنه فلا تخشى الله عليهم
نه ههنا عهده بالذراع. (٦) قوله يا خنأ لجهادهم: قاله اللهالة

(١) سورة الأعراف آية ٦٩ .

(٢) سورة الشعراء ٢٨ .

(٣) قوله: ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ (١) .

(٤) قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أُعْطِيَ أَمْ لَمْ تُنْكَلْ مِنْ الْوَاعِظِينَ﴾ (٢) .

(٥) سورة فصات ٦٥ .

(٦) سورة الأعراف ٦٩ .

(٦) الطبرى « لقيم » .

وَأَنْتُمْ هَاهُنَا فِيهِمْ أَشْتَهَيْتُمْ نَهَارَكُمْ وَلَيْلَكُمْ لِتَمَامًا
فَقَبِّحْ وَفَدِّحْ مِنْ وَفْدِ قَوْمٍ وَلَا تُقُوا التَّحِيَّةَ وَالسَّلَامَ
فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إِنَّمَا بَعَثَكُمْ قَوْمَكُمْ لِمَا نَزَلَ بِهِمْ، فَادْخُلُوا الْحَرَمَ.
فَاسْتَسْقُوا، فَقَالَ مَرْثَدُ بْنُ سَعْدٍ: وَاللَّهِ لَا تَسْقُونَ حَتَّى تَطِيعُوا نَبِيَّكُمْ، فَقَالَ لَهُ جَهْلَةٌ:

أَبَا سَعْدٍ وَإِنَّكَ مِنْ قَبِيلِ ذِي كَرَمٍ وَإِنَّكَ مِنْ ثَمُودٍ
أَتَأْمُرُنَا لِنَتْرِكَ دِينَ رِفْدٍ^(١) وَزَمَلِ آلِ صَدِّ وَالْوَفُودِ^(٢)
وَنَتْرِكَ دِينَ آبَاءِ كَرَامٍ ذِي رَأْيٍ وَنَتَّبِعَ دِينَ هُودٍ
فَإِنَّا لَا نَطِيعُكَ مَا بَقِينَا وَلَسْنَا فَاعِلِينَ لِمَا تَرِيدُ

ثُمَّ قَالَ لِمَاوِيَةَ: امْسِكْ مَرْثَدًا عَنَّا، لَا يَدْخُلَنَّ مَكَّةَ مَعْنَا وَهُوَ عَلَى دِينِ هُودٍ.
فَدْخُلُوا مَكَّةَ، وَخَرَجَ مَرْثَدٌ، فَادْرَكَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَدْعُوا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا تَدْخُلْنِي
فِي شَيْءٍ تَمَّا يَدْعُوكَ بِهِ وَفَدُّ عَادَ.

وَقِيلَ: قَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هُودٌ صَادِقًا فَاسْقِنَا، فَقَدْ هَلَكْنَا، فَأَنْشَأَ اللَّهُ
سَحَابًا ثَلَاثًا: بِيضَاءً، وَحُمْرًا، وَسُودَاءً، وَنَوْدَى مِنَ السَّحَابِ: يَا قِيلَ،
اخْتَرِ لِنَفْسِكَ وَقَوْمِكَ، قَالَ: لَقَدْ اخْتَرْتُ السَّحَابَةَ السُّودَاءَ، لِأَنَّهَا أَكْثَرُ السَّحَابِ
مَاءً. فَنَوْدَى: اخْتَرْتُ رَمَادًا رَمْدًا^(١)، لَا يُبْقِي مِنْ عَادٍ أَحَدًا، فَسَاقَ اللَّهُ سَبْعَانَهُ
وَتَعَالَى السَّحَابَةُ السُّودَاءُ إِلَى عَادَ، فَاسْتَبْشَرُوا، وَقَالُوا: هَذَا عَارِضٌ مُمِطِرُنَا، فَسَفَرَتْ
عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ رِيحٌ صَرَصَرٌ، فَلَمْ تَدَّغْ مِنْهُمْ أَحَدًا إِلَّا هَلَكَ.

وَلَمَّا خَرَجَتِ الرِّيحُ عَلَيْهِمْ، قَالَ سَبْعَةٌ مِنْهُمْ: تَعَالَوْا نَقِفْ عَلَى شَفِيرِ الْوَادِي
فَتَرُدُّهَا، فَجَمَعَتِ الرِّيحُ تَأْخُذُ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ فَتَرْمِيهِ حَتَّى يَدْقَ عُنُقَهُ، فَتَرَكْتُهُمْ كَمَا
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٌ﴾^(٢). وَاعْتَزَلَ هُودٌ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ

(١) الطبري: «وَالْعَبُودُ»

(٢) ط: «وَمَدَّدًا» وَصَوَابُهُ مِنْ تَارِيخِ الطَّبْرِيِّ (٣) سُورَةُ الْحَاقَّةِ آيَةُ ٧

المؤمنين في حظيرة ، ما يصيبهم منها إلا نسيم يُلينُ البشرة ، وتلذذ الأنفس ، وإنها لتمرّ من عاد بالظعن بين السماء والأرض .

ورجع وفد عاد ، فنزلوا على معاوية ، فأتاهم راكب على ناقه في الليلة الثالثة من مصابهم ، فأخبرهم الخبر ، فقالوا : وأين فارقت هود ؟ قال : بساحل البحر ، وخبروا حين دعوا بمكة لأنفسهم ، قال لقمان : يا رب أعطني عمراً ، فعمره الله عمر سبعة أنسر ، يأخذ الفرخ إذا خرج من بيضته فيفذه حتى يموت ، ثم يأخذ آخر حتى يبقى السابع ، فقال له ابن أخيه : مابق من عمرك ؟ قال : عمر هذا النسر ، وهو لبدو لبدو بلسانهم - الدهر . فلما لم يستطع لبد النهوض مع الذنور ، أيقن لقمان بالموت ، فمات جميعاً .

واختار قبل أن يصيبه ما أصاب قومه ، فاقتلته الريح فقتلته .

وقال مرند : يا رب أعطني براً وصدقا وعمر هود ، فعمّر مائة وخمسين سنة^(١)

* * *

ثم أمر خادمته بنقلها إلى مثواه ، ليحكّم فيها بما يهواه . فأقبل علينا أبو زيد ، وقال : اقرءوا سورة الفتح ، وأبشروا باندمال القرّح ؛ فقد جبرّ الله مُكَلِّكُم ، وسنّى أكلَكُم ، وجمّع في ظلّ الحلواء شملَكُم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم .

ولما هم بالانصراف ، مال إلى استهزاء الصحاف ، فقال للآدب : إن من دلائل الظرف ، سماحة المهدي بالظرف ، فقال :

(١) الخبر في تاريخ الطبري ١ : ٢١٩ - ٢٢٢ - أبسط وأطول :

و﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾^(١)، أى لا معصوم ، و﴿مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾^(٢) أى مدفوق، و﴿حَرَمًا آمِنًا﴾^(٣) أى مأمونًا، كما جاء مفعول بمعنى فاعل فى قوله تعالى: ﴿حِجَابًا مُسْتَوْرًا﴾^(٤) أى سائرًا ، ﴿وَكَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾^(٥)، أى آتيا .

فى حافرته : فى الطريق الذى جاء منه . لاويًا : عاطفًا . زافرته : قرابته .
وخذت : أسرع . عنسه : ناقته الصلبة ، ومنه عنست المرأة ، إذا طال مكثها
لا تتزوج . زابلنا : فارقنا . دست : مجلس . صدره : أعيانه . أفل : غاب .

(١) سورة هود ٤٣

(٣) سورة القصص ٥٧

(٥) سورة مريم ٥١

(٢) سورة الطارق ٦

(٤) سورة الإسراء ٤٥

المقامة التاسعة عشرة وهي النصيبية

روى الحارث بن همام ، قال : أنحلَّ العَراقُ ذاتَ القَويمِ ،
لإخلافِ أنواءِ النَيمِ ، وتحدثَ الرِّكبانُ بريفِ نصيبين ، وبُلْهنيةِ
أهلِها الخصبين .

* * *
أحل : أجذب ، أى لم ينزل فيه مطر . لإخلاف الأنواء ، يريد النجوم التى من
عادتها أن تطلع بالمطر ، وأخلفت : لم تجىء بمطر . الركبان : أهل الأسفار . ريف : خصب .
* * *

[ذكر مدينة نصيبين]

نصيبين مدينة ديار ربيعة العظمى ، وهى مطلة على جبل الجودي الذى
استوت سفينة سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام عليه ، وهو جبل عال مستطيل .
أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « زُوبَت لى
الأرض ، فرأيت مدينة أعجبتنى ، فقلت : يا جبريل ، أى مدينة هذه ؟ قال :
نصيبين ، فقلت : اللهم عجل فتحها » .

قال اليعقوبى : هى مدينة عظيمة كثير الأنهار والجفات والبساتين ، ولها نهر
عظيم يقال له الهرماس ، عليه قناطر حجارة قديمة رومية ، وأهلها قوم من ربيعة
من بنى تغلب ، أفتتبعها غم بن عياض فى خلافة عمر رضى الله عنهما سنة
ثمان عشرة .

قال شيخنا ابن جبير^(١) : مدينة نصيبين شهيرة المتأقّة وللقدم ، ظاهرها شباب ،
وباطنها هَرم ، جميلة المنظر ، متوسطة بين الكبير والصّغر ، أمامها وخلفها بسيط
أخضر مدّ البصر ، قد أجرى الله فيه مذابب من الماء تسقيه ، وتطرّد فى نواحيه ،

(١) رحلة ابن جبير ٢١٧ .

وتحفّ بها من يمين وشمال بساتين ملفّقة الأشجار ، وإنّما الثمار . وينساب بين يديها نهر قد انمطف عليها انمطاف السّوار ، والحدائق تنظم حافتيه ، وتقيّ ظلّالها الوارفة عليه ، فرحم الله أبانواس حيث يقول :

طابت نصيبين لي يوماً فطبتُ لها كَيْتَ حظي من الدنيا نصيبين^(١)

نفارجهارياض الشّمال ، أندلسي الخائل ، برق نضارة وغضارة ، ويأتلق عليه رونق الحضارة . وداخلها شعث البادية بادية عليه ، فلا مطمح للبصر إليه ، لا تجمد العين فيه فسحة مجال ، ولا مسحة جمال . وهذا النهر ينساب^(٢) إليها من عين معينة ، مدبّعها بجبل قريب منها ، تنقسم منها مذائب تخرق بساطها وعماؤها ، ويتخلّل البلد منها جزء يفترق على شوارعها ، وبلغ في بعض ذيارها ، ويخرق جامعها^(٣) منه ميزاب ينصب في صهريجين ، أحدهما وسط الصحن ، والآخر عند الباب للشرق ، ويفضي إلى سقايتين حول الجامع . وعلى النهر جسر معقود من صمّ الحجارة ، متّصل بباب المدينة القبلي ، وفيها مدرستان ومارستان واحد .

* * *

قوله : وبلهنية أهلها الحصين ، البلهنية : رخاء العيش .

[ذكر أشعار مستحسنة في أوصاف الرياض]

وزيد أن فصل ما ذكره من خصب نصيبين بأشعار مستحسنة في أوصاف الرياض تقع كالصفة لها ، قال إبراهيم بن العباس الكاتب :

تأملن سماء أظلت علىّك فيها مصابيحها تزهر^(٤)
وأرضا تقابلها بالأمرو س والرج بينهما جعفر^(٥)
ومسحب نور غداة الربيع أنفاسه المسك والعنبر

(١) ابن جبير : « يتسرب » .

(٢) ابن جبير : « ويصل إلى جامعها المكرم منه سرب يخرق صحنه » .

(٣) ديوانه ١٣٣ (٤) الديوان : « شمسهما جعفر »

خلال شقائقه أصفر
والماء مطردٌ بينها
ولمناطق باكنافه
يشارفه البر من جانب^(١)
مجال وحوش ومرسى سفين
وياحسن دنيا وياعزملك
إمام به أمر الآمرو
وأضعافُ أصفره أحر
يضيق بأذيه المصدر
دواعي اشتياق ومستعبر
ومن جانب بحره الأخضر
فياعذب لهو ويامنظر^(٢)
يسوسهم الملك الأكبر
ن بالعرف واستنكير المنكر

وأنشد السيرافي :

ومجلس فتيان إلى جنب حافة
تناصي^(٣) مياديفاله أهدقت به
وحف بريمان وكرم ممرش
وورد وتسرين وآس وسوسن
تزخرف بالتوار حتى كأنما
وقال كشاجم :

وروضة صنف التوار جوهره
كان مايجتنيه من زخارفها
ما انفك للعين فيها أعين ذرف
حسني كان أمانين النبات بها
فيها فاشئت من حسن ومن طيب
أخلاق مستحسن الأخلاق محبوب
تبكي بدمع من الأنواء منكوب
على لليادين ألوان اليعاسيب

(١) الديوان : « يساوقه » .

(٢) رواية الديوان :

مجال وحوش ومرقى أنيس فيأعزف كهو ويامنظر
(٣) ط « تقاضى » تحريف

كان غُدْرَانُهَا بِالرَّوْضِ مُحَدَّقَةً تخبير ثوبٍ من اللّوْثِ منصوبٍ
ولتقيم بن المعتز^(١) :

وقاذفة بالماء في وسطِ بركةٍ قد التفتت لحفا من الظّلِّ سَجَسَجًا^(٢)
إذا أقْدَفَتْ بالماء سَلْفَهُ مُنْصَلًا^(٣) وعاد عليها ذلك النّصل هو دَجَا
تحاول إدراك النّجوم بقذفها كأنّ لها قلبًا على البجور محرّجًا
لدى روضةٍ جاد السّحاب ربوعها فزخرها بين الرّياض ودَبَجًا
على نرجس غَضَنٍ يلاحظ سوسنًا وآسٍ ربيعيّ يفاغي بنفسجًا
كان غُصُونُ الْأَصْحْوَانِ زمرّد تعمّم بالكافور ثم تتوجّجًا
ونوار تُشْرِينُ كأنّ نسيمه من السك في جوّ السماء تارّجًا

قال أبو البختري^(٤) : تعرضت لأبي فحمة^(٥) - وكان مجنونًا ببغداد - له
بديهة حسنة ، قلت له : كيف أنت يا أبا فحمة ؟ فأنشأ يقول :

أصبحتُ منك على شفا جُرْفٍ متعرّضًا لموارد التّلفِ
وأراك نحوى غير ملتفتٍ متحرّفا عن غير منعرَفِ
يامنّ أطال بهجره كَلَنِي أسنى عليك أشدّ من كَلَنِي
فأخرجت قبضة نرجس من كمي ، فأخذها وشتمها مليا ، وأنشأ يقول :
لما تزوّجت الجنوب بهاطلٍ حوّن هتون زبرج دلاح
أضحى يلقحها بوسمي الصّبَا فاستثقلت حملا بنير نكاح-
حقّ إذا حان الخاض تفجّرت فأت بوُلْدَانٍ بلا أرواح
حاك الربيع لها ثيابا وشيّت بيد التّندى وأنامل الأزواح

(١) ديوانه ٨٨

(٢) الديوان « وحفا » ، والسجسج : الذي ليس فيه حرم ذو لافر .

(٣) الديوان : « رده منصلا » ، والمنصل : السيف

(٤) الخبر في العقد ٦ ، ١٧٠ ، وفي الأصول : « البختري » وصوابه ما في العقد .

(٥) كذا في العقد ، وفي الأصول « فحمة » بالقاف

من أصغر في أزهرٍ قد زانهُ تَبَرَّ على وَرَقٍ من الأوضاح
رُكْبَنٍ في عقد الزبرجد فاغتندي نحو للفراة ناظراً بملاح

* * *

[فصل في ذكر ما يستحسن من أشعار الجانين]

ويتصل بهذه الحكاية فصلٌ في ذكر ما يستحسن من أشعار الجانين ،
فإن أبا محمد قد ذكر في هذه المقامة المصابين ، وذكر الجانين في غيرها ، لثلاث محلّ
بما شرطنا . قال بعض الأدباء ^(١) : كان رجلٌ من أهل الأدب ، قد ذهب عقله
بالحبة ، [وخلفه دابة تدور معه ، فاستوقفته] ^(٢) وقلت له : يا أبا فلان ، ما حالك ،
وأيन النعمة ؟ قال : تغبر قلبي بالحب ، فتغيرت النعمة ، ثم بكى وأنشأ يقول :

أَرَى التَّجَمُّلَ شَيْئاً لَسْتُ أَحْسِنُهُ وكيف أخفى الهوى والدمع يعلفه
أَمْ كَيْفَ صَبَرَ حُبِّ قَلْبِهِ دَنِفٌ الشوق يُنْعَلُهُ والهجرُ يحزنه
وَلَمَّا هِئَنَ لَا وَصَلَ بِسَاعَتِهِ يهوى للسلوة ، ولكن ليس يمكفه
وَكَيْفَ يَنْسَى الْهَوَى مَنْ أَنْتَ تَفْتَنُهُ وفترة اللحظ من عينيك تفتنه

قلت : أحسنت والله ، فقال : قف قليلا ، فوالله لأطرحن في أذنيك أدبا
أثقل من الرصاص ، وأخف على الفؤاد من ريش النعام ^(٣) ، فوقفت ، فأنشد :

لحَبِّ نَارٍ عَلَى قَلْبِي مَضْرَمَةٌ لم تبلغ للنار منها عَشْرَ مِثَالِ
لِأَنَّ يَنْبِيعَ مِنْهَا فِي مَحَاجِرِنَا بِالرَّجَالِ لِمَاءِ فَاضٍ مِنْ نَارِ
وَأَنْشُدُ أَيْضاً :

أَعَادَ لِلصُّدُودِ فَأَحْيَا لِلغُلِيلَا وَأَبْدَى الْجَفَاءَ فَصَبْرًا جَمِيلَا

(١) المقد ٦ : ١٧١ ، ونسب الخبر إلى أبي بكر الوراق

(٢) من المقد

(٣) المقد « الحواصل » .

وأحسب نفسي على ما تَرَى ستلقى من المهجر غماً طويلاً
وأحسب قلبي على ما بدا سيذهب مني قليلاً قليلاً
قال الحسن بن هاني: رأيت مانياً الموسوس فأنشدني:

شعر حتى أتاك من لفظ ميتٍ صار بين الحياة والموت وقفاً^(١)
قد برت جسمه الحوادث حتى كاد عن أعين البرية يخفى
لوتأملتني لتبصر شخصي لم تبين من الحاسن حرفاً

ثم أتيت جعفر بن الموسوس، وهو شيخ كبير من بني هاشم، عليه
قطيفة، وفي عنقه غل من ذهب، فقال: من أين جئت يا حسن؟ فقلت: من
بيت مانويه: فقال: في حر أم مانويه! وقال لي اكتب:

ما غرد الديك ليلاً في تنبيهه إلا حننتُ إليك الدبرَ نجموداً^(٢)
ولا هدت كل عين لذرائدها بنومة في لذيذ العيش مهوداً
إلا امتطيت الدجى شوقاً إليك ولو أصبحت في حلق الأقياد مصفوداً
أسمى مخاطرة بالنفس يا أملئ واللبل مدّرع أثوابه الشوداً
فلم ترق ولم ترث لدى دنف زودته حرقات القلب تزويداً
هيهات لا غدر في جن ولا بشر من الخلائق إلا فيك موجوداً

ثم قال لي: خرق رقعة مانوية، فخرقها، ثم مضيت فلقيت عردا المصاب،
وحوله الصبيان، وهو يلطم وجهه، ويقول: يا أيها الناس، الفراق مرّ
المذاق، فقلت: أبا محمد، من أين أقبلت؟ فقال شيعت الحاج إذ كان لي فيهم
سكن^(٣)، وقلت في ذلك:

(١) المقد ٦ : ١٧٠

(٢) المقد ٦ : ١٧١

(٣) سكن، أي أهل دار.

مُ ارحلوا يومَ الخميسِ غُدِيَّةً وودعتهم لَمَّا استقلُّوا وَودَّعُوا
فلما تولَّوا وآتَ النَّفْسَ مَمِّمُ فقلت: ارجعي قالت: إلى أين أرجع؟
إلى جسدٍ ما فيه لحمٌ ولادَمٌ وما هو إِلَّا أعظمُ تقمِّقُ
وعينان قد أعاهما الحزن والبُكَاءُ وأذن عَصَتُ عُدَّالها ليس تسمَعُ

وجعيفران من مجانين الكوفة ، أعطاه رجل درهما ، وقال له : قل شعرا
على قافية الجيم ، فقال بديها :

عَادَنِي لِلَّهِمُّ فَاعْتَلِجْ كُلُّ هَمٍّ إِلَى فَرْجٍ ^(١)
سَلَّ عَنْكَ الْمَعُومُ بِالْكَاكِسِ وَالرَّاحِ تَنْفَرِجْ

وهو القائل :

ما جعفرٌ لأبيه ولا له بِشَبِيهِ ^(٢)
أضحى لقوم كثير فكأنهم بِدَعِيهِ
هذا يقول بُذِّي وذا يخاصم فيه
والأُمُّ تضحك منهم لِعِلْمِهَا بِأَبِيهِ

وقال ماني :

مِنَ الظُّبَاءِ ظُبَاءُ عَمِّهِ السُّحْبُ وَحُلُمِهَا الدُّرُّ وَالْيَاقُوتُ وَالذَّهَبُ ^(٣)
باحسن ما سرقت عيني وما انتهبتُ والعين تسرق أحيانا ، وتنهبُ
إِذَا يَدٌ سَرَقَتْ فَالْحَدَّ يَقْطَعُهَا والحَدَّ فِي سَرَقِ الْعَيْنِ لَا يَجِبُ

(١) المقد ٦ : ١٦٥

(٢) المقد ٦ : ١٦٥

(٣) المقد ٦ : ١٦٩

وله أيضاً :

له وجفأت في بياض وحريرة لحافاتها بياض وأوساطها محمرة^(١)
 رفاق يحول الماء فيها كلها زجاج أجملت في جوانبها الخمر
 وأشعار الجانين في هذا الباب أكثر من أن تحصى.

* * *

فأقمَدْتُ مَهْرِيًّا ، وَاعْتَقَلْتُ مَمْهَرِيًّا ، وَسِرْتُ تَلْفِظِي أَرْضُ إِلَى
 أَرْضٍ ، وَيَجْذِبُنِي رُفْعٌ مِنْ خَفَضٍ ، حَتَّى بَلَغْتُهَا نَقْضًا عَلَى نِقْضٍ .
 فَلَمَّا أُنْخْتُ بِمَنْزِلِهَا أَلْصَقْتُ بِهَا ، وَضَرَبْتُ فِي مَرْغَاها بِنَصِيبٍ ، نَوَيْتُ
 أَنْ أَلْقِي بِهَا جِرَانِي ، وَأَتَّخِذَ أَهْلَهَا جِيرَانِي ، إِلَى أَنْ تَحْيَا السَّنَةُ الْجَدَّ ،
 وَتَتَمَهَّدَ أَرْضَ قَوْمي الْعِمَادَ ، فَوَاللَّهِ مَا تَمَضَّمْتُ مُقْلَتِي بِنَوْمِهَا ،
 وَلَا تَمَخَّضْتُ لَيْلَتِي عَنْ يَوْمِهَا ، دُونَ أَنْ أَلْفَيْتُ أَبَا زَيْدٍ السَّرُوجِيَّ
 يَجُولُ فِي أَرْجَاءِ نَصِيبِينَ ، وَيَخْبِطُ بِهَا خَبْطَ الْمَصَائِينِ وَالْمُصِيبِينَ ،
 وَهُوَ يَنْتَرُ مِنْ فِيهِ الدَّرَرُ ، وَيَحْتَلِبُ بِكَفِّهِ الدَّرَرَ . فَوَجَدْتُهَا
 جَهَادِي قَدْ حَازَ مِنْهَا ، وَقَدْ حَيَّيْتُ الْقَدْ قَدْ صَارَ تَوْءَمًا ، وَلَمْ أَزَلْ أَتْبَعُ
 ظِلَّهُ أَيَّمَا أَنْبَعَتَ ، وَالْتَقِطُ لَفْظَهُ كُلَّمَا نَفَثَ ، إِلَى أَنْ عَرَاهُ مَرَضُ
 امْتَدَّ مَدَاهُ ، وَعَرَقَتْهُ مَدَاهُ ، حَتَّى كَادَ يَسْلُبُهُ الْمَعْيَا ، وَيُسْلِمُهُ إِلَى
 أَبِي يَنْحِي .

* * *

قوله : « أقمَدْتُ مَهْرِيًّا » ، أي ركبت بعيرًا منسوبًا إلى مَهْرَةٍ ، قبيلة من قضاة ،
 لهم أنجب الإبل ، زعموا أنه كان يلقحها الوحش ، وهي إبل متوحشة

صفار بيض ، تكون بين عُثْمَانَ والشَّخْرِ ، وتزعم العرب أنها لأجل الجن لسرعتها ،
فبقيت أنساها في بنى مَهْرَةَ . قال أبو عبيدة : للهرية من الإبل تسير أربعمائة
ميل كل يوم ، ثم نسبَت العرب إلى مَهْرَةَ كل بعير نجيب .

اعتقلت : حبست ، والاعتقال : أن تحبس الرَّمَح بين ركابك وساقك .
تلفظني : ترميني . رفع : مرتفع : خفض : منخفض . يجذبني : يسوقني لنفسه .
نفضاً على نفض : هزيل على هزيل ؛ وأخذ هذا اللفظ من قول أبي الشَّيْص
يصف شدة السهر :

أَكَلَّ الوجيفُ لحومهم ولحومها فأتوك أنقاضاً على أنقاض
ولقد أتتك على الزمان سوا خطأ فرجعنَ عنك وهنَّ عنه رَوَاضِي

وقال حبيب في معناه :

وركب يساقون الرِّكاب زجاجة من السَّيْرِ لم تَقْصِدْ لها كَفْ قَاطِبِ^(١)
وقد أكلوا منها النوارب بالسرى وصارت لها أشباحهم كالنوارب

ولحبيب أيضاً :

وركب كأمثال الأسنة عرسوا على مثلها والليلُ تسطو كواكبهُ^(٢)
على كلِّ روادٍ ليلٌ تهدمت عريكته للعلياء وانضمَّ جانبهُ^(٣)

(١) ديوانه ٤١ ، والقاطب : مازج الماء .

(٢) ديوانه ٤٤ ، وفيه : « غياهبه » وبمده هناك

لأمرٍ عليهم أن تَمَّ صدوره وليس عليهم أن تَمَّ عواقبه

(٣) رواد : يذهب ويحيى ، والملاط : رأس الكتف . عريكته : سنامه .

رعته للنفاني بعدما كان حقة رعاها ، وماء الازن ينهل ساكبه^(١)

فكم جزم وادجَبَ ذِرْوَة غاربٍ وبالأمس كانت أتمكته مذائبه^(٢)

قوله : « أنخت » بركت . مغناها : موضع سكنها . نويت : قصدت . جرائى صدرى ، والجريان : باطن عنق اللبعر ، يقول : لما أخذ نصيباً فى مرعاها ، أضمر أن يقيم بها رينما يأتى أرضه المطر . الجاد : التى لا مطر فيها . تعمهد : تنفق وتزور . المهاد . كثرة المطر .

وتمخضت المعنى بالنوم ، إذا خالطها ودب فيها ، وتمخضت المرأة : أضرب بها وجع الولادة ، وتقول : تمخضت المرأة عن زوجها إذا حملت بالولد عنه ، وتمخضت بولدها إذا تحركت به ودنت ولادتها ، وإذا استعير هذا المعنى ليلة صار تمخضها عن اليوم للسابق لها ، كأن اليوم أتى فى الليلة ما كان فيه من الحيوان فتحركت به ؛ فيريد أنه لم ينقض يومى الذى وردت فيه نصيبين حتى وجدت فيه أبا زيد قبل أن أدخل فى ليلتى ، ولأجل هذا قال قبل هذا : تمخضت معلى بنومها ، أراد أنه لقيه قبل الليلة التى ينام فيها ، ولو قال : تمخضت بيومها للزم أن يكون اليوم الذى يأتى بعدها ، كأنها كانت تحمله فتلده إذا طلع صبحه من حيث أنه متصل بها ، ولو جعلت « عن » بمعنى الباء لاقلب إلى هذا المعنى ، وإنما دل الكلام على صحة المعنى الأول ، وأصله التخص بالتحريك ، ومنه : تخضت اللبن تخضاً ، حركته لإخراج زبدته ، وتخضت المرأة وتمخضت : تحرك ولدها ليخرج ، ثم يستعار ذلك للأيام وغيرها ، فأما استعارة حمل الولد فكقول عمرو بن حسان فى النعمان :

أجذك هل رأيت أبا قبيسٍ أطال بقاءه النعم للركام

(١) الديوان : « وماء الروض » .

(٢) الجذع : منطف الوادى . جب : قطع . أتمكته : أسمنته . المذاب : مسایل الماء .

تمخّضت المنون له بيومٍ أتى ، ولكلّ حاملته تمامُ
 النعم الركام : الإبل الكثيرة ، وصُفّر قابوس ، تصغير الترخيم ، وجعل
 المنية حاملا باليوم الذي هلك فيه وجعل اليوم ولدها على جهة الاستعارة ،
 وقال حبيب في معناه :

حتى إذا مخّض الله السنين لها مخض الحليبة كانت زُبْدَةَ الحُتَبِ^(١)

فهذه استعارة من مخض اللبن ، أراد أن السنين تحركت لهذه البلدة ، أي
 كانت تمرّ عليها فلا تنالها بمكرهه حتى وجدها المسلمون كالزُبْدَة في حسنها ولذتها
 فأكلوها باستباحة مَنْ فيها .

قوله : « ألفيت » ، أي وجدت . يحول : يتصرف . أرجاء : نواحي .
 يخبط : يسأل الناس ، وأصل الخبط نفخ ورق الشجر ، يُنض للابل فيخزن
 ثم يدق لها في زمن الشتاء ، ويبلّ بالماء فتعلفه ، ثم يستعار الخبط المعروف ، وقال
 زهير بن أبي سلمى :

وليس مانع ذى قربى وذى نسب يوماً ولا مُفْذِلاً مِنْ خَاطِطٍ وَرَقاً^(٢)

يقال : خبطت الرجل ، أي سألته ، وخبط الرجل بالأمر : لم يهتد لصوابه ،
 والبعر : ضرب بيده الأرض ، والشئ : ضربته ، والدابة الأرض : شدت
 وطأها ، والشيطان الإنسان : صرعه .

قوله : « المصابين » أي الجانين . والمصيبين : الواجدين لما يطلبون ،
 والمصيب أيضاً ضدّ الخطيء ، والمفعول مُصاب ، فيريد أنه يحول في نواحيها
 مسرعاً كالحنون ، أو كالتيقن بوجود حاجته .

(١) ديوانه ٨ .

(٢) ديوانه ٥٣ .

الدَّرَر : الجواهر ، والدَّرَر : اللبان ، أراد أنه يتكلم بكلام حسن فيأخذ به
 للمعطاي . قَدْجِي اللَّفْدُ ، أى سهمى المفرد . توعدا : زوجا ، وأراد أنه كان منفردا
 فصار يأبى زيد زوجا . انبعث : نهض وتوجه . نفث : نطق . عراه : قصده .
 امتدَّ مداه ، أى طالت مدته . عرقته : أخذت لحه . مُداه : سكا كينه . بُسِلِمُهُ :
 يتركه ، وأبو يحيى : كنية الموت ، وقد تقدّم فى المقامة قبل سهام أبى يحيى
 مسددة نحوى .

* * *

[ذكر ثواب المرضى]

أبو هريرة رضى الله تعالى عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من
 مات مريضاً مات شهيداً ، ووُفِّيَ من فتنة القبر ، وغُدِيَ وَرَبِحَ عليه برزقه
 من الجنة » .

وقال : « مرضى يوم يكفر ذنوب ثلاثين سنة » .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الصداق والحقى يصيب الإنسان وإن ذنوبه
 مثل أحد فما يفارقه حتى لا بدع من ذنوبه وزن خردلة » .

أنس رضى الله تعالى عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المريض
 إذا برئ وصح من مرضه كان كمثل البردة تقع من السماء فى صفاء لونها » .

* * *

فَوَجَدْتُ لِفَرْتٍ لُقْيَاهُ ، وَانْقِطَاعِ سُقْيَاهُ ، مَا يَجِدُهُ الْمُبْعَدُ عَنْ
 مَرَامِهِ ، وَالْمُرْضِعُ عِنْدَ فِطَامِهِ ، ثُمَّ أَرْجِفُ بَأْنَ رَهْنَهُ قَدْ غَلِقَ ،
 وَخَلَبَ الْحَامِ بِهِ قَدْ غَلِقَ ، فَقَلِقَ صَحْبُهُ لِإِرْجَافِ الْمَرْجِفِينَ ،
 وَانْثَالُوا إِلَى مَقْتَرِهِ مُوجِفِينَ :

حَيَارَى يَمِيدُ بِهِمْ شَجُومٌ كَانَهُمْ ارْتَضَعُوا الْخَنْدَرِيسَا
أَسَالُوا الْأُزْرُوبَ وَعَظُوا الْجُيُوبَ وَصَكَّوْا الْخُدُودَ وَشَجَّوْا الرُّمُوسَا
يَوَدُّونَ لَوْ سَالَتْهُ الْمُنُونُ وَغَالَتْ نَفَاسَهُمُ وَالنَّفُوسَا

• • •

قوله : «سقياء» ، أى فوائدہ التي كان يسقيه بها . مرامه : حاجته . فطامه :
قطعه عن الرضاع . أرجف : تحدث ، والإرجاف : خوض الناس في الفتنة وحدثها .
وغلق : كف ، وكان من فعل الجاهلية أن يقول الراهن لمن يسك رهنه : إن لم أنك
إلى كذا فالرهن لك فإن أتاه بالدين بعد الأمد قال له : قد غلق الرهن .

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : « لا يفتق الرهن ، له غنمه وعليه غرمه » .

الخلب : خفر اللطائم للصائد . الحمام : المنون . ائثالوا . انصبوا واندفوا .
عقوته : موضعه وأصلها فناء الدار .

موجفين : مسرعين . حيارى : جمع حيران ، والحيرة : التردد في الأمر
وعدم التهدي له ، قال الواثق :

لايك الشقم ولكن كان بي وبفسي وبأبي وأبي^(١)
فيل لي إنك صدعت فإ خالطت سمعي حتى ديري^(٢)
وقال آخر :

أنا مذ خبرت بالملية والله عليل^(٣)
ليت حماك بجسمي ولك السر الطويل

(١) المقد ٢ : ٤٥٣ .

(٢) المقد : « خالطت سمعي حتى ديري » .

(٣) ديوان المعاني .

يميد : يميل . شجوم : حزنهم . الخندريس : الطمر . أسالوا الغروب :
أجروا الدموع ، والغربة : الفليضة من الدمع ، والجمع غروب : عطّوا : شقوا .
هكّوا : لطموا : شجّوا : جرحوا . بودّون : يهمنّون . سالمته : تركته وصالحته ،
وأصله الصلح . المنون : النية . غالت : أهلكت . نفائسهم : كرائم أموالهم .

[من أقوالهم في عيادة المريض]

ونذكر هنا من الشعر ما يوافق هذا الموضع :
دخل أبو دهمان القيسي يوما على بعض الأمراء يعود ، فأنشده :
بأنفسنا لا بالطوارف والتلذذ نفيك الذي تخفي من الشقم أو تبدى^(١)
بنا معشر المود ما بك من أذى فإن أشفقوا بما أقول في وحدي
ودخل محمد بن عبد الله بن طاهر على المتوكل يعود ، فقال :

الله بدفع عن نفس الإمام لنا وكنا للمنايا دونه غرض^(٢)
فليت أن الذي يغروه من مرض بالعائدين جميعا لابه المرض
ففي الإمام لنا من غيره عوض^(٣) وليس في غيره منه لنا عوض
وكتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر :

أعز ع بأن أراك عليلا أو أن يكون لك السقام نزيلا^(٤)
لوددت أني مالك إسلامتي فأعيرها لك بكرة وأصيلا
فمكون تبقى سالما لسلامتي وأكون مما قد عراك بدिला
هذا أخ لك يشتكى ما تشكى وكذا الخليل إذا أحب خيلا
هذا الشعر على فتوره شرف بمنصب قائله .

وكان المعتصم أميا لأن أباه هارون الرشيد ندبه في صغره لتعلم فسمعه

(١) المقد ٢ : ٤٥١ وما لا يحصى ، ديوانه ٨٥٦

(٢) المقد ٢ : ٤٥٢ :

(٣) المقد ٢ : ٤٤٩ .

يوما يقول- وقد مَرَّتْ به جنازة : ليقنّى مكانك ولا أرى هذا البلاء ، فقال له : لا أندبك إلى شيء تنمّي الموت من أجله ؛ فلماذا لم يكن له علم بالأدب كأخويه الأمين والمأمون .

ولأبي العباس المبرد :

يا عليلُ أهدبك من ألم اللامِلة هل لي إلى اللقاء سبيلُ ^(١)
إن يحلّ دونك الحجاب فما يُخجّب عني وبك اللغني والنجولُ ^(٢)

ولأبي تمام في مالك بن طوق :

ألبسك الله منه عافيةً في نومك المسترى وفي أرقك ^(٣)
يُخرج من جسمك السقام كما أخرج ذمّ الفعّال من خُلُقك

ولابن عبد ربه :

يا مَنْ عَلَيهِ حِجَابٌ مِنْ جَلَالِهِ وَإِنْ بَدَا لَكَ يَوْمًا غَيْرٌ مَحْجُوبٌ ^(٤)
ما أنت وحدك مكسواً ثياب ضئي بل كلنا لك من مُضَيٍّ وَمَشْجُوبٍ
ألقى عليك يداً للضرّ كاشفةً كَشَفَ ضُرِّيَّ اللهِ أَيُّوبِ

* * *

قال الراوى : وَكُنْتُ فِي مَنِّ التَّفِّ بِأَصْحَابِهِ ، وَأَغْذَى إِلَى بَابِهِ ، فَلَمْ
انتهينا إلى فنائه ، وتصديّنا لاستنشاء أنبائه ، برز إلينا فتاه ، مفترّة
شفتاه ، فاستطاعنا طلع الشيع في شكاته ، وَكُنْهُ قُوَى حَرَكَاتِهِ ،

(١) المقد ٢ : ٤٥١ .

(٢) ديوانه ٢١١ المقد ٢ : ٤٥٢ ، وقبله فيهما :

كَمْ لَوْعَةٍ لَتَدَى وَكَمْ قَلْبٍ لِلْمَجْدِ وَالْكَرُمَاتِ فِي قَلْعِكَ

(٣) المقد ٢ : ٤٥٤ ، مع اختلاف في ترتيب الأبيات .

فقال : قد كان في قبضة المرضة ، وعزّة الوعكة ، إلى أن شفّه الدنف واستشفّه التلّف ، ثمّ من الله تعالى بتقوية دّمائه ، فأفاق من إغمائه . فارجعوا أدراجكم ، وانضّوا انزعاجكم ، فكأن قد غدا وراح ، وساقاكم الراح . فأعظمنا بشراه ، وأقترحنا أن نراه ، فدخل مؤذنا بنا ، ثمّ خرج آذنا لنا ، فلقينا منه لقي ، ولسانا طلقا ، وجلسنا مُحدّقين بسريره ، محدّقين إلى أساريه .

* * *

قوله : « أغذ » ، أي أسرع . تصدّينا : تمرّضنا . الاستنشاء : الاستطلاع . أنبائه : أخباره . برز : خرج . مفترّة : ضاحكة . استظلمناه : سألناه أن يُطلّقنا . طلع الشيخ في شكاته : خبر مرضه . كُفّه : حقيقة . عزّة الوعكة : شدة الرضة ، وعركتُ الشيء : دلّكته بيديك وحككته ، ووعكته الحُتى : كسرتُه . وشفّه الدنف : أضعفه للرض ونقص جسمه استشفّه : استقصى بقية قوته . دّمائه : قوى نفسه إغمائه : ذهاب عقله من الضعف . ارجعوا أدراجكم ، أي في الطريق الذي جئتم فيه . انضّوا انزعاجكم ، أي أزيلوا زعجكم وطيشكم ، والانزعاج : ضد القرار . أعظمنا بشراه ، أي وجدنا ما بشرنا به عظيما ، والبشارة بكسر الباء : ما بُشّرت به ، والبشارة بضمها : ما يُعطى على البشارة . والبشارة بفتحها : الجلال ، وفلان بشير الوجه ، أي حسنه ، وعند أكثرهم أن لفظ « بشرته » لا يستعمل إلا في الإخبار في الخير ، وليس كذلك ، بل يستعمل في الخير والشر قال تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ^(١) ، والعلّة في ذلك أن البشارة إنما سميت بذلك لاستبانه تأثير خبرها في بشرة من بُشّر بها ، وقد تغيّر البشرة للمساءة

(١) سورة التوبة ٢٤ .

بالمكروه ، كما تنمّيز عند السرّة بالحبوب ، إلا أنه إذا أُطلق لفظها وقع على
الخير ؛ كما أن النذارة يُطلق لفظها في الشر ، وهذا ذكره الحريري في الدرّة قال
ابن عُرَيْز: للبشرى: والبشارة إخبار بما يسر ، قال تعالى : ﴿ لهم البشرى ﴾ ^(١) .

اقترحنا : طلبنا ، واقترحنا الشيء : فعلته قبل أن يفعل . مؤذناً : معلماً .
أقمي : طريماً . طامناً : فصيحاً . محدقين : محلّقين ، وأحدق القوم بالشيء إذا
أحاطوا به واحذقوا حوله . وحدقوا ، أى نظروا إليه نظراً شديداً ، فهم محدقون
إليه ، أى ناظرون ، والحدقة : سواد العين الأعظم . والأسارير : تكاسير
جلد الوجه .

• • •

[نبذ من الأقوال المأثورة في عيادة المريض]

أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عاد مريضاً فجلس عنده
قدر ساعة ، أعطاه الله تعالى أجر عمل سنة لا يمضيه فيها طرفة عين » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عيادة المريض إذا دخلت عليه ، أن
تضع يدك على رأسه وتقول : كيف أصبحت ؟ أو كيف أمسيت ؟ وإذا دخلت
عليه تقمّدك الرحمة ، وإذا خرجت من عنده خضّتها مقبلاً ومدبراً » - وأوماً
بيديه إلى حقويه .

أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عاد
المريض خاض الرحمة ، فإذا جلس عنده انغمس فيها » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا دخلتم على مريض فنفسوا عليه

(١) سورة يونس آية ٦٤ .

(٢٤ - شرح مقامات الحريري ج ٢)

في أجله ، فإن ذلك لا يرد شيئاً وهو بطيب نفس المريض ^(١) .
نفسوا : وسعوا عليه بطول عمره ^(٢)

ودخل كثير على عبد العزيز بن مروان بعوده فقال له : لولا أن سرورك
ما يتم بأن تسلم وأسلم أنا ، لدعوت ربى أن يعصرف مابك إلى ؛ ولكن أسأل
الله لك أيها الأمير العافية ، ولى في كنفك النعمة . فضحك وأمر له بمال فخرج
وهو يقول :

ونعود سيدنا بسيد غيرنا ليت التشكى كان بالعواد ^(٣)
لو كان يقبل فدية لفيده بالمصطفى من طاريف وتلادي
وكتب آخر إلى عليل :

نبتت أنك معتل قلت لهم نفسى الفداء له من كل مخدور ^(٤)
باليث علة به غير أن له أجر العليل وأنى غير ماجور

* * *

فقلّب طرفه في الجماعة ، ثم قال : اجتلوها بذت الساعة ،
وأنشد :

عافاني الله وشكراً له من علة كادت تعفيني
ومن بالبر على أنه لأبد من حتف سيبريني
ما يتناساني ، ولا كنهه إلى تقضى الأكل ينسديني

(١) نقله في الجامع الصغير ١ : ٣٩ .

(٢) المقد ٢ : ٤٤٨ .

(٣) المقد ٢ : ٤٤٨ .

(٤) المقد ٢ : ٤٨ .

إِنْ حُمَّ لَمْ يُغْنِ حَمِيمٌ وَلَا حَمَى كَلْبٍ مِنْهُ يَحْمِينِي
وَمَا أَبَالِي إِنْ دَنَا يَوْمُهُ أَمْ أَخَّرَ الْحَيْنُ إِلَى حِينِ
فَأَيْ فُخْرٍ فِي حَيَاةٍ أَرَى فِيهَا الْبَلَايَا ثُمَّ تَبْلِينِي

* * *

قوله : قلب طرفه ، أى حول عينيه بنظرهم . اجتلوا : انظروا ، ونسب
للشمر لساعة لما قيل فيها . عاناني : أيسألتني . تعقيني : تهاكمني . من : أنعم .
حَتَفَ : هلاك . تَقَضَّى الْأُكُلَ : تمامه وآخره . يُنْسِينِي : يؤخّرني ، والأصل
الهمزة فسّهله للشمر . حُمَّ : قدّر . حميم : صاحب .

[ذكر حمى كليب]

حمى كليب ؛ هو ابن ربيعة أخو مهمل الشاعر وخال امرئ القيس ،
وكان أعزّ الناس في العرب . وبلغ من عزه فيهم أنه اتخذ جرّو كلب ، فإذا نزل
بمنزل فيه كلاً قذف ذلك الجرّو فيه ، فعوى فحيثما بلغ عواؤه لا يرعى أحد
عشب ذلك الموضع إلا بإذنه ، وإذا جلس لا يمرُّ أحد بين يديه إلا جلالاً له ،
ولا يُخَشِّي أحدٌ في مجلسه غيره ، ولا توقد نارٌ غير ناره ، ولا يُبْعِرُ تَغْلِيهِ
ولا بكري رجلاً ، ولا يحمي حمى ولا يُبْعِرُ إلا بإذنه .

وكان يحمي الصيد فيقول : صَيْدٌ كَذَا فِي جَوَارِي ، فلا يصيب أحد منه
شيئاً ، وكان قد حمى حمى لا يبطؤه إنسان ولا بهيمة ، فدخل فيه يوماً فطارت قنبرة
بين يديه من طَلَى بيضها ، فقال لها :

يَا لَكَ مِنْ قُنْبَرَةٍ بِمَقَمَرٍ خَلَا لَكَ الْجَوَّ فَيُضِي وَاصْفَرِي
* وَتَرَى مَا شئتُ أَنْ تَنْفَرِي *

وكانت امرأته جلييلة بنت مرة بن شيبان ، وكان لمرة - وهو من بني بكر -

عشرة من الولد ، منهم الحارث وجساس ونضله وهمام ، فجاءت جساساً خالة له اسمها البسوس ، التي يقال فيها : أشام من البسوس ، فنزلت عليه ، ولها ابن وناقاة تُسمى سراب ، بفصيل لها ، فدخل الحى يوماً ، فوجد بيض القنبرة قد وطمته سراب فكسرتة ، فسأل عنها فأخبر أنها لخالة جساس ، فقال : أو قد بلغ من قدره أن يجير دون إذنى ! يا غلام ، ارم خرعها ، نخرقه بسهم ، وقتل فصيلها ، ثم طرد إبل جساس ، ونقاها عن المياه ، عن شبيث والأحص (غديرين) حتى بلغ غدير الذئاب فجاء جساس ، فقال : نفيت عن المياه مالي ، حتى كدت تهلكه ! فقال : إنما للبيات شاغلون ، فقال : هذا كفعلك بناقة خالتي وفصيلها ، فقال : أو قد ذكرتها ! أما إنى لو وجدتها فى غير إبلى مرة استحللت تلك الإبل لها ، فطف عليه جساس فرسه ، فطعنه ، فلما أحس الموت ، قال : يا جساس ، اسقى ماء . فقال : تجاوزت شبيثاً والأحص ، واحتز رأسه ، وأمال يديه ، وجاء . فقالت أخته لأبيها : إن جساساً جاء خارجة ركتاه ، قال أبوها : والله ما خرجت إلا لأمر . فلما وصله قال : ما وراءك يا بنى ؟ قال : طعنت طعنة لتشفن شيوخ وائل رقصاً . قال : قتلت كليبا ؟ قال : نعم ، قال : وددت أنك وأخوتك ميثم قبل هذا ، ما بنا إلا أن نقشام بنا وائل ، ثم لقي أخاه نضله فقال :

ولمى قد جنيت عليك حرباً تفص الشيوخ بالماء القراح^(١)

فأجابه أخوه نضلة :

(١) الخبر فى الميدانى ١ : ٣٧٠ ، برواية مخالفة ، وفيه . « وأقبل جساس يركض حتى هجم على قومه ، فنظر إليه أبوه وركبه بادية من حوله فقال : لقد أناكم جساس بدهية ، قالوا : ومن أين تعرف ذلك ؟ قال : لظهور ركبته ؛ فإنى لأعلم أنها بدت قبل يومها ثم . قال : ما وراءك يا جساس ؟ فقال : والله لقد طعنت طعنة لتجمن منها عجائز وائل رقصاً ، قال : وماهى ثكلك أمك ؟ قال : قتلت كليبا ، قال أبوه : بدس لعمر الله ما جنيت على قومك ، فقال جساس :

تأهبْ عنك أهبة ذى امتناع فإن الأمر جلّ عن التلاحي =

فإن تك قد جنبت على حرباً فلا وان ولارث السلاح
 وكان أخوه همام قد آخى مهلهلاً أخا كليب ، وعاهده ألا يكتمه شيئاً ،
 فجاءته أمة له ، وعنده مهلهل ، فأمرت إليه الخبر ، فقال له مهلهل : ما قالت لك
 أمتك ؟ فقال : زعمت أن أخى جساساً قتل كليها ، فقال : است أخيك أضيق
 من ذلك . وتمثل القوم ، وغدا مهلهل في ثار أخيه بالخليل ، واجتمعت أشراف
 تغلب ، وأتوا مرة ، فتكلموا معه في الإقصاص من جساس وإخوته ، فذهب
 مرة إلى الدبة ، ففضبت تغلب ووقعت في الحرب ، فدامت بينهم أربعين عاماً .
 وكان فيما بينهم خمس وقائع : أولها يوم عذيرة وآخرها قتل جساس ،
 وذلك أنه لما اجتمع نساء تغلب للأنثى قالوا لأخته : رحلي جليلة عن مائتك ، فإن
 قيامها شمانة بنا ، وعار علينا ، فقالت لها : اخرجي بهذه من مائتنا ، فإنك شقيقة
 قاتلتنا ، فلما رحلت قالت أخت كليب : رحلة المعتدى ، وفراق الشامت ! وبل
 غداً لآل مرة ، من للكرة بعد للكرة .

فلما بلغ ذلك جليلة قالت : وكيف تشمت الحرّة بهتك سترها ، وترقب
 وترها ! أسعد الله جدّ أختي ، أفلا قالت : فرة الحياء ، وخوف الاعتداء !
 وجاءت وهي حامل ، فولدت غلاماً وسمته بالمعرجس ، ورباه جساس ،
 فكان لا يعرف أباً غيره ، فزوجة ابنته ، فوقع بينه وبين بكرى كلام ، فقال
 له البكرى : ما أنت بمنته حتى ألحقك بأبيك . فأمسك عنه ، ودخل إلى أمه
 فسألها فأخبرته ، فلما أوى إلى فراشه ، وضع أنفه بين ندى زوجته ، وتنفس
 = فإني قد جنبت عليك حرباً تنصّ الشيخ بالماء القراح .
 فأجابه أبوه :

فإني قد جنبت عليك حرباً تنصّ الشيخ بالماء القراح .
 سألبس ثوبها وأذب عني بها يوم المذقة والفضاح .

تنفيسةً تنفط^(١) ما بين ثدييها من حرارتها ، فقامت الجارية فرجةً ، فدخلت إلى أبيها فأعلمته ، فقال : نائر ورب السكبة .

فلما أصبح أرسل وراء الهجرس ، فأنابه فقال له : إنما أنت ولدى ومعى ، وقد كانت الحرب في أبيك زماناً طويلاً حتى كدنا تنفاني ، وقد اصططحنا الآن ، فانطلق مئى حتى نأخذ عليك ما أخذ علينا ، قال : نعم ، ولكن مثل لا يأتى قومه إلا بسلاحه ، فأتيا جمعاً من قومهما ، فقص عليهم جتاس ما كانوا فيه من البلاء ، وما صاروا إليه من العافية ، ثم قال : وهذا ابن أختى قد جاء ليدخل فيما دخلتم فيه ، فلما قدّموا للمقد أخذ بوسط رمحہ ، وقال : وفرسى وأذنيه ، ورمحى ونصليہ ، وسبني وغراريہ ، لا يترك الرجل قاتل أبيه وهو ناظر^(٢) إليه . ثم طعن جتاساً فقتله ، ولحق بقومه وكان آخر قتيل فيهم .

وقد قيل في صورة قتل كليب غير ما ذكرنا ، وحكايات الجاهلية كثيرة الاضطراب ، وقد نسب شعر القنبرة لطرفة .

وقال النابغة الجعدي وذكر قتل كليب وحذر به عقلاً العقيل :

كليب لعمرى كان أكثر ناصراً وأبصرَ حزمًا منك ضُرَجَ بالدم^(٣)
رمى ضرع نابٍ فاستمرَّ بطمنه^(٤) كعاشية البرد اليماني للسم^(٥)
فقال لجساس : أغثنى بشرية^(٥) تُدارك بها منّا على وأنعم^(٥)
فقال : تجاوزت الأحص وماءه وبطن شِيث وهو ذو مترسم^(٥)

(١) تنفط : احترق . (٢) ب : « ينظر » .

(٣) ديوانه ١٤٣ وفيه : « وأيسر جرماً » .

(٤) المناب : الناقة المسنة . والمسم : المخطط بصور على شكل السهام .

(٥) الديوان : « تمن بها فضلا على وأنعم » .

الترتم : اتباع الماء في قعر البئر ، يقول : أئى افتخار في حياة تعرض
على فيها الامتحانات ، ثم بعد هذه اللشقات تردني إلى الكبر والشيخوخة ؛
فلم أبال ، أدنا الموت أم تأخر ، إذ المآل إلى اللهم القائد إلى الموت . وأشار
بهذا إلى قول النمر بن ثؤالب^(١) :

يود الفتى طول السلامة جاهداً فكيف ترى طول السلامة يفعل !
وإلى قول حميد بن ثور :

أرى بصرى قد رابنى بعد صحة وحسبك داء أب تصح ونسلاً
وجاء : كفى بالسلامة داء .

وجاء في أجر البلاء قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل ليصيبه البلاء حتى
يمشى في الناس ماله خطيئة » .

أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الموى
والبلاء والشهوة معجونة بطينة آدم » .

• • •

قال : فدعونا له بامتداد الأجل ، وارتداد الوجل ، ثم تداعينا
إلى القيام ، لا تقاه الإبرام ، فقال : كلاً بل البثوا بياض يومكم عندي ،
لتشققوا بالمفاكته وجدي ، فإن مناجاتكم قوت نفسي ، ومنعنا طيس
أنسى . فتحريتنا مرضاته ، وتعامينا معاصاته ، وأقبلنا على الحديث
نخض زبده ، ونلغى زبده ، إلى أن حان وقت المقييل ، وكلت

الْأَلْسُنُ مِنَ الْقَالِ وَالْقِيلِ . وَكَانَ يَوْمًا حَامِي الْوَدِيقَةِ ، يَأْنَعُ الْحَدِيقَةَ ،
فَقَالَ : إِنَّ النَّعَاسَ قَدْ أَمَالَ الْأَعْنَاقَ ، وَرَاوَدَ الْأَمَاقَ ، وَهُوَ خَفِصُ
الَّذِ ، وَخِطْبُ لَا يُرَدُّ ؛ وَفَصَلُّوا حَبْلَهُ بِالْقَيْلُولَةِ ، وَاقْتَدُوا فِيهِ بِالْأَنَارِ
الْمُنْقُولَةِ .

* * *

قوله ارتداد الوجه ، أى إزالة الخوف . واتفاء الإبرام : خشية التقهيل .

* * *

[ذكر تخفيف العيادة]

قال مضمهم :

إِذَا مَا عُدْتَ مَحْمُومًا نَخَفَ فَتَخْفِيفُ الْعِيَادَةِ خَيْرُ عَادَةٍ

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَخْفُوا لِلْعِيَادَةِ ، وَأَقْلُوا الْجُلُوسَ ؛
وَالْتَعَزَّيْةَ يَوْمَ » .

أبو القاسم الوزير بن عيسى ، قال : أنشدنى أبو بكر أحمد بن موسى
ابن مجاهد ، وقد جئته عائدا ، وأطال قوم عنده الجلوس ، فقال لى : يا أبا القاسم ،
عيادة ثم ماذا ؟ فصرفت من حضر ، ثم هممت بالانصراف معهم ، فأمرنى
بالرجوع ، ثم أنشدنى عن محمد بن الجهم :

لَا تُضْجِرَنَّ مَرِيضًا جِئْتَ عَائِدَهُ إِنَّ الْعِيَادَةَ يَوْمٌ لِمَرِّ يَوْمَيْنِ
وَسَلِّهِ عَنْ حَالِهِ ، وَادْعُ إِلَالَهُ لَهُ وَاقْتَدِ بِقَدْرِ فَوَاقٍ بَيْنَ حَالَيْنِ
مَنْ زَارَ غَيْبًا إِذَا دَامَتْ مَوَدَّتُهُ وَكَانَ ذَاكَ صِلَاحًا لِلْخَلِيلَيْنِ

وقال آخر :

عيادة للرء يوم بعد يومين . وجلسة لك مثل الألفظ بالعين^(١)
لا تُبرمن مريضاً في مُساءلة يكفيك من ذاك تَسألُ بحرفين
مرض^(٢) يحيى بن خالد ، فكان إسماعيل بن صبيح إذا دخل عليه يعود
وقف عند رأسه ، ودعا له ، ثم يخرج ويسأل الحاجب عن منامه وطعامه
وشرايه . فلما أفاق قال : ما عادنى إلا إسماعيل بن صبيح ، ودعا له .

ومن زاد على التخنيف فقطع الزيارة عبيد الله بن عبد الله بن ظاهر ، مرض
أخوه محمد بن عبد الله فلم يمهده عبيد الله ، فكتب له محمد :

إني وجدتُ على جفا ثك من فمالك شاعداً^(٣)
إني اعتلتُ فما وجدُ ت سوى رسولك عاثداً^(٤)
ولو اعتلت فلم أجِد سبباً إليك مساعداً
لاستشمرت عيني الكرى حتى أعودك راقداً

فأجابه عبيد الله أخوه :

كجيت مقلتي بشوك القتاد لم أذق مذ حُمت طعم الرقاد
يا أخي الحافظ المودة والنما^(٥) زل من مقلتي مكان السواد
منعتني عليك رقة قلبي من دخولي عليك في العواد

(١) المقد ٢ : ٤٥٠ . وفيه : « يوم بين يومين » .

(٢) الخبر في المقد ٢ : ٤٥١ .

(٣) المقد ٢ : ٤٥١ .

(٤) المقد : « فا فقدت سوى رسولك » .

(٥) المقد : « البازل المودة » .

لو بأذنى سمعت منك أنيناً لتفرّى من الأنين فؤادى
ومرض حماد عَجْرَد ، فعاده أصحابه إلا مطيع بن إبّاس ، وكان خاصاً به ،
فكتب إليه يقول :

كفأك عيادتي من كان يرجو ثواب الله في صِلَةِ المريضِ
فإنّ تجدّث لك الأيام سقما يحول جريضُهُ دون القَرِيبِ
يكن طول القَاوَةِ منك عندى بمنزلة اللّٰطِنِ مِنَ البَعُوضِ
فما نفسى عليك تَذُوبُ حُزْنًا وما دُمى عليك بمُسْتَفِيضِ
ولحمد بن عبد الله في محبوب له مرض :

ألبسك الله منه عافيةً تغنيك عن دعوتى وعن جَلَدِكَ
سقمك ذا لامة عرضت بل سقم عينيك دبّ في جَسَدِكَ
فيامريض الجفون أخى فتى قتلتَه بالجفون لا بيدِكَ

وقال آخر في محبوب له تركت الحتى على فيه أترا :

يا أملى كيف أنت من أملك وكيف ما تشكّيه من سقمِكَ
هذان يومان لى أعدما مذلم تلخ لى برُوق مبهتَمِكَ
حسدت حماك حين قيلَ لنا بأنها قبلك فوق فك

وقال العباس بن الأحنف :

قالت : مرضت فمَدَّتها فتبرَّمتْ وهى الصحيحة والمريضُ العائدُ^(١)
والله لو أنّ القلوب كقلبها ما رقّ لالود الضعيف الوالدُ^(٢)

(١) ديوانه ٨١ .

(٢) الديوان : « لالود الصغير » .

قوله : «البشوا» ، أى أقيموا . بياض بومكم ، أى طوله ، وبياض النهار : ضوءه : مناجاتكم : محادثكم .

مغنطيس ، حجر يجلب الحديد تقول له العامة حجر المس . تحريتنا ، أى قصدنا . تحاميننا : تباعدنا . نمخض زبدته : نحرك ونجمع فوائده ، وكفى بالزبد ، وهو جمع زبدة عن خيار الكلام . نلنى زبدته : نترك مالا خير فيه ، وزبد الماء : ما يعلوه من الرغوة . الثقيل : النوم فى وقت القائلة . حامى الوديقة : شديد الحر . يانع الحديقة : ناعم الروضة ، والحديقة كل بستان محاق بمحاط أو زرب . راود : طالب . الآماق : العميون ، وأصله طرف العين من جهة الأنف . واخطب : من يخطب المرأة . والقيولة : الرقاد فى القائلة . والآثار : الأحاديث .

* * *

[نبذ عما قيل فى القيولة]

قلنا وقال : يقال : قال يقيل قيولة ومقيلا : نام نصف النهار .

أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله عليه وسلم « ثلاث من ضبطهن ضبط الصوم : من تسعّر ، وقال ، وشرب بعد ما يأكل » .

وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قيلولوا فإن الشياطين لا تقيل » . ودخل العباس على ابنه وهو مضطجع ، فضربه برجله ، وقال : قم لا نامت حينك ! تنام فى ساعة يقسم فيها الرزق ! وإنما النوم على إحدى خصال : خرق أو حق ، أو خلق ، فنومة الحق بعد العصر ، لا بنامها إلا سكران أو شيطان ، ونومة الخرق نومة الصبح ، ونومة الخلق نصف النهار .

ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : استعينوا بقيولة النهار على قيام الليل ، وبالسحور على صيام النهار .

قال الراوى : فاتبعنا ما قال ، وقلنا وقال . فضرب الله على الآذان ،
وأفرغ السنّة فى الأجناف ؛ حتى خرجنا من حكم الوجود ، وصرفنا
بالمجود عن السجود ، فما استيقظنا إلا والخثر قد باخ ، واليوم قد شاخ ،
فتكرّمنا لصلاة العجماءين ، وأدينّا ما حلّ من الدين .

ثم تمحّضنا للإرتحال ، إلى ملقى الرّحال ، فالتفت أبو زيد إلى
شبله ، وكان على شاكليته وشكله ، وقال : إني لإخال أبا عمرة ،
قد أضرّم فى أحشائهم الجمرّة ، فاستدّيع أبا جامع ، فإنه بُشّرَى كلّ
جائع ، وأزديفه بأبى نعيم ، الصّابِر على كلّ ضمير ، ثمّ عزّز بأبى حبيب
المحبّب إلى كلّ حبيب ، المقلّب بين إحراق وتعذيب ، وأهّب
بأبى تقيف ، فحبّذا هو من أليف ، وهلمّ بأبى عون ، فما مثله من
عون ، ولو استحضرت أبا جميل ، لجمل أىّ تجميل .

قوله : « السنّة ، للنوم ، المجود : الرقاد . باخ : سكن حرّه . تمحّضنا ، أى
تحرّكنا . ملقى الرّحال : موضعها . شبله : ولده . شاكليته : طريقته . شكله :
مثله ، وتكون للشاكلة والشكل واحداً وجمع للشكل أشكال وشكول .

إخال : أحسب ، وكنى الجوع أبا عمرة ، لأنه يعمر كلّ جوف ؛ قيل
لمدنى : أتعرف أبا عمرة ؟ قال : كيف لا أعرفه وقد تربّع فى كبدي .

وقال الراجز :

حَلَّ أَبُو عَمْرٍة وَشَطَّ حُجْرَتِي وَحَلَّ نَسَجَ الْعَنْكَبُوتِ بُرْمَتِي

أضرم : أوقد ، وكُنِيَ الخوان - وهو المائدة - أبا جامع للاجتماع حوله للأكل . وأردفه : جيء به خلفه ، وكُنِيَ الحواري ، وهو الدرملك أبا نُعَيْم ، لأن خبزهُ أُنْعِمَ الأخياز وأصفاها .

للضَّيْم : القِلَّة ، وجهه صابرا على كل ذلٍّ ، لأنه لا يصل منه صورة اللبر إلى الخبز إلا بعد علاج شديد ، وتغيير له من حال إلى حال .

وفسير معنى أبي حبيب بقوله : الحُتْب إلى كل لبيب . وقوله : القلب بين إحراق وتعذيب ، يريد أن ما ولى من الجلدى النار وقت شُبّه احترق ، وما لم يلها أدركه حرّها فأنضجه وأسال ودّكه ، فذلك تعذيبه .

أهْب : ادْعُ به وصَحْ به .

وكُنِيَ الخلل أبا ثَقِيف لأنه يثقف الطعام ، أى يحذقه فيطيب للأكل .

أليف : صاحب ، وإنما قال : فهذا هو من صاحب ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « نعم الإدام الخل » .

وكُنِيَ الملح أبا عون ، لأنه يُسْتَمَان به على أكل الطعام ، وطعام بلا ملح لا يؤكل ، وقد أشار إلى هذا بقوله : فما مثله مني عون .

وكُنِيَ للبقل أبا جميل لأنه يحسّن بمحضرة الإدام وبزينة ، أو لأنه يذهب بالجميل ، وهو ودّك اللحم فيخفّ للأكل وقوله : لجمل أى تجميل ، أليق بالتفسير الأول ، ولا يمتنع من الثانى ؛ وحدث وائلة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أحضروا موائدكم للبقل فإنه مطردة للشيطان مع تسمية الله تعالى » .

أبو الفضل بن مالك : يعجبنى البقل على المائدة فإذا رأيت السكباج
نسيت البقل . للسكباج : لحم بخل، والسك بالفارسية، الخل، والباج اللحم،
وسمى السكباج بأمة القرى لأنه من أجل أطمعهم .

* * *

وَحَيَّ هَلْ بِأَمِّ الْقَرَى، أُمِّدْ كَرَّةً بِكِسْرَى، وَلَا تَتَنَاسَ أُمَّ جَابِرٍ،
فَكَمْ لَهَا مِنْ ذَاكِرٍ، وَنَادِ أُمَّ الْفَرَجِ، ثُمَّ افْتِكْ بِهَا وَلَا حَرَجِ، وَاخْتِمِ
بِأَبَى رَزِينٍ، فَهُوَ مَشْفَلَةٌ كُلِّ حَزِينٍ، وَإِنْ تَقَرَّنْ بِهِ أَبَا الْعَلَاءِ، تَمْنَحُ
اسْمَكَ مِنَ الْبُخْلَاءِ. وَإِيَّاكَ وَاسْتِدْنَاءَ الْمُرْجَفِينَ، قَبْلَ اسْتِقْلَالِ مُحَوَّلِ
الْبَيْنِ، وَإِذَا نَزَعَ الْقَوْمُ عَنِ الْمِرَاسِ، وَصَافَحُوا أَبَا إِيَّاسٍ، فَأَطِيفَ عَلَيْهِمْ
أَبَا السَّرْوِ، فَإِنَّهُ عُنْوَانُ السَّرْوِ .

* * *

وَأَمَّ الشَّيْءَ : معظمه وجايده ، ومنه أمة القرآن الحمد لله ، وأمة القرى لمكة
المشرقة ، وأمة الشَّيْء أجله ، والقرى : طعام للضيف ، فكأنه قال : عَجَّلْ بطعام
فاضل يقدم للضيف .

وكسرى ملك الفرس ، وجعلها تذكرة ، لأنه أول من صنعت له ،
فاستعملها ، وأمر بإجادة الصنعة في طبخها ، وقيل : إن غيره طبخها واستعملها
في زمن كسرى فنُسبت إليه .

وكنى الجوزابة بأمة الفرخ ، وهي خبزة توضع في الثَّنُور ويعلق عليها طير
أو لحم ، فيسيلُ ودَّكه فيها ما دامت تطبخ ، فتفرج عنك همَّ الإدام فلا تحتاج
إليه فهي خبزٌ بإدامه .

افتكّ بها ولا حرج ، أى كُلّها ولا إمّ عليك ، وإن كان اللفظ بعطيك
جمعى آخر ، فالمراد به هذا .

وكفى الخبيصَ أبارزين لفضله فى الطعام وشرفه ورجحان ثمنه ، وجعله
آخر ما يؤكل ، والرزين من الرجال : الكثير الوقار ، وقرن به الفالودج ، لأنه
نوع منه ؛ قال بعض الطنيلية : الحلواء مثل الملك ، يدخل بيتاً فيه قوم جلوس
ليس فيه مقسم لأحد ، فإذا نظروا إلى الملك تضابقوا وأوسعوا له .

وكان عبد الله بن جُدعان سيّداً شريفاً فى قريش ، فوفد على كسرى
وأكل عنده الفالودج ، فسأله عنه فقيل له : هو الفالودج ، قال : وما هو ؟ قيل
لُبّاب البرّ مع عسل النحل ، فقال : ابئروا لى غلاماً يصنعه فأتوه به فأبعاه ،
وفدّم مكة فصنع بها الفالودج ، فوضع اللوائد بالأبطح إلى باب المسجد ، ثم نادى :
ألا من أراد الفالودج ، فليحضر ! فكان فيمن حضر أمية بن أبى الصلت ، وكان
يتدحّه كثيراً فقال فيه :

لكلّ قبيلة رأسٍ واحدٍ وأنت الرأسُ تقدّم كلّ هادى^(١)
له داعٍ بمكة مشمّلٍ وآخر فوق دارتِهِ ينادى
إلى رُدُجٍ من الشّيزى^(٢) ملاء لباب البرّ يلبك بالشهاد

ولُبّاب البرّ : خالص القمح ، ويسمى النّشا . يلبك : يخلط ، والشهاد : العسل ،
والفالودج : الذى رأيت يسجلماسة هو العسل والسمن يوضعان على النار ،
ثم يقدّان بالنّشا ، ثم يلوّن الكلّ بالزعفران فيجى متعقّق الحمرّة ، فيقطع قطعاً

(١) ديوانه ٢٧ .

(٢) الشيزى : خضب أسود تتخذ منه القصاع والجفان ، والردج : الجفان الواسعة .

على قدر أكبر التمر ، وفي شكله ، ويؤتى به في الأعراس بعد الشواء ، ويؤتى
بالخبيص آخرًا ، وخبيصهم في غابة البياض ليس كخبيص الأندلس ، ويُقرص
قرصًا على قدر صفار الجبن ، فن رآها على بعد لم يشك أنها جبن . وبعد
رجال المائدة ، ويؤتى بطبق كبير فيوضع بين أيديهم ، وأمام كل رجل قرصته ،
فلا يكاد يكادها بالإكل لإفراط حلاوتها . وأكثر أطعمة أهل القبلة مستملاة
من أطعمة أهل المشرق ؛ وكذا أكثر أحوالهم من مبانينهم وأشكال ديارهم
وسطوحها ، واستمال الإبل في السواق والطواحين ، ودق الفوى لملفها نعم ،
وعلى أن للبربرية غالبية على أسنة أهل القبلة فهم يستعملون كثيرًا من الفاظ
أهل العراق ، يقولون لفرق الناس الشاسك ، وكذا تسمية أهل سجلماسة ،
ويسمون للبرادة التي لشرب الماء بوقالا ، وكذا تسمية أهل سجلماسة ، وجمع
للوقال بواقيل ، قال الحسن بن هاني :

أضمرتُ للذيل هجرانا ومقليةً إذ قيل لي إنما للتمساح في النّيل
فمن رأى النّيل رأى للعين من كشيء فلا أرى النّيل إلا في البواقيل

وكان رأى التمساح أخذ رجلا ، فمجا الذيل . والبرادة مندم آنية من صُفر ،
فيها مخاطيف يعلق فيها البواقيل ، وترفع للمواء فيبرد فيها الماء .

قوله : المرجفين ، للطشت والإبريق ، لأنّ لما عند أخذها صوتا ، بنقر
أحدهما في الآخر ، فكان ذلك للصوت يرجف ، أى ينجر بتمام الطعام والحث
على القيام .

أبو بكر الصغار : حضر مجنون بالكوفة طعام قوم ، فجلس يأكل ، فجعل
للغلام يحرك الطشت والإبريق ، فقال : من هذا الذى يرجف بنا قبل
انقضاء حملنا ؟

بينما صُفِّلَ بِأَكْلٍ ، سمع صوت دَقِّ الأَسْبَانِ ، فامتنع من الأكل فقليل له :
ألا تأكل ؟ قال : حتى يسكن هذا الإرجاف الذي أسمع .

وقيل لطفيلٍ : ممَّ اصفرَّ وجهك ؟ قال : من فترة بين قَصْعَتَيْنِ ، مخافة أن
تكون قد فنيبت .

استقلال : ارتفاع . حول اللبِنِ ، أى لابل للفراق ، ويريد بها الموائد
لأنها إذا ارتفعت يفرق أهل المجلس ، فيقول : إياك أن تقربها ما قبل أن ترتفع
الموائد ، فيتمها الناس للغسل والانصراف ، فإن غسلت الأيدي والموائد باقية
توهم أن تمَّ طعاما يُستأنف أكله

نزع : زال وتذهى . المراس : غسل الأيدي ودَلَّك بعضها ببعض .

صافحوا : باشروا ، والآسُول قد تقدَّم في السابعة .

أطف : اجعله يطوف وقد بين لما كناه أبا السرو ، أنه من فعل السرى
من الرجال ، وعنوان السرو : دليل المروءة .

* * *

قال : ففقه ابنه لطائف رموزه ، بلطافة تمييزه ، فطاف علينا بالطيبات
والطيب ، إلى أن آذنت الشمس بالمغيب . فَلَمَّا أَجْمَعْنَا عَلَى التَّوْدِيعِ ،
قُلْنَا لَهُ : أَلَمْ تَرَ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ الْبَدِيعِ ، كَيْفَ بَدَأَ صُبْحُهُ قَطْرِيرًا ،
وَمُسِيَّهُ مُسْتَنِيرًا فَسَجَدَ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ، وَقَالَ

لَا تَيْأَسَنَّ عِنْدَ النَّوْبِ مِنْ فَرْجَةٍ تَجْلُو السَّكْرَبِ

فَكَلَّمْ سَمُومَ هَبَّ ثُمَّ جَرَى نَسِيمًا وَانْقَلَبَ

(٢٥ - شرح مقامات الحريري ج ٢)

وَسَحَابٍ مَكْرُوهٍ تَنْشَى فَاَضْمَحَلَّ وَمَا مَسَّكَبٍ
 وَدُخَانٍ خَطْبٍ خَيْفٍ مِنْهُ فَا اسْتَبَانَ لَهُ لَهَبٍ
 وَلَطَأَمْنَا طَلَمَ الْأَسَى وَعَلَى تَفِيئَةٍ غَرَبٍ
 فَاصْبِرْ إِذَا مَا نَابَ رَوْعٌ فَالزَّمانُ أَبُو الْعَجَبِ
 وَتَرَجَّ مِنْ رَوْحِ الْإِلَهِ لَطَائِفًا لَا تُحْتَسَبُ
 قَالَ: فَاسْتَمَلَّيْنَا مِنْهُ أَيْيَاتَهُ الْفَرَّ، وَوَالَيْنَا اللَّهُ تَعَالَى الشُّكْرَ، وَوَدَّعْنَاهُ
 مَسْرُورِينَ بِبُرْئِهِ، مَغْمُورِينَ بِبُرْءِهِ :

قوله: « فقه »، أى فهم . لطائف : دقائق . رموزه : إشارات الخفية ،
 والرمز : الإشارة بالشفهين أو اليمين . آذنت : أعلمت . أجمعنا : عزمنا .
 اللدبع : العجيب . قطريرا : مظلمًا ، ورجل قطيرير : شديد العبوس ، واقطر
 النجوم : اشتدوا . للصنبح والمُسى : اسمان لوقت زوال الظلام وللضياء . مستنبرأ :
 كثير للضوء .

وَالذُّوبُ : النوازل . فَرْجَةٌ : راحة . تجلو للكُرْب : تنزيل الهموم ،
 وَأَنشَدُوا فِي هَذَا الْمَعْنَى :

لَا تَضِيقُنَّ فِي الْأُمُورِ فَقَدْ تَكْشَفُ غَمَاؤُهَا بِغَيْرِ احْتِيَالٍ^(١)
 رُبَّمَا تَكْرَهُ النَّفُوسُ مِنَ الْأَمْرِ لَهُ فَرْجَةٌ كَحَلِّ الْعَقَالِ
 كَذَا أَنشَدُوهُ فَرْجَةً بِالْفَتْحِ ، وَالْفَرْجَةُ بِالضَّمِّ فِي الْحَائِطِ وَشَبَّهَ ، وَبِالْفَتْحِ
 فِي الْأَمْرِ ، وَانْظُرْ هَذَا الْبَيْتَ فِي الْأَرْبَعِينَ فِي أَخْبَارِ [أَبِي] عَمْرٍو بْنِ الْعَلَاءِ .
 مَعْمُومٌ : رِيحٌ حَارَةٌ . نَسِيمًا : رِيحًا لَيِّقَةً . تَنْشَى : ابْتَدَأَ وَظَهَرَ . اضْمَحَلَّ :

(١) الْبَيْتَانِ فِي اللِّسَانِ - فَرَجٌ وَنَسِيمًا إِلَى أُمِيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ .

زال . سكب : أمطر . خطب : أمر شديد . لهب النار : اشتعالها بنفردخان ،
وفي هذا المعنى قال أبو نواس :

خَفَضَ عَلَيْكَ وَلَا تَكُنْ قَلِقَ الْخَشَا مِمَّا يَكُونُ وَعَلَهُ وَعَسَاهُ
فَالدَّهْرُ أَقْصَرُ مُدَّةً مِمَّا تَرَى وَعَسَاكَ أَنْ تُكْفَى الْقَذَى تَخْشَاهُ

وقال أيضا :

حَسَنَ الظَّنِّ بَمَنْ فِدَاكَ كُلَّ إِحْسَانٍ وَقَوَى أَوْدَكَ
إِنْ رُبَا كَانَ يَكْفِيكَ الْدَى كَانَ بِالْأَمْسِ ، سِيَكْفِيكَ غَدَكَ

الأسى : الحزن . تفيئته ، أى حينه ، وقال الزبيرى فى الأبنية : جاء على
تفيئة ذلك ، وَتَفِيئَتُهُ حينه ووقته . والروح . الرزق : والروح : السرور
والفرح ، والروح : برّد نسيم الراحة .

اللطائف : جمع لطيفة ، وهى رفق الله تعالى بمعباده وإحسانه إليهم ،
واللطيف : الرفيق والحسن ، وأراد فى البيت : أرجُ فى شدائدك الله ، فله الطاف
كثيرة لا تحصى بالمدة ، فبعد العسر يسر .

• • •

[نبذ من الأقوال الحكيمة فى الفرج بعد الشدة]

وأنشد أبو حاتم فى معنى أبيات المقامة :

إِذَا اشْتَمَتِ عَلَى الْيَأْسِ الْقُلُوبُ وَضَاقَ لِمَا بِهِ الصَّدْرُ الرَّحِيبُ
وَوُطِّئَتِ الْمَكَارِهِ وَاطْمَأْنَنَتْ وَأُرْسَتْ فِي مَكَانِهَا الْخَطُوبُ

ولم ترَ لا نكشاف العُترَ وجهاً ولا أغنى بحيلته الأريبُ
أُتاك على مُنوطٍ منه غوثٌ يمنّ به اللطيف المستعجبُ
وكلّ الحادثات إذا تَفاهت فقرونٌ بها الفرجُ القريبُ

قال أبو بكر بن الأنباري : أنشدني إسماعيل القاضي :

لا تعقبنَ على النوائِبِ فالدهرُ يُرغمُ كلَّ عاتِبِ
واصبِرْ على حَدَثَانِهِ إن الأمورَ لها عواقِبِ
ولكلِّ ضافيةٍ قذَى ولكلِّ خالصةٍ شوائِبِ
كم فرجةٍ مطويةٍ لك بين أنفَاءِ النوائِبِ
ومسرةٍ قد أقبلتْ من حيث تُنتظرُ المصائبِ

قال للقاضي رحمه الله : ما عرض لي همّ فادح ، فذكرت تلك الأبيات ،
إلا رجوت من الله الفرج ، ثم تناولت عاقبة ما أحذره إلى فاتحة ما أوتر .

قال علي الكاتب : أصبحت يوماً مغموماً غمّاً لا أعرف سببه ، فجاءني
رحل بظمِرٍ حُوارٍ وإذا فيه :

روح فؤادك بالضحى ترجم إلى روح وطيب
لا تياسن وإن ألح الدهر من فرج قريب

قال : فزال غنى لهم ، ووجدت طعم الفرج .

وحكى الأصمعي رحمه الله تعالى قال : بث ليلةً بالهادية وحيداً مغموماً ،
فلما انتهى الليل سمعت قائلاً يقول ولم أر شخصه :

فرج القضاء بكف من بقضائه نزل البلا

واصبر فكلَّ شديدة لا بدَّ يتبعها رخاء

وقال آخر :

سوفَ تبلى كلَّ جدَّة وسقضى كلَّ مدَّة
إنما الدهر عيال وموارٍ مستردَّة
شدة بعد رخاء ورخاء بعد شدة

وقال آخر :

خف إذا أصبحت ترجو وارحُ إن أصبحت خائف
رُبَّ مكروه مخوفٍ فيه لله لطائف

* * *

قوله : استمليدا : كتبنا . الغر : الحسان . والينا . تابعنا . مغرورين :
مغطين . برئه . إفاقته . برَّه : إحسانه وإكرامه .
وحبَّهل : قال ابن الأنباري : فيها ست لغات .

قال عبد الله بن مسعود . إذا ذكر الصالحون فخبَّهلاً بمر ، ومعناه أقبلوا
على ذكر امر ، فتوتون هلاً وتنصبه على المصدر ، كأنه قال : مرحباً به .
الثاني : تفتح حيَّ وهل وتبنيها كخمسة عشر .

الثالث : تسكن هاء « هلا » هذه الشبهة لكثرة الحركات .

الرابع : حيَّهل بتسكينهما جميعاً كبخ بخ .

الخامس : حيَّهل إلى امر : أى هلموا إلى ذكره .

السادس : حيَّهل على امر : أى أقبلوا على ذكره .

تفسير ألفاظ ما تضمنته هذه المقامة

من كلمات لقوبة وكفى طفيله وكفايات صوفية

قوله : ذات العويم ، يعنى به الزمان المتقدم ، ومثله ذات الزمن .

والسميرية : الرماح ، وفي تسميتها بذلك قولان : أحدهما أنها سميت بذلك لصلابتها ، من قولهم : اسمّر الشيء ، إذا اشتد . وقيل لأنها منسوبة إلى سمير زوج رَدْبَنَة ، وكانا جميعاً يقيومان للرماح بسوق هَجَرَ فَنُسِبَتْ إليهما .

وقوله : نقضاً على نقض : أى مهزولا على مهزول .

و « الجران » باطن العنق ، وقيل منه يعمل السباط .

وقوله : فضرب الله على الآذان ، أى أنامنا ، ومنه قوله عز وجل ﴿ فضربنا على آذانهم في الكهف ﴾ ، أى أنعام ، وقيل في تفسيره منعناهم السمع .

وقوله : تكررنا لصلاة المعجماء ، أى غسلنا أكارعنا ، وهو كناية عن الضوء ، والمعجماء : صلاتا الظهر والعصر ، سُمِّيَتْا بذلك لإسمرار القراءة فيهما ، ومنه الحديث : « صلاة النهار عجماء » .

وقوله : هلم ، أى قل هلم ، وهى تأتى بمعنى هاتِ وبمعنى أقبل ، والأفصح أن يوحد لفظهما مع المذكر والمؤنث والاثنتين والجمع ، وبه نطق القرآن في قوله تعالى : ﴿ والقاتلين لإخوانهم هلم إلينا ﴾ ، ومن العرب من يقول للمذكر الواحد هلم ، وللثنتين هلمتا ، وللجمع : هلموا ، وللمؤنث الواحد هلمتى وللثنتين هلمتا ، وللجمع هلمن .

وقوله : حيل ، أى عجل وأسرع ، يقال : حى فلان بفلان بنسكين للام

وفتحها ، وتنوينها وبإثبات النون معها ، ومعه قول ابن مسعود في عمر رضى الله عنه : إذا ذكر الصالحون فحتى مَلَأَ بعمر ، وفي حَيْثَل لفات آخر أضر بها عن ذكرها ، إذ ليس هذا موضع استيفاء شرحها .

فهذا تفسير الألفاظ اللغوية .

وأما تفسير الكنى للطائفة والكذابات الصوفية :

فأبو يحيى ، كنية الموت

وأبو عرة : كنية الجوع ، ويكنى أيضاً أبا مالك .

وأبو جامع : الخوان .

وأبو نعيم : الخبز الحواري .

وأبو حبيب : الجدى .

وأبو ثقيف : الخلل .

وأبو عون : الملح .

وأبو جميل : البقل .

وأم القرى : السَّكْبَاج .

وأم جابر : اللهرسة .

وأم الفرج : الجوذاب .

وأبو رزين : الخبيص .

وأبو القلاء : النفاوذق « كذا في الأصل » .

وأبو إياس : الفسول .

والمرجفان : الطست والأبريق . وأبو المرو . البخور .

المستماء العشرون وهى الفارقة

حكى الحارث بن همام قال : يَمُنْت مَيَّا فَارِثِينَ ، مع رُقَّةَ
 موافقين ، لا يُمَارُونَ فى المُنَاجَاة ، ولا يَذَرُونَ مَاطِعُ المَدَاجَاة ،
 فَكُنْتُ بِهِمْ كَمَنْ لَمْ يَرَمْ عَنْ وَجَارِهِ ، ولا ظَمَنَ عَنْ أَيْفِهِ
 وَجَارِهِ . فَلَمَّا أَتَيْنَا بِهَا مَطَايَا التَّنْسِيَارِ ، وَانْتَقَلْنَا عَنْ الْأَكْوَارِ إِلَى
 الْأَوْكَارِ ، تَوَاصَيْنَا بِتَذْكَارِ الصُّعْبَةِ ، وَتَنَاهَيْنَا عَنْ التَّقَاطُعِ فى
 الغَزْبَةِ ، رَاتَعْنَا نَادِيًا نَمْتَرُهُ طَرْفَى النَّهَارِ ، وَنَهَادَى فِيهِ طَرْفَ
 الْأَخْبَارِ ، فَبَيْنَا نَعْنُ بِهِ فى بَعْضِ الْأَيَّامِ ، وَقَدْ انْتَضَمْنَا فى سِلَاحِ
 الْإِلْتِمَامِ ، وَقَفَ عَلَيْنَا ذُو مِقْوَلٍ جَرِيٍّ ، وَجَرَسِ جَهْوَرَى ،
 فَحَيَّا تَحِيَّةَ نَفَاثٍ فى الْمَقْدِ ، قَنَاصٍ لِلْأَسَدِ وَالنَّقْدِ ،
 ثم قال :

* * *

يَمُنْت ، أى قصدت .

[ذكر ميفارقين]

ميتافارقين ، بلدة منها إلى نصيبين ثلاثون فرسخا ، وميفارقين بدمار بكر ،
 وهى من كور الجزيرة ، وكان تملكها سيف الدولة ، وذكرها المتنبى ، وقال :

نجانفَ عن ذات اليمين كأنها ترقى لميّا فارقين وزحماً^(١)

(١) ديوانه ٣ : ٣٥٨ .

الفنجد بهي : سمعتُ بعضَ الأدباء يقول : سُمِّيت ميفارقةين ، لأنَّ ذا الرِّمَّة
أو غيره من المشاق ، لو وصل إليها بالاتِّفاق ، وشاهد وجوه أهلها للملاح ،
والعيون السقيمة الصَّحاح ، وعابن رشاقة للتدود ، ولباقاة الخلدود ، وسواد
الطَّرَر ، وبياض الثُّرر ، وسمرة الشَّفاء اللمس ، وحمرة الوجنات والجباه المُنس ،
لقال لصاحبه : مَيِّافارقيني ، ولا ترانقني ، فلا يجوز التَّيمم مع وجود الماء ،
ولا حاجة إلى الدواء بعد البرء والشفاء .

قوله : « يمارون » أى يجادلون ولا يخالفون . النجاة : الحادثة . المداجاة :
المسيرة بالعداوة . لم يرم : لم يزل . يقال ماراضى ولا يرمى ، أى لم يبرح عى
ولا زال ، ولا يقال إلاّ منفياً وجاره : لده ، وأصله الجحر : ظمن : رحل .
أليفه : صاحبه . الأكوار : الرجال . الأوكار : البيوت ، يريد أنهم أتموا
سفرهم وبلغوا الوطن ، فتركوا النقلة وأقاموا فى البيوت . تناهينا : نهى بهضنا
بعضاً . نادياً : مجلساً . نتمره طرفى النهار ، أى نجلس فيه بالندوة والعشى .
طُرِف : غرائب . السَّلك : خيط النظام . وانتظمنا : اجتمعنا فيه . الالتئام :
الاتفاق ، يقال : اسان جرىء مقدم على الكلام . جرس : صوت . جَهْورِيّ :
عالٍ . نقات : ساحر ، والمُقد : ما يعقدها السَّحرة وينفثون عليها بالهباق .
فقاص : صائد . المُتَقَد : غنم صفار .

عِنْدِي ياقوم حديثٌ عَجِيبٌ فيه اعتبارٌ لليبِّ الأريبِ
رَأَيْتُ فى رِيحانِ عُمْرِى أَخَا بأْسٍ لَهُ حَدُّ الحِسامِ انْقَضِيبِ
يُقَدِّمُ فى المَرْكِ إِقدامَ مَنْ يُوقِنُ بالفتكِ ولا يَسْتَرِيبِ

فَيُفْرِجُ الصِّيقَ بِكَرَّاتِهِ حَتَّى يَرَى مَا كَانَ ضَمْنَكَ رَحِيبُ
 مَا بَارَزَ الْأَقْرَانَ إِلَّا انْتَنَى عَنْ مَوْقِفِ الطَّعْنِ بِرَمْعِ خَضِيبُ
 وَلَا سَمَا يَفْتَحُ مُسْتَضْمَعًا مُسْتَغْلِقَ الْبَابِ مَتْنِعًا مَهِيبُ
 إِلَّا وَتُودَى حِينَ يَسْمُو لَهُ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَقَتَحُ قَرِيبُ
 هَذَا وَكَمْ مِنْ لَيْلَةٍ بَاتَهَا يَمِيسُ فِي بُرْدِ الشَّبَابِ الْقَشِيبُ
 يَرْتَشِفُ الْغَيْدَ وَيَرْشُفُنُهُ وَهُوَ لَدَى الْكُلِّ الْمُقْدَى الْحَبِيبُ
 فَلَمْ يَزَلْ يَبْتَزُّهُ دَهْرُهُ مَا فِيهِ مِنْ بَطْشٍ وَعُودٍ صَلِيبُ
 حَتَّى أَصَارَتْهُ اللَّيَالَى لَقَى يَافَهُ مَنْ كَانَ مِنْهُ قَرِيبُ
 قَدْ أَعْجَزَ الرَّاقِيَ تَحْلِيلُ مَا بِهِ مِنَ الدَّاءِ وَأَغْيَا الطَّيِّبُ
 وَصَارَ الْبَيْضَ وَصَارَ مِنْهُ مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ الْمَجَابَ الْحَبِيبُ
 وَأَضْ كَالْمَنْكُوسِ فِي خَلْقِهِ وَمَنْ يَعِشْ يَلْقَ دَوَاهِيَ الْمَشِيبُ
 وَهَا هُوَ الْيَوْمَ مَسْجَى فَنٍ يَرْغَبُ فِي تَكْفِينِ مَيِّتٍ غَرِيبُ

* * *

والليب والأريب : كلاهما بمعنى العاقل . رِيْمَان : أول . أَخَا بَأْس :
 صاحب شدة . الْحَسَامُ لِلْقَضِيبِ : للسيف المقاطع . الْمُعْرَك : موضع القتال ، وأراد
 به فروج الأبقار . الْفَتَك : سَفَكُ الدَّم ، وهو أيضاً ركوب الرجل ما هم به .
 كَرَات : دفعات ورجعات . ضَمْنَكَ : ضيقاً . رَحِيب : واسع . بَارَز : قاتل .
 الْأَقْرَان : الأمثال في الشدة وغيرها . انْتَنَى : رَجَعَ . خَضِيب : مخضوب ،
 يريد أيضاً اقتضاض الأبقار . سَمَا : ارتفع وقام . مَتْنِع : أى صعب ممنوع .
 مَهِيب : مخوف . يَمِيس : يتبختر . يَرْتَشِفُ : يقبل ويمص ريقهن . وَالتَّرْشَفُ :

المص السكبر . والفيد : جمع غيداء ، وهي اللينة المفاصل من النعمة ، وقيل : المائلة للعنق في نعمة . يبتزّه : يجرّده . والبطش : القوة والتناول الشديد . صليب : قوى شديد . لقي : طريقا . بمافه : يستثقله ويكرهه . تحليل : إذهاب وإزالة ، وتمحلّ الداء : ذهب شيئا فشيئا . أعيا : غلب . صارم : قاطع . للبيض : النساء الحسان . الجباب : الذي تحميه للنساء حاجته منهن . والجبيب : الذي يجيبهن لحاجتهنّ منه . آض : رجع : المنكوس : الردود إلى حالته الأولى من الضعف ، وأشار إلى قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ ، فردّه إلى الحالة الأولى ، وهذا هو النكس في الخلق ، والنكس في المرض أن يمرض ، ثم يبرأ ، ثم يمرض . والنكس في السهام : أن ينكسر السهم ، فيجعل في الجعبة محولا الكسر إلى فوق ، فإذا أدخل الرامي يده في الجعبة ليأخذ سهما فوجده محولا تركه وأخذ غيره . دواهي المشيب : حوائج الشيخ من الضعف والعلل وغير ذلك .

ونذكر هنا من الأدب ما يليق بالموضع :

[شكوى الضعف والسكبر]

دخل المستوغر بن ربيعة على معاوية وهو ابن ثلثمائة سنة ، فقال : كهف تجدك يا مستوغر ؟ فقال : أجدني قد لان مني ما كنت أحب أن يشتد ، واشتد مني ما كنت أحب أن يلين ، وابيض مني ما كنت أحب أن يسود ، واسود مني ما كنت أحب أن يبيض ، ثم أنشأ يقول :

سَلْنِي أُنْبِتَكَ بِآيَاتِ الْكِبَرِ نَوْمُ الْإِنْسَاءِ وَسُمَالٌ بِالسَّحَرِ
 وَقَلَّةُ الطَّعْمِ إِذَا الزَادَ حَفَرَ وَتَرْكُ الْحَسَنَاءِ مِنْ قَبْلِ الظُّهْرِ
 * وَالنَّاسُ يَنْبَلُونَ كَمَا تَبَلَى الشَّجَرُ *

ثم قال : ألا أخبركم بحميد العنب ؟ هو ما زوى عمودُه ، واخضر عوده ،
 وتفرق عنقودُه . ألا أخبركم بحميد الرُّطْب ؟ هو ما كبر لحاه ، وصغر نواه ،
 ورق سحاه .

وفي الزبور : مَنْ بَلَغَ السَّبْعِينَ اشْتَكَى مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ .
 وقال ابن أبي معن :

مَنْ عَاشَ أَخْلَقْتَ الْأَيَّامَ جِدَّتْهُ وَخَانَهُ ثَقْبَاءُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ
 * * *
 قوله مسجى : أى مفطى .

* * *

[استطراد بذكر بعض الأفاكيه]

ووصف في أول الشعر ذكره بالشدة وفي آخره باللين ، وأذكر من الصنفين
 ما يكون من شرط ما ذكر .

حكى أبو زياد السكلابي ، قال : كان عندنا أبو الغريب شيخاً فتزوج ولم
 يُؤلم ، فاجتمعنا على باب خبائه فصحننا : أولم ولو يربوع ، أو بقرد مجذوع ،
 فقلقتنا من الجوع : فأولم ، فلما عرس غدونا عليه قلقتنا :

يَا لَيْتَ شَعْرَى عَنْ أَبِي الْغَرِيبِ إِذْ بَاتَ فِي مَجَاسِدٍ وَطَيْبِ^(١)

(١) ذيل زمر الآداب .

معاذك للشأ الرئيب - أأخذ الحفار في القليب

• أم كان رخواً يابس القضيب •

فصاح : يابس القضيب والله انم أنشأ يقول :

سقياً لهد خليل كان يادم لي زادي ويذهب عن زوجاتي للغضب
كان الخليل فاضحى قد تحوته مر الزمان وتطمانى به للثقب
باصاح أبلغ ذوي الزوجات كلمهم أن ليس وصل إذا انحلت عرا الذنب
والقوافى وقعت في لفظ يعقوب موقوفة . وعرا الذنب : عروق الذكر .

وكان أبو الهيثم الأعرابي عنيماً ، وكان يتجعد ويقول لقومه : زوجوني
امراتين ، فيقولون : أما في واحدة كفاية فيقول : أمالي فلا ، فزوجه أعرابية ،
وقالوا له : إن كفتك وإلا زوجناك الأخرى ، فدخل بها ، وأقام عليها أسبوعاً
فزاره إخوانه في اليوم السابع ، فقالوا له : يا أبا الهيثم ، ما كان من أمرك في
الأول ؟ فقال : عظيم جداً ، فقالوا : فني اليوم الثاني ، فقال أعظم وأجل ،
قالوا : فني اليوم الثالث ، قال : لا تسألوا ، فقالت امرأته من وراء الستار :

كان أبو الهيثم ينزو في الوهق حتى إذا ما حل في بيت أفاق

فيه غزال حسن الدل خرق مارسه حتى إذا ارفض العرق

• تكسر المفتاح وانسد التلق •

الوهق : حبل يفتح فيه عين واسمة تؤخذ بها الدابة ، والأفق الجيد .
وينزو : يمتد ويقصر .

وتزوج الفرزدق بامرأة من مجاشع ، فمجز عنها فقال :

يا لثف نفسي على نعط فجت به حين التقى الركب الخلق والركب

ما أبعد ما بين حالته هذه وبينها وقد لقيته جارية ، فنظرها نظراً شديداً ،
فقلت له : مالك تنظر ، فوالله لو كان لي ألف حريم طيعة في واحد ، قال :
ولم يا لخناء ؟ قالت : لقمح منظرِكَ وسوء خيَرِكَ فيما أرى ، فقال لها : أما والله
لو خبَرَتني لنفر مخبري على منظرِي ، ثم كشف لها وأراها مثل ذراع البكر ،
فكشفت له عن مثل سنام البعير ، فقسمنها ، وقال :

أدخلت فيها كذراع البكر مُدَمِّلج الرأس شديد الأمر
زاد على شبر ونصف شبر كأنما أولجته في بحر

وسمع بشار كلام امرأة ، فأحبها وأرسل لها أن تواصله ، وألح عليها ،
فقلت لرسوله : أي معنى له في أولي فيه ، وهو أحمى لا يراني ، فيعرف جمالي ،
وهو قبيح الوجه لاحظ لي فيه ! فليت شعري لأي شيء يطلب وصال مثل !
فأدّى إليهِ الرسول كلامها ، فقال عُدْ إليها فقل لها :

أبْزِي له فضل على آبارهم وإذا أشط سجدن غير أوإي^(١)
تلقاه بعد ثلاث عشرة قائماً نظر المؤذن شك يوم سحاب
وكان هامة رأسه بطيخة حملت إلى ملك بدجلة جاني

وعشق^(٢) امرأة وتردّ رسولهُ إليها حتى أبرمها ، فشكته إلى زوجها ،
فقال : أجيبه وعديه إلى هنا ، ففعلت ووجهت له ، فجاء ولم يعرف بزوجها ،
فقال لها : ما اسمُكَ بأبي أنت وأمي ! فقالت : أمانة ، فقال :

أمانة قد وُصفت لنا بحسن وإنا لا نراك فالسيفنا

(١) الاغانى ٣: ٢٠٢ ، وأشط : أظط .

(٢) الخبر والشعر في الأغاني ٣ : ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

فوضعت يده على أئير زوجها ، وقد أنعظ لحسن حديثها معه ، ففزع ووثب قائماً وقال :

على أئية ماعشت حياً أمسك طائفاً إلا بعود
ولا أهدى لأرض أنت فيها سلام الله إلا من بعيد
طلبت غنيمة فوضعت كفي على أئير أشد من الحديد
نغير منك من لاخير فيه وخير من زيارتك قومودي

فقبض زوجها عليه ، وقال : همت أن أفضعك ، فقال : كفاي فديتك ما فعلت بي ، والله لا أعود لمثلها أبدا .

سمع^(١) الحكم بن عبدل امرأة تتمثل بقوله :

وأعسر أحياناً فتشدت عسرتي فأدرك ميسور الغنى ومعى عريض

فقال لها : يا أختي ، أتعرفين قائل هذا الكلام؟ قالت : هو ابن عبدل ، قال : أفعرفينه عينا^(٢) ؟ فقالت : لا ، والله ، فقال : أنا هو ، والذي أقول :

وأنعظ أحياناً فينقد جلدُهُ وأعد له جهدي فلا ينفع المذل
وأزداد نطقاً حين أسمع جارتي فأوثقه كي ما يثوب له عقل
وربما لم أدّر ما حيلتي به إذا هو آذاني وغر به الجهل
فأويته في بطن جاري وجارتي مكابرة قدما^(٣) وإن رغم الفعل

فقالت المرأة : بش الجار والله للمغيبية أنت ، قال : إي والله ولقي معها زوجها

(١) الخبر والشعر في الأغاني ٢ : ٤٠٩ ، ٤١٠ .

(٢) الأغاني : « أنشبتينه مرفة » .

(٣) انقدم : المضي في الإقدام .

وابنهما وأخوها ، أين قول هذا على إسلامه من قول عنقرة على جاهليته :
 وأغض طرفي ما بدت لي جارتني حتى يوارى جارتني مأواها^(١)
 إلى أمرؤ سمنح الخليفة ماجدُ لا أتبع النفس اللجوج هَواها
 وقال أبو الرقعتي^(٢) :

كل يوم أنا من أبري في أمر عَجَابِ
 ليس بخليفي من همٍّ وحزنٍ واكتئابِ
 عيَّنه في كلِّ من دبَّ على وجه التَّرابِ
 لم يدع لي ذهاباً إلّا رماه بالذهابِ
 وابتدى المشؤم أن يَمْلَ في بيع الثَّيابِ
 لعنة الله علىه وبراعيث الكلابِ

وللمفجع البصري في ضدهما تقدم ، والمفجع صاحب ابن دريد ، والقائم
 مقامه بالبصرة في الإملاء :

لي أيز أراحني الله مِنْهُ صارمى به عريضا طويلاً^(٣)
 نام إذ زارني الحبيب عناداً ولتهدى به بينك الرسولاً
 حُسِبَتْ زورة على إخيين وانصرفنا وما شفينا خليلاً
 ولراشد بن إسحاق^(٤) :

طالبنا قَت كالمفارة نهتز اهتزازاً تسمو إليه للمهونُ

(١) ديوان عنقرة ٩١ .

(٢) يقيمة الدهر ، ١ : ٢٦٩ ، وهو أحمد بن محمد الأنطاكي ؛ ترجم له الثعالبي وذكر كثيراً من شعره .

(٣) يقيمة الدهر ٢ : ٢٣٤ .

(٤) هو أبو حكيمة ، وفي ثمار القلوب ٣٢٥ وما بعدها بعض أخباره وشعره .

ربّ يوم رَفَعْتُ فيه ثِيَابِي فَكَأَنِّي فِي مَشِيْقِي مَخْتُونُ
فَحَنَنْتُ قَوْسَكَ الْخَطُوبِ وَأَفْنَدُ لَكَ فَنُونٌ تَفْنِي عَلَيْهَا الْفَنُونُ
لَمْ يَدْعُ مِنْكَ حَادِثُ الدَّهْرِ إِلَّا جِلْدَةً كَالرِّشَاءِ فِيهَا غَضُونُ
تَلَقَّنِي كَأَنَّمَا صَوَّلَجَانُ أَوْ كَمَا حُرِّقَتْ مِنْ الْخَطِّ نُونُ

وله أيضا فيه :

كَأَنَّهُ حِينَ أَطْوَبِهِ وَأَنْشَرُهُ سِرٌّ يُبَلِّغُ عَلَى دَوَامَةِ الزَّبَقِ
وَأِنْ يَقُمْ قَلْتُ قِسَاءً مَعْنَفَةً أَوْ عُرْوَةً رُكِبَتْ فِي رَأْسِ إِبْرَقِ

وله أيضا فيه :

أُزِرُّ ضَعِيفَ الْمَتَنِ رِثَ الْقَوَى لَوْ شِئْتُ أَنْ أَهْقِدَهُ لَا نَقْدُ^(١)
إِنْ يُبْسِ كَالْبَقْلَةِ فِي لَهْمِهَا فَطَالَمَا أَصْبَحَ مِثْلَ الْوَرْدِ

وله أيضا فيه :

يَنَامُ عَلَى كَفِّ الْفَتَاةِ وَتَارَةً لَهُ حَرَكَاتٌ مَا يُحْسِنُ بِهَا الْكَفَّ^(٢)
كَأَنَّ بَرِخَ الْفَرْخِ ابْنَ بَوْمَيْنِ رَأْسُهُ إِلَى أَبِيهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الضَّخْفُ

الفنجديهي : سمعت الحافظ أبا جعفر الروزي يقول : ما زحت شيخنا نجيب
ابن ميمون الواسطي يوما - وكان شيخا دمثا غريبا - فقال له : أخبرني هل
بقي - من سلطان الهوى شيء ؟ وهل تقوم للخدمة العكازة الميمونية ؟ فقال :
آه آه ، ثم أنشد :

تَدَقُّفُ فَوْقَ الْخَصِيعِينَ كَأَنَّهُ رَشَاءٌ عَلَى رَأْسِ الرِّكْيَةِ مَلَفَّ^(٣)

(١) لمار القلوب ٢١٦ .

(٢) لإسحاق بن راشد ، شرح المختار من شعر بشار ٢١٧ .

(٣) شرح المختار من شعر بشار ٢١٣ ، ونسبه إلى راشد بن إسحاق ، وما أيضا
في معاهد التنصيص ٣ : ١٩٧ .

(٢٦ - شرح مقامات الحريري ج ٢)

كفرخ ابن ذى بومين يرفع رأسه إلى أبوبذر ثم يدركه الضعف
وأنشد أيضاً :

يقوم فى الليل عند اللؤلؤ منعنياً كأنه قوس نذافٍ بلا وترٍ
ولا يقوم إذا انتهت سحره كما تقوم أبور الناس فى السحر
ثم بكى بكاء شديداً ، وذكرنا ووعظنا .

وهذه الأبيات المنسوبة لراشد بن إسحاق كلها من قصائده مطوَّلة فى هذا
الفن ، وأكثر شعره فيه ، وله فيه شعر كثير ؛ ومنه انتزع الحريرى قصيدته فى
هذه المقامة .

• • •

ثم إنه أعلن بالنعيب ، وبكى بكاء المحب على الحبيب . ولما
رقات دمعته ، وانفثت لوعته ، قال : يانجعة الرواد ، وقُدوة
الأجواد ، والله مانطقت بيهتان ، ولا أخبرنكم إلا عن عيان ،
ولو كان فى عصاى سَيْرٌ ، ولغنيى مُطِيرٌ ؛ لاستأثرت
بما دعوتكم إليه ، ولما وقفت موقف الدال عليه ،
ولكن كيف الطيران بلا جناح ، وهل على من لا يجد
من جناح !

• • •

قوله : « أعلن » أى رفع صوته . والنعيب : البكاء . وفى بكاء المحب على
الحبيب يقول الشاعر وزاد معنى :

أتقن تؤنبنى فى البكاء فأهلاً بها وبثانيتها
تقول وفى قولها حكمة . أتبكي بعين ترائى بها !

قلت : إذا استعسنت غيركم أمرت البكاء بتأديبها
 قوله : رقأت ، أى انقطعت . انفتأت : انكسرت وسكنت . لوحته :
 حرقة . النجعة : المرعى . الرواد : اللطالون لها . بهتان : باطل . عيان : معاينة .
 قوله : « فى عصاى سير » مثل يضرب لمن ليس عنده منفعة ولا له قوة .
 والسير : الشراك يدخل فى ثقب فى رأس العصا ويمتد منه حلقة ، يدخل فيها يده
 للتحكم بالعصا ، فتكون أشدّ لاعتماده عليها ، وضربه بها ، فجعل عصاه
 حائلة من سيرها ، وهو يريد أن لا منفعة عنده .
 وأنشدوا :

يا لك من همّةٍ وخَيْرٍ لو كان لى فى عصاى سَيْرٌ
 صبراً على الثنائب صبراً ما يصنع الله فهو خيرٌ
 فن قليل بدا كثيرٌ كم مطر بدؤه مطيرٌ

• • •

[للعصا وما قيل فيها شعراً ونثراً]

وذكر الجاحظ^(١) فوائد العصا ، فمنها : سئل يونس عن قول الله عز وجل :
 ﴿ وَلِىَ فِيهَا مَآرِبٌ أُخْرَى ﴾^(٢) فقال : لست أحيط بجميع مآرب موسى ، لكنى
 أذكر جملة تدخل فى باب الحاجة إليها :

من ذلك أنها تحلّ للحية والعقرب والذئب والفعل المأخ ، ويتوكأ عليها
 الكبير والستيم والأفطع والخطيب والأعرج ، فتنبو للأعرج من ساق أخرى
 [وتنبو]^(٣) للأعمى عن قائده . وهى للقصار والذباغ . وهى المفاد^(٤) لِمَلَّةٍ وهَرَآكٍ
 للثَنُور ، وللق الجصّ والسسم ، ولخبط للشجر ، وللشرطى والسكارى ، وللرامى

(١) البيان والتبيين ٣ : ٦٧ وما بعدها ، مع تزيّد واختصار

(٢) سورة طه ١٨

(٣) من البيان والتبيين .

(٤) المفاد : الحشبة التى يحرك بها الثنور . والملة : الرماد الحار الجمر

خفيه ، وللاراكب مركبه . ووترد في الحائط ، وتركزها فتجعلها قبلة ، وإن شئت مظلة ، وتدخلها في عروة اللزود وطرفها في يدك ، والثاني في يد صاحبك ، وإن كان فيها رُجّ كانت عنزة ، فإن زدت شيئا ، كانت حُكَّازا ، فإن زدت شيئا كانت مطردا^(١) ، وإن زدت شيئا كانت رمحا .

وكانت آيات موسى صلوات الله وسلامه عليه في عصاه ، وكانت لاتفارق يد سليمان عايه الصلاة والسلام في مقاماته ، حتى ساقط الله الأرضة وهو ميت فسقط ، فكانت للجن آية .

وكان الحكم بن عُبَيْل أخرج أحذب هجاء خبيث للمجاء ، وكان الشعراء يفتنون بأبواب الملوك فلا يؤذن لهم ، وكان يكتب على عصاه حاجته ويبيع بها ، فلا تؤخر له حاجة ، قال يحيى بن نوفل :

عصا - كم في الباب أول داخل ونحن على الأبواب نتمشى ونحجب^(٢)
وكانت عصا موسى لقرعون آية وهذى لعمر الله أدهى وأعجب
تطاع فلا تمسى ويحذر أمرها ويرغب في الرضا منها وترهب
فضحك الناس منها وشاعت بالكوفة ، وصارت ضحكة ، فاجتنب أن يكتب عليها .

وكان لابن عبدل صديق أمي يقال له يحيى بن عُلَته ، وكان ابن عبدل قد أقعد ، فخرجا ليلة إلى منزل بعض إخوانهما ، وابن عبدل يُحمَل والأُمي يقاد ، فلقيا صاحب اللعس ، فأخذهما وحبسهما ، فنظر ابن عبدل إلى عصا ابن علبة في الحبس إلى جانب عصاه ، فضحك وقال :

حبسني وحبس أُمي عُلَته من أعاجيب الزمان^(٣)

(١) المطرد : رمح قصير .

(٢) البيان والتبيين ٣ : ٧٥ ، الأغاني ٢ : ٤٠٤ .

(٣) الأغاني ٢ : ٤٠٥ .

أُمِّي يُقَادُ وَمَقْعَدُهُ لَا الرَّجُلُ مِنْهُ وَلَا الْيَدَانِ
بِأَمْنٍ رَأَى ضَبَّ الْفَلَاةِ قَعِيدَ مَوْتٍ^(١) فِي مَكَانٍ
طَرَفِي وَطَرَفُ أَبِي عُلَيَّةَ دَهْرَنَا مَعْوَاثَانِ
مَنْ يَفْتَخِرُ بِجَوَادِهِ فِي إِهَادِنَا مُكَازَتَانِ

وَقَالَ أَيْضًا: ^(٢)

أَقُولُ لِيَحْيَى لَيْلَةَ السَّجْنِ سَادِرًا^(٣) وَنَوَى بِهِ نَوْمَ الْأَسَدِ الْمُقْعِدِ
أَعْنَى عَلَى حِفْظِ النَّجْمِ وَرَعِيهَا أَعْنَكَ عَلَى تَحْيِيرِ شِعْرِ مُقْعَدِ
فَنِي حَالَتِنَا عَصِيَّةً وَتَفَكُّرُ وَأَعْجَبَ مِنْ ذَا حَبْسِي أُمِّي وَمَقْعَدِ
كَلَانَا إِذَا الْعَكَازُ فَارَقَ كَفَّهُ يُنَيِّخُ صَرِيحًا أَوْ عَلَى الْكَفِّ بِسَجْدِ
فَمُكَازَةٌ تَهْدِي إِلَى الشُّبُلِ أَكْمَتَهَا وَأُخْرَى مَقَامَ الرَّجُلِ قَامَتْ مَعَ الْيَدِ

وَوَلَّى لِإِثْرَةِ الْكُوفَةِ أَعْرَجَ وَوَلَّى شَرْطَتَهَا أَعْرَجَ ، فَقَصَدَ الْأَمِيرُ ابْنَ عَهْدَلٍ
وَهُوَ أَعْرَجٌ ، وَوَجَدَ سَائِلًا أَعْرَجَ فَقَالَ ^(٤) :

أَلَنِي الْمَصَاوِدَعَ لِلتَّضَامِغِ وَالْتِمِيسِ^(٥) حَمَلًا فَمَذَى دَوْلَةَ الرُّجُلَانِ
لَأَمِيرِنَا وَأَمِيرِ شَرْطَتِنَا مَعًا يَأْقُومُنَا لِكُلَيْهِمَا رِجُلَانِ
فَإِذَا يَكُونُ أَمِيرُنَا وَوَزِيرُنَا وَأَنَا فَإِنَّ الرَّابِعَ الشَّيْطَانُ^(٦)
فَبَعَثَ إِلَيْهِ الْأَمِيرُ بِمَائَتِي دَرَاهِمٍ فَضْةً وَسَأَلَهُ أَنْ يَكْفَى .

وَكَثِيرًا مَا تَصَرَّفَ لِلشُّعْرَاءِ فِي ذِكْرِ عَصَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى أَغْرَاضِهِمْ ،
فَمِنْهَا مَا يَحْسَنُ وَمِنْهَا مَا يَجْبَحُ . وَقَالَ ابْنُ سَارَةَ :

وَلَى عَصَا مِنْ طَرِيقِ الْإِثْمِ أَحْمَدُهَا بِهَا أَقْدَمَ فِي تَأْخِيرِهَا قَدَمِي
كَأَنَّهَا وَهِيَ فِي كَفِّي أَهْشُ بِهَا عَلَى ثَمَانِينَ عَامًا لَا عَلَى خَمْسِي

(١) الْأَخَانِي « قَرِينَ مَوْت »

(٢) الْأَخَانِي ٢ : ٤٠٦ .

(٣) السَّادِرُ : الْمَتَّعِرُ .

(٤) الْأَخَانِي ٢ : ٤٠٦ .

(٥) التَّضَامِغُ : النِّظَاطُ بِالْجَمِّ ، وَهُوَ الْمَرْجُ . (٦) فِي الْبَيْتِ لِأَوَّلِهِ

كَأَنِّي قَوْسٌ رَامٍ وَهِيَ لِي وَتَرٌّ أَرْمِي عَلَيْهَا سِهَامَ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ
وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ اللَّبَلَوِيُّ :

كَأَنَّ بَجْنِي حِينَ حَاوَلْتُ بَسَطَهَا لَتُودِعَ إِلَى الْهَوَى بِصَرْفِ الدَّمْعَا
يَمِينِ ابْنِ عِمْرَانَ وَقَدْ حَاوَلَ الْعَصَا وَقَدْ جَعَلْتَ تِلْكَ الْعَصَا حَيَّةً تَسْعَى
قَالَ ابْنُ رَشِيقٍ : كُنْتُ أَمِيلُ إِلَى قِيَمَةِ اسْمِهَا لَيْلٍ ، فَعَشَقْتُهَا بَعْضُ خُدَّامِ
الْحَصُونِ ، وَكَانَ يَحْسَبُ خِدْمَتَهَا وَكَفْسَهَا مَنْزِلَهُ لَا يَثْلُمُ جَاهُ مَقُولِهَا فَفَنِيَتْهُ
عَنْهَا قَلَمُ يَنْتَهَ ، فَقُلْتُ فِيهِ :

ظَنَّ أَنَّ الْحَصُونَ مُلْكُ سَلِيمَا نَ وَلِيْلٍ يَجْهَلُهُ بَلْقَيْسَا
وَلَهُ فِي الْعَصَا مَبَارَبُ أُخْرَى حَاشَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ لِمُوسَى
وَقَالَ الصَّابِي :

يُبْدِي الْقَوَاطِ مَنَاطِكًا وَعِجَابَهُ أَبْدَأْ لِأَغْرَاضِ الْوَرَى يَسْتَهْدِفُ
فَكَانَهُ ثَعْبَانِ مُوسَى إِذْ غَدَا لِحِبَالِهِمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يَتَلَقَّفُ
وَقَالَ الصَّاحِبُ :

هَذَا ابْنُ مَثْوِيَّةَ لَهُ آيَةٌ يَبْتَلَعُ الْأَبْرَ وَأَفْصَى الْخَصَى
يَكْتُمُ بِالرَّسْلِ جَمِيعًا سِوَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ لِأَجْلِ الْعَصَا
وَقَالَ أَبُو الْفَرَجِ الْأَصْبَهَانِيُّ فِي الْقَاضِي الْأَنْدَلُجِيِّ ، وَالتَّحْسُّنِ مِنْهُ عَكَازَةُ فَلَمْ
يُعْطِهَا لِأَبَاهُ :

اسْمِعْ حَدِيثِي تَسْمَعُ آيَةً عَجَبَا لَأَشْيَاءَ أَعْجَبَ مِنْهُ يَبْهَرُ الْقِصَصَا
طَلَبْتُ عَكَازَةَ لِرَجُلٍ تَحْمِلُنِي وَرُمْتُهَا عِنْدَ مَنْ يَخْفَى الْعَصَا فَمَقَى
وَكُنْتُ أَحْسَبُهُ يَهُوَى عَصَا عَصَبٍ وَلَمْ أَكُنْ خَلَقْتُهُ صَبِيًّا بِكُلِّ عَصَا
وَلَمَّا قَدِمَ قَعْبِيَّةُ بْنُ مُسْلَمٍ وَالْيَا عَلَى خِرَاسَانَ سَقَطَتْ الْحَصْرَةُ مِنْ يَدِهِ ، فَتَطَيَّرَ

به أهل خراسان ، فقال : يا أهل خراسان ليس كما ظننتم ، ولكن كما قال الشاعر :

فألت عصاها واستقت بها النوى كما قرء عينا بالإبابِ المسافر^(١)

وأما قول الشاعر :

وبكفيك ألا يرحل الضيفُ لأثما عصا للعبد والبهترُ التي لأنبيها^(٢)

فقال يعقوب: البئر هنا حفرة نجعل فيها الدّلة ، ونجعل عليها الخبزة ، والمصا تقلب بها الخبزة على الدّلة ، وينفض بها الرماد .

وقال آخر :

إذا جاء ثقاف يجبرُ قذاتهُ طویل المصا نكبته عن شهاها

فالتفاف الرسول بين المريب والمريبة ، يأتي كالمسائل ، فإذا وقف ثقف الأرض بمصاه ، فإذا سمعت المرأة ذلك خرجت إليه ، فأبلغها الرسالة ، فتفقه علامة بينهما ، وأراد بالشيء للنساء .

قوله : « غيبي » ، أى سعابى . مُظيّر : تصغير مطر ، أى لو كان لى قوة ومال لآثرت بذلك نفسى . استأثرت : اختصصت . جناح : إثم .

* * *

قال الراوى : فطفيق القومُ يأمرون فيما يأمرون ، ويتخافتون فيه يأتون ، فتوهم أنهم يتماثلون على صرّفه بحرمان ، أو مطالبته بيزهاف ، ففرط منه أن قال : يا يلامع القامع ، ويرامع البقاع ، ما هذا الازتياء ، الذى ياباه الحياء ، حتى

(١) الاسان - عصا ، ونسبه إلى عبد ربه السلمي

(٢) الاسان - عصا ، من غير نسبة

فَأَنْكُمْ كَلَّفْتُمْ شَقَّةَ لَشَقَّةٍ ، أَوْ اسْتَوْهَيْتُمْ بِلَدَةٍ لَا بُرْدَةَ ،
أَوْ هَزَزْتُمْ لِكُسُوفِ الْبَيْتِ ، لَا لِتَكْفِينِ الْبَيْتِ ، أَفَ لِمَنْ
لَا تَنْدِي صَفَاتُهُ ، وَلَا تَرُشَعُ حَصَاتُهُ ।

فَلَمَّا بَصُرَتِ الْجَمَاعَةُ بِذِلَالَتِهِ ، وَمَرَارَةِ مَذَاقِنِهِ ، رَفَأَ كُلُّ مَنْهُمْ
بَنِيْلَهُ ، وَاحْتَمَلَ طَلَّهُ خَوْفَ سَيْلِهِ .

بَأْتَمُونَ : يَنْشَاوِرُونَ . يَتَخَفَتُونَ : يَتَكَلَّمُونَ سِرًّا . فَيَا بَاتُونَ ، أَيْ فَيَا
يَفْعَلُونَ مَعَهُ . تَوْم : ظَنٌّ . صَرْفَهُ . رَدَّهُ .

حِزْمَان : خِيْبَةٌ . بُرْهَان : حِجَّةٌ . فَرَط : سَبَقٌ : يَلَامَع : جَمْعُ يَلْمَعُ وَهُوَ
السَّرَابُ . الْقَاع : مَنخفضُ الْأَرْضِ . بَرَامَع : جَمْعُ بَرَمَعٍ وَهُوَ الْحَصَى الْبَيْضُ ،
وَقِيلَ الْحَجَارَةُ الرُّخْوَةُ .

الْبَيْقَاع : جَمْعُ بَقْعَةٍ ، وَأَرَادَ أَنْ لَهَا ظَاهِرًا وَلَيْسَ لَهَا خَبْرَةٌ ، كَالسَّرَابِ يَحْتَمِلُ
أَنَّهُ مَاءٌ وَلَا حَقِيقَةٌ لَهُ ، وَالْبَرَمَعُ تَظَنُّهُ فَضَةٌ وَهُوَ حَجَرٌ .

الْإِرْتِيَاءُ : تَدْبِيرُ الرَّأْيِ ، وَأَصْلُهُ الْهَمْزُ لِأَنَّهُ مِنَ الرَّأْيِ . اسْتَوْهَيْتُمْ : طَلَبْتُمْ
مِنْكُمْ هَبَّةً . بَرْدَةٌ : ثَوْبٌ يَلْبَسُ . هَزَزْتُمْ : حَرَّكْتُمْ . الْبَيْتُ : السَّكْنَةُ .

أَفَ : خِيْبَةٌ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الصَّخْرَةَ وَالْحَصَاةَ يَكْنَى بِهِمَا عَنِ يَدِ الْبَهْغِيلِ .
ذِلَالَتُهُ : حِدَّةُ لِسَانِهِ . رَفَأَهُ : وَصَلَهُ . وَالطَّلُّ وَالسَّيْلُ هُنَا : الْفَلِيلُ وَالسَّكْنَةُ .

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَامٍ : وَكَانَ هَذَا السَّائِلُ وَاقِفًا خَلْفِي ،

ومعتجياً بظهرى عن طَرفى . فلما أَرْضَاهُ القومِ بِسَيِّبِهِمْ ، وَحَقَّ
 عَلَى النَّاسِ بِهِمْ ، خَلَجْتَ خَاتِمِي مِنْ خِنْصَرِي ، وَلَقْتُ بَصَرِي ،
 فَإِذَا هُوَ شَيْخُنَا السُّرُوجِيُّ بِلا قَرْيَةٍ وَلَا مَزِيَّةٍ ، فَأَيَقَنْتُ أَنَّهَا
 أَكْذُوبَةٌ تَكْذِبُهَا ، وَأَحْبُولَةٌ نَمَّيْهَا ، إِلَّا أَنِّي طَوَيْتُهُ عَلَى
 غَرَمٍ ، وَصُنْتُ شَفَاهُ عَنْ فَرِّهِ ، فَحَصَبْتُهُ بِالْحَاثِمِ ، وَقُلْتُ :
 أَرْضِيذُهُ لِنَفَقَةِ الْمَآتِمِ ، فَقَالَ : وَاهَاً لَكَ فَمَا أَضْرَمَ شَمْلَكَ ،
 وَأَكْرَمَ فَعْلَمَكَ ، ثُمَّ انْطَلَقَ بِسَمِي قُدَمَا ، وَيَهْرُولُ
 هَزُولَتَهُ قُدَمَا .

سَيِّبِهِمْ : عَطَاؤُهُمْ . وَحَقَّ : وَجَبَ . النَّاسُ : الْاِقْتِدَاءُ . خَلَجْتَ : جَذِبْتَ
 وَأَخْرَجْتَ . الْخِنْصَرُ : الْأَصْفَرُ مِنَ الْأَصَابِعِ ، وَيَلْبِهَا الْبَهْمَرُ ثُمَّ الْوَسْطَى ثُمَّ
 السَّبَابَةُ وَتُسَمَّى الْمَسْبُوعَةُ وَالْمَشْدَرَةُ ، ثُمَّ الْإِبْهَامُ ، وَقَالَ أَبُو الْعَلَاءِ الْمَعْرِيُّ :

شَفَلْتُ مِنَ الْمَرَّةِ مِنْ خَمْسَةِ اثْنَيْتَيْنِ نَغَصَمَا الْمَغْضُ (١)
 يُبْشِرُ إِلَيْكَ بِسَبَابَةٍ وَتُنْفِي عَنِ فَضْلِكَ الْخِنْصَرُ
 فَمَنْ أَجَلُ ذَا رُفْعَةٍ هَذِهِ إِلَى خَالِقِ الْخَلْقِ تَسْتَغْفِرُ
 وَمَنْ أَجَلُ ذَا كَسَيْتٍ خَاثِمَا بَزِينَ وَهُرَيْتِ الْبَهْمَرُ
 وَقَالَ مَرْيَعُ النَّوَائِي يُلْفِزُ بِخَاتِمِ :

وَأَبْيَضَ أَمَّا رَأْسُهُ فَمَدُورٌ قَيْنٌ وَأَمَّا جِسْمُهُ فَمَتَارٌ (٢)

(١) لَمْ أَجْعَلْ فِي دِيْوَانِهِ

(٢) دِيْوَانُهُ ٢٣٨

ولم يُتخذَ إلا لتسكن وسطه^(١) خضيبه رأس ما عليه مُخَارُ
لها أخوات أربع هنّ مثلها ولكنّها الصغرى وهن كبارُ
لفت: ردوت . فرية : كذب . مرية : شكّ ، وتقول : بين القوم أ كذوبة
يتكاذبون بها ، أى أحاديث كذب . تكذّبها : استغفلها . أحبولة : آلة بصاد
بها . وطوبقه على غرّه ، أى سترت عليه طريقته الملتزمة من الحيل ، والقرّ
بالنقط : كسور للثوب ، يقال : اطو الثوب على غرّه ، أى على كسور طيه الأولى .
جابر : قال للنبي صلى الله عليه وسلم : « طىّ الثوب راحته » .
صنت : حفظت وكتمت . شفاه : عيّبه . قرّه : كشفه . والشفا : بروز سنّ
على أخواتها ، وخروج الحنك الأعلى على الأسفل .
وحصبته : رميته ، والحصباء : الحصى الصغار ، وحصبته : رميته بالحصباء ،
فاستعاره للخاتم .

أرصده : أعدّه . واهّا : عجباً . ما أضرم شعلتك ، أى ما أ كبر توقّد
ذهنك ، وللشعلة لسان للنار ، وإنما تعجّب منه لأنه قد عرفه وأعلمه أنه قد
عرف مكره حين قال له : أرصده ، ثم ستر عليه ، وأهل الشرق يتخفّمون
ويتصدقون بخواتمهم . وفى البديمية^(٢) بعد تشكّ تقدم من أبى الفتح : قال
ابن هشام : فوالله ما آنسى عن وحدتى إلا خاتم خفمت به خنصره ،
فلما تناوله أنشأ يقول :

وممنطق من فحبه بقلادة الجوزاء حسناً
متألف من غير أسـرته على الأيام خذناً
كمتيم ألقى الحبيب فضمه شغفاً وحرناً

(١) الديوان : « وما يشتري إلا لتسكن وسطه » .

(٢) اللقمة البغارية من مقامات البديع ٩٧ ، ٩٨ .

عَلَيْكَ سَيِّئِي قَدْرَهُ لَكِنْ مَنْ أَهْدَاهُ أَسْنَى
أَقْسَمْتُ لَوْ كَانَ الْوَرَى فِي الْمَجْدِ لَفْظًا كُنْتَ مَعْنَى

قال: ففهمته حتى سمرت الخلوة وجهها، فإذا والله أبو الفتح، والطلا زغلوه^(١)،
فقلت أبا الفتح، شبت وشب الغلام، فأين الكلام، وأين السلام؟ فقال:
غريباً إذا جمعنا الطريق ألوفاً إذا نظامنا الخيام
قوله، بسمي، أي بسرع المشي. قَدْماً: أي قدامه وقبالة. يهرول:
يسرع، والهرولة جرى بين المشي والعدو. قَدْماً، أي قديماً وأولاً، ومعناها
كما فعل في أول مرة حين سعى قدماً.

فَنَزَعْتُ إِلَى عِرْفَانِ مَيَّتِهِ، وَأَمْتَحَانِ دَعْوَى حِمَّتِهِ، فَفَرَعْتُ
خُتُبُوبِي، وَالْهَيْبَتُ الْهُوبِي، حَتَّى أَدْرَكْتُهُ عَلَى غَلْوَةٍ، وَاجْتَلَيْتُهُ
فِي خَلْوَةٍ، فَأَخَذْتُ بِجُمُعِ أَرْدَانِهِ، وَعَقَقْتُهُ عَنْ سَنَنِ مَيْدَانِهِ،
وَقُلْتُ لَهُ: وَاللَّهِ مَالِكٌ مِنِّي مُلْجَأٌ وَلَا مَنَاجَى، أَوْ تُرِيْنِي مَيَّتَكَ
الْمُسْجَى، فَكَشَفَ عَنْ سَرَائِيلِهِ، وَأَشَارَ إِلَى غُرْمُولِهِ. فَقُلْتُ
لَهُ: قَاتَلَكَ اللَّهُ! فَمَا أَلْعَبُكَ بِالنَّهْيِ، وَأُخِيلَكَ عَلَى اللَّهِ هِيَ! ثُمَّ
عُدْتُ إِلَى أَصْحَابِي عَوْدَ الرَّائِدِ الَّذِي لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ، وَلَا يَبْرِشُ
قَوْلَهُ، فَأَخْبَرْتَهُمْ بِالَّذِي رَأَيْتُ وَمَا وَرَيْتُ وَلَا رَأَيْتُ، فَفَقَهُوْهُ
مِنْ كَيْتٍ وَكَيْتٍ، وَلَعَنُوا ذَلِكَ الْمَيِّتَ!

(١) الطلا: وله الظلية

نزعت : اشتقت . امتحان : تجربة . قرعت : ضربت . ظنبوب : مقدم
عظم اللسان ، ويقال : قرع لهذا الأمر ظنبوبه ، إذا أسرع وجد فيه ، ويبيته قول
سلامة بن جندل :

كنا إذا ما أتاناً صارخ فزِعْ كان للصارخ له قرع الظنايب^(١)
أى كانت إغائتنا له إسرائفاً في نصرته . ألهمت : أشعلت . الهوى : شدة
جري . والفلوة : مقدار رمية للسهم . اجتليته : نظرت . بجمع أردانيد ، أى
بجميع أطراف ثوبه . عفته : صرفته عن وجهه . سنن : طريق . مئيدانه : موضع
جريه وطلقه . ملجأ : موضع يُلجأ إليه . منجى : موضع تنجو فيه . غر موله :
ذكره . قاتلك الله ، أى قتلك الله ؛ وأكثر ما يقع فاعلت على الاثنين ،
وقد يكون عن الواحد ، نحو ناولت وسافرت ؛ وقيل : معنى قاتله ، لعه ، وقيل
عاداه . لنتمى : للعقول ، واحداً شهية ، ومنه نهيقه عن كذا فانتهى . واللهما :
للعطايا ، واحداً كهوة ، وأصله القبضة من الطعام ، تجعل فى فم الرخا . يكذب :
يحدث بالكذب : يُبْرِقش : يُزِن ، والبرقشة للترزين بألوان شتى . وريت ،
يقال : رويت الخبر أوربه توربة : سترته وأظهرت غيره ، وفى الحديث الشريف ،
أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد سفراً ، ورى بغيره ، وهو مأخوذ من الورا ،
كانه جعل الخبر وراة ولم يُظهره . راءيت : استعملت الرياء ، يريد أنه صرح
لهم بذكر العمرة ، ولم يُكن عنها . فقمتموا : أكثروا الضحك .

أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إياك
وكثرة الضحك فإنه يميت القلب » . والقمة من الشيطان والتبسم من الله .
من كيت وكيت ، أى من هذه القصة التى أسمهم ؛ وكيت وكيت ، كناية
عن الحديث المدمج القداخل . والله أعلم .

ثم الجزء الثانى بحمد الله وبلية الجزء الثالث

وأوله المقامة الحادية والعشرون

فهرست المقامات

صفحة

٣ - ٣٠	المقامة الحادية عشرة وتعرف بالساوية، تتضمن وقوف أبي زيد بالمقابر واعظا
٣٤ - ١٠٥	المقامة الثانية عشرة وتعرف بالدمشقية، تتضمن كون أبي زيد خفيرا، وأنه خفر للقافلة بدعوات لقنها في المنام
١٠٦ - ١٣٠	المقامة الثالثة عشرة وتعرف بالبغدادية تتضمن كون أبي زيد مكديا ومعه صبيان، وهو في صفة عبوز
١٣١ - ١٤٩	المقامة الرابعة عشرة وتعرف بالحجازية والمكية تتضمن كون أبي زيد وابنه معدمين، يطلب هذا راحلة وهذا زادا
١٥٠ - ١٦٢	المقامة الخامسة عشرة وتعرف بالفرضية، تتضمن أن أبا زيد أنزله عليه في مسألة فرضية فأخرج سيرها
١٦٣ - ٢٣٢	المقامة السادسة عشرة وتعرف بالفريقية، تتضمن إلقاء أبي زيد على أهل المسجد بعض المسائل
٢٣٣ - ٢٦٣	المقامة السابعة عشرة وتعرف بالقهقرية، تتضمن الرسالة التي تقرأ من أولها بوجه ومن آخرها بوجه
٢٦٤ - ٣٥٢	المقامة الثامنة عشرة وتعرف بالسنجارية تتضمن قصة أبي زيد مع جاره النمام
٣٥٤ - ٣٩١	المقامة التاسعة عشرة وتعرف بالنصيبية تتضمن كون أبي زيد مريضا وزيارة أصحابه له وكيف كنى لابنه الكنايات الطفيلية
٣٩٢ - ٤١٣	المقامة العشرية وتعرف بالفارسية، تتضمن طلب أبي زيد تسكن ميت، وكنى بكلامه من ذكره

فهرس الموضوعات

صفحة	
١٠ — ٤	نبذ من الأقوال الحكيمة في المواظ
٣٥ — ٣٤	غولة دمشق
٤٠ — ٣٨	باب جيرون
٥٥ — ٥٣	ضروب من الأدعية المأثورة
٦٢ — ٥٩	وصف بعض مجالس للشراب
٦٤ — ٦٢	مما قيل من الشعر في وصف الأزهار
٨٣ — ٦٧	مما ورد في النحر والشراب من الشعر والحكايات
٩٢ — ٩١	ذكر للسقات
١٠٣ — ١٠٠	مما قيل في الخضاب
١١٠ — ١٠٦	الزوراء
١١١ ، ١١٠	وصف للشعراء
١١٤ — ١١١	مجلس للشعراء
١٢٢ ، ١٢١	أصل المثل : حال الجريس دون القريض
١٤٠ — ١٣٨	حرفة الأدب
١٤٥ ، ١٤٤	من الأقوال الحكيمة في الشكر
١٤٦ ، ١٤٥	عرقوب المضروب به المثل
١٤٩ — ١٤٨	من أقوالهم في الحنين إلى الأوطان
١٥٩ — ١٥٨	الغضب وبعض طباعه
١٦١ — ١٦٠	مقامة البديع الجماعية
١٦٤ — ١٦٣	أصل المثل : رب رمية من غير رام
١٧٠ — ١٦٩	أصل المثل : نجوع الحرة ولا تأكله بتديها
١٧٧ — ١٧٣	مشاهير أهل الزرد

(*) وهي الموضوعات التي وردت في أثناء الفرح .

١٨٥ — ١٨٤	مما قيل في شكر النعمة
١٨٨ — ١٨٦	البطنه وأقوالهم فيها
١٩٤ — ١٩٣	للتطفل وأصل اشتقاقه
٢٠٢ — ١٩٤	من أخبار الطفيليين
٢٠٨ — ٢٠٦	قصة أصحاب الكهف
٢١٤ — ٢١٢	مثل للتصديق وقلب للكلام
٢١٦ — ٢١٥	من أقوالهم في اختيار الصديق
٢١٨ — ٢١٧	ذكر المراء والجدال وما يتولد منهما
٢٢١ ، ٢٢٠	ذكر سبحان وائل
٢٢٢	ذكر باقل
٢٢٤ — ٢٢٣	وصف الشمع
٢٣١ — ٢٢٩	نهد عما قيل في الزائر
٢٤٢ ، ٢٤١	عروة بن أذينة وهشام بن هبذ الملك
٢٥٨ ، ٢٥٧	مما قيل في السفر والاعتراب
٢٦٢ — ٢٥٩	ذكر سبأ وسد مأرب
٢٦٦ — ٢٦٤	ذكر الشام
٢٦٨ — ٢٦٧	بنو نمير
٢٦٩	سجبار
٢٧٢ — ٢٧٠	ذكر الحاضرة والبادية
٢٧٧ ، ٢٧٦	قصة نمود
٢٧٩	المقامة المضربة للبديع
٢٨١ ، ٢٨٠	نهد من الأقوال الحكيمة في الجار
٢٨٢	مما قيل في المودة والإخاء
٢٨٨ — ٢٨٤	مما قيل في جمال المرأة
٢٩١ — ٢٨٩	ذكر بابل
٢٩٧ — ٢٩٣	أخبار معبد

٢٩٢ — ٣٠٧	ذكر إسحاق الموصلي
٣٠٨ — ٣١١	ذكر زناهم الزامر
٣١١ — ٣١٣	ذكر سطوح
٣١٧ — ٣٢٢	تكملة قصة موسى
٣٢٣ — ٣٢٨	ذكر بعض حكايات الجاريات المعاديات
٣٢٨ — ٣٣٠	نبد من الأقوال الحكيمة في الوشاة وبعض حكاياتهم
٣٣١ ، ٣٣٢	من أقوال في التهمة
٣٣٢ — ٣٣٤	نبد من أقوال العلماء في وصف الذهب والزجاج
٣٤٣ — ٣٤٥	من أقوالهم في الليل
٣٤٦ — ٣٤٩	ذكر هود عليه السلام وقومه
٣٥٣ ، ٣٥٤	ذكر مدينة نصيبين
٣٥٤ — ٣٥٧	ذكر أضرار مستعثة في أوصاف الرياض
٣٥٧ — ٣٦٠	فصل في ذكر ما يستحسن من أشعار الجاهلين
٣٦٤ — ٣٦٥	ذكر ثواب المرضى
٣٦٦ — ٣٦٧	من أقوالهم في عيادة المريض
٣٦٩ — ٣٧١	نبد من الأقوال المأثورة في عيادة المريض
٣٧١ — ٣٧٥	ذكر حمى كليب
٣٧٦ ، ٣٧٩	ذكر تخفيف العيادة
٣٧٩ ، ٣٨٠	نبد مما قيل في القيولة
٣٨٧ — ٣٨٩	نبد من الأقوال الحكيمة في الفرج بعد الشدة
٣٩٢ — ٣٩٣	ذكر مياقارقين
٣٩٥ — ٣٩٦	شكوى الضعف والكبر
٣٩٦ — ٤٠٣	استطراد بذكر بعض الأفاكية
٤٠٣ — ٤٠٧	المصا وما قيل فيها شعرا ونثر